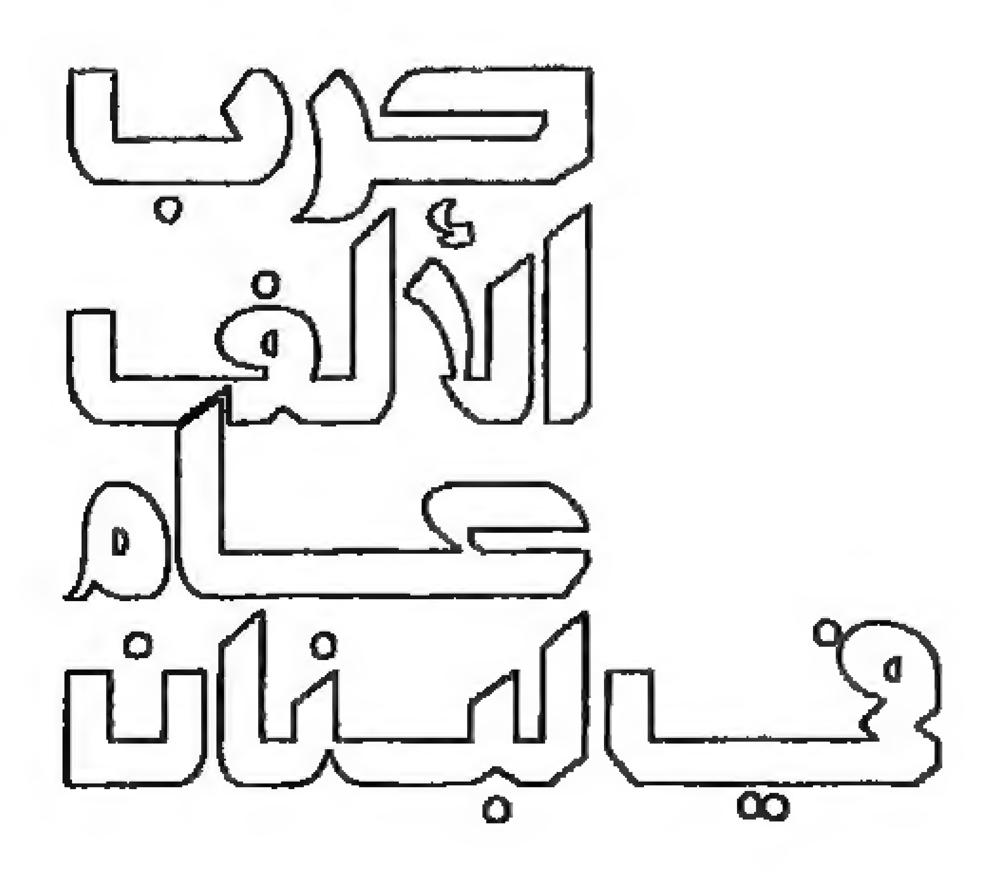

جوناثان راندال
حرب الألف عام في لبنان
ترجمة
فندي الشعار
امراء الحرب المسيحيون
المغامرون الاسرائيليون
النص الكامل
دار المروج
Bibliotheca Alexandrina
0185298


حرب
الألف
عام
في لبنان

جوناثان رانـــدال



ترجمة
فنـدي الشعــار

دار المروج

١٩٨٤

ترجم هذا الكتاب عن النسخة الأصلية الانكليزية بعنوان:
Going all the way: Christian Warlords, Israeli Adventurers and the War in Lebanon. Viking Press - 1983 - May.
وقد صدرت ترجمة بالفرنسية للكتاب بعنوان
La Guerre de Mille ans Jusqu'au dernier chrétien jusquáu dernier marchand la tragédie du Liban.
Editions Grasset et Fasquelle 1984 Fevrier. 320 Pages
وتعتبر هذه الطبعة العربية اكملها.

الكلام هنا للناشر الاميركي

منذ لا تدري متى. كان لبنان بعاصمته بيروت، درّة الشرق، ومركزه المالي والتجاري وجنّته الغنّاء. على مفترق طرق في الشرق الأوسط، وكان ولا يزال حتى يومنا هذا في مهب العاصفة.

إن أحداث صيف ١٩٨٢ لم تزعزع فقط أوضاع الفلسطينيين الذين اتخذوا منه ملجأ لهم. بل شملت أيضاً اسرائيل كنتيجة لغزوها المستنكَر، واحتلالها أرض جارة لها، غنية، كثيفة السكان. مخلّة بالتوازن الهش الذي كان سائداً فيها، ومعرّضة للخطر حياة كل درزي. وعربي مسلم، ومسيحي، يعتبر لبنان موطناً له. إن عام ١٩٨٢، هو على ما يبدو. الفصل الأخير من المرحلة الدموية التي بدأت منذ حوالي عشر سنوات، هُدّمت فيها بيروت وانحطّت السيادة اللبنانية إلى خانة التساؤل.

إن كتاب «يوناثان راندال» الجديد، يكشف لنا ما يُفيد أن هذه الأخطار التي تعود إلى عوامل عديدة. كان المهم فيها العنصر الماروني المشاغب، الذي مضى على وجوده في لبنان أكثر من ألف سنة. وكون هؤلاء الذين نسميهم لوردات الحرب من المسيحيين، وهم الشمعونيون. وآل فرنجية. وآل الجميّل، مع أصدقائهم وحلفائهم، أظهروا العنف في معاركهم. كما في دبلوماسيتهم، وبمثل ذلك واجههم أعداؤهم.

ويرينا السيد «راندال» أن الموارنة بكونهم مركز الثقل السياسي، والعسكري، والتجاري. تمكنوا من إبقاء الشرق الأوسط في تحرّك مستمر، إذ أنهم يديرون الحكومة اللبنانية. ويحتفظون بميليشيات تفوق الجيش اللبناني عدّة وعدداً، ويسيطرون على العلاقات الخارجية.

ربطوا أنفسهم تكراراً بالسوريين، والاسرائيليين، كما بالأميركيين، وكانوا في وقت واحد يتّجرون مع العرب. بينما يشترون السلاح من اسرائيل، ويتدربون على استعماله

فيها. وقد أظهروا في حربهم الداخلية، التي آلت إلى خراب عاصمتهم، إنهم لن يتوقفوا عن هذه الحرب. قبل أن يتمكنوا من السيطرة على كامل منطقتهم. إنهم يفعلون ذلك بشراسة أقلية مخاطة بفئات ذات ثقافة مغايرة، ويشتركون بصورة عرضية مع الفلسطينيين واليهود بتلك النفسية الحاقدة.

إن الموارنة. لما واجههم من مخاطر في المدة الأخيرة، ارتبطوا مع جارتهم القوية العنيدة. اسرائيل. التي أظهرت أنها لن تتوقف عن الحرب قبل تأمين سلامة وأمن مواطنيها. فكانت النتيجة حرباً مع عدو مخيف لكليهما، هو منظمة التحرير الفلسطينية، التي هي عبارة عن مجموعة قوى متساندة في صراع عنيف، أوقع الضرر بكل من تعرض لها.

إن كتاب «على الطريق حتى النهاية» يبدأ وينتهي بعرض ما شاهده السيد «راندال» بأم العين في ما يتعلق بما دار من تمويه وهستيريا، حول مصرع بشير الجميّل، وما كان من مذابح في صبرا وشاتيلا ـ وهما حادثان متزامنان متشابكان.

إن السيد «راندال» يفنّد التعقيدات التي أدّت إلى هاتين المأساتين، وهذا ما سيبقي لبنان على صفحات الأحداث في الصحافة العالمية. وهو يقدم حقائق هامة عن مدى الارتباك المسيحي. والجهالة، في مواجهة السياسة والحرب مع بيان واضح لكيفية حصول توافق مع اسرائيل. هذا الحليف غير المرغوب فيه، والذي كان قد زجّ نفسه، بما جرى منذ البداية. يرقب بعناية ماذا ستفعل أميركا، ويدرس الأسباب التي أوصلت الأمور إلى ما وصلت إليه في الأحوال الراهنة.

إن كتاب «على الطريق حتى النهاية» هو تاريخ لحرب تختلف عن غيرها، من الحروب. ليست حرباً شريفة، بل ربما كانت حرباً مجنونة، أربكت اللبنانيين إذ أنها على أرضهم وقعت. وفيها اقترفت ميليشياتهم أبشع الجرائم. حرب أربكت الاسرائيليين الذين بدأوها. والفلسطينيين الذين حقّقوها بمجرد وجودهم فيها، والدبلوماسيين الأميركان، الذين كان من أخطائهم ما ضاعف من حدّتها. إنه تقرير حربي، من الطراز الأول، لمراسل عارف خبير، بل انه أكثر من ذلك، صورة لبلد صعب المراس مولع بالعنف.

بمجرد قراءتك «على الطريق حتى النهاية» ستجد كم هو من المستحيل فهم الشرق الأوسط قبل فهم لبنان.

وأخيراً هذا الكتاب هو شهادة واضحة لأسوأ ما تميزت به هذه المنطقة.

من المؤلف..... إلى القارىء

إن محاولتي توضيح الحقائق في هذه الفترة، قد لا يُرضي القرّاء، أو الأميركان أو الغربيين، لكوني لم أذكر مع ذكري للحوادث، أسماء أشخاص، أو مصادر وثائقية، لما ورد في هذا الكتاب، وأرجو أن يقبلوا عذري عندما يعرفون أن الذين زودوني بالمعلومات، التي ذكرت، كانوا يحرصون على ألاّ تُكشف أسماؤهم، لأسباب أمنية، في غياب الأمن والقانون في لبنان، كانوا بذلك يأملون ألاّ يتعرضوا للانتقام والتنكيل بهم، وهكذا يضمنون بقاءهم مع عائلاتهم على قيد الحياة، كل ما أستطيع أن أقوله للقارىء هو أني بذلت جهدي للحصول والوصول إلى الحقائق ما أمكن، مع العلم أن الأشياء في هذا القسم من العالم تبدو غبراء لا بيضاء ولا سوداء، وما أؤكده أني حرصت على أن لا أكون متطفلاً في الحصول على المعلومات، واستقصاء الأخبار، وإلا لكنت أغضبت أولئك الأصدقاء الذين أعطوني الكثير من وقتهم الثمين. وكذلك كنت أصارح، بأني أكتب غير متأثر بمشاعر عاطفية، أو مناخ سياسية معينة، فأرجو من الجميع أن يقدّروا لي ذلك. ثم عليّ أن أعرض، أن هذا الكتاب ليس تاريخاً، وكذلك ليس شاملاً لكل ما حصل، إذ لم يكن هذا منتظراً مني، فسيأتي من يظهر ذلك من الكتاب، الغربيين أو الفلسطينيين أو لسوريين أو اللبنانيين، بل أن ما عرضته هو إظهار العوامل التي حرّكت الحرب.

مقدمة المؤلف

إن المراسل الأجنبي، ومثله كل سائح، يتعرف على المدن التي يزورها بطريقة خاطئة. لنأخذ بيروت كمثال. انها تبدو لنا في صورة البار الكائن في فندق السان جورج، أو في المقاهي الليلية المنتشرة في الشوارع. أو المطاعم، بما تزدان به من مناظر خلاّبة، وبما يقدم فيها من أطباق المقبلات الشهية، التي يصل عددها أحياناً إلى ثلاثين طبقاً أو تزيد، بينها الفروج المشوي في صحن الفخار الملوّن، والحمّص بطحينة، والتبّولة بالبقدونس المفروم ناعماً. والبندورة الحمراء. وأوراق النعناع الخضراء وما شابه. أو مخازن شارع الحمراء المثيرة. الواقعة في الوسط التجاري المزدحم، أو في صورة الأمسيات البهيجة على الشاطىء حيث يقع كازينو لبنان. هناك حيث السعوديون، وعرب الخليج، قدموا لينعموا برؤية البنات الأوروبيّات. وقد برزن على المسرح في منظر استعراضي، خاصة الشقراوات منهن. فعرب الخليج مولعون بالشقراوات.

أما للصحفيين. فأن المعلومات المتوفرة، هي أن الصحفي، القادم إليها من بلدان تبعد عنها مئات بل آلاف الأميال. ليجعلها قاعدة له، يصبح أكثر اطلاعاً من الدبلوماسيين المقيمين. وبالرغم من عدم انتظام الخدمات البريدية، واعطال الهاتف المتكررة، وازدحام السير. فان الحاجيات تقضى، ولكن بثمن، إن كل شيء يريده الواحد منا، يمكن الوصول إليه بلا مشاحنات. كما يحصل في أماكن أخرى من العالم العربي. هنا تجد أساتذة من الجامعة الأميركية على جانب من المعرفة، يعملون كزملاء في أكثر صحافة العالم العربي حرية واطلاعاً، كما أنك تجد المنفيين لأسباب سياسية من أبناء بلد ما في الشرق الأوسط، والثوار، وأصحاب الايديولوجيات المختلفة، تجدهم في مقاهي الحمراء، بينهم من يحمل إقامة مؤقتة ونقوداً لكل مكان. انهم هناك دون مراقبة، ولا خطوط حمراء. فان الوجود الحكومي في بيروت غير محرج، والصحافيون يتمتعون بحرية تامة إلا في النادر.

وبالاختصار . فان بيروت كانت القاعدة المثالية ، التي تتحقق فيها كل الرغبات . فإذا كان مراسلو الصحف لم يكتبوا ذلك عنها ، فذلك لانشغالهم بما كان يجري في الشرق الأوسط من أحداث هي أكثر أهمية . ومع هذا فطالما ضحكنا من غرور اللبنانيين ، ومبالغاتهم . وشدة مباهاتهم بمدينتهم ، لأن بيروت ، برغم هذا الحشد الكبير من الزوّار الأجانب ، مدينة اقليمية . . بدا فيها أن طابع الخلاعة ، هو الطابع المميز تماماً كما كانت الجزائر في زمن الفرنسيين ، وربما كانت الشمس المشرقة ، والرطوبة ، وسطوح القرميد الحمراء الموزعة بين الأبنية المشادة من الاسمنت في تصميمها المألوف ، وما كان يقدم من المشروبات الروحية المعروفة فيها « بالعرق » أو من « الباستا » التي يتميز بها شاطىء المتوسط ، والتلال ذات السفوح الخضراء ، والنطق بالفرنسية بل والتفرنس ، هو ما يوحي بذلك .

ثم وقد بدأت الحرب سنة ١٩٧٥ ، فقد كان شيء آخر يذكرني بالجزائر ، وهو قابلية أبناء حوض البحر الأبيض المتوسط للعنف ، فهذا أيضاً كان طابعاً جزائرياً ، خبرته قبل عشر سنوات ، أثناء وجودي في الجزائر . أجل في هذا الوقت سنة ١٩٧٥ ظهرت التناقضات ، والتعقيدات ، وهشاشة الأوضاع ، ظهرت واستقرت . وبدا منذ البداية أنه لم يكن هناك أمل بالتوقف عما كان يجري ، مما يشير إلى أنه سيؤدي إلى مخاطر دموية محزنة .

كان أبرز ما أوصل الحالة إلى ما بلغته من اضطراب وتدمير ، هو ، الفصل جغرافياً بين المنطقتين ، فصلاً جعل الانتقال من منطقة إلى أخرى ، محفوفاً بالمخاطر ، لما يعترض المارة من اتصالات ، ومفاوضات كانت تجري قبل كل عبرة ، للسماح ببضعة دقائق تجتاز فيها سيارة التاكسي ، المعبر المحروس المراقب . كان ما يفصل المناطق (رمية حجر) فهي متجاورة ، وقد كانت في الأمس مدار اعتزاز وفخر بتعايشها بعضها مع البعض الآخر ، وقد استمر هذا طيلة أيام الحرب ، فكان المراسل في كل مرة عرضة للخطر وللمعاملة الخشنة . والحرب التي كانت بين متجاورين على بعد أمتار كانت عندما تخف ، تزداد حركة السير ، وعندما تقوى ، تخف هذه الحركة . حرب لم ينجُ منها إلا أولئك الأذكياء من اللبنانيين الأغنياء ، الذين لهم علاقات تجارية مع الخارج ، وأولئك الأغراب الذين كانوا قد أخذوا من بيروت مركزاً وقاعدة لأعمالهم ، وأولئك من أبناء البلدان العربية الذين لجأوا إليها هرباً من حكوماتهم ، وكانوا أصحاب رؤوس أموال ، يعرفون كيف يستخدمونها في أية بلاد ينتقلون إليها ، هؤلاء كلهم تركوا بيروت ، بعد أن أصبحت

ميداناً لسادة الحرب فيها . وللنهّابين الذين انتزعوا سمات الحضارة الغربية عنها ، كما ينتزع رباط البلاستر أو ورق الجدران. هكذا أصبحت بيروت التي عرفناها عروسة الشرق المتوجة ، أصبحت اسماً مترادفاً للبربرية ، واشارة اختزال أو تعبير ، لمدينة أشباح ، تماماً كما كان الكونغو لعشرين سنة خلت. حتى المسدسات المطلية بالكروم الأبيض، والسلاح الروسي ماركة أك ١٧ ، أفسحت بالمجال لسلاح أقوى ، اعتاد البيروتي سماعه ، حتى أصبح بإمكان أي من البيروتيين ، تمييز أنواع القنابل لمجرد سماعه أصواتها ، هذا مدفع ١٣٠ ، وهذا صاروخ غراد . وهذه قذيفة مورتر .

وهكذا ، فما كان في بدايته اضطرابات محدودة ، تطور حتى أصبح في سنة ١٩٨٢ ، عندما اجتاحت اسرائيل لبنان. حرباً بما في الكلمة من معنى ، فانها اجتاحت لبنان بطائراتها ، وأساطيلها . ومدمراتها وجيوشها ـ وهاجمت العاصمة بمختلف القنابل ، الانشطارية والفوسفورية ، والعنقودية ، ومعطلة الأعصاب ، وغيرها . كلها استعملت من قبل الجيش الاسرائيلي . إن معظم هذا السلاح كان أميركياً ، وكذلك كانت مسؤولية هذه الحرب . وكل ما جرى وكان في لبنان ، ولكن الذي ظهر هو أن أميركا لم تُعر اهتمامها إلا لمعرفة مدى قوة سلاحها الذي استخدمته اسرائيل. ظهر هذا جلياً بعد أن أعلنت توقفها عن شحن السلاح لاسرائيل ، توقفاً لم تلتزم به ، فاستمر الشحن ، وما كان يوصف أنه خطأ من الإدارة في واشنطن لم يكن إلا ، تملصاً من الخطأ ، لا شعوراً به . وكان من التمويه أن تعلن أميركا اجراء تحقيق فيما إذا كانت اسرائيل تستعمل السلاح الاميركي خلافاً لما تسمح به الادارة في واشنطن ، بينما دلّتنا الوقائع السابقة أن مثل هذه التحقيقات لم تحصل .

هكذا بدا لبنان. وكأنه أرض سائبة يتقاتل عليها وفيها الآخرون. انه بلد موبوء بمختلف الفيروسات الاجتماعية ، التي لا يرجى منها شفاء ، وكأنه لم يكتب له البقاء فكلما مرّ شهر بدا التفاؤل في إنقاذه أوهى من شعرة ، بل أنه لمن المؤسف ، ان اللبنانيين قد تأخروا كثيراً في إدراك هذه الحقيقة .

عندما زار الجنرال ديغول لبنان ، بعد الحرب العالمية الثانية قال عبارته المشهورة « إني جئت إلى المشرق المعقّد . بأفكار ساذجة » . وهكذا أنا ، مع العلم ، ان لبنان كان قد أصبح في سنة ١٩٧٥ . وكأنه . مع ما هو ظاهر فيه من تعقيدات ، غير قابل للشفاء أو للعلاج . .

وهذا ما حدا بي في سنة ١٩٧٤، للتنبؤ بحصول ما هو حاصل اليوم من حرب أهلية، اني كتبت نبوأتي هذه ونُشرت، ومن أجل ذلك وجّه إليّ اللبنانيون اللعنة، إلى أن ظهر صدق نبوءتي بعد ستة أشهر. ومع اني لم أتوقع أن يصل إلى ما وصل إليه من نزاع، يبدو وكأن لا آخر له، شابكاً في خضمّه الفئات اللبنانية المتنازعة، مستدرجاً إليها، ما في الشرق الأوسط من تحالفات فئوية.

كم هو من الطبيعي أن لا يكون لي، كصحفي ومراسل، خيال وأسلوب الروائي، أو مقدرة الرياضي في التنسيق، والتبويب، فضلاً عن عدم تفهمي الكامل لشؤون هذه المنطقة، فأبدو في عين نفسي محدود البراعة كمحترف ـ واني أرى أن اللبنانيين عجزوا كذلك، عن إدراك ما لم أدركه أنا، وأنهم يعانون من هذا، لا عن ضعف إدراكهم، ولا عن ضعف ذكائهم، ولذا فهم يعملون على تفجير بلدهم ونسفه، رغم مساعدة أصدقائهم وجيرانهم لهم، فها أنه بعد مرور سنة على التقاتل لم يظهر أنهم يرغبون في التوقف، ومثلهم في ذلك مثل الغرباء، لولا أنهم هم الذين مهّدوا وسهّلوا لذلك، لقد كانوا منجرفين بقوة إلى ركوب الطريق حتى النهاية. انهم لا يزالون على ما هم فيه بل يبدو لي أنهم لما يستنفدوا بعد كل وسائلهم.

الفصل الأول

معجزات وهذيان

عند انتشال جثّة بشير الجميّل، رئيس جمهورية لبنان المنتخب بعد ساعات من حصول الانفجار، بدت بقايا الجثّة زرقاء اللون، وكان مؤخر الجمجمة مفقوداً، كما كان لحم الكفلين. صاح بقردوني، عند رؤيتها على الفور «انها بشير» ولدى مشاهدته الأنف البارز - والنتوء الظاهر في الذقن، والخاتم المسدس، ازداد تأكداً، ولم يكن بحاجة إلى قراءة ورقة كانت في جيب الجاكيت السبور الملطّخة بالدماء، وهي عبارة عن تعويذة مُهداة له من راهبات الصليب، تتضمن دعاء موجهاً إلى السيدة العذراء لتحفظه من كل شر، وهي واحدة من مائة دعاء مماثل. كل هذا أكد لبقردوني تعرفه على الجثّة. جرى هذا، بينما كان أحد الأطباء الستة، في غرفة الطوارىء في جدال مع المستشار السياسي لبشير. ومع أن الطبيب كان يعرف أن بشيراً يعتبر طبياً ميتاً، فانه كان لا يجسر على إعلان الحقيقة، وكان يودّ لو أن بقردوني لم يعلن ذلك. أما بقردوني فقد رأى أنه كان عليه أن يعلن الحقيقة لكل العالم، حتى ولو أن الطبيب كان يفضل التزام الصمت والكتمان مؤقتاً، ولهذا السبب وجه كلامه إلى بقردوني معترضاً «لا يا كريم انك تتحمل مسؤولية خطيرة». أما بقردوني فلم يعر الطبيب أذناً صاغية وتحمل مسؤوليته كما كان يرى مناسباً، ثم انطلق بسيارة «الراينج روفر» وتلك علامة مميزة لسيارات الدولة، إلى الثكنة المنزوعة الشبابيك، المبنية والمحصنة بالاسمنت بالقرب من المرفأ، وهي مقر القيادة العسكرية للقوات اللبنانية، ومع فادي فرام، الذي كان قد أسندت إليه مؤخراً قيادة القوات المسيحية الخاصة ببشير، أصدر الأوامر لمنع الظهور المسلح في الشوارع، وإبقاء الميليشيات في ثكناتها. كان مثل هذا التدبير بعد سبع سنوات ونصف من العنف، معقولاً وضرورياً.

كان قاتل بشير الجميل يأمل بعمله هذا، أن يفجّر روح الانتقام الجماعي، فبشير وصل إلى كرسي الرئاسة دون منافس، ومثل هذا التفجير الانتقامي كان يحصل في لبنان، بعد

أي اغتيال سياسي لزعماء سياسيين، ألم يبلغ عدد القتلى بعد اغتيال طوني فرنجية، الابن الأكبر لرئيس الجمهورية اللبنانية الأسبق، ثلاثماية من أتباع الجميل من المسيحيين، آخذاً بثأره، وثأر زوجته، وابنته، وواحد وثلاثين من أتباعه، أو لم يذبح الدروز المسلمون، أكثر من مائة وسبعين مسيحياً في جبال الشوف، جنوبي بيروت، بعد اغتيال قائدهم كمال جنبلاط . ... فالقوات اللبنانية كانوا اسمياً حلفاء للسوريين. بيد أنه كان للسوريين في لبنان ثلاثون ألف جندي، يتظاهرون بحفظ الأمن فيه، وهؤلاء كانوا بالنسبة للدروز خصماً أكثر قوة. انك في لبنان تقتل من تستطيع قتله، وليس بالضرورة من تريد قتله، ولبنان ليس بالبلد الذي تُعفى فيه الأخطاء، مهما كانت عفوية وصغيرة.

إن آخر شيء كان يمكن أن يقبل بقردوني بحصوله، في الغيتو المسيحي، هو أن ينتشر المسلحون في الشوارع طلباً للأخذ بالثأر والانتقام، لقد كان عدد المسلمين الهاربين من بيروت الغربية إلى الشرقية، أثناء الحصار الاسرائيلي، أكثر من مائة ألف مسلم، وكانوا يعيشون آمنين في المنطقة التي اعتادت القوات اللبنانية أن تسميها المنطقة المحرّرة، وهي ١٥٪ من لبنان مقابل ٨٥٪ مما لا نفوذ لهم فيه.

كان فرام وبقردوني، مقتنعين أن تدابير الحذر الأولية متوجبة، لأن الهستيريا الجماعية يحتمل أن تعصف بالمسيحيين، كتلك التي ظهرت يوم ذلك الخميس الواقع فيه الرابع عشر من شهر أيلول سنة ١٩٨٢ . إن الطبيب الذي كان قد استولى عليه الحذر في أوتيل ديو، لم يكن الوحيد بين الأطباء الذين اختاروا إخفاء موت بشير الجميّل مؤقتاً. لقد تمكن بشير الجميّل أثناء ست سنوات من حمل المسؤولية، من حل عدد من المشاكل لفرقاء وآخرين يحفظون له الجميل.

كانت اسرائيل، طوال سنة قد اهتمت بتقوية بشير الجميّل، فزوّدته بالسلاح ودرّبت رجاله وأمّنت له من المساعدات الخارجية ما يضمن له في مقره الجبلي مكانة عالمية، وما قامت بغزو لبنان في السادس من حزيران سنة ١٩٨٢ ، إلا بناء لرأيه الخاص. ولولا أملها بمساندة القوات اللبنانية السياسية، وتأمين خلفية جيشها، لكان من المشكوك فيه أن يقوم رئيس وزرائها، مناحيم بيغن، ووزير دفاعه، بزجّ قواتها في هذه العملية، ولو أنه في الواقع كان هنالك دافع آخر هو دفع بشير الجميّل، ربيبهم. إلى سدّة الرئاسة، وبذلك يضمنون صداقة وولاء المسيحيين.

كانت الولايات المتحدة آخر من استجاب لقضية بشير الجميّل، وكان من المؤكد أنها أتت لنصرته معتبرة عملها خطأ لا بد منه، ولكن ليس دون أن يخالجها كدولة عظمى، ارتياب بأساليب الجميّل التي كان منها محاولته القضاء على حياة السفير الأميركي، وشكوكها في استمرارية رجل يحاول فرض السيادة المسيحية على الأكثرية الاسلامية في لبنان.

كان قادة المسلمين اللبنانيين، مستسلمين للجميّل، إن لم نقل متظاهرين، مواربة، بالحماس له. فالجميّل كان قد شجب احتلال الفلسطينيين والسوريين للبنان، ولكن المسلمين لا المسيحيين كان عليهم أن يعيشوا معهم ومع المحسوبين عليهم. أما الآن ومع مغادرة منظمة التحرير الفلسطينية فانهم كانوا في الظاهر، الخاسر الأكبر في الحرب الاسرائيلية سنة ١٩٨٢، والأغلبية كانت على استعداد لطرح معارضتها للجميّل جانباً، شرط أن يحقق ما وعد به من تخلص من العديد العديد من الأحزاب والميليشيات والعصابات الملتفّة حوله، التي جرّت الحياة في بيروت الغربية والقسم الأكبر من لبنان إلى الفوضى.

إن الانفجار الهائل الذي حصل عند الساعة الرابعة والدقيقة الثانية من بعد ظهر الأربعاء، في الرابع عشر من أيلول سنة ١٩٨٢، نشر غمامة كامدة اللون من الغبار والدخان الكثيف على البناء ذي الطبقات الثلاث الذي كان المقر الرئيسي لفرع الكتائب اللبنانية في الأشرفية، وهي المنظمة السياسية التي كان قد أسّسها والد بشير، بيار الجميّل في سنة ١٩٣٦. وكانت بقايا من الأيدي، والأكتاف، والرؤوس، والأرجل، مبعثرة بين الأعمدة المنهارة، وأكداس الحجارة والاسمنت وبقايا البناء، من حديد وخشب، وكان الصراخ في الشارع «بشير، بشير، بشير» وفي الداخل يصمّ الآذان، وبينما واحد من الميليشيات، كان يذرع الشارع متشنجاً، كان آخرون قد فشّوا خلقهم، بالمطبعة، فبعثروا الأفلام، وضربوا، وأطلقوا النار على المصورين. كما شوهدت سيارات الأسعاف تقف جاهزة للانطلاق. وشوهد بعض من لوردات الحرب، وزوجة بشير، صولانج، يصلون ويقفون منتظرين عمليات التنقيب بفارغ الصبر.

وكمخلوق متمسك بما اعتاد عليه (ولكل امرىء من دهره ما تعود) فان الجميّل الذي استخفه الفوز بالانتخاب مؤخراً، رفض إلغاء الاجتماع المعتاد، أو تغيير موعده في

المقر الرئيسي للحزب، حيث اعتنق السياسة للمرة الأولى في حياته، والذي كان قد اعتاد حضوره كل خميس بعد الظهر. انه قرر، حتى كرئيس، العودة إليه للاجتماع بسائقي التاكسي، والبائعات وربات البيوت، وصاحبات البنسيونات المسنّات، والجلوس معهم هناك على المقاعد الخشبية، في الملجأ، ومحادثتهم والإصغاء إليهم. كان هذا المكان يزدان بصور والده بيار، مسلسلة مراحل عمره ونشاطه، والآن تظهر مشاهد نجاحه هو، «إنه الشرق». هذا ما قاله لي عندما زرته في هذا المكان منذ بعض الوقت، «هنا أنت الذي يجيب على مكالمات التلفون، لعدم وجود سكرتيرة، وأنت الذي عليك أن تحادث جميع الناس، وتصغي إليهم وتستقبل كل زائر منهم، هكذا يمكنك أن تتعرف إلى جميع الناس، وتكسب ثقتهم، وتعرف بماذا يفكرون».

سأل بقردوني، أحد الأطباء، بينما هو يراقب عمّال رفع الأنقاض، والانزعاج بادٍ عليه، قائلاً: «كم هي المدة التي يمكن لرجل أن يبقى فيها حيّاً تحت الأنقاض؟»، وكان الجواب، حوالي ساعتين، تقدير انتقل بسرعة ليصل إلى الأسماع. وعند الساعة السادسة، كان قد حل الظلام، وأصبح التشنج غير مُحتمل، وكان عمّال رفع الأنقاض قد ضاعفوا نشاطهم تحت الأضواء الساطعة، وعندما أخرجت فجأة جثّة رجل يلبس جاكتة سبور، ووضعت بسرعة وعناية، في سيارة اسعاف، انطلقت بسرعة مذهلة. تعالى صراخ الجماهير «بشير!، بشير!» ولم يبقَ عند الناس أي شك أنه بشير الرئيس المنتخب، خرج سالماً، يا للرحمة! ما هذا الحظ السعيد، ولم يقتصر هذا على المشاهدين، بل أن لوسيان جورج، مراسل لوموند «الخبير المجرّب اقتنع بأنه رأى بشيراً يوضع في سيارة الاسعاف. ثم ظهرت طائرة حوّامة فوق الرؤوس أطلقت عليها النيران فابتعدت. كان الجمهور يتبادلون التهاني، والتأكيدات أن الاسرائيليين نقلوا الجميّل بطائرة إلى اسرائيل. وفي الوقت نفسه انطلق «صوت لبنان» في إذاعة القوات اللبنانية الخاصة، وهو غالباً ما يدعى «إذاعة بشير» ينقل قول الرئيس الجميّل «انه يحمد الله بأنه نجا من الموت، وانه ذاهب إلى بيته ليغيّر ملابسه، فما أصابه لم يكنْ إلا جرحاً في رجله الشمال! وليس بحاجة إلى مستشفى». أما صولانج، وبقردوني، فانهما بعد أن اطمأنا، على سلامة بشير إثر إذاعة صوت لبنان ركبا السيارة وانطلقا عبر الشارع المنحدر إلى مستشفى أوتيل ديو، وسألا عن بشير، فقيل لهما أنه ليس هناك، ولكنهما لم يفقدا الأمل فانطلقا إلى مستشفى رزق وقيل

لها أن بشيراً ليس هناك. فردّ بقردوني منفعلاً «لا تلعبها يا دكتور معي» وإذ وجد الطبيب نفسه محرجاً قال باهتمام «هل أنت مجنون يا كريم، أتعتقد أني أمزح معك بخصوص بشير بالذات، فهل تعتقد أني أجسر على ذلك؟». كانت الساعة الثامنة تقريباً، عندما تأكد لصولانج، أن بشيراً لا يزال تحت الأنقاض، والأرجح في عداد الأموات. وهذا ما كان أيضاً في حساب السفارات، التي كانت قد أرسلت موظفيها، لمشاهدة مكان الحادث. وهكذا رجع بقردوني إلى موقع مبنى الحزب حيث كان عمّال إزالة الأنقاض ما زالوا يعتقدون أن بشيراً سالـم، وفي حالة جيدة، فاقتربوا من بقردوني يمازحونه ويربتون على كتفه. أما بقردوني فلم تكن له الشجاعة ليطلعهم على الحقيقة. كانت بقايا جثّة بشير آخر ما انتشل من الأنقاض عند الساعة العاشرة، ونقلت بسيارة اسعاف إلى أوتيل ديو (كما ذكرنا في أول الكلام).

وعند منتصف تلك الليلة، أعلن رئيس الوزراء شفيق الوزان نبأ وفاة الرئيس المنتخب. بيد أن الجمهور كان قد توقع ذلك قبل ساعات. وكان التلفزيون قد أذاع آخر أخباره قبل ذلك بثلاث دقائق. ولأول مرة، منذ بدء الاضطرابات في ١٣ نيسان سنة ١٩٧٥، قطعت إذاعة لبنان أخبارها، لتكتفي بإذاعة موسيقى كلاسيكية. ان أيّاً من الخمس وسبعين ألف ضحية، كانت قد سقطت قبل ذلك، لم تستحق مثل هذا الاحترام. وإذاعة الموسيقى الكلاسيكية استمرت أسبوعاً كاملاً.

هذه الموسيقى بألحانها المحزنة، التي كانت مخصصة لبكاء بشير الجميّل، إنما كانت تشمل الآخرين أيضاً..... إن عملية الاغتيال شغلت الإذاعة اللبنانية أسبوعاً كاملاً، متجاوزة كل ما هنالك من اضطرابات وأعمال عنف. وغفلت عن تقدير الأخطار. إنها أيضاً تعرّضت لسمعة الاميركان في الشرق الأوسط، ولطّخت شرف اسرائيل، وأضافت فصلاً من الكره للفدائيين الفلسطينيين.

هذه الموسيقى، زعزعت توهم وآمال المسيحيين في مجوعهم، فقد كانوا لا يريدون أن يصدّقوا أن بشيراً قد مات. ومن يستطيع أن يلومهم في رؤيتهم الخاصة هذه؟؟ لم يكن يصدق، حتى في الحلم، أن يكون ما حدث قد حدث، وبهذه السهولة. انه من المنطق أن تكون هذه الحادثة، قد جمعتهم مع الفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين في خانة الخاسرين، تلك التي وقفوا بعناد ليتحاشوا الوقوع فيها عبر السنين، لأنهم بموت بشير الجميّل، قد

خسروا ، حتماً ، أملهم بفرض هيمنتهم على الأكثرية الاسلامية في لبنان، ذلك الهدف الذي بقي طوال السنوات السبع ، من التقاتل والتخطيط، مكتوماً.

وكما المقامرين المهووسين، فان هؤلاء المحاربين، من مسيحيي لبنان خصوصاً الموارنة الذين يشكلون اللبّ منهم، لعبوا ، أولاً ، وثانياً، وخسروا الوقت والأمل، ومع ذلك، فلم يأخذوا بنصائح من أشاروا عليهم بالاعتدال. بل ركبوا رؤوسهم والتجأوا إلى التحالف مع الغرباء ومع شعورهم بأنهم بعملهم هذا ، إنما يأخذون الشيطان مركباً لهم، فهم لم ولن يفقدوا الأمل، بل كانوا مصدر يأسٍ للآخرين. فالمسيحيون المحاربون كانوا قد وقّعوا في ١٩٦٩ ، معاهدة القاهرة التي تمنح الفلسطينيين حق إيجاد دولة ضمن الدولة، ثم هم الذين أقاموا وأقعدوا الأرض والسماء، ليأتوا بالجيش السوري في سنة ١٩٧٦ ليتولى حمايتهم من الفلسطينيين، في الوقت ذاته، الذي كانوا قد وقعوا فيه، اتفاقاً قائماً مع اسرائيل، وذلك قبل أن يقوم السادات بزيارة دولة اسرائيل. تلك المخاطرة المميتة، كانت المرة الأولى لعملية من نوعها ، تنازل الملك عبدالله، ملك الأردن، في سنة ١٩٥١ ، ثم عملية السادات سنة ١٩٨١ ، والآن بشير الجميّل. ان أولئك القادة العرب الذين تجرّأوا وعقدوا اتفاقات مع اسرائيل، قتلوا كلهم اغتيالاً.

وفي الوقت نفسه فان المقاتلين المسيحيين، القابعين في الغيتو المسيحي الضيّق، فوجئوا بأكثر من معجزة، بل بعدد من المعجزات.

أولاً : لقد امتشقت اسرائيل السيف في صيف سنة ١٩٨٢ ، وضربت السوريين والفسطينيين الذين كان هؤلاء المقاتلون يخافونهم ويكرهونهم، بدلاً من أن تتركهم يتعاركون بعضهم مع بعض وتحتفظ هي بسمعتها الدولية غير ملطخة تاركة لبنان للبنانيين، فبهذا كان ينادي المسيحيون طوال الوقت، واليوم والأمور تجري كما يريدون فقد صمَّموا على أن يجعلوا منه وطناً مسيحياً. وما كان لصالحهم، هو أن الذي يحارب، هم الاسرائيليون. أما هم فكان كل ما عليهم أن يفعلوه، هو أن ينتظروا النصر، ليقاسموا اسرائيل الغنائم دون أية مشاركة بالفعل. ومن هنا كان الاسرائيليون ممتعضين، على المكشوف، من هؤلاء الحلفاء (عسكر الشوكولا) الذين لم يحفظوا شرف الكلمة، ويشاركوا في القتال، غير أن بشير الجميّل، كان ينفي دائماً، أن يكون قد أعطى هذا التعهد. بل كان يقول إنه على اسرائيل أن تكتفي بأننا جعلنا من أنفسنا قاعدة لها ، تنطلق

منها في الغيتو المسيحي وأمّنا لها، من المسيحيين، تغطية سياسية لغزوتها.

إن قرار القوات اللبنانية هذا، بعدم المحاربة بجانب الاسرائيليين، ساعدهم على كسب تأييد الولايات المتحدة الأميركية، لترشيح بشير الجميّل لرئاسة الجمهورية، فالأميركان كانوا يعتقدون، أن أية مشاركة من القوات اللبنانية لاسرائيل في الحرب، تعمل على تقسيم لبنان، وبالتالي تجعل أمر إجراء مصالحة مع المسلمين مستحيلاً. وبالرغم من كل ما كان قد أوقعه الاسرائيليون من تدمير وخراب، في المنطقة الغربية دون أن يحرّك ذلك تعاطف المسيحيين مع المتضررين، وبالرغم من معارضة القادة المسلمين لرئاسة الجميّل للجمهورية، فقد ربح الرئاسة التي هي بحسب العرف حق من حقوق أبناء طائفته؛ لقد كانت حملته الانتخابية حملة استعملت فيها القوة، والمال، والوعود المغرية، حتى أن أحداً من الموارنة لم يجسر على ترشيح نفسه لمركز القيادة في أعلى مستوياتها، رئاسة الجمهورية.

ثانياً: ثم معجزة أخرى أيضاً، وهي أن أميركا لم تحاول أن توقف اسرائيل، في اليومين الأوّلين للاجتياح، في الجنوب اللبناني، أو بعد أن اجتاز الغزاة المنطقة الشمالية وأحاطوا بنصف مليون من مسلمي بيروت الغربية، ومعهم قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، هذا اللين الأميركي، كان من وجهة نظر الجميّل، علامة تغيّر جذري. فأميركا أثناء معركة زحلة، والحرب في وادي البقاع، تدخلت بحزم، لمنع اشتراك اسرائيل ـ أما اليوم، وفي عهد الكسندر هايغ، ورئاسة ريغن، فان أميركا تبدو موافقة على ما تمليه عليها اسرائيل في مجرى الأحداث. ولو أن استقالة هايغ، كانت قد تركت في نفوس المسيحيين بعض الشك، وهي استقالة من أسبابها ما كان من معارضة لتصرفاته تجاه المسألة اللبنانية. غير أن أميركا مع ذلك سارعت لإرسال المارينز (مشاة البحرية)، وأياً كانت نتائج تدخل هؤلاء، فان المسيحيين اقنعوا، أنفسهم، أن الأميركان تمكنوا أخيراً من رؤية الأشياء على حقيقتها. ولطالما كان قد ظهر جلياً، ان الأميركان، كانوا في الماضي، قد سمحوا بأن يبقى لبنان، الواجهة التي تُعرض فيها الأمور في الشرق الأوسط، أرضاً تتقاتل عليها القوى المحلية، بممارسة عداواتها، والمسيحيون كانوا يحاولون إقناع أنفسهم أيضاً، بأن الولايات المتحدة، في الحالة الراهنة، ترغب في أن تجد حلاً لقضية اللبنانيين، بمعزل عن أية حلول شاملة، لقضايا الشرق الأوسط.

ومع أن الإدارات الأميركية المتعاقبة، كانت لا تثق بقوة المسيحيين، طوال سنوات

مضت، وكان من المستبعد زجّها، وبغير إرادتها، في اجراء تغيير كبير في سياستها الشرق أوسطية، فان الجميّل لم يكن منزعجاً من حدوث تصادم بين أميركا واسرائيل، كنتيجة لأحداث سنة ١٩٨٢.

إن الجميّل كان يرى، أن اسرائيل هي خير بديل عن الأصدقاء المسيحيين في أوروبا، بعد أن امتنع هؤلاء عن خوض معترك الموت معهم. فالدولة الأعظم في العالم، كانت أكثر جاذبية، كحليف لأقوى قوة في الشرق الأوسط. والولايات المتحدة الأميركية كانت مقبولة إلى حد أكبر، من الدول العربية لوجودها على بعد أميال كثيرة منها، عبر المحيط. وليست جاراً خطراً كثير التقلب. وإذا كانت اسرائيل تفضل أن يكون لبنان بلداً مقسماً بينها وبين سوريا، على أن يكون جاراً قوياً، تصبح الولايات المتحدة الملجأ الأخير في مواجهة النوايا الاسرائيلية. أو هذا ما كان يراهن عليه المسيحيون، ويحسبون على ضوئه، بأن ربحهم قد طابت فليغتنموها. وكانوا مقتنعين بأنهم يستطيعون إثارة الأميركيين ضد الاسرائيليين لصالحهم، كما وأن بعض مساعدي الجميّل كانوا يبحثون في أمر تحويل بلدهم المتخم بالسلاح، إلى بلد حيادي ليكون، سويسرا الشرق، كما كانت تعلنه النشرات السياحية الدعائية قبل ما وقع في سنة ١٩٧٥ - والمدهش أن هاتين المعجزتين، بدتا ضئيلتين أمام المعجزة الثالثة التالية.

ثالثاً: فبشير بعد انتخابه بثلاثة أسابيع، وقبل تسلمه الحكم لمدة ست سنوات بتسعة أيام، كان في الطريق، ليسجل انتصاراً على الأكثرية المسلمة التي كانت تسيء به الظن، هذا النجاح كان في جزء منه، بسبب الاعلان عن الرغبة في إجراء تغيير في السياسة، بإعادة اللحمة وبالمصالحة، وطي صفحات الماضي، وفاء لأرواح الشهداء من أعداء الأمس، متعهداً بمنح الصحافة حرية النشر، كلها مواعيد لم تصدر عن فطنته، بل بتوجيهات من حُماته الأميركيين. إن هذا القائد العسكري العنيف، الذي طالما ظهر بصورة المتعطش للدماء، والمدافع الأوحد عن القوة المسيحية، هذا البعبع، الذي كانت الأمهات، في المنطقة الغربية من بيروت، تخفن أولادهن به، سيتقمص اليوم بشخص رئيس جمهورية كل لبنان، وكم هي هامة تلك المهمة في إيجاد اتحاد بين ثلاثة ملايين مواطن، ممثلين بستة عشر مذهباً دينياً معترفاً بها شرعياً، يسكنون في بقعة من الأرض بحجم ولاية كنكتكت الأميركية، كانوا لزمن في حالة شديدة من الخوف والارتياب،

بعضهم من البعض الآخر. ولو أن جهاز الدولة المدني كان صالحاً، لكان قُدّر له النجاح. فهذا الجهاز الذي لسنوات خلت كان أما مُتغيّباً عن عمله، أو مُخلاً بواجباته، وغير مفيد. انقلب بسرعة للمواظبة على الدوام في الوظيفة طوال الوقت، معترضاً على ما كان يلفق عنه. من حصول رشاوٍ روتينية مقابل أية خدمة يومية. وقد قال لي (والكلام للمؤلف) موظف اصلاحات في مصلحة التلفون عندما حاولت اعطاءه البخشيش ليعمل بسرعة «ان الشيخ بيار يعلّقني بإبهامي يدي إذا أخذتها»، بينما، في الماضي القريب، كان ذلك أمراً لازماً لتعديل الراتب بسبب التضخم المالي.

ولإكمال الصورة. التي كان فيها الجميّل، قبل موعد انتخابه، نذكر أنه كانت هنالك اقتراحات. بأن تتوالد فكرة التخلّص من اسرائيل، التي كان مديناً لها بكل شيء، والمؤكد أنه لم يفعل أكثر، ليُثبت أنه خلع ثوب الخيانة ولن يشجع اسرائيل في مطالبته بعقد معاهدة صلح مع لبنان. إن معاهدة من هذا النوع كانت بالتأكيد ستزيد من التصلّب المسلم في لبنان، وتهدّده بمقاطعة اقتصادية عربية، مع العلم، أن أعمال العنف الأخيرة. كانت قد هدّمت القسم الأكبر من الاقتصاد اللبناني، وأضعفت ثقة العاملين في بلاد النفط الغنية، بقوة بلدهم الاقتصادية وبذلك بات الاقتصاد اللبناني مزعزعاً، وليس غير المال العربي ما يستطيع أن يبني ما تهدم في لبنان، وأكثره مما هدّمه الاجتياح الاسرائيلي.

ومما لا يقل أهمية عما ذكر، هو أن بيغن كان يصرّ بقوة، على الاتفاقية التي كان يعتبرها إنجازاً مكملاً لما وقّعه مع مصر. لقد حاول لسنوات، تلطيف غارات طائراته على لبنان، وتعدياته البرية، باقتراحات كاذبة، هي الرغبة في اللقاء مع الرئيس الياس سركيس، لتوقيع مثل هذه المعاهدة، ولطالما أكّد تكراراً أن في ذلك حلاً مزدوجاً لإشكالات الحكومتين الاسرائيلية واللبنانية. كانت أمثال هذه الحركات في الماضي، مقبولة، كونها تظهر أن بيغن لم يكن متفهماً للقضية اللبنانية، أو راغباً في فهم حقيقة ما يعانيه لبنان، أما اليوم فهذه الادعاءات هي مجرد نكته اسرائيلية يمجها الذوق.

بدأ الجميل يدرك خطر توقيع اتفاقية مع اسرائيل، على الأقل قبل اجراء تسوية شاملة لمشاكل الشرق الأوسط. بالرغم من تلك الرؤية، وهي أن لبنان سيكون الدولة الثانية، التي توقع مثل هذه المعاهدة. بل فان إذاعة صوت اسرائيل الرسمية، كانت تعترف بأن

بيغن مواجه بأحد خيارين، حكومة قوية صديقة لاسرائيل، أو معاهدة سلام، ولا خيار آخر. ثم أن رفض الجميّل لمطالب بيغن لاقى تأييد المسيحيين المتيقظين، وكل المسلمين في لبنان. وصدوره عن رجل كان متهماً بالطواطؤ مع اسرائيل، وما رافق ذلك من إظهار الروح الاستقلالية كانا برهانين على أنه بدأ يتفهم أعباء المهمة الوطنية. هذا الفهم كان مطلوباً، فالنفوذ الغربي والأميركي على الأخص، كان أكثر نزاهة واتزاناً من الاسرائيلي.

وعلى أية حال، فان الجميّل كان محشوراً في امتحان محرج، بمواجهة إرادتين إحداهما إرادة الولايات المتحدة الأميركية، والأخرى الإرادة الاسرائيلية التي ألقت عليه هالة الشعور بأهميته. انه تمتع بمقدار كافٍ من الشعور بأنه من أهل البيت في اسرائيل، عندما كان يشتري منهم ثلاثمائة وستين سيارة عسكرية بُدىء بشحنها قبل الحرب. لقد تناول الطعام علناً مع آريل شارون عندما كان كوزير دفاع يقوم بزيارات لبيروت. كذلك بدأ السفراء الأميركان يظهرون عنده بصورة منتظمة. ولكن، في الأول من أيلول، كانت المفاجأة إذ ألقى الرئيس ريغان خطبة أعلن فيها تجميد المفاوضات حول الضفة الغربية غزة، التي عليها يتوقف حل إشكالات هذه الأجزاء التي تحتلها اسرائيل.

* * *

وهكذا ازداد التوتر بين اسرائيل وواشنطن، بصورة مفاجئة ومتزايدة، واسرائيل من جانبها، خرقت بصورة جليّة الاتفاق مع الولايات المتحدة الأميركية، فتقدمت ستماية ياردة باتجاه غرب بيروت، إلى مراكز تُطلّ على مخيم اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا. وكما كان يحصل في الماضي، فان الاستياء الاسرائيلي وسياسة أميركا، سرعان ما يظهران، أول ما يظهران، على الساحة اللبنانية.

ومن غريب الصدف، أنه بينما كان ريغان يلقي خطابه في كاليفورنيا، بتاريخ الأول من أيلول (سبتمبر)، كان بيغن، يجتمع سراً مع بشير الجميّل في شمالي اسرائيل، في مقابلة أخرى من مقابلاتهما الدورية، كان بيغن، قد ترك أوتيل كارلتون في نهاريا الواقعة على شاطىء المتوسط الساعة الحادية عشرة مساء، وظهر في دار للضيافة تابع للحكومة الاسرائيلية على مقربة من الشاطىء اللبناني، حيث كان الجميّل منذ ساعتين، في انتظاره الطويل، يبرّد ساقيه، كان برفقة بيغن، شارون، وسعد حدّاد، الرائد المطرود من الجيش اللبناني، والذي كان مولجاً بقيادة فريق من الميليشيات المموّلة، والمموّنة، والمسلّحة، من

اسرائيل. ومن عادة بيغن استعمال حدّاد، ليطيّر بوالين اسرائيل الاختبارية، كما كانت لهجة حدّاد في أحاديثه أو (دردشته)، تعكس استياء اسرائيل من عدم وفاء بشير، أكان لما قامت به. أو لمساعدتها إياه في الانتخابات.

وهكذا، لم تكن المقابلة ناجحة، فالموضوع الأول لدى بيغن وشارون كان توقيع معاهدة صلح مع لبنان. على أن يتم ذلك على الأكثر بعد مرور شهر واحد على مراسيم استلام بشير الحكم في ٢٣ أيلول، وعندما أبدى الجميّل صعوبة توقيع مثل هذا الاتفاق، واقترح توقيع معاهدة عدم اعتداء، ألمح بيغن إلى قضية حدّاد بقوله: «إن حدّاداً كان يعرف كيف يُنفّذ الأوامر التي يتلقاها، وكان يعرف ما هو الأنسب للبنان، ولإسرائيل، انه مثال يجب الاقتداء به»، ولكن على هذا المقال، كان لبشير اعتراض، فهو كان قد أعلن إرادته بمحاكمة سعد حدّاد. لتقصيره في أداء واجباته، وقبوله علاقات خيانية مع اسرائيل، (بيد أن العسكريين اتباع بشير كانوا قد اقترحوا معاقبة شكلية)، في الوقت نفسه كان بيغن يصرّ، على أن يتولى حدّاد أما وزارة الدفاع، أو قيادة الجيش، في حكومة بشير الجميّل الجديدة. وهكذا، انتهى الاجتماع بين بيغن، وبشير الجميّل، بالصياح، بصوت مرتفع من كليهما. أما شارون فقال: «انه عندما يمسك بشيء أو يأخذه في قبضته فهو لن يفلته»، إن اسرائيل هي في مركز القيادة، والأحسن لبشير أن ينفّذ ما يطلب منه. والجميّل كان أمام بعض نقاط هذا البحث قدّم يديه قائلاً «ضع القيد» ثم صاح «أنا لست تابعاً».

غير أن الراهن المؤكد، انه في كثير من المسائل، كان كذلك. خصوصاً بعد أن سربت اسرائيل أخبار ما كان يجب أن يبقى سراً، حسب الاتفاق بشأن هذه المحادثات البالغة السرية. وهذا ما أثار اللبنانيين وبشيراً معاً، ولكن بشيراً ردّ لاسرائيل الضربة، وفي بيروت أفرغ كل ما كان في صدره، وكل ما في جعبته مما جرى. وكان يضع يديه في خناقه. مقلداً بيغن في تصرفاته التكتيكية، قائلاً للجمهور أنه قد عومل وكأنه حاجب، ان بيغن الذي كان يعتبره رجلاً حكيماً غدر به وخانه «انه لم يسمح لي بالاحتفاظ باحترام نفسي» هذه قالها منفعلاً.

كان الأميركان بين الذين تحدّث إليهم بذلك عندما قام بزيارة لوزير الدفاع كاسبر وينبرغر. ولقد أعلن بشير، أن بيغن بهذا التصرف، حرّره من تعهداته السابقة مع

اسرائيل. وهكذا بعد خمسة أيام من الاجتماع في نهاريا عرض بشير على الولايات المتحدة قواعد حربية، وتسهيلات لتركيز رادار على جبال لبنان المطلّة على شرقي البحر المتوسط، ودنيا العرب، «وعلى العموم» قال «كل ما تريدونه» أما وينبرغر فلم يعر كل هذا أي اهتمام، وانتقل إلى ما كان في ورقة العمل أمامه، غير أن الجميّل اعتقد أن منح إدارة ريغان كل هذه التسهيلات، يناسب ما تتطلع إليه من انتقال سريع لقواتها وحماية أمن الخليج، ومناطق البترول. ولكنه على ما ظهر لم يكن مدركاً، ان اهتمام اميركا، بهذه الخطة، التي كانت في وقت ما أساساً لنظرية، «أن الخليج، وليس القضية الفلسطينية، هو ما يقع الآن في لبّ السياسة الشرق أوسطية»، بدأ يتضاءل ـ ولم يستطع، هذا الشاب، الذي لم يكن مدرباً على الأساليب السياسية العالمية، تفهم أن آخر ما كان يريده وينبرغر هو أن أميركا غير راغبة في أن تقع في رمال لبنان المتحركة. ووزير الدفاع إنما جاء إلى بيروت ليؤكد ذلك بواقع أن مشاة البحرية (المارينز) كانوا قد تركوا قبل شهر من نهاية مهمتهم. فسواء كان هذا العرض معقولاً أم غير معقول إلا أنه كان في الواقع مثالاً آخر عن قدرة الجميل غير المحدودة على التحرك المستمر للضغط والاثارة.
وهو ككل اللبنانيين، الذين يجازفون باطلاع كل من يصادفونهم، على أعمق ما يجول في أفكارهم، وهذا بالتأكيد كان، بالنسبة للمعايير الغربية العريقة، إنجازاً ضئيلاً للجميّل بشير. بل أنه لمن النادر عبر التاريخ أن يستطيع رجل أن يحظى بتقدير أخصامه وأصدقائه في وقت واحد، ولو ضمن نطاق مجتمعه، وذلك ارتكازاً إلى حقيقة قاسية وهي هذا التغيير (العميق) العاطفي كلياً حتى قبل تسلّمه السلطة ومواجهة المطالب المهمة، المهلكة. إنه (على حد قول المولعين به) «لا يزال في الرابعة والثلاثين من عمره، أي أكبر من السيد المسيح بسنة واحدة فقط، ومع ذلك هو على الطريق إلى التتويج».

إثر اغتياله صدّرت احدى الصحف صفحتها الأولى بالخط الأسود العريض بالعبارة التالية: «لم يعرف تاريخ لبنان الحديث رجلاً مثله تعلّقت بمطلعه مثل هذه الآمال أو تفجّرت لمصرعه مثل هذه الدموع» وكان اللبنانيون يرقبون باهتمام انفجاراً هستيرياً جماعياً آخر. انهم كانوا يحاولون محو الماضي بإعادة عرض غريب لصورة «دوريان غراي» بالمقابلة، فان عمق التطلع إلى قيادة واضحة بينة لا لبس فيها يقضي على الحقد

المتأصل في المجموع اللبناني، ويأتي بالنظام من خلال عشر سنوات من الفوضى.

ومع ذلك فقد كانت هنالك حكاية مخبّأة وراء ذلك الاعلان الذي نشرته شركة سليب كومفورت وهو، «سهم تاريخي يشير إلى ماضٍ بشع»، وهو ما يقصد به الإشارة إلى ماضي المسيحيين مع المسلمين ذلك الاعلان كان مطلوباً نشره من قبل إدارة وموظفي شركة سليب كومفورت للمفروشات التي كانت المكان الأول الذي شهد أولى مجازر لبنان الجماعية في يناير سنة ١٩٧٦. فقد قتلت ميليشيات المسيحيين المئات من الأكراد والشيعة والفلسطينيين والمسلمين العزّل. هذه كانت مجزرة الكرنتينا وهي على مقربة من البناء المؤلف من ثلاث طبقات، الذي كانت تشغله القوات اللبنانية. ومذبحة الكرنتينا كانت الأولى التي شهدتها بأم عيني، كان ميليشيات من المسيحيين يحملون الصلبان الكبيرة الظاهرة على صدورهم، وبينهم من كان يلبس القبعات النازية، مشبّعين بالحشيشة، والمهيجات، يقتلون على هواهم لا يفرقون بين رجال، أو نساء، أو شيوخ، أو أطفال. صحيح أنه أحياناً كان المسيحيون المحاربون يُذبحون، من قبل فلسطينيين، أو سوريين، أو مسلمين لبنانيين، ولكن المسيحيين كانوا يقتلون الفلسطينيين وأصدقاءهم من اللبنانيين، وجيرانهم، بلا تمييز. ان يوم السبت الأسود، والضبية كانا قبل الدامور، والعيشية، وجسر الباشا. وتل الزعتر، والقاع، والخيام، واهدن وميناء صفرة، وزحلة وغيرها مما هو أقل أهمية.

فهل هذا التأبين الذي أشار إليه سليب كومفورت كان تذكيراً بوحشية بشير الجميّل السابقة؟ أو كان هذا لأمور قادمة؟ فاللبنانيون المنهكون من هذا العنف الذي لا نهاية له، انشغلوا بمثل هذه التساؤلات محاولين إراحة أعصابهم، فاللبنانيون يريدون النظام، والسلام وبأي ثمن. حتى ولو بالقبول بمهاترات الجميّل، التي لم تكن خافية عليهم. انه وعد بإعطائهم الأمن والنظام، بإزاء الهدوء السطحي (بوضع النار تحت الرماد) في الغيتو المسيحي المكبوت، وحتى الفوضى الكامنة في مختلف الأماكن الأخرى، كان يظهرها، وكأنها أسهل مما هي، وما يمكن أن تكون عليه، ضارباً على وتر السلبية عند المسلمين، التي كان يقابلها بدهاء مع المقاومة العسكرية المسيحية، للفلسطينيين، والسوريين، كما هي في الغيتو المسيحي. ولكن بشيراً مات....

والآن بموت بشير دُفنت كل الأماني والآمال، وما كان قد هُيّئ بالجهد الدؤوب دفن

تحت الأنقاض مع بشير الجميّل. كم كان بشير مشوقاً للحصول على التأييد الخارجي، وكم كان ولوعاً بنيل الاحترام من أولئك الذين كان يسميهم «العالم الحر»، كان يفاخر، بأنه أول من سيعمل في لبنان تنظيماً عصرياً بمعزل عن الجهاز الاقطاعي الذي، ناء بكلكله على لبنان منذ وقت طويل. بل طالما كان يبالغ في القول، بأنه لا يأبه لأمر نفسه، ولا يبالي إن هو مات، أو قتل، فذلك غير مهم، لأن القوات اللبنانية ستُكمل الطريق، وتفوز دون وجوده....

وأنه لما يثير الدهشة، أن تكون القوات اللبنانية قد أحسنت التصرف، إن لم نقل تصرفت بحكمة، عندما وُضِعت في المحكّ، ولو ظاهرياً، فان مستشاري بشير وضباطه لم يتأكدوا من حقيقة حصول مثل هذا التغيير، في مدى ثلاثة أسابيع من انتخابه، بتصرفاته وإدارته، إذ أصبح لا يرى، أن ما حصل من عنف وقتل، خلال السنوات التي مضت، كان ضرورياً. انه بعد قليل سيكون رئيساً للدولة، وستكون جميع مقدراتها في حوزته وبمطلق أوامره. وكل من كان يجلس إلى بشير الجميّل، ولو لبضع دقائق، كان يخرج من عنده وليس لديه أي شك بأنه يكره، ويحقد حقداً عميقاً، لا على منظمة التحرير فحسب، بل على كل الفلسطينيين. ولم تبق سراً، رغبته في إبعاد كل من يستطيع إبعاده من لبنان منهم، وتحويل ملاجئهم إلى ملاعب للتنس. وليس حتى ما بين أشد أعدائه من كان يمكن أن يتصور، أن الرئيس المنتخب كان سيتساهل بما بدأ يقوم به مستشاروه. وضباطه بعد وفاته.

ففي الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم الأربعاء في ١٥ أيلول اجتمع مستشارو الجميّل العسكريون، مع رفاييل ايتان، اللفتننت جنرال، القائد العام، ومع ماجور جنرال أمير دروري قائد القوات الاسرائيلية في الشمال، والمكلّف بالعملية الاسرائيلية كلها، في لبنان. فالاسرائيليون كانوا سيقومون بغزو غربي بيروت خلافاً للعهود التي قطعوها للولايات المتحدة الأميركية، وللبنان، ولمنظمة التحرير الفلسطينية، خلال الاخلاء السلمي الذي قام به الفلسطينيون (لأحد عشر ألف مقاتلاً) وذلك قبل أسبوعين، بيد أن موت بشير، ترك احتمالات لوقوع أخطاء يمكن أن تُلغي قيمة التضحيات، ومكاسب الحرب آنياً، فإسرائيل كانت تقول: «على الجميّل وميليشياته بتطهير غربي بيروت من الفلسطينيين، وقوات اليسار، وألفي فدائي، قيل أنهم لم يغادروا بيروت»، وهذا ما نقلته

خطأ إليهم أجهزة الالتقاط الالكترونية، مع موت الجميّل. فتولى الذعر لهذا النبأ بيغن وشارون. وتولاهما أيضاً الشعور، بأنهم لا يستطيعون ترك غربي بيروت سلماً، ما دام أن شعورهما بالعطف على لبنان نتيجة لغياب بشير قد تلاشى. إن هجوماً على غربي بيروت وهو ما كان ممنوعاً، كان سيبدأ بعد تسعين دقيقة (ولو أنه قبل عقد الاجتماع مع قادة الميليشيات كان شارون قد أمر بنقل العساكر والمعدات إعداداً للعملية، فطائرة هاركوليس س ١٣٠ كانت قد بدأت بالهبوط بعد انفجار الأشرفية بساعتين اثنتين) وكان مجلس الوزراء الاسرائيلي، عند اطلاعه على ذلك، قد أبدى موافقته على خرق ما كان اتفق عليه مع فيليب حبيب مفوّض الولايات المتحدة في المباحثات. معلناً، للتمويه، أن الجنود الاسرائيليين إنما يأخذون لهم مكاناً في غربي بيروت ليحولوا دون ما يحتمل وقوعه من عنف ومجازر وفوضى، بعد مقتل بشير الجميّل، كان هذا هو الواقع فان المسيحيين في شرقي بيروت والمسلمين في غربها، كانوا كلاهما مذنبين في أية عمليات عنف مما جرى وقد صرّح أحد الفلسطينيين ذوي البصيرة قائلاً: «لا شك أن نصف البلد في حالة يأس، والنصف الآخر في خوف وذعر شديدين» وهكذا مع تهيئة الرأي العام، ومع خروج الفلسطينيين، وإزالة الألغام من الطرقات، بفضل الفرنسيين (من الفرقة الأجنبية الفرنسية) ومع إزالة ما كان على الطرقات من سواتر رملية، وترابية، فان غزو بيروت لم يعد مهمة تحتاج إلى عناء أو ذكاء.

وكذلك لن تكون خسائر الجيش الاسرائيلي كبيرة، بعد أن فتح الباب على مصراعيه. بيد أنه لأسباب سياسية، فان الاسرائيليين تجنبوا دخول المخيمات الفلسطينية في بيروت، ليخرجوا المحاربين الفلسطينين، (وهم من ينعتونهم بالمخربين) الذين قالت مخابراتهم خطأ أنهم موجودون فيها. وكذلك فقد كان لشارون نظرة أخرى، من النظرات الشارونية تلك غير الانسانية، فهو لم يخفِ ولا مرة واحدة، رغبته في الدخول إلى بيروت الغربية بالذات، وهو إنما سرَّب جيوشه إلى الأمام ليكون على مسافة وقع العين من المخيمات. فقد كان مقهوراً لنجاح منظمة التحرير، بكسب العطف العالمي أثناء حصار بيروت. لذلك فسيدمر مخيمات بيروت الغربية، والبعبع الفلسطيني مستعملاً المسيحيين لتنفيذ العملية.

ومن المستغرب، أنه لو كان شارون مقتنعاً حقيقة، بأن عدد الفدائيين الباقين في المخيم ألفان، فكيف له أن يهاجم بمايتين فقط؟ ان لأسرائيل رجالها ضمن القوات اللبنانية وأن

جنود الميليشيات من فادي فرام نزولاً كانت لا تزال في غليان من جراء اغتيال بشير الجميّل، وكان الكل على استعداد لقبول رأي اسرائيل، بأن فلسطينيي المخيمات هم الذين قتلوا بشيراً، وعليهم أن يدفعوا الثمن، ولئن لم يكن ما عددهم كافياً، على حد قول أحد قادة الكتائب لشهر مضى، فالاسرائيليون يستطيعون من قبيل الضغط على أصدقائهم من الكتائبيين، الاعلان أن رجال سعد حدّاد سيكونون على استعداد لدخول المخيمات بدونهم.

ورد الكلام عن دخول المخيمات ولأول مرة أثناء لقاء صباح يوم الأربعاء وهذا ما سلم به بيغن في الأسبوع اللاحق، في البرلمان ويوم الخميس، بعد اجتماع آخر مع فرام ورئيس مخابراته، ايليا حبيقة وآخرين، إذ تلفن درووري إلى شارون قائلاً: «ان أصدقاءنا يتحركون إلى المخيمات، اني اتفقت مع قادتهم على هذا»، وأجابه شارون: «تهانيَّ الحارة، ولتكن عملية أصدقائنا مباركة».

العملية هذه خدمت أغراض اسرائيل، والقوات اللبنانية على السواء، هكذا كتبت نشرة الجيش الاسرائيلي الشهرية «سكير هو ويشبت» مبدية التمسك بموافقتها على كون القوات اللبنانية تأمل أن تقتلع جذور منظمة التحرير، أولاً من بيروت، ثم من لبنان كله، وأضافت «ان المسيحيين يرغبون، بعملهم هذا، أن يخلقوا توازناً سكانياً في لبنان»، كان عدد الجنود الذين اجتازوا الخطوط الاسرائيلية المحيطة بالمخيمات مئتان، صباح ذلك اليوم الخميس عند الفجر. والشهادة لله ان عمليات الذبح استمرت ثمانية وثلاثين ساعة دون توقف، لقد ذبحوا الرجال، والنساء، والأولاد، حتى الخيول والكلاب والقطط، بلا مبرر بهدوء أعصاب أو كما يقولون «بدم بارد».

ومع أن الاسرائيليين المحيطين بالمخيمات، عرفوا ذلك، كما قالت لجنة كاهان التي تولّت التحقيق في هذه المجازر، فانهم لم يفعلوا شيئاً لإيقافها. ان ضابطاً اسرائيلياً كان يحقق مع اثنين من الفلسطينيين غير المسلحين عندما خاطبه قائلاً: «نحن نعرف أننا لا نريد ذلك، ولا نحبه، ولكننا لن نتدخل» ان الضحايا كلهم تقريباً كانوا من المدنيين العزّل.

أما السلاح الذي استعمل في هذه المجزرة، فكان القنابل اليدوية، والسكاكين والمسدسات، والبنادق الهجومية، وحتى السلاح الميداني الثقيل، كلها استعملت في المذبحة. كان من السهل أن نشاهد في أرض المجزرة، قطعاً من أثداء النساء، وذكور الرجال،

وكان بالإمكان أن ترى علامات الصليب، محفورة في اللحم، كطابع مسيحي، وبطون النساء الحبالى مبقورة. وفي إحدى الحالات، ظهرت لي لوحة من اللوحات التي تستعمل لكوي الملابس وقد عُرض عليها جسدٌ لطفلٍ مقطّع تقطيعاً، ومعروضاً على هذه اللوحة تحيط أجزاؤه بالرأس الصغير. كما كانت هناك جثث مفخّخة، يصعب دفنها دون التعرض للخطر ـ وحَدَث قبل أن تنتهي فرق الدفن أن اضطُرَّت للتوقف عن الإحصاء، لأن الأجسام في شمس الشرق المحرقة، تصبح بعد فترة قليلة مشوهة بحيث لا يمكن التعرف عليها. وكذلك توقفت بعثة الصليب الأحمر الدولي عند العدد ٣١٣، ومصلحة الدفاع المدني أحصت ٤٣ جثّة، وأما الجثث التي تولى الأقرباء دفنها، فلا تقل عن ١٤٦ جثّة، وهناك قبور جماعية لم تفتح. وبعد أشهر، لاحظ الفلسطينيون الباقون على قيد الحياة، أن المفقودين بلغ عددهم ٣٠٠٠ مفقوداً، وهؤلاء يعتبرون أمواتاً، وفي احصاءات غير دقيقة، قيل أن عدد الفلسطينيين بين القتلى لا يقل عن الثلث، وبالتأكيد فان بعض المصادر، قدّرت عدد القتلى من الشيعة بالثلث أو ربما النصف. مع مدنيين من المصريين والسوريين وسواهم من الأقطار العربية ليكملوا الباقي من العدد المقدّر. ومصادر أخرى تقدّر أن ٩٩١ قتيلاً من سكان المخيم لم يدخلوا الحساب، ويرجح أن يكون ثلثهم من اللبنانيين. ومن الأكيد أن الجرافات الكبيرة استعملت لجرف الأكواخ، بمن فيها واخفاء المعالم التي توضح الأعمال البربرية، وذلك لإزالة المخاوف من البلبلة التي سيحدثها انكشاف هذه الفظائع عندما يصبح أمرها ظاهراً للعيان.

بعد أشهر تكلم أحد الذين اشتركوا في المجزرة مفاخراً عن دوره فيها. قارئاً ما كان مكتوباً في مفكرته بصوت عالٍ «أطلقوا النار عليهم أمام الحيطان الزرقاء الداكنة، اذبحوهم مع الغسق». وعندما سئل واحد من القوات عن عدد الذين قتلوا من الفلسطينيين في المخيم قال رئيسه الذي كان حاضراً: «ستعرف ذلك، إذا حدث أن شُقَّتْ في المستقبل طريق في ذلك المكان»، ولم يترك عندنا أي شك، بأنه كان هنالك من الضحايا، أكثر بكثير مما ورد في الاحصاءات الرسمية. إذ كان من الواضح لأي من الذين يعرفون لبنان، أن النتائج من مجرد دخول القوات اللبنانية إلى المخيمات معروفة سلفاً. وكانت أكيدة كما لو كانت الهررة تطارد الفئران. كان من الطبيعي والمعقول المنتظر أن تضع اسرائيل كل اللوم على القوات اللبنانية. وأنا لعدم خبرتي في هذه الأمور، لم أستطع فهم

ما كان يجري بالرغم من أني كنت داخل شاتيلا يوم الجمعة بعد الظهر أراقب الدخان المتصاعد على بعد نصف ميل (٨٠٠ متراً) من حيث كنت واقفاً أتكلم مع واحد من الميليشيات، فقد أشار لي بأن القتال لا يزال مستمراً. كما رأيت آخر يحشو مسدسه، ويدخل مخيماً كنت قد عرفته من قبل. وتوقعت ما سيحدث، وكتبت في ذلك تكراراً، ولم استوعب أن المجزرة التي كنت أخشى وقوعها كانت تحصل هنا، وفي هذا الوقت بالذات، وعند استعراض هذا الواقع، أتذكر ما افترضناه أنا وزملائي، من أنه ماذا كان يمكن أن يحصل، لو أن العالم كان قد عرف بما يجري قبل يوم واحد. ان المذابح حصلت بالتأكيد طوال يوم الجمعة، وصباح السبت. كنت اعتقدت أن الفلسطينيين هربوا من المخيمات يوم الخميس، كما حصل في حزيران عند الاجتياح الاسرائيلي بالطائرات والدبابات، والمدرعات والأساطيل، ولكن ظهر لي أني كنت مخطئاً، فالعديد منهم اعتقدوا أن الحرب قد انتهت، وليس لهم أن يخافوا شيئاً من الجيش الاسرائيلي. بالطبع كان الفدائيون قد تركوا المخيمات في عملية الاخلاء ولم يبق إلا هذه الفئة التي حاولت الهرب، فوقف في وجهها الاسرائيليون، والجيش اللبناني أحياناً، ومنعوها من النجاة عشية الاجتياح في الخامس من حزيران، وإذ كان الجميّل يقدر إمكانية حصول مثل هذه المجازر، في ظل الاجتياح الاسرائيلي فقد حاول كبح جماح رجاله، وضبطهم، ومع ذلك فان قواته قامت خلال الصيف، بتحرشات وعمليات ضد الفلسطينيين، على نطاق ضيق في لبنان الجنوبي، حيث كانت قبضته عليهم أقل شدة، وكان لم يعد سراً، رغبة اسرائيل الملحة في إشراك القوات اللبنانية بالقتال. فبدءاً من بيغن، نزولاً كان الاستياء من عدم اشتراك المسيحيين ظاهراً، من أجل ذلك قاموا بتدريب الكوادر، والقادة في القوات اللبنانية. كانوا يعرفون، في اسرائيل، ان الميليشيات يعتبرون أن الفلسطيني المرغوب فيه عندهم، هو الفلسطيني الميّت وأن مذبحة أو اثنتين على نطاق واسع، هو ما يضمن خروجهم من لبنان وإلى الأبد - (وبالإضافة فالاسرائيليون أيضاً حاولوا إشراك الجيش اللبناني بالعمليات، هذا ما قاله ضابط لبناني للجنة كاهان، ذاكراً أن الجنرال ري، صحبه إلى المطار حيث كان يجتمع بالميليشيات، وهناك طلب منه إدخال الجيش إلى المخيمات، وقال له، «إذا كان رجالك لا يدخلون فان لدينا من نعرف أنه يفعل ذلك» وقد رفض الضابط هذا العرض. أما حرّاس الأرز وهو تجمع صغير كان قد ضمه الجميّل

إلى قواته في سنة ١٩٨٠ فقد كانوا قد أقسموا على قتل أطفال الفلسطينيين. لأنهم متى كبروا، سيصبحون مخربين. ألم يقل بشير عبر السنين. أنهم كانوا « شعباً لا لزوم له في لبنان ». « لن نهدأ حتى يقتل اللبناني المخلص فلسطينياً واحداً على الأقل ». قال لي أصدقاء لبنانيون من الأقل ميلاً للقتال. ان الفلسطينيين كانوا يزكون نار العداوة. بالعودة إلى المخيمات وتشويه الجثث من قتلاهم وعرضها للعموم، اذكاءا لنار البغضاء. للقوات المسيحية. وإظهاراً لوحشيتها، وأنه لمن المؤكد أن هذا الحقد المتأصل نحو الفلسطينيين، هو ما أظهر رغبة اسرائيل. بعقد محالفة معهم في سنة ١٩٧٦.

وأمام ما كان من استنكار لمذابح صبرا وشاتيلا، فقد أعلنت قيادة القوات اللبنانية، براءتها من المذابح. كان أسلوبهم الدعائي، هو أنهم تتبعوا الحوادث ساعة فساعة، وكانوا على معرفة بما كان يجري، وقد نقلوا تقارير مخبريهم بأمانة إلى أسعد جرمانوس، القاضي العسكري، المولج رسمياً بالتحقيق في هذه المجازر، والقوات كانوا يعرفون أن الخطر لن يكون كبيراً من هذا المرجع. فجرمانوس كان قد وضع سابقاً تقريراً، بعجزه عن إحضار العدد القليل من أولئك الذين اقترفوا عشرات الآلاف من الجرائم الماثلة في لبنان منذ ١٩٧٥، وعلى هذا فقبل البدء بتحقيقاته الجديدة هذه، أشار إلى أن المذابح هذه، لم تكن شيئاً يذكر بل مجرد كذب ومبالغات. (فهنالك مايتا قتيل لا غير) ولكن، ضمناً، تخوف قادة القوات اللبنانية بعد المذابح من الإشارة إلى المشاركة فيها مع اسرائيل، على ما جاء في تصريح فادي فرام نفسه. بقوله: « كنا شديدي التخوف من ذلك، وقولنا نعم، لم يكن إلا لنتفادى الدخول في دوامة مع اسرائيل »، انه من الصعب فهم ما كانوا يرمون إليه. أو ما كانوا يرجون أن يفهم الناس منه، وهل أن الاسرائيليين، وعلى الأخص الموساد، جماعة استخباراتهم. الذين كانوا يديرون القوات اللبنانية، كان لديهم سرٌّ خفي وكانوا يهدّدون بكشفه. فيما لو امتنع المسيحيون عن الاشتراك بالعملية. مع أن مثل هذا لم يكن مقبولاً كعذر، لأن سياسة الاسرائيليين كانت قد أعلنت ما كان في وقت ما سراً. عن مدى علاقتهم بالمسيحيين، وهو ما لم تكن قد استراحت لإذاعته القوات اللبنانية.

ولكنهم كانوا يشيرون إلى أن الاسرائيليين قد انزعجوا من عدم رغبة القوات المسيحية. التي تسميها اسرائيل (عساكر الشوكولا لعدم كفاءتها) بالمشاركة في العمليات

وهذا يوصلهم إلى حل وسط من الاعلام، يخفي ما قامت به هذه القوات. ومع كل ذلك فان بشيراً كان قد رفض توقيع اتفاق مع اسرائيل يلزم جنوده بحرب مع الفلسطينيين، فهو منذ أن انتخب رئيساً، وبدأ يدرك أعباء مهمات الوظيفة كان يرفض مشاركة اسرائيل. إن الدول العربية، برغم أنها أظهرت ضآلة ما استطاعت تقديمه، من مساعدات لمنع الغزو الاسرائيلي أو وقفه، لن تقبل باتفاقية سلام جديدة. فهذه ستكون خيانة ثانية في صفوف الوحدة (وحدة الصف العربي) مع التأكيد أن لبنان، يحتاج إلى العالم العربي، لبناء اقتصاده وإعادة العمران، ولا غنى له عن المال العربي، ومساهمة العرب بالمشاريع والأعمال، وهكذا كان لبشير، كرئيس، الدافع الكافي، لتغيير رأيه، كما أصبح لديه الجواب الفوري عندما تحاول اسرائيل الضغط عليه للمشاركة، وقد كان يُصرح للمقربين إليه أن القوات اللبنانية، لن تشارك في الحرب، وأن الوسيلة الوحيدة لتحقيق وعده لبيروت الغربية هي أن تتخلص بيروت من منظمة التحرير الفلسطينية، بفتح ثغرة يهرب منها الفدائيون، إنقاذاً لأنفسهم، إلى الضاحية. وفي كل حال، فقد كانت خطبته «التحريرية» جزءاً من حملته الانتخابية، مصممة لإقناع المسلمين أنه كان قوة لا تقاوم.

وإذ كان في المخطط أن تفرض الخدمة العسكرية الاجبارية على تلاميذ المرحلة الثانوية من المسيحيين، في ما كان يسميه بالمناطق المحرّرة، استجدى من اسرائيل السلاح، والملابس العسكرية، واجراء التدريبات اللازمة، إذ كانت تأمل أن يزجّ بجنوده في حرب مع منظمة التحرير. ولكن بدلاً أن يولّي الفلسطينيون الهرب صمدوا وحاربوا في بيروت لأكثر من شهرين ونصف الشهر، وربحوا بذلك عطف العالم الخارجي بأغلبيته. وتصرفهم الشجاع هذا المشفوع بقوة الإيمان، خلال الحصار الاسرائيلي المؤقت، أزال الحقد الذي سببه ما كان من تصرفات سيئة، خلال السنوات التي قضوها في لبنان، من نفوس الناس، أو ربما كانت هذه المساعدات، تشير إلى أن اسرائيل إنما عملت على تسريب جنود القوات اللبنانية إليها، بقصد تحقيق مراقبة فعلية على العناصر التي تحسبها مفاتيح القوات والقيادات. وقد ورد في تقرير كاهان، ان الجنرال ايتان، فيما ذكر عنه قال في ذلك اللقاء الأول المميت، في الصباح الباكر من يوم الاربعاء «اعطوا الأوامر لقادة الكتائبيين ليحققوا التعبئة العامة، لكل ما لديهم من قوات، ويفرضوا إقفال جميع المناطق التي هي تحت اشرافهم، ويتهياءوا لأخذ مواقعهمْ في القتال». فانهم أمروا بذلك، كانت تلك حقيقة

عن ايتان ـ الذي بعد انتهاء المجازر يوم الأحد اللاحق قال: « نحن لا نعطي الكتائبيين أوامر. ولسنا مسؤولين عنهم. ان الكتائبيين لبنانيون ولبنان لهم، وهم يفعلون ما يرونه مناسباً » والتقرير لم يعط تفسيراً لهذه الفكرة المذهلة، ففي التصميم على اخفاء هوية المسيحيين الذين انغمسوا في تنفيذ المذبحة ـ ان هنالك مثل قديم يقول: « اليد التي لا تقدر أن تكسرها قبّلها وادعُ لها بالكسر » وهو من الأمثلة التي يحفظها اللبنانيون، ويعملون بها، فهذا ما فرضته عبر العصور أوضاعهم، كشعب يحتله حاكم غير مرغوب فيه. أو ربما كانت القوات اللبنانية أو أسيادها يفعلون ما هو طبيعي، نظراً لكونهم تعبوا من سخرية الاسرائيليين، رفاقهم في السلاح ـ بهم. ولتلهفهم لقتل الفلسطينيين، الذين يتهمونهم بقتل بشير الجميّل، انه لم يعد موجوداً ليردعهم. ان ضباطهم، بلا استثناء، كانوا في غالبيتهم قد تدربوا على أيدي الاسرائيليين. وكان لهم أصدقاء بينهم، لقد كان هناك دائماً شيء واضح عن شخصية بشير في نظرته نحو الانسان، وعن تصرفاته مع رجال ميليشياته. شيء يظهره أحيانا بصورة مستر هايد، لا بصورة الدكتور جاكل، في نزعاته؛ ولكن مهما قيل عنه، فمما لاريب فيه أن ضباطه كانوا أذكياء وذوي فطنة.

أو ربما كانت تلك قاعدة المافيا، باتخاذ السكوت وسيلة لقضاء الحاجات. وأما أنها كانت المرحلة الجديدة التي يقومون بها مع اسرائيل، فان القوات اللبنانية، وكثيرون غيرهم من اللبنانيين باتوا يعتقدون الآن، ان اسرائيل لعبت عليهم، ولا مانع من وضع اللوم كله عليها. والدولة الاسرائيلية اعترضت بشيء من العدالة، لكون لبنان، ودول العالم، تضاعف من حجم مسؤولية جيشها في المجزرة. وما هو مؤكد، ان شارون ألمح إلى أن الاسرائيليين، وافقوا، وخطّطوا، وراقبوا العملية، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً، لإيقافها ووقف التقتيل الذي كان يجري بصورة واضحة على الساحة، بفضل الأنوار الساطعة المسلطة على المكان، التي أتاحت لهم وضوح الرؤيا من مراكزهم المحيطة بالمخيم (وقد كان خطأ مفتعلاً أو تشبثاً أكيداً، أن يتمسك كاهان بأن الجنود الاسرائيليين، لم يتمكنوا من رؤية ممرات المخيم، حتى باستعمال التلسكوب الجبار، من على سطح مكان المراقبة، لأن الصحافيين الذين تسلقوا إلى السطوح، في الطابق السابع من البناء، لم يجدوا أية صعوبة برؤيتها بالعين المجردة) بيد أنه مما لا ريب فيه أن المذابح قام بها المسيحيون أنفسهم، حتى ولو أن شهادة أحد الناجين والعثور على طوق كلب من كلاب الجيش الاسرائيلي،

كانت تضع جيش شارون في قلب المكان. ان بعضاً من جنود حدّاد اشتركوا، بواقع أن بعض الناجين شهدوا بأنهم سمعوا جنوداً يتكلمون بلهجة جنوبية، وينادون بعضهم بعضاً بعلي وعباس وهي أسماء لا يستعملها إلا المسلمون الشيعة، الذين كان عددهم في جيش سعد حدّاد كبيراً. ولكن هؤلاء المشاركين من جنود سعد حدّاد، كانوا يعملون لحسابهم لا بأوامر من قادتهم. فضلاً عن كون حدّاد لم يكن على علاقة جيدة مع القوات اللبنانية، ليشترك رسمياً بمثل هذه العملية الشديدة الحساسية، وقد قال شارون: «لماذا كل هذه الضجّة حول قتل الغوييم» (لقب غير اليهود عند اليهود) بعضهم بعضاً، ووضع اللوم على اليهود، ومع ذلك فقد كان مثل ذلك التنصل عبر العصور هو السبب في اضطهاد اليهود (انها وللأسف مقولة العالم في أن دولة اسرائيل تمثل الديمقراطية وسط دول دكتاتورية وانها هي دائماً داود بمواجهة جوليت الجبار العربي) ان العالم يحكم على اسرائيل، على هذا المستوى المضخم من المسؤولية. ولكن لا بأس فان الحكومات الاسرائيلية كانت دائماً عبر السنين تعكس مثل هذه الصورة دفاعاً عن سياستها مع العرب، خصوصاً في لبنان ـ ان بيغن بسبب حصانته السياسية رفض بادىء الأمر أن يسمح للمحققين بالتحقيق معه وبالانتقاص من حقه كرئيس دولة، والفضل كان في انصياعه للمظاهرات الضخمة التي اشترك بها ١٥٪ من الاسرائيليين، وللانتقادات المتزايدة التي رفعها في داخل اسرائيل، أولئك الذين كانوا من العناصر الفاعلة في الجيش الاسرائيلي (ان هذا الوجه المزيف لاسرائيل جيدة، هو الذي كسب عطف الغرب، وخصوصاً عطف الولايات المتحدة الأميركية، التي حمتها، بالرغم من التعديات التي قامت بها عبر السنين باستمرار متزايد، في سلوكها ضد العرب، وهذا المسلك أو بالأحرى المسلك الذي اختاره الغرب، هو الذي ربح فأذعنت الحكومة الاسرائيلية أخيراً لاتباع المناهج الاخلاقية الغربية، ووافقت على التحقيقات التي تجريها الدولة، بعد أن كانت قد رفضتها).

ولكن أمام هذه المجزرة، لم يكن اللبنانيون غربيين، بالرغم من محاولتهم تقليد الغرب في تصرفاتهم ببعض الحالات. (وقد قال جنرال إيتان بشهادته أنه هو كأي انسان آخر يعرف تماماً كم كان عند القوات اللبنانية من قابلية لارتكاب الأعمال الشريرة. وقد شهد أمام لجنة كاهان، انه شعر دائماً بأنه كان يستطيع أن يقرأ في عيونهم التعطش للانتقام إذ أنهم كانوا يشحذون خناجرهم، ولكن لو أن بيغن وشارون، تجنبوا ركوب العاصفة،

لكان المسيحيون فعلوا أقصى ما يمكن ليحذوا حذوهم، وعلى كل حال، فان العالم لم يكن متأثراً إلى هذه الدرجة من قبل، لما كان من مذابح في لبنان، ولماذا اليوم هذا الاستنفار؟

إن نفراً من أصدقائي القدامى في لبنان، وهم في الغالب من الفئات المحايدة، أوعزوا لمعارفهم من مراسلي الصحف الذين صمّموا على كتابة قصة هذه المذابح بكل ما فيها من تفاصيل. قائلين: «ألا تفهمون أننا تعبون من عملكم لنشر الفضائح عندنا، اتركونا وشأننا ألا تدركون، أن المسيحيين أدركوا أخيراً، أنه لا فائدة من الحرب، وان الحرب انتهت. وانه سيكون من الأصعب أن نعمل للسلام، ان مشاكل لبنان التي لا نهاية لها، جمعت كلها في كومة مما يمجه كل ذوق. وكل الذي يهمنا اليوم هو تجنب ما هو أسوأ. ان الصمت عن المأساة المذبحة أصبح واجباً حكومياً، لا مجرد تقرير مضحك كالذي وضعه جرمانوس في تحقيقاته». هذا ما قالته لي صديقتي المسلمة ديانا. وان مجرد التفكير بإجراء تحقيقات شكلية، وبالقوة، من قبل السلطات الرسمية أخافت هؤلاء الناجين من المذابح، فأقسموا على أن القتلة كانوا من اليهود الذين يتكلمون العبرية، وبذلك تفادوا التعذيب المميت، بل أنه زيادة على ذلك، أصبح كتمان المعلومات عن المجازر، ضرورة وطنية، والقادة من المسيحيين والمسلمين، بالرغم من خلافاتهم العميقة، صمموا على أن لا يجعلوا المذبحة تفكك ما بقي بينهم من لحمة قد تجمعهم يوماً.

وكل فئة دينية، كانت لها أسبابها، ولكنهما معاً، وجدا حافزاً مشتركاً لوضع اللوم على اسرائيل. فالمسيحيون شعروا أنهم مستخدمين من قبل اسرائيل، ولم يحاولوا التمييز بين حكومة اسرائيلية، عمدت على الدفاع عنهم، وبين صحافة تقوم بواجبها، ورأي عام غاضب، ومعارضة استعادت قوتها، وكلهم مصمّمون على الوصول إلى الحقيقة. كما لم يكونوا مقتنعين بأن اسرائيل كانت بريئة من اغتيال بشير الجميّل. انهم حتى في أوساط الجميليّين في بكفيا، القرية الجبلية، كما بين البارزين من أعضاء جماعتهم، كانوا يعتبرون أن ما جرى في نهاريا، كان برهاناً كافياً لأن ترغب اسرائيل في لبنان مقسم، أكثر من رغبتها في وجود دولة قوية، يحكمها بشير الجميّل. وعلى ضوء المعرفة السائدة وبما لاسرائيل من سعة اطلاع وقدرة، ووجود كلي، فان اللبنانيين اقتنعوا بأن الدولة العبرية هي وحدها، القادرة على قتل الجميّل، في مقر الحزب الذي هو قدس من الأقداس عندهم. والقادة المسلمون في بيروت إذ تبين لهم أنهم لا يستطيعون عمل أي شيء لمعونة

الفلسطينيين، آثروا طمس الحقيقة، وإلقاء اللوم على اسرائيل. وتصرفهم هذا كان لحدٍّ ما، ما يمليه عدم اهتمامهم بشؤون الفلسطينيين المطبوعين على الحقد ـ (عداء ظهر الآن بعد سنوات من القهر بسببهم خصوصاً بعد التدمير الكبير أثناء حرب ذلك الصيف الذي لم يكن قد حصل لولا وجود الفدائيين في غربي بيروت). ولكنهم في الوقت نفسه، شعروا أنهم محتقرين، ومخدوعين، من قبل اسرائيل. لأنهم لم يقلدوا المسيحيين باستقبال الاسرائيليين في بيروت بالزهور والأرز. وان حرمتهم كانت منتهكة.

صباح السبت عندما وصلت الأخبار الأولى عن المذبحة، إلى غربي بيروت، ذاكرة أن عدد القتلى بلغ ثلاثين قتيلاً، وصل رجل كان يلهث من التعب وهو من الناجين، إلى بيت صائب سلام في المصيطبة الغاصة بالسكان من الطبقة العاملة من المسلمين، وكان صائب سلام البالغ من العمر سبعة وسبعين عاماً، والذي كان رئيساً للوزراء لست فترات، في ذلك الصيف، قد جعل من نفسه المسؤول الأوحد عن المسلمين (مستر سلام أو مستر سلم) في بيروت بفضل تحركه المكوكي في المباحثات المضنية، بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير. أجل بادر هذا الزائر صائب بك بالقول: «يا صائب بك، ان القوات اللبنانية منتشرة في غربي بيروت تقتل وتخطف الناس».

«وكيف عرفت أن هؤلاء من القوات اللبنانية» سأله أحد المقربين جداً من صائب وكان إلى جانبه، فأجاب «لأن هذا هو المكتوب على صدر لباسهم الرسمي، على قمصانهم الحزبية يا سيدي». وقد ردّ عليه هذا المقرب جداً: «أصمت ولا تفه بكلمة إذ متى كنت تعرف القراءة»، وهنا هزّ صائب رأسه مكتفياً بهذا القدر.

إن هزّة الرأس هذه، كانت دليلاً على أن ما حدث كان كما يقول هذا الرجل. وصائب سلام كان قد نبّه بشير الجميّل تكراراً لما يمكن أن يحدث لو أن القوات اللبنانية وقفت إلى جانب اسرائيل في حربها من تقسيم وعنف، لقد عمل الصيف بطوله دون ملل لينقذ منظمة التحرير وسمعتها، وينقذ بيروت، وبيروت الغربية من الأخطار الكثيرة. بل أن هزة الرأس، كانت بمثابة قول، لا يعنيني، لقد كان صائب سياسياً متقاعداً، ومسلماً سنيّاً، وواحداً من تلك الطبقة السنية العريقة في مركز السلطة. إذ ماذا يستطيع مثل هذا المتحذلق، هذا السياسي الذي يفاخر بأنه يملك مؤهلات التاجر الذي يرى الأشياء قبل وقوعها، أن يفعل عندما يواجه بما يراه من تشابه بين الاسرائيليين والقوات اللبنانية في

إظهار جنون العظمة.

أي جنون دفع الميليشيات واسرائيل إلى المخيمات الـي اقرب مواقع الفلسطينيين الى العاصمة. هل أصبحت هذه قرطاجة هـذا الزمـان، لتهـدم وتفلـح وتـرش بـالملـح، لتكون غير صالحة لعودة منظمة التحرير إليها. ما هي الأفكار الشيطانية التي لعبت بشارون، وبيغن، ودروري، والبقية من الجيش الاسرائيلي، هذا الجيش الذي كان يفاخر بأن من مبادئه «نزاهة البندقية» وان الانسان لا يجب أن يَقتل إلا عندما يكون ذلك لضرورة قصوى. وقد أعلن واحد من كبار الزعماء الاسرائيليين كان على علاقة طويلة مع القوات اللبنانية، لبعض رجال الاعلام، عن استغرابه لقيام من كان يبدو أنهم فئة منضبطة بارتكاب مثل هذه الجريمة. وما كان لتخالجه أية فكرة، وهو العالِم بكل داخلية الميليشيات، ربما أكثر من كل اسرائيلي آخر، انهم كانوا قادرين على أن يفعلوا ذلك بصورة خاصة لكونهم جماعة منضبطة.

إن أفضل ما يمكن أن يفعل إزاء هذا التعطش للقتل هو تعيين رؤساء لهم من غير عناصرهم كما كانت تفعل بريطانيا وفرنسا عندما تجند أبناء المستعمرات. هـذه أساليب المستعمرين ووسائل الاستعمار، ومجرد ذكر ذلك يجعل أعضاء المؤسسة الاسرائيلية يفاخرون، رغم الارشادات الواضحة، ان الحرب اللبنانيـة سنـة ١٩٨٢ كـانـت حـرب اسرائيل الاستعمارية الأولى، تماماً كما كان احتلال الضفة الغربية وقطاع غزّة انجازاً استعمارياً من (برا إلى برا) بصورة غير علنية. وقد كان من السهل الاقتناع ان من وجهة نظر اسرائيل. كانـت هـذه العمليـة مجرد عمـل حـربي محض، لا سيـاسي. ولا يصـح الافتراض انهم كانوا يحاولون القضاء على ألفي «مخرب»، لم يكن لهم كما تبين من وجود في هذه المخيمات.

وفيما يتعلق بالقوات اللبنانية، حتى في هذا الجزء من العالم حيث يكون الانتقام طبقاً يطيب أكله بارداً. كان من العسير فهم الخطأ في توقيت هذه المجزرة في وقت غير مناسب. لكن بالرجوع إلى سنة ١٩٧٦، عندما كانت الأحداث في بدايتها، كان من الصعب تتبع التفكير المخيف عند الميليشيات المسيحية، تبرير انتهاج أعمال المجازر المتعاقبة في الحرب الأهلية. فالكرنتينا اعتبرت مبرراً لمذبحة الدامور الواقعة جنوبي بيروت، وهي قرية مسيحية تقع على شاطىء البحر، حيث قتل الفلسطينيون وحلفاؤهم ما بين مائة

وخمسين ومايتين من المدنيين، لا خمسة آلاف كما ادعى بعض رجال الدين المنحرفين منهم، وبالمقابل فقد قتل المسيحيون آلافاً في تل الزعتر. والآن ماذا يمكن للمرء أن يقول عندما يسمع، أن واحداً من الميليشيات قال لجندي في الجيش اللبناني «لقد انتظرت سنوات لأتمكن من دخول هذا المكان» ولكن متى يتوقف القتل؟؟ ان الشبان الذين اشتركوا بالمجزرة قالوا إن قائدهم في الدامور أقسم أن يثأر لأقربائهم، الذين سقطوا في الدامور، ولا يتوقف إلا بعد أن يطرد جميع الفلسطينيين من لبنان. والسؤال كان إلى أين؟؟ ليس من بلد عربي يرغب في أخذ المدنيين منهم وهؤلاء الفاقدو الفطنة من القوات اللبنانية لم يأخذوا ذلك بعين الاعتبار. انهم لم يقدّروا ما كان يلاقيه فيليب حبيب من وجع رأس، في إقناع العالم العربي باستضافة الفدائيين لدى خروجهم من بيروت. انهم كانوا يشاركون الاسرائيليين، باعتبارهم الشعب الفلسطيني، شعباً لا وجود له. وهذا ما أشارت إليه غولدا مئير رئيسة الوزراء في مقابلة أجريت لها مع الصنداي تايمز اللندنية بتاريخ ١٩٦٩ (شعب لا وجود له). واليوم وبعد عقد من الزمان فالفلسطينيون لا يزالون موجودين، غير أنهم بنظر الاسرائيليين هم «المخربون»، أما بيغن فقد سمّاهم في حزيران «بحيوانات تمشي على رجلين اثنتين» وعلى هذا لم يكونوا في نظر اسرائيل جديرين بأن يعطوا اسم اسرى الحرب. ان قتلاهم وجرحاهم وعائلاتهم من مدنيين أو عسكريين، لم تدخل في الاحصاءات التي أجرتها اسرائيل أثناء الحرب في لبنان. واليوم في نهاية أيلول، فقد نقلت نساؤهم وأطفالهم وكبار السن منهم، إلى المخيمات التي هدّمت بالقنابل، والديناميت، والمتفجرات، لتكون مقراً لهم. أما الذكور في سن الخدمة العسكرية، فقد نقلوا إلى معتقل أنصار في جنوبي لبنان. في بادىء الأمر رفضت اسرائيل أن تسمح لمنظمة الغوث والتشغيل التابعة للأمم المتحدة، التي سبق لها أن اهتمت بشؤونهم لمدة ثلاثين سنة تقريباً، بتقديم خيام لهم، كانت تختزنها لهذه الغاية في قبرص. وقد واظبوا على المراجعات بإصرار شديد للمساعدة حتى بدأت الحكومة اللبنانية أخيراً تجرّر رجليها بهذا الخصوص. ومع هذا فعدد من الميليشيات يقومون بهجمات دائمة عليهم بحرية، والجنود الاسرائيليون يتدخلون فقط عندما يخرج هذا عن أيدي هؤلاء، انهم يفضلونهم على الميليشيات التي يساندونها هم. والأكيد أن أكثر هؤلاء المهجرين يفضلون مغادرة لبنان.

في هذه الحالات، يصعب معرفة من الذي يخدع الآخر. غير أن قادة القوات اللبنانية

تعلموا درساً قاسياً من هذه المجازر، وهو أن اسرائيل تستعمل غيرها، ولا يستطيع آخر أن يسخرها. والولايات المتحدة نبهتهم إلى ذلك دائماً، ولكنهم لم يصغوا لقولها. بيد أنه من وجهة نظر بعض قادة القوات اللبنانية فان المجزرة كانت تستحق مثل هذا الثمن. لنأخذ مثلاً ديب انسطاس، الذي كان قبل سنة ١٩٧٥ موظفاً صغيراً في اوتيل السان جورج، فهو اليوم أصبح رئيس شرطة القوات اللبنانية. انه أخبر زائراً بأنه كان يقدر حصول كل الذي حصل، وما جرى كان نسبياً، وقال من المؤكد ان الفلسطينيين خسروا المئات من الشهداء في المخيمات، ولكننا نحن خسرنا بشيراً وخمس وعشرين آخرين في بناية الحزب. وما كان يحسبه هو، ان خسارته كانت أعظم.

الفصل الثاني

والديك.... هل يعرف

في الوقت الذي عدت فيه إلى بيروت، في أواخر ربيع سنة ١٩٧٥، وذلك في المراحل الأولى من تلك الحرب التي كان اللبنانيون يرفضون تسميتها بالحرب الأهلية، كان قد سبق لي أن صرفت القسم الأخير من عشرين سنة، أراقب دول العالم الثالث وهي تعاني من متاعب ما بعد الحرب. وأنا لحسن أو لسوء طالعي، كنت قد أصبحت ذا اختصاص، ولو بعض الشيء في شؤون الثورات ضد الامبرياليات السابقة. من الجزائر، إلى الكونغو، إلى جمهورية الدومنكان، وإلى فيتنام. ولكن لم يكن قد سبق لي أن رأيت مجتمعاً كاملاً كلبنان ينهار بمثل هذه السرعة والشمولية. لقد كان النمو الحضاري في يوم ما، مزدهراً في قسم من العاصمة؛ وفوراً حلّت الفوضى والأعمال الأكثر سوءاً محله. لقد انزلقت بيروت بصورة نهائية إلى خضم فوضى لا ضابط لها، انزلاقاً إن دلّ على شيء فعلى أن لا عودة إلى التعقل والوعي، وبدا أن لبنان كأنه يقع تحت كابوس سحري ولا بُدَّ له من رقيّة. فالحقد المتأصل المكبوت، والاستياء، والخوف، والاشمئزاز عوامل تجري في هذا الجسم الضعيف سياسياً، مجرى الدم في العروق وكان ما فيه من بلاء يتفاعل ويقوى إلى درجة أنّ حصول أي تراخ، أو انخفاض في شدته أمر غير مرتقب.

ففي الستة عشر شهراً من العنف، الذي هو طابع الحرب الأهلية، خسر بلدٌ عدد سكانه ثلاثة ملايين ما لا يقل عن خمسة وثلاثين ألفاً من الضحايا، غالبيتهم من المدنيين، وهؤلاء إذا أخذنا الولايات المتحدة الأميركية قياساً لنا، فيما خسرته في حرب الفيتنام التي دامت ثماني سنوات، من جنود محاربين، واعتبرنا أن خسائر الحروب هي دائماً متشابهة أينما وقعت، لكان ما نجده ليس خمسة وخمسين ألف رجل، بل مليونين ونصف من المواطنين الأميركيين نسبياً مع عدد سكان الولايات المتحدة. بل ربما ضعفي هذا العدد، لأن الاحصاءات في لبنان غير دقيقة، خصوصاً عندما تضخم أرقام الخسائر

لاستنزاف كميات أكبر من المساعدات التي يقدمها المغتربون تغطية لها. وقد استمر العنف مدة طويلة بلا توقف، فما من أحد قبل بإلقاء السلاح جانباً. بل ان نتيجة أي توقف مؤقت كانت زيادة عدد المحاربين، والحصول على سلاح أكثر لبلد كان متخماً بالسلاح في كلا الجبهتين.

لعدة سنين كان السوريون يحتفظون بخمسة وعشرين ألف مقاتل على الأقل، في لبنان، بتكليف من الجامعة العربية. وكان أيضاً هناك ستة آلاف جندي تابعين للأمم المتحدة، بهدف حفظ السلام في جنوبي لبنان، وكذلك كان الفدائيون الفلسطينيون يحتفظون بعشرة آلاف مقاتل، تابعين لمنظمات من هنا وهناك، تحت السلاح، لأخذ دورهم بحماس أكثر وحنكة. كذلك كانت هنالك جماعات مسلحة من عشرات الميليشيات، لحفظ وحماية عدد قليل من البلوكات التابعة للقوات اللبنانية، التي كانت تجهز الغيتو المسيحي في شرقي بيروت بالسلاح الاسرائيلي. وفي الوقت نفسه، فقد اجتذبت اسرائيل إليها، ميليشيات الرائد سعد حدّاد، على طول خط الحدود اللبنانية الاسرائيلية. كما كانت هناك بقايا من الجيش اللبناني، الذي كان قد انقسم على نفسه إلى فريقين، مسلم ومسيحي، في أوائل سنة ١٩٧٦، ليصبح جيشاً على الورق.

هذه كانت الحالة المفجعة في حزيران سنة ١٩٨٢ عندما قامت اسرائيل باجتياح لبنان، وتدمير قوة منظمة التحرير الفلسطينية، وإنزال الاهانة بالسوريين. ولكن مع مرور الأيام والشهور كان ما تغير أقل مما كان منتظراً. وكان ما يبدو حتى يومنا هذا هو أن النفسية اللبنانية، عند بعض اللبنانيين، كانت ترفض بقوة تصديق ما حدث، بينما الآخرون يتبرأون من تحمل أية مسؤولية في حصول هذه الكوارث التي تقع هنا وهناك، بين الحين والآخر. إذ لا شك أن علاج الجرح الآسن النتن، أمر غير مستحب. وكذلك أي تدخل خارجي، واننا إذا أخذنا هذه الأمور مجتمعة، فانها تجمع متاعب لبنان كلها، وتوضح المظاهر المعروفة تماماً، للمسلك السياسي المفتقر إلى النضوج، واستمرارية الأحداث المرتقبة. هذه هي الصورة التي تلقي الضوء على خفايا مقومات الدفاع، في قسم من العالم، حيث يبدو الماضي المرير حاضراً، بكل ما فيه من أهوال، بينما يظهر أن ما فيه من دروس وعبر، كان غير مأخوذ بها بعين الإدراك والفهم في حاضره الراهن، لهذه

الاعتبارات، قررتُ أن ألقي نظرة أدقّ على واقع المسيحيين في لبنان، وعلى الأخص الموارنة، الذين يؤلفون العددية الكبرى، والعمود الفقري في السياسة. ووجدت نفسي مضطراً لأن أحكم بأن الموارنة كانوا غير محمودين، وكانوا سبب العلّة، لأني على وجه التقدير، أعالج نقاط الضعف، دون أن أتقدم منها تقدماً كافياً لاتهامهم أو الافتراض انه لم يترك لهم أي مجال لتحرك حقيقي بديل، بإزاء ما يخططه غيرهم للايقاع بهم (أكان ذاك حقيقة أم افتراضاً). إني قلت سابقاً، اني لست مؤرخاً، ولو أني كنت ذلك المؤرخ، لكنت اخترت الشيعة، أو السنة، أو الدروز، أو بعض أو كل من المذاهب الاثني عشرة الأخرى المعترف بها رسمياً في لبنان، هذه الزريبة التاريخية الخاسرة، في الشرق الأوسط، أو كنت اخترت الفلسطينيين، أو الاسرائيليين أو السوريين، أو المصريين، أو الليبيين، أو العراقيين، أو الايرانيين أو الأردنيين، أو الأميركان أو الروس. فكلهم سببوا ما في لبنان من تعقيدات، بما اقترفوه من خطايا، أكان بسبب الإهمال، أم بسبب تسيير الأعمال. ولكن لماذا اختار المسيحيين من لبنان؟ ذلك، لأني وجدت أنه من الحكمة، وبعد النظر، أن أوضح لأسياد الحرب من الموارنة، قبل أن أزجّ أنفي بحماس (إذ كنت أريد أن أعرف) كيف أن المسيحيين الذين أرادوا، أو هكذا كانوا يعتقدون، لبنان كما كان قبل سنة ١٩٧٥، قد حُجِّموا ليصبحوا طرفاً في الدولة، أو دولة جزئية طرفاً. (هذه الدولة المسيحية الوحيدة، الباقية في الشرق الأوسط، ما دام أن الصليبيين الذين عبروا البحار كانوا لهم نسباً)، رغم ما خططوه وتاقوا إلى بلوغه، ان ذلك من جانب، كان عملاً بطولياً فذاً لا يقل قيمة عن عودة الصهاينة إلى اسرائيل، بعد ما يقارب الألفين من السنين، إذ كان لبنان هو البلد الوحيد، في الشرق الأوسط، الذي قاوم المسيحيون فيه تيار استيعابهم، مع العلم، أن حبهم للسلاح، والعنف، لم يحقق لهم بالتأكيد مستقبلاً مديداً.

أثناء قيامي بتحقيقاتي وتحرياتي (كصحمي)، كنت عرضة لجعلي أداة لكتابة التاريخ، (وهي ليست المرة الأولى أثناء تعرفي إلى لبنان واللبنانيين). كانت محاولاتهم تعطي إلي تقارير منتقاة بعناية، ومشذبة، من التاريخ اللبناني، تحقيقاً لغاية خاصة، وكان يملي عليّ املاء ويفرض فرضاً. ان بشير الجميّل، كان قد سمع مني عما أهدف إليه بتحرياتي، ووبخني لارتكابي ذنباً في إبرازه، في نهضته هذه، وكأنه الولد الماروني المدلل، ثم رمى إليّ

نسخة (فوتوكوبي) لتقرير فرنسي. عن ذبح المسيحيين على أيدي الدروز سنة ١٨٦٠، وكأنه يرمي كرة البايسبول إلى لاعب. أو كأن هذا التقرير رمز تاريخيّ لمرجع قانوني، باعتبار أنه المجلد الذي يتضمن في نظره حكمة الأجيال. وانه مدخل لفهم الموارنة، أو كمرجع مختصر للاجابة على ما قد يكون لي من تساؤلات اليوم وإلى الأبد. بل كان هنالك آخرون. لم يفرنقعوا عني بسهولة. فالرئيس الأسبق كميل شمعون، قرأ عليّ بصورة مطوّلة. من مفكرته الخاصة. ما كتبه المؤرخون الفرنسيون، في القرون الوسطى، بقصد اجراء المقابلة بين ما يصيب الموارنة اليوم، وما واجهه الروم الارثوذكس التابعون للقسطنطينية، هؤلاء الذين أهمل أمرهم أخوانهم في الدين من الغربيين عندما قام الأتراك العثمانيون بذبحهم في سنة ١٤٥٣، (منذ خمسماية وثلاثين سنة) إن النبذة التي يذكرها شمعون في مذكراته، كانت لزمن كانت فيه المارونية بمأزق عسكري وغيرتهم لم تكن لتبدو في ذلك الزمن وكأنها في المستوى الذي يمكنهم من احتلال القسطنطينية!!. بينما كان شمعون بنظر أتباعه الموارنة. واضحاً تماماً، ومتجاوباً مع نفسه. لقد كان يتكلم عن الضمانة الأمنية. وهذا ما كان في رأس كل بحث لدى المفكر الماروني. (الضمانة الأمنية) هي ما قصد أن يزرعها في عقلي وكان شمعون يوجه الاتهام الماروني للغرب (أعني المسيحيين الغربيين) بأنهم لا يولونهم أي اهتمام بل أنهم يتجاهلون وجودهم، ويتمنون لو أنهم يزولون. بينما يتمسك هؤلاء بدينهم بقوة وبعصبية لا تقبل المساومة؛ إنها ظاهرة تشبه الوجه الآخر لظاهرة الشعور بالنقص لا توجد إلا عند أقلية أسقطت إلى درجة مواطن من الفئة الثانية. وهكذا فالغريب عنهم يكون سعيد الحظ إذا وقفت المباحثات معه عند هذا الحد ولم يعودوا به إلى ما قبل عهد الصليبيين، هذه هي الترجمة الموجزة لتلك المحاولات. أما بنظر من تبادلت معهم الأحاديث، فالسياسة اللبنانية لا يمكن أن تفهم إلا إذا قبلت هذه الأرضية لها، (غير أنها في نظري كانت موضع شك من أول نظرة) والأرضية المشار إليها، هي أن اللبنانيين، ينحدرون من أولئك الذين كانوا كبار تجار التحف الأثرية، الفينيقيين. وكل شيء كان مصمماً ومهيأ ليوضع بطريقة خفية في قالب أسطوري، يكون عاملاً في حفظ تماسك الموارنة، في وقت الشدة، وأنا لكوني كنت قد حفظت ما يجب أن أقوله في مثل هذه الاجتماعات، فقد كنت أزن كلماتي بما يناسب المقام. دعيت مرة أثناء تحقيقاتي إلى زيارة أحد رجال الكنيسة الغربيين وهذا كان يقيم في

لبنان، وقد دعاني ليريني قطعة خشبية معلّقة على حائط عنده، كان قد حُفر عليها، كما رأيت لأول وهلة، رسم لفارس بلباسه الأبيض، يشك رمحه في صدر شيطان أسود، ملقى على الأرض، ولم يكن هذا العمل الفني سوى عمل بدائي. وبعد أن حدّقت ملياً بهذا الرسم، رأيت أن الفارس كان يلبس في أذنيه حلقاً ذهبياً، بشكل صليبين، كما كانت حربته مزينة بصليب. فاعترفت لمضيفي اني لم أفهم شيئاً ذا شأن من كل ذلك. فابتسم، ثم انبرى لإيضاح العقدة التي طالما كان يشعر أنها في قلب المأزق الذي يعيش فيه الملايين من المسيحيين الموزعين في الشرق الأوسط، ثم أردف: «انه نسخة لعمل فنيّ يعود إلى القرن الثاني عشر، وجد في قرية مسيحية تبعد عشرين ميلاً عن الموصل، في شمالي العراق» وكأنه بذلك يعطيني تفسيراً لما هو لغز. بيد أن صمتي الغبي، أزعجه ازعاجاً واضحاً. فأضاف: «في عهد العباسيين، الذين كانت بغداد عاصمة لهم، كان المسلمون يحسنون معاملة المسيحيين، ولكنهم كانوا يمنعونهم من امتلاك الخيل، ولبس الحلق، واللباس الأبيض. وإظهار الصلبان علناً، ومن المؤكد، حمل السلاح». فأجبته مقاطعاً، «ولكن الفارس يفعل كل ذلك»؛ «إنه كان صورة لما يتمناه»، قالها بتروٍّ، وربما كان النحّات المسيحي ملهماً لعمل ذلك، من رؤيته أسيراً من الفرسان الصليبيين، لدى مروره في الموصل. هذا ما يفسر اللباس الأبيض، ويظهر ما كان يحلم بأن يلبسه في أذنيه من حلق. كل مسيحي في ذلك الزمن.

ولكن ما كان الذي يمثله الشيطان؟ فأجاب:

«الاسلام. وكل ما قام به. فالمسيحيون كانوا يحلمون، بأن يكون لهم دولة، ويكونون أقوياء. أما المساواة عندهم في ظل أسيادهم، فلم تكن تعني شيئاً، من وجهة نظرهم. فالمرء أما أن يكون حاكماً أو محكوماً. ان المسيحيين واليهود كانوا معاملين بالحسنى لأنهم من أهل الكتاب «التوراة» ويسمونهم أهل الذمة، أو الذين تحت الحماية، وكان عليهم أن يدفعوا جزية أو ضريبة خاصة، ولكن المسيحيين كانوا يكرهون أن يكونوا محميين أو محسن إليهم، فهذا إنما يقبلونه بألم، فالتمثال الصغير، يمثل ما يقصده المسيحيون عندما يتكلمون عن انتصار الكنيسة، لأن الكنيسة في نظرهم، كانت منتصرة على أعدائها»، وسألته أنا «ولكن هل انتصرت المسيحية في الشرق؟»، وجوابه المنمق يمكن اختصاره هكذا «ليس أكيداً أو ربما، ليس لمدة طويلة». بيد أن الاسلام في

انتصاراته التي حققها، في القرن السابع، على الشرق الأوسط، كان حلماً ورؤوفاً بمسيحيي الشرق، ومتساهلاً، في قيام المسيحيين التابعين للقسطنطينية، ببناء العديد من الكنائس المتفرقة هنا وهناك، وكلها مستحدثة. فالمنتصرون كانوا في بادىء الأمر، قد اعتمدوا في الشؤون المدنية على السكان المحليين، الذين كانوا في أغلبيتهم من المسيحيين. أما اعتناق المسيحيين للاسلام فقد كان مطرداً، والمؤرخون على اختلاف ميولهم ونزعاتهم متفقون على استجابة المسيحيين للدين الاسلامي، أكان بدافع التعايش والضغط الاجتماعي، أو الرغبة في التجانس مع السكان أو السير مع التيار، كانت تتم بالاختيار وليس بالإكراه. إذ كان لوجود الصليبيين على شاطىء المتوسط لفترة مائتي سنة، أو أقل قليلاً، في القرنين الثاني والثالث عشر، رحمة للمواطنين المسيحيين. وكانت الغاية، وهي تحرير المسيحيين من نير المسلمين، هدفاً معلناً للصليبيين القادمين.

وبالرغم من الاستقبال الذي لاقاه هؤلاء الأخوة (الصليبيون) من المسيحيين في بادىء الأمر بالترحاب، فقد كان لهم من سوء التصرف ما جعل المسيحيين الشرقيين في بعض الأوقات يسعون للتحالف مع العدو المسلم، فالصليبيون طالما كانوا يقومون بغزوات تأديبية على المواطنين المسيحيين. والصليبيون هؤلاء لدى نزولهم غير المستقر إلى البر في السنوات الختامية لغزواتهم، في القرن الثالث عشر، كان قد اشتهر أمرهم بنهب الاسكندرية وحرقها، كما فعلوا من قبل بالقسطنطينية وكلاهما من المراكز الهامة للتجارة والعلم، فالقسطنطينية التي فتحت أبوابها أمام غزاة المسلمين، في غزوهم لأوروبا كانت لها حضارتها وان نهب الاسكندرية وحرقها وتجاوزات أخرى، دعا المسلمين لإنهاء التمادي بالإحسان إلى المسيحيين في الشرق، فلجأوا إلى فرض تلك المحظورات والتدابير القسرية، وهي ما كان مصدر الوحي لذلك النحات العراقي. مع العلم أن المسيحيين في أواسط القرن الثالث عشر، تحالفوا مع المغول المنتصرين الذين قضوا على الامبراطوريتين: الفارسية، والعباسية. وفي سنة ١٢٥٨ انضم المسيحيون، القادمون من جورجيا، إلى المغول، واشتركوا معهم في ذبح ثمانين ألفاً من الرجال والنساء والأولاد في عاصمة العباسيين – مذابح دامت أربعين يوماً لم يسلم فيها إلا المسيحيون القاطنون في بغداد. ولكن بعد سنتين انتصر المماليك المسلمون على هولاكو، القائد المسيحي في موقعة عين جالوت، الموقعة التي اعتبرت معركة فاصلة من معارك التاريخ، وهكذا تبخرت آمال

المسيحيين النابضة بالحياة في كل أنحاء المشرق. ثم ان المغول (إذا عرفنا أن الفضل في مناصرة المسيحيين يعود لزوجة هولاكو المسيحية) أخيراً اعتنقوا الاسلام. وهكذا فان مسيحيي العراق الذين سخروا المغول، كأدوات لانتقام إلهي، وكمنقذين لهم من بابل الثانية، أصبحوا في أسوأ حالاتهم. انهم عمدوا حتى على رسم صورة لهولاكو وزوجته، دوغوز خاتوم، بملامح شرقية واضحة، على غرار ما رسموا من قبل لقسطنطين وهلن، اللذين حولا الامبراطورية الرومانية إلى المسيحية، قبل ذلك بتسعة قرون. كان المسيحيون عند بدء الفتح الاسلامي أكثر علماً من المسلمين أسيادهم. وقد حذقوا كأطباء في القصور، وأمناء سر، وصيادلة، وما شابه. وقد أعطت سوريا وحدها للعالم المسيحي، خمسة باباوات في القرن الذي تلى ذلك، بالإضافة إلى اللاهوتي حنا الدمشقي، والأخطل أعظم شعراء المسيحية في ذلك العصر، وبفضل معرفتهم لغات غير العربية، قام هؤلاء المسيحيون بمساعدة علماء المسلمين بترجمة الكثير من العلوم من اللغة اليونانية إلى العربية، منها الفيزياء والطب، والهندسة، وأصول البناء وغيرها. أما أولئك الانعزاليون من المسيحيين فقد لجأوا إلى الجبال والهضاب، وما توفره الأرض من مخابىء لهم، ابتعاداً عن سلطان حكامهم المسلمين، هناك عاشوا واستمروا ثم أخيراً تجمدوا. والمسيحيون أكانوا موارنة من لبنان، أو أرمن ويعاقبه من تركيا، أو نسطوريين أو كلدانيين من العراق، فهم يتهالكون في الدب وراء غريب، أو أي ملجأ آخر، ينقذهم من الاسلام ويساعدهم على خلق دولتهم المستقلة. وهم لا يقبلون ما قام به الأقباط في مصر من استسلام للمسلمين، أو ما قام به الارثوذكس التابعون للقسطنطينية (الشرقيون) الذين عرفوا كيف يعيشون مع أسيادهم المسلمين، ولا يطالبونهم بحقوق سياسية. والأقباط والارثوذكس يشكلون الأكثرية المسيحية التي تقطن مع المسلمين في المشرق. ولكنهم رفضوا أن يشاركوا المسيحيين الآخرين مخاوفهم على كنائسهم الأقل شأناً، وطلب ضمانات لها. بينما كان لهم نصيب عبر الأجيال في الافادة من المنافع التي استخلصتها لهم الدول الأوروبية المختلفة عندما بدأت تحصل على تنازلات من العثمانيين، بمنحهم حق حماية المسيحيين جميعهم، والسماح لهم بتوسع فعلي في الممتلكات. بيد أن هذه الامتيازات لم ينتج عنها إلا الضئيل من محبة المسيحيين للأكثرية المسلمة. ولا بد من القول ان أغنياء المسيحيين أظهروا تبجحاً بثرواتهم. مما جعلهم يتوقون إلى الحصول على المساعدة من الغرب ليقلبوا ظهر المجن لأسيادهم

المسلمين. وهكذا أصبح العثمانيون متبرمين من تصرفاتهم العدائية التي ظهرت وكأنها أعمال خيانية. بل كانوا وكأنهم طابور خامس تتعاظم قدرته وخطره لصالح الغرب. ان أكبر الكوارث (وهي غير مرتبطة بهذه) كانت في قتل أكثر من مليون أرمني أو اختفائهم بتحريض من العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، والعامل الأكبر في هذه المأساة كان اهتمام الأوروبيين الشديد بهم وتحريضهم إياهم، عبر السنين على الثورة مما أتاح للعثمانيين ممسكاً قوياً للقيام بأكبر استئصال عنصري يتم بناء لأوامر حكومية.

عندما كنت منتدباً لمهمة في بيروت سنة ١٩٦٠، لعدة سنوات قبل الحرب اللبنانية، غلبني شعور من اليأس عند مشاهدتي على حائط كلية الحقوق في الجامعة الأميركية عبارة «أرمينيا الحرة» قلت ماذا بقي أمام العرب واليهود ليجدوا حلاً لهم ما دام أن الأرمن ما زالوا يطالبون حتى يومنا بإنصاف أرواح موتاهم، وبإظهار عدالة قضيتهم مع العلم أن مائتي ألفاً من المتحدرين من أصل أرمني وجدوا لهم ملجأ في لبنان وقدر لهم النجاح. ولو أن عشرهم اضطر إلى الهجرة أثناء الحرب اللبنانية إلى مناطق أقل عنفاً. وهي على الغالب شواطىء أميركية. لقد حاولت الميليشيات المارونية بالقوة وبعنف دموي، جرّ الأرمن إلى الخضوع لمشيئتهم في سنة ١٩٧٨/١٩٧٩. فالأرمن في لبنان، وهم يعيشون في أوساط مارونية، رفضوا الاشتراك بالحرب، كما رفضوا دفع ضرائب حرب للميليشيات وهذا نتج عنه خسائر في الدخل الذي كان منتظراً، من زبائن دائمين.

والأرمن كانوا منذ سنوات قد حذو حذو الفدائيين الفلسطينيين بإنشاء منظمات فدائية وبتنظيم جيش سري للأرمن يتولى قتل الموظفين الأتراك في خارج تركيا واستعادة دولة أرمينيا الحرة. وتكراراً لما ورد قوله من أن حظ المسيحيين في الشرق في انحدار مستمر دونما توقف، فان ذلك يرجع إلى ما ارتكبوه من أخطاء أكثر مما هو بسبب المسلمين الأكثر منهم عدداً.

وقد سألت صديقي الكنسي الذي ذكرته سابقاً عما يمكن أن يكون لهم من أمل في استمرارية البقاء، مع معرفتي ان المسيحيين كانوا يغادرون اسرائيل والأرض المحتلة لعدد من السنين. كما كان هنالك خروج مستمر من ايران الثائرة وكما كان كذلك الخروج من لبنان وسوريا، والعراق مستمراً وإن كانت وسائل الاعلام لا تشير إليه إلا لماماً.

فأجابني بقوله: «آمل أن لا يكون المسيحيون مجبرين على ذلك لكن قياساً على ما

يقومون به، لا أرى كيف يمكن ملاقاته».

ولكن كم سيستغرق ذلك؟ سألت مستطلعاً، فأجابني:

«قد يكون ذلك بشكل ملحوظ في مدى خمسين سنة، قل مائة سنة أو مائة وخمسين سنة»، قال هذا وهو يحدق في التمثال الخشبي المعلّق على الحائط وقد علّقت على ذلك بقولي «أتستغرب إذا لم يبق مسيحي واحد في الشرق؟».

وبحنكة أجابني: «لا يمكنك أن تقدر إلى أي مدى يبقى النهر الجاري إلى الصحراء ظاهراً قبل أن تبتلعه الرمال»، إن أياً من المسيحيين النيري العقل يمكنه استجلاء الفكرة والصورة. وما يبدو لي، انه ليس هنالك من يستطيع أن يعرف من هم هؤلاء اللبنانيون، أمسيحيون كانوا أم غير مسيحيين. والجواب أنهم قبل كل شيء غير صحراويين، على الأقل، اليوم، دعك مما يقال عن الجذور التي تحدّروا منها. ان ما يجعل لبنان مميزاً في الشرق الأوسط، هو جباله، ووفرة مياهه، ووقوعه المباشر على شاطىء المتوسط. هذه التشكيلة، من التكوينات الجغرافية المتعددة الأشكال والتركيب جعلته صالحاً ليكون ملجأ لأولئك الذين يريدون أن يكونوا بلا هوية. ولبنان الذي لا تزيد مساحته على ٤٠١٥ ميلاً مربعاً أو ١٠٤٥٢ كيلومتراً مربعاً، يعرض لنا تنوعاً جغرافياً طبيعياً، هنا، قمم يبلغ ارتفاعها عشرة آلاف قدماً، (ثلاثة آلاف متراً)، شواطىء رملية، وهنا حقول خصبة، كانت مصدر إلهام لكتاب النشرات السياحية. اسمه مأخوذ على ما يظن من كلمة سامية تعني البياض. ولكن أي بياض؟ وهل المقصود بياض الثلج، أم الحجارة الكلسية، فالله أعلم، طوله أقل من ١٣٥ ميلاً (١٩٦ كلم) وعرضه في أبعد نقطة ٣٥ ميلاً (٥٦ كلم) وهو يقع بين سلسلتي جبال صخرية جبال لبنان الغربية التي تنحدر في بعض الأماكن لتكوّن شاطىء المتوسط الصخري، وجبال لبنان الشرقية (انتي لبانون) التي تشكل الحد الشرقي للبنان مع سوريا وتنتهي بجبل حرمون المكلّل بالثلج، والذي هو بالقرب من الحدود الاسرائيلية. وبين السلسلتين يقع سهل البقاع الذي هو عبارة عن قطاع ضيق خصيب لا يزيد عرضه عن ستة أميال (٩,٦٠ كلم) وهناك سهل خصيب آخر، سهل عكار وموقعه في أقصى الشمال بين مدينة طرابلس والحدود السورية. وتجد وراء سهول لبنان الساحلية التي لا يزيد عرضها على ميل واحد (١,٦ كلم) سلاسل من الجبال والأودية تمتد شرقاً وغرباً وتتصل بجبال لبنان وتعرف بقلب لبنان، والجبل كما يسميه اللبنانيون هو

المركز الرئيسي الذي يعيش فيه الموارنة (الأصح في جزء منه) من هذه المرتفعات المطلة على المتوسط، المكونة من صخور كلسية وحجارة رملية، جيء بالأخشاب التي بنى بها الفينيقيون، والفراعنة، والامبراطورية الرومانية أساطيلهم. أحسن هذه الغابات كانت غابة الأرز، أرز لبنان الذي ورد ذكره في التوراة، فهي التي أعطت المصريين الزيت والصمغ، اللذين جرى استعمالها في عمليات التحنيط. وقد قال مرة أحد أساتذة التاريخ في الجامعة الأميركية «كلما مات عظيم في مصر، جنى لبنان المال الوفير»، ولبنان هو الذي قدم الخشب والعمال للملك سليمان لبناء الهيكل في أورشليم.

الفينيقيون الأول، الذين عاشوا على الشطوط البحرية على الساحل، لم يتوغلوا كثيراً في الداخل، ولم يكن لهم شأن في الاختراعات الهامة. لقد قدموا القليل مما ساعد على تنمية الفكر الفلسفي. ومع أنهم لم يكونوا خلاقين، أو مبدعين، فقد كانوا نقلة كباراً للثقافة والعلوم، ولهم على العموم، يعود الفضل في تجسيد الثقافة. ورغم ما يدعيه اللبنانيون فان الفينيقيين ليسوا أول من ابتكر الحروف الهجائية، ولكنهم نشروها في امبراطوريتهم التجارية، التي امتدت يوماً من الشاطىء اللبناني إلى قرطاجة، (تونس حالياً) وإلى اسبانيا، وحتى إلى ما ورائها، والشاطىء اللبناني كان دائماً ملتقى الشعوب، ولغاتها المتعددة، والمركز الذي اجتذب إليه كل ما كان يعرف بالعالم القديم، ليؤلف مجتمعاً تجارياً هاماً. وقد كانت المدن الفينيقية، أمثال جبيل (بيبلوس)، وبيروت، وصيدا، وصور، منطلقاً للطرق التجارية التي امتدت غرباً عبر المتوسط، وشرقاً إلى الخليج الفارسي، (الخليج العربي)، والهند، والصين وما ورائها.

وهكذا كان لبنان عبر التاريخ، مؤمّناً، استمرارية ما عرف به الفينيقيون. ولبنان الحاضر مثل فينيقيا، ليس لديه فكرة انشاء دولة. فالمدن الفينيقية لم تكن موحدة إلا عندما يحكمها غريب، ويوحد بينها، وعلى بعد قليل من بيروت شمالاً، يقع نهر الكلب، وفي ذلك المكان حيث يتصل الجبل بالبحر، نجد على الصخور تسجيلات لأولئك الذين جاءوا وحكموا، ومن بينهم، الحثيون، والاشوريون، واليونانيون، والفرنسيون، والبريطانيون. ولكن قليلاً منهم من أولى المنطقة الجبلية اهتمامه: كان المهم أن تصل إليهم الأموال المجموعة من ضرائب ورسوم، وأتاوات، وما عدا ذلك لم يكن يثير اهتمامهم.

غير أن ما يحيرني ويلفت نظري، هو كيف يمكن لهؤلاء المسيحيين المنزوين منذ أجيال

في الجبال، هؤلاء الذين يتبجحون باستقلاليتهم ونقاوة عنصريتهم، أن يقارنوا أنفسهم بالفينيقيين أو بمهجني الشاطىء. ولماذا أيضاً يقارنون أنفسهم بالمردة، تلك الفئة التي يتجاهلها التاريخ، ولا يذكرها إلا بكونها شعباً شرساً عرف وجوده في العهد الاسلامي، ووصف بأنه من بقايا البيزنطيين، وكانت مهمته إقلاق الفاتحين المسلمين.

بيد أن الجواب كان واضحاً جداً، وسهلاً، إذ لو استطاع المسيحيون اللبنانيون أن يجدوا لهم نسباً مع الفينيقيين والمردة، لتملصوا من أي اتصال عرقي بالعرب، والاسلام، ان اهتمامهم الشديد هذا، بالتبرؤ من العروبة، بدأ في أوائل القرن التاسع عشر. فكان كل ما يشير لأية علاقة عرقية لهم بالعرب والاسلام يعتبر هباء في الطاحونة المارونية، تلك الفئة من (المسيحيين) اللبنانيين نبذت العالم العربي بكل ما فيه من ثقافة وحضارة، بينما فئة أخرى، من اللبنانيين تفاخر بالانتماء إلى الأصل العربي، وبالثقافة العربية، بجميع فروعها ومتشعباتها. وربما كان السبب في ذلك يعود إلى كون التاريخ الماروني الذي كتب في هذين القرنين، إنما كتبه الكنسيون من الموارنة، أو سواهم ممن كانوا يريدون التبرؤ من أي ارتباط عرقي أو حضاري أو اجتماعي بالعرب. حتى أن رؤساء كنسيون في العصر الحديث اتخذوا من ذلك موقفاً متحيزاً في ما يختص بهذه المحاولات، وبخلاف الزهوّ الذي أوجده مثل هذا الجهد العلمي في الأوساط الثقافية، كمعيار للمواهب السياسية لدى الكنيسة الشرقية، فان هذه المحاولات اعتبرت تزويراً عجيباً.

ولكن، هنا السؤال، من هم هؤلاء الموارنة إذن؟ المعروف ان الاسم مأخوذ عن ناسك يدعى مارون، وانهم كانوا طائفة مسيحية مجهولة المصدر تسكن فيما هو معروف اليوم بوادي نهر العاصي، في شمالي سوريا، حول تلك المدينة المسماة حماه ـ ومما ذكره المؤرخون، أن مارون اكتسب لقبه الكنسي (القديس) بعمله في القضاء على دابر الوثنية في ذلك القطاع من سوريا، (كما أن سواه نال مثل هذا اللقب بأعمال مماثلة) وكل هؤلاء كانوا من الفلاحين الذين اتخذوا موقفاً مغايراً للكنيسة الشرقية الارثوذكسية، التي كان من أتباعها حكّام تلك المقاطعات الواقعة في الشرق الأوسط. فالبيزنطيون كانوا ينظرون إلى الموارنة بازدراء وإلى كل المذاهب المسيحية التي ظهرت قبل الغزو الاسلامي في القرن السابع. وهنا سؤال آخر، «ولكن من أين جاء هؤلاء الموارنة؟ ان التاريخ لا يعطي جواباً واضحاً على ذلك، غير أنه من المعروف أن سوريا كان يسكنها شعوب سامية، قدمت

إليها من نفس المكان الذي هو شبه الجزيرة العربية التي أفرزت أتباع النبي محمد. ولكن المؤرخين من الموارنة، يحرصون على إظهار انهم هربوا من وادي العاصي، عندما وصلت إليه جنود المسلمين، خوفاً من الاضطهاد. بيد أن الوقائع الثابتة تقول، ان المسلمين عاملوا المسيحيين الشرقيين معاملة حسنة، وان مشاحناتهم كانت محصورة بالبيزنطيين حكّام القسطنطينية. وهناك روايات تقـول، إن الموارنـة استقبلـوا الجيش الاسلامـي الفـاتـح بالابتهاج، والرقص، فقد كانوا فرحين للتخلص من النير البيزنطي، وعلى كل حال، ففي وقت ما عقد صلح بين المسلمين والبيزنطيين، ومارست القسطنطينية سلطتها فوق جزء كبير من وادي العاصي خلال مائة سنة. وخلال تلك المدة لم يرد ذكر لوجود للموارنة في ذلك الوادي، ولا وُجدت أية وثائق أو مستندات تدل على ذلك، وهذا ما دعى للتقدير أن البيزنطيين كانوا قد عملوا على إخضاع الموارنة مرة ثانية. وقد يكون كافياً القول إنه في تلك الأثناء. قام الراهب يوحنا مارون، الذي منح لقب قديس في القرن الثامن: بالانتقال مع أتباعه جنوباً إلى شمال لبنان، حيث استقر على شاطىء البترون وجبيل. والموارنة كانوا الطائفة المسيحية الأولى التي تسربت إلى لبنان، بعد الفتح الاسلامي. والطائفة الأولى التي استعملت اللغة العربية في سجلاتها الكنسية منذ البداية. وهذا يظهر انه لم تكن لهم مشاكل مع الاسلام قبل مجيء الصليبيين. وربما قيل في شأن انحرافهم للصليبيين، انهم كانوا أعداء للبيزنطيين كما هم للمسلمين.

وفي القرن الخامس عشر، وليس قبل ذلك، ولدى اضطهاد المماليك لهم اضطروا إلى الهرب من التلال المجاورة للشاطىء إلى مرتفعات وادي قديشا (المقدس). هذا المكان الذي يعتبر حتى اليوم، مركزاً مقدساً عندهم. غير أن الراهب يوحنا مارون، عند ملاحظته خلو المنطقة الواقعة عند انطاكية، رسَّم نفسه بطريركاً لانطاكية وسائر المشرق. هذا اللقب المعظم كان يتلاءم مع نفسية الموارنة الانتفاضية (جنون العظمة)، كما هي الحالة مع بعضهم في لبنان، فيجاهرون بقولهم «الله كبير، لكن مار مارون أكبر».

لقد حاول الكثيرون من مؤرخيهم حياكة ثوب فضفاض لهم. ففي وقت أو آخر مثلاً كانوا يدّعون ان البطريرك مارون (الذي لم يزاول ولا مرة واحدة سلطة بطريركية في المشرق) هو الخليفة الشرعي للقديس بولس، مؤسس الكنيسة في انطاكية. هذا الادعاء، إنما طرح ليثبت مكانة المارونية في قدرتها على توطيد سرمدية الارثوذكسية وتدعيمها،

فيأخذون بادعائهم هذا، المكانة التي لروما ـ (وبالواقع فالموارنة كانوا يحاولون أن يثبتوا، بشتى الأساليب البراقة، اعتقادهم الهرطقي. ا بالأحـدية) الذي يقول ان المسيح كانت له طبيعتان متحدتان، لينتج عنهما قوة واحدة ومشيئة واحدة (وهي عدد من المبادىء العقائدية التي أدانتها روما وبيزنطية في العهود المسيحية الأولى)، بيد أنه من الاجراءات التي أكسبت المارونية طابعها الحاضر، هو أن البطريرك الماروني، أرسل إلى البابا في روما، في سنة ١٠٩٩ بعد انتصار الحملة الصليبية الأولى، واحتلال القدس، رسالة تهنئة، وهكذا بدأ الموارنة علاقات مع الغرب، لا مثيل لها عند الطوائف المسيحية الشرقية الأخرى. وهذا ما يؤكد ظهوره وجود عائلتين مارونيتين في لبنان، هما عائلة فرنجية، وعائلة دويهي، وكلاهما تدعيان تحدرهما من الصليبيين. ذلك ما تشير إليه كلمة فرنج للدلالة على فرنجية، والمدينة الفرنسية دواي، للدلالة على دويهي التي كان منها في الحملة الثانية، فرسان مرموقون. وقد أخبرني أحد أصدقائي من الموارنة، مستعيداً ذكرياته، انه عندما كان يقرأ شجرة العائلة في سن مبكر، أكدت له والدته، ان العائلة تعود في نسبها إلى أحد قادة الصليبيين الذي يدعى غودفري ده بويون ـ والموارنة كانوا قد قدموا للصليبيين رماة، ليحاربوا إلى جانبهم، كونهم أخوانهم في الدين، وهذه كانت كما نعلم، رغبتهم الطبيعية. والصليبيون الذين كانت مراكزهم في طرابلس، وعلى شواطىء المتوسط كانوا أيضاً على عداء مع البيزنطيين ـ أعدائهم، وكانوا يعتدّون بمهارتهم الحربية غير أنهم في موقف آخر ثاروا ضد الصليبيين، معاقبة لهم، لمساعدتهم المسلمين. أما الصليبيون فكانوا يسمون هؤلاء المرتدين (الرجال الدمويين) كانوا كما هم اليوم أبناء الجبال. لهم قوانينهم الخاصة، وكانوا دائماً شكوكين بالسلطة، ومع هذا فقد قامت الكنيسة المارونية (التى كانت طوال التاريخ الماروني تلعب دورها باستقلال) بإرسال بطريرك يمثلها إلى روما. وقد كتب المؤرخ وليم الصوري، فيما سجله ان الموارنة غيروا ما في نفوسهم بعودتهم إلى أحضان البابا، وبذلك أصبحوا الكنيسة الأولى، التي تعود إلى محور روما في الشرق الأوسط، ورغم الاعتراضات بين صفوفهم فقد ألغيت الهرطقـة الاحـديـة. ولكنهـم حصلـوا على مقابل لـذلـك بتكـريس استقلاليتهـم في مسلكهـم، إذ بقيـت الطقـوس الكنسيـة تتلى بالسريانية، بدلاً من اللاتينية، كما هي في روما، وهي لا تزال إلى يومنا هذا. وكذلك فان البـابـا، لم يعترض على الزواج في الأبـرشيـات المارونيـة، ولا على وضـع الرهبـان

والراهبات في بناء واحد. لقد كانت روما راغبة في قبول هذه التدابير اللاهوتية، في مقابل اعتراف الموارنة بسلطتها اللاهوتية المطلقة عليهم. ومع الوقت، انتهى أمر أولئك الصليبيين. الذين كانوا قد احتلوا أورشليم، تاركين المسيحيين في قبضة المسلمين الحاقدين عليهم. فأخضعوهم لتدابير صارمة. وقد ظن قبل ذلك بعض المسيحيين المحليين ان دولة المغول الظافرة ستؤمن لهم دولاً مستقلة، فكان ظناً خائباً، كما كانت ظنونهم عبر العصور في أحيان متشابهة. غير أن الموارنة كانوا يشكلون استثناء من هذا المصير، لوجودهم في قمم الجبال، ووقوعهم على شاطىء المتوسط، وشطارتهم في الحصول على علاقات جيدة مع الغرب.

كان للموارنة فلسفتهم الخاصة، التي أعلنوها للغرب، وهي «ان المتوسط لا يشكل الشاطىء الغربي لآسيا، بل الحدود الشرقية للمسيحية». ومع هذا فقد قام المسيحيون أخيراً على الصليبيين، وبذلك أتاحوا للمماليك فرصة الانتصار عليهم، وطردهم، وتمكنهم من احتلال مدينة طرابلس سنة ١٢٨٩، ـ وهؤلاء المماليك كانوا عرفوا مدى خشونة الصليبيين وقسوتهم، وشدة تعصبهم، فانتقموا حتى من المسيحيين الارثوذكس، ومن الأقلية الشيعية لكونهم، أي المماليك، من السنة. وهنا لم يشر التاريخ إلى أنه وقع أي اعتداء على الموارنة في ذلك الوقت بالذات. ومن المؤكد، انهم أي الموارنة، وجدوا طريقهم إلى كسب رضى المماليك بالقيام بتأدية خدمات لهم، ودفع الضرائب، والخضوع للقوانين المرعية، على أن تكون لهم، في معيشتهم طرقهم الخاصة بهم. ولم يسجل أي اضطهاد لهم من المسلمين، إلا بعد أن قام الصليبيون بحرق الاسكندرية ونهبها. فالبطريرك الماروني جبرائيل شُدّ إلى خازوق، وأعدم حرقاً في طرابلس، بعد أن اتهم بالشذوذ الجنسي من قبل الاكليروس الماروني.

وقد مرت مئات السنين، بعد ذلك، على الموارنة، عانوا فيها الكثير من الضعف، والفوضى، والتشرذم، كما كان اتصالهم بروما غير دائم، وغير منتظم. إذ كان الفرنسيسكان المكلفون من البابا بمعاضدة المسيحيين الشرقيين، على مستوى منخفض من النشاط وخلافاً لما ذكر، فقد قام بعض من الاكليروس المؤرخين، بالادعاء أن جميع الأمراء الذين حكموهم كانوا من الموارنة منذ القدم. وكل ذلك تهرباً من أية اشارة إلى أنه كانت لهم علاقة بالعرب، أو أي خضوع لأمراء من السنة أو من الدروز، الذين كانوا

في المدة الأخيرة أسيادهم. ومن جهة أخرى فالتسجيلات تذكر، ان العامل الأقوى في ظهور شأن الموارنة في جبل لبنان، يرتبط بالدروز. وهذا بدأ في القرن السادس عشر. والدروز هم مذهب اسلامي يعود وجوده إلى القسم الأخير من القرن العاشر في زمن الخليفة الحاكم، وهو من السلالة الفاطمية الشيعية، خرجوا من مصر ولجأوا إلى جبال لبنان، لنفس الأسباب التي دعت الشيعة والموارنة إلى ذلك. والشيعة كالدروز، كانت لديهم الأسباب الكافية للاعتقاد بأن السنة لا يضمرون لهم الخير، بل يعاملونهم معاملة أسوأ من معاملتهم للمسيحيين واليهود، وذلك لاعتقادهم أن اليهود والمسيحيين أصحاب كتاب هو «التوراة» وهذا ما هو مذكور بالقرآن، وانهم وإن كانوا يطعنون بالنبي، فهم ليسوا كأولئك الذين لا يؤمنون بأنه آخر المرسلين. والدروز يعتقدون ان الحاكم لم يمت، وانه سيظهر ثانية، وهو ما يعتقده الاسماعليون، الذين هم أيضاً من مذاهب الشيعة، والدروز يؤمنون بالتجلي وانتقال الروح إلى جسد آخر. وهم على درجة عالية من الانضباط، مشهورون بقدرتهم الحربية القتالية، ولا يقبلون بمنتسبين جدد إليهم، بل يكتفون بأقليتهم، التي اعتنقت هذه العقيدة الخفية. وقد كانوا طوال المدة التي كانت لهم فيها السيادة شديدي التساهل مع تابعيهم المسيحيين، ومع سواهم، وهي ظاهرة تختلف عن ظاهرة التعصب الذي هو الطابع الأقوى في الشرق الأوسط، وكغيرهم من بعض المذاهب الاسلامية، يلتزمون مبدأ التقية الذي يقول: «أطيعوا أولي الأمر واحفظوني في قلوبكم».

استعاد الموارنة علاقتهم بروما سنة ١٤٣٩، وفي سنة ١٥١٩ أعلن البابا ليو العاشر بأمر بابوي، شكره للموارنة الذين استطاعوا، رغم ما تعرضوا إليه على أيدي الكفرة من اضطهاد أن يبقوا أمناء للكنيسة «وكوردة بين الأشواك». وقد أصدر البابا أيضاً أوامره للموارنة للوقوف في وجه المسلمين، وغيرهم من المشركين، (المنشقين عن الكنيسة) والهراطقة كاليعاقبة، الذين كانوا يحاولون التسلل إلى خارج جبل لبنان المؤمن. وكان فرنسوا الأول ملك فرنسا، وذلك بعد مرور جيل من الزمن، من احتلال الأتراك للبنان قد وقع مع سليمان القانوني، أول تنازل، تقدمه الدولة العثمانية بتفويض الفرنسيين، القيام بحماية الأوروبيين، ومسيحيي غرب آسيا. والموارنة يعطون الكثير من الأهمية لحصول علاقة كهذه، مع الدولة الفرنسية، متجاهلين الفاتيكان. غير أن الواقع الجغرافي وأسباب الانتقال الصعبة، حالت دون اعطائهم المساعدات الفعالة، فكلا باريس والقسطنطينية

يبعدان كثيراً عن لبنان. وبعد مرور نصف قرن تقريباً في سنة ١٥٨٤ فتحت في روما جامعة لتعليم القساوسة الموارنة. انهم كانوا حتى ذلك الوقت لا يزالون يعيشون في عزلة في المجالين. الاجتماعي والسياسي. كما كان البطاركة ملاحقين - حتى من قبل الموارنة أحياناً - وكانوا يضطرون إلى مغادرة مركزهم في قنوبين هرباً، والاختباء في الكهوف ومن المؤكد. ان اثنين من البطاركة. اتخذوا ملجأ لهما عند الأمراء الدروز في الجبل اللبناني الجنوبي.

وبعد قرن من ذلك التاريخ، أتيح لهم أن يقوموا بالخروج من عزلتهم، برأفة ورحمة من الأمير الدرزي فخر الدين. إذ كان ما لمسه الأمير المعني من تنظيم الكنيسة، مما دفعه على تشجيعهم لمغادرة المغاور الشمالية المنعزلة. انه كان يعتمد على نشاطهم لتغطية المفروض عليه. من أموال أميرية للدولة العلية. وقد اندفع الموارنة جنوباً إلى كسروان، التي كانت مقراً للشيعة المسلمين، فأجبروهم على النزوح إلى سهل البقاع، كما حدث أيضاً أن وصل الموارنة إلى المناطق الدرزية في الجنوب، بأعداد كثيرة. وبقيادة قساوستهم ورهبانهم بنوا (رهبانيات) أديرة واستعملوا الأودية والأراضي للزراعة. في هذا الوقت لا قبله، بدأت الكنيسة تحصل على أملاك خاصة بها. مساحات كبيرة من الأرض عرضت عليهم، كإغراء يجعلهم ينزحون جنوباً. على أن يستصلحوها، ومن ثم يتملكوها بعد مرور عشر سنوات.... وفي أوائل القرن الثامن عشر، كانت منطقة كسروان قد أصبحت مقاطعة مارونية صرفة. وأصبحت الكنيسة أكبر كنيسة، غنىً وتنظيماً في جبل لبنان. وفي أواسط القرن التاسع عشر. كان ما قد أصبح ملكاً للأديرة يعادل ربع أو ثلث الأرض في لبنان، على وجه التقريب. وهذا النزوح أفاد الموارنة أيضاً، بأنه أتاح لفلاحيهم أن يتملكوا أرضاً خاصة بهم. ولولا الكنيسة، وعلى الأخص الرهبان، الذين كانوا رواداً لهم، لما استطاعوا أن تكون لهم الامكانيات ليتمركزوا سكنياً، ان طريقتهم هذه، كانت درساً اقتبسه الصهاينة، واعتمدوه في القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، في فلسطين.

وما نجاح الكنيسة المارونية إلا بسبب انتهاج أسلوب اتبعوه، بل توارثوه صعوداً من الراهب إلى البابا في روما. وهنا توقفت الكنيسة عن استعمال السريانية لغة لها، إلا في القداس - لأن الرهبان وجدوا، ان اللغة العربية كانت الوسيلة الأسرع للتفاهم مع الفلاحين الأميين.

في القرنين السابع عشر، والثامن عشر، أصبح الموارنة أكثر قوة من قبل، إذ كانوا قد لاقوا تشجيعاً ليندفعوا جنوباً، إلى المكان المعروف اليوم بطريق الشام في وسط البلاد، وإلى الشوف، ثم إلى جزين، ثم فيما بعد جنوباً، إلى ما هو اليوم، الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية. وهكذا فان الحزام الماروني والمسيحي، أحاط بالدروز في المناطق الكثيفة بالسكان في الشوف، وبالقرب من بيروت، وبعبدا، وعاليه، ثم ان منطقة الجبل الماروني، الذي كان محط أنظار الموارنة، باعتباره مأواهم، ومسكنهم، بقي تلك القلعة التي كانوا يشعرون دائماً، بأنها ملجأهم الأمين، كلما وجدوا أنفسهم مهدّدين. وقد كانوا حتى أواسط القرن التاسع عشر، يعارضون في تعبيد الطريق بين دمشق وبيروت، خوفاً من أن تزحف عليهم جنود الدولة العثمانية، في كل مناسبة بسهولة وسرعة. ومما يظهر منهجهم المنحرف هو قيام مؤرخيهم بالتقليل من الدور الدرزي في حكم لبنان، لأنهم كانوا دائماً يرمون إلى قطع ذكر كل ما يمكن أن يربطهم بالعرب، وإثبات كل ما يمكن أن يظهر تحدرهم من الفينيقيين العمالقة الوهميين.

وكائنا ما كانت التعقيدات السابقة، فان الجديدة منها هي أكثر خطورة. وانتهاجها يهدف إلى وضع البلاد على كف عفريت. ان تلك السنوات العشرين في أواسط القرن التاسع عشر، سنوات الحرب الأهلية، كشفت عن صراع طائفي، ودفعت بلبنان إلى خراب كلي تقريباً. ان اللبنانيين الذين حصلوا على حكم ذاتي من السلاطين العثمانيين، برهنوا على أنهم غير جديرين بتصفية خلافاتهم السياسية. وأمام ما تبين انه طابع دائم، جرّ عليهم أضراراً متزايدة وباطراد، فاللبنانيون أصبحوا الضحايا الدائمة للتنافس الدولي ـ وهو ما يعرفونه أنفسهم. ولم تكن هي المرة الأخيرة التي يلتمس فيها اللبنانيون التدخل الأجنبي، احتكاماً إليه لحل مشاكلهم، فكان أن تورطوا دائماً بتعقيدات سياسية قبل أن يبدأ هؤلاء الأغراب بتحقيقاتهم ومشاوراتهم. هكذا كان يفعل الأتراك وسواهم من الغرباء الذين كانوا يلجأون لمساندة الفئة الواحدة، ضد الأخرى، كوسيلة لكسب مطامع ومصالح لهم. فعل العثمانيون ذلك، لإلغاء الحكم الذاتي الذي كان يتمتع به لبنان، كما أنهم اعتمدوا كثيراً على اللجوء إلى قنصليات أجنبية كان لها مركز في بيروت. وهي شبيهة بما نراه اليوم. فالتاريخ يعيد نفسه، ألا ترى الزعماء اللبنانيين يتهالكون بلا خجل على الارتماء في أحضان العرب، والأجانب على السواء، للحصول على السلاح والمال والرجال.

ولو رجعنا إلى سنة ١٨٦٠ لوجدنا ان الفرنسيين كانوا يساعدون الموارنة، والانكليز يساعدون الدروز، والروس يظهرون أنفسهم كحماة للروم الارثوذكس، والبروسيون والنمساويون يحتجون معترضين على اعطاء فرنسا حق حماية الموارنة والكاثوليك المتوحدين مع روما. قال في ذلك، أحد الموارنة الذي كان لا يوافق على هذا التهالك على الغير، «أنا لا أشك في أنه لولا اندلق فنجان قهوة صدفة على أرض في لبنان، لقام نزاع بين باريس ولندن». وكان العثمانيون يراهنون على أنهم بذلك يضمنون إحكام قبضتهم على جبل لبنان، الذي بقي ما يزيد على قرن من الزمن لا يدفع الضرائب. والأوروبيون أيضاً، كانت لديهم الفؤوس ليقطعوا منه حصة لهم. فالروس كانوا يهدفون إلى تخليص ما كان قد استولى عليه بنو عثمان، من ممتلكات في آسيا. وبريطانيا كانت تهدف إلى الحفاظ على الواقع الراهن، بدفاعها عن العثمانيين، والحيلولة دون أن يحصل المتنافسون من أوروبا على أية مكاسب. وفرنسا كان لها هدفان، الأول حماية المسيحيين وعلى الأخص الموارنة، والثاني حفظ توازن القوة بين فرنسا من جهة، وبروسيا والنمسا وروسيا من جهة ثانية. وقد جاهر أحد الحكام العثمانيين، الذي كان يملك الجرأة الكافية بقوله، ان المبشرين الفرنسيين، وهم ظل البابا والمؤسسة غير القانونية في لبنان، والواقعة في قبضة القساوسة لتجعل منهم عملاء يقومون بإثارة ما يعبث بالسلامة العامة.

وبعد سقوط الأمير بشير الثاني، الذي تولى الحكم من ١٧٨٨ ـ ١٨٤٠ بدأ عهد طويل من عدم الاستقرار، فقام ابراهيم باشا على كره منه، بمساندة بشير ومساعدة فرنسا باحتلال سوريا ولبنان لمدة ثماني سنوات، فهددوا بذلك وجود الدولة العثمانية. فقامت، من جهتها بريطانيا، بإنزال السلاح والجيوش التركية لتفادي مثل هذا التهديد. وأمام ذلك، تراجع ابراهيم باشا إلى مصر، وأجبر بشير على مغادرة لبنان، وانه حتى يومنا هذا وبعد انقضاء عهد فخر الدين المعني بقرنين، لا يزال بشير يُنظر إليه، من المسيحيين، على الأقل، بأنه رمز للبطولة في حقل الوطنية. وهو لم يكن منزهاً عن شنق وسمل عيون أخصامه، وتدمير الارستقراطية الدرزية، ومن يقف معها من المسيحيين كمستشارين، غير أن العنف لم يرهب، ولا في يوم، لبنان. ففي الشرق، الوسيلة المتبعة لدفع العنف هي (الكيل كيلين)، وان ما واجهه الأوروبيون من دهشة بلجوء بشير الشهابي إلى إخضاع أخصامه بالقوة، والاستبداد والطغيان، كان مقبولاً كثمن لعمل وقائي.. وقد أدلى أحد

البريطانيين المقيمين في لبنان سنة ١٨٥٧ ، وهو من المتهمين بالتحيز ، في صدد الجنوح إلى العنف ، بقوله : « إذا حدث أن توقف العنف لأسباب طارئة متيحاً للشؤون الحياتية السير لغايات انسانية ، بعيداً عن الأعمال الوحشية ، فان الأمر لا يخلو من اغتيال خصم ، أو اجتياح منطقة . كما برهنته حرب ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ، فان الأساليب الحديثة ضاعفت ، في الأساس ، الأخطار . فتدمير الخصم ، والاستيلاء على موجوداته ، وإقصاء أتباعه السياسيين ، هي أساليب قديمة ، قدم المجتمع الشرقي . وبشير إنما كان يتصرف طبقاً للتقاليد الشرقية في مجتمعه . وفي وقتنا هذا يظهر ان تلامذته الذين خلفوه في الحكم ، ينهجون نهجه وان لم تتوفر لهم نجاحاته . وما كان يغذي العنف الذي نتكلم عنه ، هو الضغط السكاني والجغرافي ، فضلاً عن أن المسيحيين استطاعوا أن يكنزوا الأموال في سنوات الأمير بشير الأخيرة ، بتشجيع من ابراهيم باشا ، الذي استعان بالمساعدة الأوروبية ، ليحقق توسعاته . على أنه كما هو معروف عبر التاريخ ، عما يسببه حصول أقلية ، كالمسيحيين ، على الثروة والغنى ، أيقظ الحقد والحسد . ومثل هذا الانصراف بل الانجراف إلى الحصول على الثروات وعدم مراعاة التوازن ، يبقى كما كان في الماضي ، سبباً كافياً ، للحقد والحسد . وقد ذكر ذلك رجل انكليزي ، أقام في لبنان بين الدروز من سنة ١٨٤٢ - ١٨٥٢ هو كولونيل تشرشل ، في شأن هؤلاء « الموارنةالانعزاليين ، في الشوف ودير القمر ، حيث كان الأمير بشير قد ساق الارستقراطية الدرزية إلى منفى . فانهم كانوا تجاراً بنوا لهم بيوتاً فسيحة باحاتها ، مبلّطة بالرخام ، ومؤثّثة بالرياش الفاخر . ان كل أملاك الدروز كانت قد وقعت تحت أيديهم . وهكذا وصلوا إلى درجة من الغنى جعلهم يتكبرون على أسيادهم الاقطاعيين . واستطاع رجالهم البارزون ، أن يكدسوا الأموال ويقتنوا الخيول ، وكانت نساؤهم وبناتهم يرفلن بأثواب الحرير والدمقس ، ويتزينّ بأثمن أنواع الحلى ، من حجارة كريمة ، وذهب ولؤلؤ وماس . بينما أصبح العدد القليل من الدروز الذين يسكنون المدينة ، في درجة الانحطاط المعنوي ، قطّاعي حطب ، أو سقّايين للماء » .

ولكن بسقوط الأمير بشير الثاني ، عاد الدروز أصحاب الاقطاع من المنفى ، واستعادوا ما كان لهم من ملك وسؤدد .

بيد أنه لم يكن فقط هذا التباين بين الموارنة والدروز سبباً للتنافر في لبنان . ففي سنة ١٨٥٨ ، قامت ثورة الفلاحين الموارنة ، بدافع من الاكليروس ، في كسروان ، ضد

أسيادهم الاقطاعيين، الذين كانوا يفرضون عليهم ضريبة الانتاج الزراعي، وأمام هذا وقف العثمانيون موقف المتفرج. بينما الفلاحون الدروز، بما تميزوا به من انضباط ظلوا بعيدين عن مثل ذلك، بل بالعكس لهذا التصرف الماروني، فالدروز كانوا يهيئون أنفسهم، لمعركة مع الموارنة، وقد بدأت هذه المعركة، في شهر ايار سنة ١٨٦٠، وقد ربح الدروز المعركة ضد الموارنة، الذين خسروها، بخلافاتهم، رغم تفوقهم العددي، ووفرة سلاحهم. وقد بلغت خسائر المسيحيين قبل نهاية المعركة التي استغرقت شهراً أو يزيد قليلاً، اثني عشر ألف قتيل، في المناطق الدرزية، بينما مات أربعة آلاف منهم، من الجوع والعوز، وبقي مائة ألف مشردين دون مأوى. وفي سوريا، سيراً على خطوات لبنان، بلغ عدد القتلى خمسة آلاف وخمسماية من مسيحيي دمشق. وفي كلا البلدين لم تتدخل القوى التركية، وان كانت في بعض الحالات شجعت قيام مذابح. بل ربما كانت الصدمة الكبرى للمسيحيين، هو أن السنّة والشيعة، كلاهما ساندا الدروز. ومع أنه لم يكن للموارنة أن يلوموا إلا أنفسهم لإظهار العداوة. (وهو درس كان المفروض أن يكونوا قد تعلموه منذ سنة ١٨٦٠) ولعدم مساندة بعضهم بعضاً، بالإضافة لذلك، فان هذه الأحداث كانت قد تركت فيهم جرحاً غير قابل للشفاء، بل كأنما قد حاولوا وحدهم دون غيرهم الحؤول دون أن ينزل بهم عقوبة كبرى اختاروا أن يركزوا خسائرهم على تذكر الثأر لجميع الاضطهادات التي حلت بالمسيحيين في الشرق الأوسط منذ ظهور الاسلام. بينما لم يكونوا هم الوحيدين الذين قاسوا من المذابح. فأعداد كبيرة من الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك ذبحوا، غير أن الموارنة، هم الوحيدون الذين كان عندهم التنظيم، والاحساس القومي، والاندفاع ليجاهروا ان ما كان في سنة ١٨٦٠ هو خطيئة لا تغفر.

وتحت تأثير القوة فقط، برز الموارنة، رغم أنهم خسروا الحرب مع الدروز، برزوا منتصرين سياسياً، وذلك بمساعدة ومساندة من الدول الأوروبية، فقد أنزلت فرنسا جيوشها، بعد انتهاء القتال إلى لبنان. وكان العثمانيون مجبرين على القبول بحكم ذاتي في المقاطعة التي يقطنها الموارنة، تحت إشراف ست من الدول الأوروبية، يديرها مسيحي غير لبناني، من رعايا الامبراطورية العثمانية يساعده مجلس إداري منتخب. وهكذا لم يكن الموارنة في يوم أقرب مما كانوا في ذلك الوقت، إلى تحقيق هدفهم بالحصول على دولة لهم.

وهكذا، ففي سنة ١٨٤٠ صدر مرسوم، جُعل الحكم فيه يرتكز إلى نظام الأقليات ويعطيهم دوراً في السياسة. مع العلم أنه أثناء حكم العثمانيين وحتى قبل ذلك، كان الأقليات يخضعون لحكم زعمائهم الدينيين، الذين كانوا يتحملون تنظيم شؤونهم، وأمورهم كافة. وسياسياً فالتمثيل كان مبنياً على النسبة العددية، ففي لبنان كان هذا ليعني، ان التمثيل كان سيشترك به ست عشرة طائفة، ولو أن الثقل الحقيقي لهذه الطوائف كان مثار نقاش بعد احصاء سنة ١٩٣٢. وكان على كل فرد أن يكون تابعاً لواحدة من هذه الطوائف، أمؤمناً كان أم غير مؤمن.

أما الزواج المدني، أو الطلاق المدني، فلم يكن لهما وجود. والموارنة، الذين لا يباح الطلاق عندهم، كان أمامهم أن ينقلبوا إلى ارثوذكس إذا أرادوا الطلاق، وزواجاً جديداً كما وأن التعيينات في الوظائف، كانت خاضعة أيضاً للتوزيع الطائفي... وقد برهن هذا الأسلوب أنه متير لخلافات كبيرة، وسبب رئيسي في اضطرابات لبنان الأخيرة، لكون المراكز الرئيسية كانت كلها بيد الموارنة، يتلوهم في ذلك المسلمون السنّة. ولما لم يكن هناك من يجرؤ على المطالبة بالقيام بإحصاء جديد، يكون دونما ريب، لصالح المسلمين الذين يشكلون الأكثرية، فقد أخذ المسلمون السنّة يتحركون أكثر فأكثر ضد هذا التنظيم السياسي مع تمسكهم بقوة بما هم عليه في المجتمع الاسلامي.

وإذا كان نظام الأقليات قد أعطى المسيحيين، واليهود، فرصة للاحتفاظ بحياتهم العامة المشتركة، ويصبحون العامل الأهم في التجارة، والمصارف، والحرف المختلفة، فانه أثبت أيضاً، أن الجماعات لم تختلط بصورة فعلية. وهم بكل تأكيد كانوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً، بالتشكيك والازدراء. ففي عهد الأتراك كان السنّة وحدهم هم الذين ينعمون بالثقة بالنفس والاحترام الذاتي.. إذ كانوا يشاركون الخليفة أمير المؤمنين، والسلطان السنّي، هويته المعروفة في العالم. أما الجماعات الأخرى فقد كانت مجرّدة من القوة والمسؤولية، تعيش على الهامش. ان قصر النظر السياسي، والطمع في لبنان، المأهول من المسيحيين، في القرن العشرين، لهما جذورهما، من وجهة نظر المدافعين عن المارونية، وهي تعود إليه بعد معاناة طويلة. فرغبتهم بالنهوض والتمتع بالقوة هما الحافزان لكل ما حدث.

وفي كل حال فان العقود الخمسة بين ١٨٦٠ وانفجار الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤

كانت تعتبر ، أكان من اللبنانيين أم من الغرباء ، عهد لبنان الذهبي. في هذا الوقت الذي كان فيه لبنان المنفصل عن بيروت وطرابلس وصيدا ، كما عن سهل البقاع مزدهراً كما لم يزدهر من قبل. وقد كتب عن ذلك المبشر الأميركي هنري هـ. جصب في نهاية القرن التاسع عشر « إن لبنان أصبح أحسن حكماً ، وأكثر ازدهاراً وأمناً واطمئناناً منْ أية دولة في الشرق الأدنى ». كما كتب عنه المؤرخ اللبناني الأميركي الجنسية فيليب حتّي مؤكداً انه في دورة نصف قرن من الزمان، انتقل مْن العصور الوسطى إلى المدنية الجديثة ـ انه يُغني عن القول، ان حتّي كان يكتب قبل عقود، وقبل أن ينهار في كل أجزائه بسبب الاختلاف في وصف المدنية وتحديد صفاتها. فقد كانت كلمة مدنية، تعنيْ لحتّي والكثيرين من المسيحيين، حتى في أيامنا، أنها مرادفة للتغريب، التي هي مدار الشك في الشرق الأوسط. والتغريب لا يزال يعتبر، من قبل بعض المفكرين اللبنانيين المثال العالمي، الذي يحتذى به بلا خوف من ضرر، وبالتأكيد بفوائد مضمونة ونتائج مفيدة. أكان في العلوم أو التكنولوجيا أو السياسة. والمسيحيون لم يكن عندهم اعتراض، على قبول الغرب بما لديه من معارف نظرية وعملية ومناهج، فالغربيون كانوا مسيحيين مثلهم، وكانوا رواداً ، وحُماة لأخوانهم مسيحيي الشرق. ولكن للمسلمين فقد كان التغريب، حتى للمثقفين منهم، موضوع تساؤل بإزاء عقيدتهم الدينية، لكون التراث الاسلامي لا يفرق بين الدين والدولة. ومن هنا نبع الخلاف، وقد كانت قصة الازدهار المسلم، هي قصة الازدهار المسيحي، ولكنها في كل حال كانت تتحول إلى الاعتقاد والظن باطنياً ، على الأقل، بأنها السيادة المسيحية المدعومة بما يضمره الغرب من ازدراء للاسلام. وتقديراً للجهد المشكور، لأولئك الذين أعطوا الثقافة في لبنان دفعة حيوية، بدأت في سنة ١٨٣٠ ، بوصول مبشرين من البروتستانت الأميركان والكاثوليك الفرنسيين، لأن المسيحيين انصرفوا بفضل هؤلاء إلى التنقيب في كتب اللغة والتاريخ والعلوم، وفيما هو معروف بإحياء التراث العربي، مما ساعد على إحياء اللّغة من الجمود والانحلال. كما وأن المسيحيين، فوق ذلك، انصرفوا إلى ممارسة علاقاتهم التجارية والثقافية والسياسية وتمتينها مع أوروبا وأميركا.

وفي نهاية القرن التاسع عشر، كان لبنان قد فاق باقي أجزاء الامبراطورية العثمانية، بالتثقيف العام، الذي كان في غالبيته، مُداراً من قبل الكنائس المحلية والمبشرين

الأغراب.

فالبروتستانت أوجدوا الجامعة البروتستانتية السورية، التي تدعى اليوم الجامعة الأميركية في بيروت، وذلك سنة ١٨٦٦. ثم بعد تسع سنوات بدأ الجزويت جامعة سان جوزيف، بمنافسة توافقية، جعلت المؤسستين في موقف اتهام من قبل الوطنيين العرب، بانعزال ثقافي - (بعد القسم الأخير من سنة ١٩٢٠ توقف التنافس الكاثوليكي البروتستانتي عندما قلل البروتستانت من نشاطهم في لبنان على أثر ما قام به البطريرك الماروني من عقوبة، لأحد المستجيبين للبروتستانت، فقضى عليه بالسجن، ومات في احدى الزنزانات) وقد انتشرت الطباعة، حتى أنه في الربع الأخير من ذلك القرن، التاسع عشر، كان لدى بيروت أربعون مطبوعة، بينها خمس عشرة جريدة. وفي الوقت ذاته بدأت الهجرة المسيحية، إلى أميركا، ومصر والسودان. طلباً للثروة: فخلال سنة ١٩٠٠ - ١٩١٤ بلغ عدد المهاجرين، مائة ألف لبناني، معظمهم من المسيحيين اللبنانيين، ومن جبل لبنان. قرى برمتها كانت تترك خالية بسبب هذا الاندفاع للهجرة، وفي مصر أصبح المهاجرون اللبنانيون صحافيين، أو أطباء، أو موظفين في الحكومة الانكليزية التي كانت تفضلهم على المواطنين المصريين. وقد بلغت المدفوعات التي يرسلها المغتربون إلى أهاليهم، واحداً وأربعين بالماية من دخل الحكومة اللبنانية، عشية الحرب العالمية الأولى.

لم يكن هذا الوعي العربي بلا نتائج سياسية، واللبنانيون الأذكياء، وأكثرهم من المسيحيين، لعبوا بمختلف الأساليب لبلوغ هدفهم بالحصول على استقلال سياسي. فالحضارة الأوروبية، قدمت مثالين، أحدهما كان شكلاً لاستقلال، ولو بطريقة غير معلنة، للموارنة الذين كانوا يحسبون أنفسهم أمة. والآخر شكلاً للحضارة الأوروبية (خصوصاً في طابعها العلماني) تصلح مثالاً لتكوين وحدة عربية، بفعل سحري، وبأسرع ما يمكن. هذا التفكير، بوحدة عربية كان اتجاهاً مضاداً في أساسه، للخط التركي، بحيث يعرّض الدين الاسلامي إلى مستوى منخفض من الاهتمام، يتيح للمسيحيين، الاختلاط مع أخوانهم المسلمين العرب وبذلك يجدون الوسيلة لخروجهم من وطأة الاعتقاد بأنهم أقلية دينية.

وفي الوقت نفسه كان الأتراك يحاولون، بكل جهودهم، تقوية الرقابة المركزية. أو أن «يتغلبوا على امبراطوريتهم» كما كان يقال، كإلغاء الحكم الذاتي، والحماية الممنوحة لجبل

لبنان، وهكذا، فبقيام حركة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨، وبتنظيم كل شيء تركي، تخوف العرب، وضوعف اهتمام المسلمين بإيجاد الوحدة العربية. ولكن كما قلنا تكراراً، وكما كان دائماً هو الصحيح، فان اهتمام المسلمين بأي خط سياسي كان يكفي لإثارة مخاوف المسيحيين بالغرق في البحر الاسلامي. ومما لا ريب فيه أن المسيحيين كانوا يرغبون في إقفال هذه الدائرة بالذات، ليزيلوا تلك المخاوف التي رافقت نشوء كل المذاهب السياسية في الشرق الأوسط. إن عدداً كبيراً من المسيحيين يشغلون وظائف عالية في أحزاب يسارية في لبنان، وفي العالم العربي.. وان الحزب الشيوعي هو الأقدم في البلاد العربية، وقد تأسس في بكفيا سنة ١٩٢٤ (وهي بلدة الكتائبيين آل جميّل والحزب على نقيض مع الكتائب). وفي سنة ١٩٣٤، قام أنطون سعادة، وهو أرثوذكسي، لبناني، مولود بأميركا الجنوبية، فأسّس الحزب القومي السوري، بهدف ضم لبنان، وسوريا، والأردن، والعراق، (ومن الغريب، قبرص أيضاً باستثناء مصر) في دولة سورية واحدة. وفي سنة ١٩٤٠ قام ميشال عفلق، مسيحي، تعلّم في باريس، وأنشأ حزب البعث، الذي له اليوم جناحان، واحد في سوريا، والآخر في العراق، البلدان المتعاديان، وكلاهما يعترفان له بأنه مؤسس الحزب، اعترافاً شكلياً. وليس من يعرف الفرق بين الجناحين، مع أن كلاهما يعودان إلى أرضية سياسية واحدة. وكذلك أعطى المرحوم جمال عبد الناصر، نوعاً من الوحدة العربية المصرية، أسقطتها حرب ١٩٦٧ الاسرائيلية، وفتح المجال لعودة مصر اسلامية سنة ١٩٧٠. والموارنة مع انقضاء هذا القرن، عادوا إلى ما كانوا عليه من نظرة ضيقة، فوضعوا كل آمالهم في علاقاتهم التقليدية مع فرنسا ـ وكل ذلك كان يبدو طبيعياً، أن فرنسا والمواطنين الموارنة الرأسماليين، سارا يداً بيد، لتنمية قدرة جبل لبنان في فن صناعة الحرير، القديمة، الجزيلة الربح... التي أدخلت عليها تحسينات حديثة، فأصبحت معامل غزل الحرير، ترصع سفوح الجبال، كما كان إحداث تحسينات على بور بيروت، قد أنيط بشركة فرنسية، وهكذا ازداد حجم الاتجار مع العالم العربي في الداخل، بفضل خط حديدي كان يربط بين بيروت ودمشق، وهكذا نمت بيروت من قرية عدد سكانها في سنة ١٨٢٠، ثمانية آلاف، إلى سبعة وعشرين ألفاً سنة ١٨٤٥، وإلى ستة وأربعين ألفاً، في سنة ١٨٦٠، ثم إلى مائة وثلاثين ألفاً، في سنة ١٩١٤. وقد أصبح الموارنة فرنسيي الانتماء، إلى درجة أن أولادهم كانوا ينشدون «فرنسا أمنا الحنونة» وكان

المثقفون منهم يتكلمون اللغة الفرنسية في مجتمعاتهم، حتى أصبح التكلم بالفرنسية نوعاً من الهوية، وهو أسلوب آخر لقطع صلاتهم بالعرب، والعروبة، والمسلمين والاسلام.

غير أنه نظرياً كانت معرفة اللغة العربية مفروضة في المدارس الثانوية كشرط للحصول على الشهادة الرسمية.

لم يصبح المنهاج الحكومي الرسمي إجبارياً في المدارس كافة، إلا من وقت قريب وبالأخص، المدارس المسيحية، التي كانت تضم المسيحيين، ومع هذا فأنا أعرف عدداً من فتيات الطبقات العليا المارونيات، يتجاوزن هذا الشرط. وخلال حرب ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ بدأ الموارنة، الأقل ثقافة، يتخاطبون بالفرنسية بينما أخذ أبناء الطبقات العليا، ينفضون الغبار عن لغتهم العربية، مظهرين بذلك، مساواتهم بالشبان القادمين من الجبال والعمّال من أبناء الضواحي، هؤلاء الذين كانوا المحاربين الفعليين. منذ البدء، كان الانتماء الفرنسي لدى الموارنة، من نوع خاص، تمليه عليهم الرغبات المارونية إذ طالما كانت تؤخذ مشاكل السياسة الفرنسية بعين الاعتبار، فمن وجهة نظرهم الضيقة، كان يجب أن تكون السياسة الفرنسية في الشرق الأوسط مخصصة فقط لتحقيق استقلال ذاتي لهم. ولم يحدث أن خالج العقل الماروني، ان اهتمام فرنسا بتقوية العثمانيين هو العمل على تحقيق توازن مع ألمانيا النامية، والقوة الروسية في أوروبا وأن هذا يبرر ما تجريه من جراحة محلية مميتة تحول دون تحقيق الحلم الماروني. وفي ١٨٦٣ اعطى ضابط فرنسي في البحرية يدعى ده شايلا، تقديراً لوضع الموارنة وبطريركهم. وقد كتب، انه ليست لهم رغبة إلا أن يكونوا محكومين، كالماضي، انهم يتمتعون بامتيازات مدينون بها لفرنسا، حاميتهم، وانه من شأن فرنسا فقط أن توفرها لهم.. (من اتجاهات جديدة، أو متطلبات العصر)، فالبطريرك يرفض أن يتفهم شيئاً أو يأخذ شيئاً، بعين الاهتمام، أو يصغي إلى أي قول وقد تبرم داود باشا الأرمني الكاثوليكي، أول حاكم عثماني للمتصرفية من تصرفات الموارنة المزعجة إذ كانوا يعارضون صلاحياته ومع هذا فقد كتب «أنا موضع اختبار» مبيناً السبب في أنه لن يستخدم الجيش في اطلاق النار على المشاغبين العصاة من الموارنة، لأنه كان سيلجأ إلى القتل، وكان يقول، انه الحفاظ على الستة آلاف مسيحي في الامبراطورية العثمانية، الذي يجعلني أحجم عن ذلك، رفقاً بهم. وفي ١٩١٠ كان القائم بالأعمال الفرنسي في بيروت، هو رينه ريستلهويبر، وكان قد استاء من تزايد غرور الموارنة،

ومطاليبهم، لذلك كتب إلى وزارة خارجيته، انه مستعد لقبول أي اجراء يمكن «أن يذكر هؤلاء بما للسلطة من احترام» وعشية الحرب العالمية الأولى، صرّح القنصل الفرنسي العام بقوله: «إن الشعور بالولاء لهذه الأمة الصغيرة لا وجود له عند السلطات اللبنانية، وان كل واحد من هؤلاء المسؤولين، مستعد دائماً، على حد قول العبارة المعروفة «لأن يحرق البلد من أجل أن يشعل سيكارة».

ومهما بولغ بشأن تصرفاتهم، فان ما تحققه الغرباء هو أن الموارنة (دع ما كان يثار من المبالغة في الاطناب بالإشادة بهم دعائياً)، كانوا غير معنيين في أن يكونوا قد ثاروا غضباً للكارثة التي نزلت بهم من جراء تلك الحرب الكونية. (ما لم يكن موقفهم العاطفي نحو فرنسا، حب غير مستساغ، ان الحرب في أوروبا قد وضعت الدول الست، التي كفلت لبنان، في حلبة صراع ما بينهم. وهكذا الغى الاتراك الحكم الذاتي بصورة مفاجئة، وبصورة تدريجية. عمّت المجاعة السكان الموارنة (وغيرهم أيضاً) وتمركزت الجيوش في الجبل، ومنع دخول الأغذية والأدوية، بطرق البر. والحلفاء أقفلوا الموانيء اللبنانية، ليكملوا بذلك شقاء البلد، وتوقف ارسال الأموال من لدن المهاجرين. ولا ندري، ألأنه كانت هنالك نقمة على الانتماء الماروني لفرنسا، أو لكون البلاد كانت بلا نظام وفي حالة فوضى، مات ربع السكان (أو في تقدير آخر كان عدد الذين ماتوا مائة ألف شخص) من الجوع، والمرض، والأوبئة، التي اجتاحت البلاد، خلال السنوات الأربع للحرب. فهناك قصص أيضاً عن أناس أكلوا العشب، وجذور الأشجار، واضطروا لزرع القمح والحبوب في كروم العنب، لسد العوز. وكم من القرى في كسروان، خلت من السكان بعد أن حلّ بها الخراب.

في سنة ١٩١٨ انتهت الحرب بسقوط وانهيار الامبراطورية العثمانية، وأصبحت جيوش الجنرال اللنبي بمساندة مفرزة فرنسية، مسؤولة عن بيروت التي كانت مزدانة بالأعلام العربية، التي ترمز إلى الهاشميين، حكام الحجاز. فتضارب الصلاحيات كان النتيجة الأولى لازدواجية العمل بين الحلفاء، إذ كانت الحكومة البريطانية قد وعدت الهاشميين، لقاء قيامهم إلى جانب الحلفاء في مواجهة أسيادهم الأتراك، بإعطائهم الحكم في المقاطعات العربية الواقعة تحت الحكم التركي. ولكن بريطانيا وفرنسا، في معاهدة سيكس بيكو اقتطعتا تلك المقاطعات، وعمدتا إلى إخفاء، أو تغطية عذرهما، بإعلانهما منتدَبين من قبل

منظمة الأمم المتحدة فتم بذلك تمركزها وأصبحت سوريا ولبنان، تحت الانتداب الفرنسي. والفرنسيون، لم يكن سراً إعلانهم انهم إنما جاءوا لحماية الموارنة، أصدقائهم، والدفاع عن مصالحهم. وعندما أعلن فيصل نفسه ملكاً على سوريا، رافضاً الخضوع لفرنسا، قام الجنرال المسيحي، الجنرال غورو، بمحاربته والانتصار عليه في ميسلون، قرب السلسلة الشرقية للبنان، وذلك في شهر تموز سنة ١٩٢٠؛ وعلى ضوء ما سمع الجنرال غورو عن المجاعة، عمد إلى خلق لبنان الكبير، بأن أضاف إلى الجبل، الموانىء، بيروت، وصيدا، وطرابلس، وسهل البقاع الخصيب والجنوب والشمال. فالفكرة كانت، جعل لبنان قادراً على الاكتفاء الذاتي، غير أن السكان المسلمين في هذه المقاطعات المضافة، شعروا بأنهم قد خُدعوا، وعلى الأخص السنّة، الذين لم يخفوا اطلاقاً رغبتهم في الانضمام إلى سوريا.

كان هناك نذير بخطر أكبر، لاحتكاكات مستقبلية، وهو أن الحكم الحديدي في المجتمعات المتخلفة كما هي الحالة في لبنان، كان يقول ان الأكثر فقراً، وأقل علماً، ومن يشار إليهم هنا المسلمون كانوا يتناسلون أكثر من المسيحيين. فضلاً عن أن المسيحيين كانوا يهاجرون بأعداد كبيرة، وبذلك يقل الحد المطلوب من السكان، مما يتيح لهم تحقيق قيادة برلمانية ديمقراطية، هي من حق الأكثرية، وهكذا كان الأساس الذي بني عليه الحكم في لبنان، في زمن الفرنسيين، وبعد الاستقلال في سنة ١٩٤٣، هو قبول الموارنة كأكثرية مطلقة في لبنان، تمثل ٣٠٪ ثلاثين بالماية من مجموع السكان. وهذا التقدير الذي كان موضع تساؤل متزايد، لعدم اجراء إحصاء جديد، (بعد الاستقلال) لكون ذلك يؤكد وجود أكثرية اسلامية، حدا إلى التركيز ان تكون للموارنة رئاسة الجمهورية، وقيادة الجيش، وكل الوظائف القيادية الهامة، وهذا كان ما دُفع للموارنة في سنة ١٩٤٣، ثمناً لقبولهم الاستقلال وموافقتهم على ميثاق وطني غير مكتوب، ومقابل ذلك وافقوا على إلغاء الحماية الغربية الفرنسية، وعلى أن يكون لبنان في الصف العربي، وقبل السنّة في مقابل ذلك، امتناعهم عن المطالبة بتحقيق حلمهم، بأن يصبح لبنان جزءاً من سوريا الكبرى، وأيضاً عن إلحاق لبنان بأية دولة اسلامية أخرى. وتكميلاً للنظام المتبع، نظام الأقليات، أعطيت رئاسة الوزارة إلى سنّي. ورئاسة البرلمان إلى شيعي، ووزعت الوظائف، الأقل صلاحيات على الأقليات الأخرى. وقد اتُفق أن تُوزع المناصب العليا، بما فيها المقاعد في

البرلمان، بنسبة ستة للمسيحيين وخمسة للمسلمين، وقد كان للمرحوم جورج نقّاش، وهو من الموارنة المثقفين الذي كان لسنوات يصدر في بيروت جريدة لوريان بالفرنسية، ملاحظات على هذا التنظيم الذي تجسد بالميثاق الوطني، لخصها بقوله: «نقيضان لا يمكن أن يكوّنا أمة» منبهاً بذلك، الرأي العام بخصوص البرلمان اللبناني، الذي يشار إليه بأنه العجيبة العالمية التاسعة، المقدمة إلى ولع العرب، بالحكم العسكري الدكتاتوري. وقد كتب النقّاش بهذا الصدد: «انها غطرسة المال والإقطاع» والنقاش حكم عليه في وقت لاحق بالسجن، لمدة ستة أشهر لأنه وصف المسيحيين والمسلمين بميلهم للاشتراك في اللعبة فيما بينهم، فكلاهما يشكلان طابوراً خامساً.

ومنذ أن قُبل الانتداب الفرنسي في جامعة الأمم كان المسيحيون في ارتباك فكري، حول ما يمكنهم أن يفعلوه، فلأول مرة، منذ ألف سنة، استطاع المسيحيون في الشرق أن يكونوا حكاماً لدولة. والفضل في ذلك للمسيحيين في الغرب. وكأنما كان الصليبيون على صواب لا على خطأ. غير أن الموارنة الذين برهنوا على ذكاء واجتهاد، في حملتهم لتحقيق أحلامهم، برهنوا عند وصولهم إلى الحكم على أنهم لم يكونوا بعيدي النظر. إذ لم يستطيعوا أن ينسوا جراحهم أبداً (باستثناء عهد الجنرال فؤاد شهاب في الحكم ١٩٥٨ - ١٩٦٤) ويتفهموا حاجتهم لإبقاء الفئات الأخرى بحالة الرضى. إن الشيخ بيار الجميّل، يضع غالباً أصبعه على العقدة بقوله: «إن المسيحيين نفسياً يشعرون بالخوف المتأصل في نفوسهم، ولا نستطيع أن نفعل شيئاً لإخفاء ذلك»، ويضيف: «انه من واجب المسلمين أن يجعلونا مطمئنين».

تمكنت الثقافة الفرنسية خلال أكثر من قرن، من اغراء المسيحيين الموارنة على ترك الجبل، وتحويلهم من سكان قرى مجالها ضيق، إلى سكان مدن، خصوصاً مدينة بيروت، التي غدا عدد سكانها، بالإضافة إلى الضاحية، يبلغ نصف مليون نسمة.

بيد أن التعليم بقي محصوراً في الكنائس، أو المدارس الدينية المسيحية، ولم يساعد إلا قليلاً على تفهم وتشجيع التعاون بين الجماعات، وكانت الأمية، والتعرض العدائي للفئات الأخرى، سبب العجز عن تهجين هؤلاء القرويين، الذين اقتلعوا من القرى في الجبل الماروني. غير أنه ولا بد نشأ من فروعهم من يفكر لبنانياً، وهو ما جاء منافساً للفرع العربي، الذي كان يعارض هذه القفزة الفكرية، فالازدهار لا يمكن أن يُكبت في الحنايا،

لحرق التفكير القروي، بل بالانفتاح على العالم خصوصاً العالم العربي، حيث التجارة والوظيفة والمكانة السياسية المحترمة. وكما يحصل غالباً، فالمدرستان، الانعزالية والانفتاحية، كان من الممكن أن يجدا لهما مكاناً في نفس الشخص الواحد، أو في البيت الواحد، وبالتأكيد في العائلة الواحدة. وعلى سبيل المثال فانه خلال حرب ١٩٧٥ - ١٩٧٦ وفي أحد بيوت الطبقة العليا حيث كنت أتناول غذائي، غالباً، محاطاً بالأولاد، وبينهم البالغون، فان الآراء التي كانت تطرح أثناء تناول الطعام على المائدة، كانت تتراوح بين المؤيد للفلسطينيين ولحلفائهم اليساريين اللبنانيين، والمتعصب والمساند للجناح اليميني والميليشيات المارونية، بينما الآباء يقفون بين بين، ليضمنوا وحدة العائلة، وقد ظهرت لي المسألة وكأن مثل هذا الحوار، كان يجب أن يحصل، بين سنة ١٩٢٠ - ١٩٧٠، غير أنه بدأ يظهر، ولم يحصل إلا أخيراً، والمؤسف ان العنف هو الذي سيعطي الجواب الذي تأخر طويلاً. إن ما فات المسيحيين إدراكه، هو أن الأرض تقطنها فئات أو أقليات مختلفة، فالحكم فيها يحتاج إلى مشاركة في السلطة، والامتيازات، وإذا السنّيّين أو غيرهم من الفئات، شعروا بأنهم مغبونون، فالخطأ بالتوزيع يقع على عاتق الموارنة، الذين يديرون الدولة في لبنان ليحققوا مطالبهم بعدالة.

جزء من الجواب على كل ذلك، يظهر في ذلك التمثال الخشبي، والدرس الذي يقدمه «انك اما أن تكون حاكماً أو محكوماً» ولكن هنا سؤال كيف يمكن للموارنة أن يحافظوا على ديمقراطية مستوحاة، من مبدأ، صوت واحد لرجل واحد، بينما نراهم يرفضون اجراء احصاء جديد. أو أن يحق لهم أن يحفظوا زمام السلطة في أيديهم لأنهم يدفعون ثمانين بالماية من الضرائب التي تجبيها الدولة، (مع أنه مع وجود الغش فليس لأحد أن يقنع الآخرين بصحة ذلك) وان المهاجرين وهم من أصل لبناني يجب أن تُعطى لهم حقوقهم السياسية. لأنه من حق المسيحيين أن تكون لهم في هذا الشرق على أقله، دولة واحدة يديرونها. بيد أن المسيحيين اللبنانيين وحدهم يتمتعون بما لم يستطع سبع ملايين من مسيحيي الشرق الأوسط التمتع به، ولا بما يتوقون إلى الحصول عليه، من أمان وطمأنينة ووحدة جغرافية وسياسية. وهكذا، على صعيد الرأي العام، بقي الموارنة يجاهرون بأنهم الأكثرية، بينما هم ضمناً يشعرون بأنهم أقلية، كما هو الواقع.

بعد سقوط فكرة الوحدة العربية ربح الموارنة أصحاب فكرة الانعزالية اللبنانية على

الموارنة أصحاب فكرة الانفتاح على العالم العربي. ان رائد الوحدة العربية، عبد الناصر، الذي انتصرت عليه اسرائيل في حربها الصاعقة ١٩٦٧، توفي في سنة ١٩٧٠، قبل أن يستطيع استعادة مكانته. هنا برز الفلسطينيون ليقوموا بدور المحرك للمسلمين، كي يحصلوا على حقوقهم السياسية فطرح أي تحدٍّ أو تساؤل عما للمسيحيين من امتيازات، أو مطالبة بتعديل الضرائب، أو أنظمة التعليم في المدارس، أو أي تغيير في النظام المتبع كان يقابل برد فعل وتوقع النتائج السيئة (بحاسة الشم) ومنذ سنوات لدى زيارتي لاسرائيل لقيت يوري افنري السياسي المستقل والمحرر الصحفي، فشرح لي، وأوضح سر نجاح غولدا مايير في عملها السياسي، قال انها لا تعرف أن تقرأ ست لغات على الأقل، وكل ما عليها أن تفعله لتربح، هو أن تضرب على وتر الدين، أو تشير بالعودة إلى ما يقوله أوشوتز، بذلك كان يمكنها أن تفرض توقف كل اعتراض. وهكذا هي الحال مع الموارنة، فنظام الأقليات اللبناني أعطاهم القدرة، على تحويل الانتقاد عنهم إلى الفئة الدينية الثانية، وهم من يطلقون عليهم اسم «الآخـريـن» ان المسـائـل التي تشكـل التعقيـدات الحقيقية، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، لم تكن إطلاقاً موضوع بحث. فأي تغيير كان مستبعداً وعندما بدأ القتال سنة ١٩٧٥، فان السبب الوحيد لعدم توقف العنف هو أن كل فئة كانت تعتبر نفسها بريئة، وتحمل الفئة الأخرى، مسؤولية كل ما يجري وما جرى، ولو أنهم أي الموارنة كانوا هم وحدهم الذين اقترفوها.

حتى قبل الحرب الأهلية فكل اعتراض أو مجرد إبداء رأي في ان كل شيء كان سيئاً في القيادة، أي في الحكم، فقد كان يحوَّر من قبل القادة الموارنة بأنه مجرد تهجم عليهم كطائفة وكمسيحيين.

إن أساليب الاضطهاد الديني، السحرية المفعول، كانت المسكن الذي يحول دون الأخذ بأي اعتراض، أو شكوى، وبالتالي إهمال إعادة النظر بها. وبالرغم من أن هذه الظاهرة كانت جزءاً بل كلاً عند الموارنة فان أعداءهم من المحاربين الذين على الغالب كانوا يعملون بقيادة مسيحيين يساريين، مارسوا تجاهلاً مغرضاً لميكانيكية الاعتراف، ان أكبر الأخطاء في الحرب الأهلية هي الضرب الأعمى، الذي قام به اليساريون لمسيحيي بيروت الشرقية، ومحاولتهم عزل الكتائب سياسياً. هـذا التخويف التكتيكي، وهذه المناورات السياسية لم تفعل إلا شيئاً واحداً هو إعطاء قوة أكثر للكتائب الذين أصبحوا

رمزاً لا جدال فيه، لا للموارنة فقط، بل للمسيحية في الشرق الأوسط كله، وبذلك حصلوا على المساعدات من أوساط أخرى، هي على الغالب تنظر بريبة إلى تطلعاتهم السياسية. كنت، بين جولة وأخرى من القتال في حزيران سنة ١٩٧٥، قد تحدثت مع كريم بقرادوني، عضو المجلس السياسي الكتائبي، سائلاً إياه إذا كان لا يرى أن البلاد قد تهدمت وإلى متى يا ترى سيبقى اللبنانيون هكذا قبل أن يعودوا إلى رشدهم؟ وأجابني: «في أيلول» فاعترضت قائلاً: «ولماذا الانتظار إلى أيلول، إن كل يوم له أهمية». وهنا ضحك موضحاً: «العنف مفيد لنا ومفيد لليسار، انه يمحور الرأي العام. وسنكون بحاجة إلى تهدئة هيجان الرأي العام قبل موعد الانتخابات النيابية في آذار (بالطبع هذا لم يحصل لا في ذلك الربيع ولا في ما تبعه)».

وفي أية حال فان رؤساء الجمهوريات من الموارنة، مارسوا عدم الركون إلى دوام الدولة، وحده فؤاد شهاب وهو قائد سابق للجيش اللبناني، الذي كان رئيس جمهورية من ١٩٥٨ ـ ١٩٦٤، كان يقدّر ان فرصة الموارنة للبقاء في السلطة هي بتقوية الدولة، وزيادة على ذلك فان الذي يبدو هو أن الرؤساء الموارنة أضاعوا الجوهرة التي تركها لهم الفرنسيون في سنة ١٩٤٣، ان الارتياب بالدولة وبكل أعمالها وشؤونها، هو ظاهرة واضحة في الحياة اللبنانية التي تركز عليها وتؤكدها مدرسة لبنان الفينيقي فتركت شؤون السلطة في أيدي الفئات الأخرى، في أيدي القادة اليساريين والشيوعيين، ولغسان تويني الذي يعتبر صانع الكلمة في جريدة النهار البيروتية قول، هو الآتي: «ان الحكومة غير موجودة، وإذا ظهر لها أي وجود، فهو غير فعّال. ومن هو فعّال وصاحب سلطة، فليس في الحكومة...»، وكذلك تبنّى ريمون اده، وهو من قادة الموارنة، اتحاد لبنان حيادي بكفالة الأمم المتحدة أو حمايتها، ليكون مثل سويسرا، غير آخذ بحقيقة، أن سويسرا لديها الجيش القوي الذي يجعل حيادها محترماً، بينما الجيش اللبناني هو عبارة عن جيش قليل العدد والعدّة. وهذا شاءه اللبنانيون لأنهم بهذه الطريقة على حد قناعتهم، يوفرون الأموال والأمن في وقت واحد، ولا يتعرضون لغزو عربي، ويأمنون في الوقت نفسه، إبعاد الذئب الاسرائيلي، عن الباب، حتى ولو كان بتعطيل عمل الطائرات الاثنتي عشرة الميراج، وبإبقائها على الأرض. في حالة استياء اسرائيل من أمر ما. انه نوع من اعتبارهم ان القرش حكيم، والليرة حمقاء. وهذا ما كان يقوي الاقتصاد اللبناني الحر الذي ظهر في

وقت من الأوقات شبيهاً برأسمالية شيخ اللصوص. هكذا الهموم تراكمت، والاصلاحات التي طلبت بحرارة، لم يعمل بها، رغم أنها نالت الموافقة.

وجد المسيحيون في الحرب الأهلية، كل المبررات لتوجيه اللوم إلى الفلسطينيين بكل ما يواجه لبنان من مشاكل. لم يقل أحد أن الفلسطينيين كانوا غير مذنبين. انهم كانوا النظرية المقابلة لنظرية ماوتسي تونغ التي قال فيها، ان رجاله هم السمك الثائر، وهذا ما مثل به رجاله المحاربين، وهي صفة استحسنها هؤلاء الرجال الذين يسبحون في بحر المجتمع. والفلسطينيون بدأوا متغطرسين ومشمئزين من لبنان واللبنانيين، الذين كانوا يتعاملون معهم وكأنهم يمرون فقط كمرور أي عابر لا يهمه إلا النهب. وقد كان عجزهم كبيراً وصغيراً في آن. إذ لم يكونوا يدفعون ثمن الكهرباء، والخدمات التلفونية. كانوا يملكون الكثير من السلاح والمال. ولم يستطيعوا تطبيق القانون في المنطقة التي كانت تحت سلطتهم. وفي أواسط ١٩٧٠ بدأ المسيحيون ذوي المكانة الرفيعة، يفقدون تعاطفهم نحوهم والانتصار لقضيتهم. ومع الوقت أصبحوا مسؤولين من قبل حلفائهم السابقين المسلمين، مسؤولية شاملة، بالتساوي معهم. ولكن الوقائع كانت تدل على أن لبنان مريض، وإلى درجة أن يجد نفسه مترجرجاً في حرب لبنان، وكان تعباً لأنه لا تَدفع ضرائب (فالاحصاءات دلّت على أن ثلثي الضرائب لم يتم تحصيلها لوجود الرشوة، فالطريق الساحلية غير المنجزة كانت فضيحة دائمة، ولبنان كان على الأخص تعباً لأن النظام لم يعد مؤهلاً لنيل الثقة المطلوبة، التي تبقي المواطنين في صف واحد، ولا تقطع منهم الأمل ـ وأحياناً بدا وكأن السادة الكبار لم يعتقدوا ان لبنان سيكون قادراً على البناء، وهذا جعلهم يتهالكون في تكديس الأموال، بينما أثبت أنه يستطيع. ذلك رغم التوهم الخداع ـ وانك عندما تريد الحقيقة فان لبنان لم يكن يوماً بلداً حتى لا نقول انه لم يكن ديمقراطياً برلمانياً. والشيء غير المعقول هو أن يكون لبنان الذي ولد سنة ١٩٢٠ أو ١٩٤٣ لا يزال موجوداً طوال هذه المدة.

إن الصورة التذكارية العائلية لحكومة الاستقلال الأولى، تحكي الحكاية. فأكثر أعضائها كانوا لا يزالون في الحكم عندما ابتدأت الحرب الأهلية. أصغرهم كان في العقد السابع من العمر. لقد كان هنالك ما هو خطأ في هذا النظام الذي لا يبدو مشجعاً لأولئك الأذكى والأنسب ـ (والله يعلم أنه لم يكن هنالك أي وجود للبنانيين أذكياء)

بأن يعتقدوا أن مثل هذه السياسة ستوصلهم إلى أي هدف. باستثناء عهد شهاب فان السياسيين وأبناء الطبقة العليا حذروا أبناءهم من دخول الوظائف الحكومية إذا كانوا قد حققوا نجاحاً في الجامعات المحلية والخارجية. فالعمل للحكومة، من شأن أولئك الذين لم يبلغوا ذلك المستوى من النجاح الذي يؤهلهم ليصبحوا أطباء أو مهندسين أو تجاراً. والآباء ذوو الطموح درجوا على القول لأولادهم أنا لم أتعب من أجل تحقيق تعليمك لتجلب لي العار. وكان لبنان قد أصبح ذلك البلد المتأخر حيث تعيش ديكتاتورية الحكم مئات السنين.

هكذا لبنان بدأ يسقط درجة درجة ويتفسخ، ولم يكن هنالك من يريد أن يعرف ذلك. البعض رأى النهاية المفروض الوصول إليها منذ الثامن والعشرين من كانون الأول سنة ١٩٦٨ عندما أحرق الاسرائيليون ثلاث عشرة طائرة تابعة لشركة طيران الشرق الأوسط في مطار بيروت الدولي دون أي تدخل من قبل الجيش اللبناني. وآخرون تطلعوا بعيداً إلى ما قبل يوم وفاة عبد الناصر في أيلول سنة ١٩٧٠ عندما عُطّل السير في بيروت الغربية، وسُدّت المنافذ على الداخلين والخارجين، ونشرت عصابات الشبان المسلحين، الرعب باطلاق العيارات النارية، وإشعال عجلات المطاط، للتعبير عن شعائر الحزن الرسمية في بيروت الغربية. فهذا النوع ذاته من العنف هو ما أصبح سائداً بعد خمس سنوات. وإذا كنت لا تعرف هذه الخلفية فانه سيكون من حقك أن تشارك شعور الآخرين بالعطف على اللبنانيين، بإنزالهم اللوم على الغرباء، لتدخلهم من جهة، أو لعدم تدخلهم بما فيه الكفاية. ففي المعسكرين كان هنالك غرباء جيدين، وغرباء سيئين، أولئك الذين قدموا مساعدات وأولئك الذين لم يقدموا ما هو في إمكانهم تقديمه. الأغراب ساهم كل منهم في تحويل البلاد إلى ساحة قتال، لينهوا خلافاتهم التي لم تكن لتظهر من هو بريء. المسيحيون كانوا يتذرعون بأن الفدائيين الفلسطينيين كانوا يوقفونهم ويحققون في أوراق هوياتهم خارج معسكراتهم. حتى ولو كان المحقق على حق في ذلك. غير أن الشرق ينشيء نوعاً من قصر النظر التكتيكي القاهر للذات، الذي يظهر الأسبوع زمناً طويلاً. ان الدول العربية كلها اتفقت في المبدأ على كون اشتراك لبنان في القضية العامة عملاً سياسياً. وكانوا يظهرون الاغتباط لأن يستطيع الفلسطينيون أذلال الجيش اللبناني الهزيل، وهو ما كان لا يقبلون أن يفعله بجيوشهم أحد. وفي التحليل الأخير، ان

اللبنانيين أنفسهم كانوا مخطئين وان رفضهم الاعتراف بمسؤوليتهم عما حدث قد يؤدي بهم في يوم ما ليعودوا إلى ماضيهم وبعضاً من حياة سبق لهم أن عاشوها، بيد أنه في الوقت نفسه، فان تصرفاتهم كانت تبدو، في أحسن حالاتها، تصرفات متبرم من الحياة والناس، وفي أسوأ حالتها تصرفات الانسان المصاب بخلل في عقله. لقد حدث ان اشتركت في خريف سنة ١٩٨١ في حديث مع التلفزيون الفرنسي بصدد المراسلات عن الحرب أو أية حرب، وكنت شديد الإعجاب عندما وقع نظري، ودخل سمعي، من فيلم كان يعرض أمامنا كإيضاح للبرنامج ما قاله واحد من أفراد الميليشيات الاسلامية لا يتجاوز عمره السادسة عشرة وهو ما يلي: «لقد قبضنا نحن والكتائب على زمام لبنان. وأعتقد انه لقي عقاباً شديداً من رؤسائه على صراحته هذه». ومن جهة أخرى، كنت قد استمعت إلى أحد لوردات المحاربين من الموارنة يدلي بمثل هذه الصراحة في الموضوع إياه... انه خلال الحرب الأهلية ولعدة سنوات تلت بدا لي أن الموارنة أخذوا يتنصلون من لبنان الكبير، هذا الذي فصّله لهم الفرنسيون، ويفضلون العودة إلى لبنان الصغير، اني لا أزال أذكر يوما صفا جوّه، وأشرقت شمسه، في يناير، كانون الثاني، من سنة ١٩٧٦، عندما وقفت أراقب المرفأ في بيروت وهو يحترق. لقد تسنت لي رؤيته بوضوح من مرتفع حيث كان يقع قصر العدل في الدولة التي بنت لها قصراً يشرف على البحر المتوسط، كنت قد أنقذت عنقي يومها بأعجوبة لدى قدومي من بيروت الغربية إلى هذا المكان في يوم من هذه الأيام البشعة، وتمتمت ببضعة كلمات عن رأيي بلبنان المسيحي والمسلم وتشوق كليهما المشترك للهدم. لماذا لا يتوقفون قبل فوات الوقت، قبل أن يتقدم السوريون والاسرائيليون لأخذ الزمام منهم، ربما لمدة طويلة، إذ لم يكونوا بحاجة إلى كثير من الفطنة لإدراك ذلك. ففوجئت بصوت يرتفع قائلاً «ليحترق ليحترق» كان القاضي هو الذي قال ذلك، ان الماروني الذي كان فيه، لا القاضي هو الذي قال ذلك، هل كان يتنصل من كل شيء ليس في المنطقة المسيحية الصرفة، تلك التي بدأوا يطلقون عليها اسم مارونيستان، الغيتو المسيحي، ولما رآني دهشت استطرد، «نحن بنيناه ونحن سنهدمه» أم أن الموارنة وقفوا تحت تأثير الكابوس الذي يقال عنه «عقدة ماسادا» التي طالما يحكي عنها اليهود عندما ينبذون التشبه بأولئك القدماء من اليهود الذين كانوا محاصرين في حصن لهم، فآثروا الانتحار على الاستسلام للرومان. فهل كانوا تلك الحلقة الممتهنة على ظهر

المركب الذي يغرق في محيط الشرق الأوسط (والاشارة للموارنة) هل يمكن لهؤلاء الموارنة أن يجمدوا أية محاولة لبسط السلام في الشرق الأوسط يمكن أن تعرض في المستقبل، ان لم يروا فيها تحقيقاً لمطالبهم.

صدف اني كنت أتحدث منذ بضعة سنوات مع فؤاد أفرام البستاني ذلك المؤرخ العابث، والمفكر الماروني، وهو في السبعين من عمره وسألته، ما يمكن للموارنة أن يفعلوه في هذه الأحداث فأجابني: «يجب أن تعرف ان الارهاب ليس حكراً على الفلسطينيين» ثم أوضح لي أنه هو وعدد من قادة الموارنة كانوا يبحثون شؤون الارهاب لعدة سنوات. واستمر في إيضاحه فقال: «عندما نصل إلى قرار الارهاب فستعلم أنت ويعلم العالم بأسره قرارنا هذا»، ثم أردف: «أنت لا تعرف ما يستطيع أبناء الجبال الذين وراءهم ستة آلاف سنة من التاريخ، أن يفعلوه عندما يخيرون بين قتال عدوهم أو الانتحار».

هذا الحديث أكان المقصود منه تبريد الخلق أو غير ذلك ذكرني بالمستوطنين الفرنسيين في الجزائر، الذين كانوا قد رفعوا شعاراً، الحقيبة أو الكفن، انهم أخيراً اختاروا الحقيبة وخرجوا من الجزائر، ولكن ليس قبل أن ينغمسوا في التكنولوجيا الغربية، التي أبرزت أساليب الرعب الذي يحترمه الغرب، مقللين من قيمة تلك الأساليب البدائية التي كان يستعملها أخصامهم الجزائريون.

ولكن هنا في لبنان، من يكون العدو الذي يستمر البستاني في إيراد ذكره. هم بالطبع الأغراب وهم كما يعرف ذووا الانتماء الفرنسي، الخونة الانكليز، أضيف إليهم مؤخراً الفلسطينيون والسوريون. وبالاضافة إلى محاضرته هذه التي بدا أنه مستريح لها، المشبعة بالصراحة، رغم شعوره البراق نحو الاسلام، فقد كان يفاخر بما للبنان من حجم، وهو ما يتكرر دائماً للتأثير به، وانه من الواجب معرفته ان اللبنانيين قد أخروا كثيراً من خلال خضوعهم للغرباء، ومن ضمنهم هؤلاء الغرباء الذين يشجبهم. وما بدا متأصلاً في اللبنانيين (كمرض مزمن) لأكثر من قرن من الزمان، هو أن أسوأ المظاهر الاجتماعية قد أخذت حجماً مبالغاً فيه ومنها: التحيز والهمجية، والاستئثار ثم المنازعات الصغيرة التي كان يشترك فيها الأخوة، أو أبناء العم، بأنه من الأنسب ذبح العجل المسمن على حساب المصلحة العامة. وبأن من التأكيد أن كل سياسي، في هذا الواقع من الفوضى، يحاول أن يلجأ إلى دولة أجنبية أو أكثر. أما احدى دول الخليج

فكانت محافظة على الالتزام بدفع آلاف الدولارات شهرياً لرؤساء الوزراء السابقين. على اعتبار انهم في حالة عودتهم إلى مراكزهم، سيكونون في قبضة اليد. والدول العربية الراديكالية كانت تقدم المساعدة للأصدقاء الفلسطينيين واليساريين. وكذلك الدول الاسلامية الرئيسة مثل السعودية فقد كانت تقوم بتمويل ملكي لمنظمة التحرير، وهم كذلك موّلوا المسيحيين، إلى أن انقطعوا عن ذلك بعد ما أصبح أمر المذابح التي أوقعوها بالمسلمين غير قابل للاستساغة. لقد كان المبدأ المتبع لدى هؤلاء هو وضع السياسة فوق الدين، إذ أنهم رأوا أن ليس أمامهم إلا قوة المسيحيين للاستعانة بها على وضع حد للراديكاليين العرب، الذين يرمون إلى إسقاط عهودهم. وقد سبق لميشال شيحا، المسيحي المفكر الذي عمل الكثير ليضع شكلاً أو صيغة من التنظيم الدستوري لدولة لبنانية مستقلة. ان كتب منذ قرن «ان اللبنانيين هم، أكان من جهة تعاطفهم أو حاجتهم، أصدقاء لأسياد هذا العالم» وبنفس هذه اللهجة قال مؤكداً «ليس علينا أن نتخذ موقفاً تخاذلياً من أوروبا المتهاوية»، غير مقرر أن العرب هم الأسياد الجدد لما يعتبرونه الجزء الشرقي للعالم العربي، وان الغرب الذي كان متمسكاً بالعرب لوجود البترول لديهم، لم يكن على استعداد للأخذ بمثل هذه الأقوال، بعد أن انتهوا من نهج الصليبيين. ان العرب كغيرهم، من أجل ذلك، اعتبروا اللبنانيين كتحصيل حاصل، أو ما هو أسوأ، ضرورة لا بد منها، أصالحة كانت لاستخدامها، أم غير صالحة. وقبل ذلك بوقت طويل كان المسلمون اللبنانيون، ومعهم الفلسطينيون، يحاولون تحجيم الدولة اللبنانية التي طالما اعتبروها دولة مارونية.

وهكذا فالمسلمون بقصد الحصول على مكاسب سياسية والفلسطينيون بقصد الحصول على حلفاء أقوياء. أمام هذا كله، برهن اللبنانيون، انهم غير جديرين بأن تكون لهم دولة. اللبنانيون بحثوا بالفوضى وبالتنظيم والحاجة إلى التغيير، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً مفهوماً، كانت عندهم الصحف للبيع، والبنات للبيع، والبنادق للبيع والسياسيين أيضاً برسم البيع، كل شيء كان برسم البيع، لذلك وقعت الحرب في لبنان.

ألقى في مسامعي واحدٌ من أصحاب البنوك بقوله: «أنا لا أحب أن أعيش في مارونيستان مفنداً الأخطاء التي وقع فيها لوردات الحرب، انه كان في الواقع يسري عن نفسه، فالكلام عن المتاعب في مارونيستان كان غير مرغوب فيه، ولو كعلاج نفسي.. كان يقصد من ذلك تحقيق حصانة سياسية واعتبارها فوق الانتقاد، وهو المرض المرعب

الذي ينتاب الجماعات المتخلفة قال: «ليس من السهل أن تكون هذه الأيام تشيليا، أو لبنانياً، أو كينياً، أما بالنسبة للبنان، فربما كان ذلك متوارثاً من أيام حكم العثمانيين الذي امتد لأكثر من اربعماية سنة. غير أننا اليوم لا نزال عبيداً لسلطان يملكنا جسداً وروحاً. وما أكثر سلاطيننا اليوم إذ عندنا سلطان مارونيستان، وسلطان درزيستان، وسلطان شيعيستان، وسلطان فلسطينستان، وسلطان سنيستان». ثم أردف: «أنا أستطيع أن أستمر بيد أن ذلك يثقل همومي، إذ علينا أن نقول «مات السلطان يحيي السلاطين».

بالطبع صاحبنا كان يعيش خارج مارونستان لأن الذين كانوا يعيشون داخلها لم ينظروا إلى الأمور هذه النظرة. فانهم وان كانوا قد نعتوا بالانعزاليين في وقت ما، والعاجزين والمنغمسين بالملذات وتكديس الأموال، فهم اليوم قد أظهروا عن قدرتهم على تنظيم وإدارة المجهود الحربي، حتى ولو أنهم كانوا قد عجزوا سابقاً عن الحفاظ على حصانتهم السياسية في زمن السلم.

ومع ذلك فانهم كانوا مندهشين، لكونهم لم ينهاروا بعد الأسابيع الأولى من الحرب سنة ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦، ولنسم ذلك ما شئنا، خداعاً، أو تعصباً، أو جنون العظمة فانهم استطاعوا أن يحاربوا من أجل ما يطلبون، بعد حصولهم على استقلالهم الذي كان قد قدم لهم على طبق من فضة، ومع مرور السنين، إذ لم يتمكنوا من الحصول على الحلول التي يطلبونها، بدأوا يخترعون مزالق لأعدائهم، غير موثوق من صحتها. فانه عندما وجه إليهم السوريون ضربة موجعة في زحلة سنة ١٩٨١ أعلنوا مكابرين انهم لم ينهزموا، وانهم قد استطاعوا أن يوقفوا سوريا عن رغبتها الشديدة لاحتلال مارونستان ـ (وعلى العكس من مخاوف المسيحيين فان السوريين لم يعمدوا في الواقع لاحتلال مارونيستان على الأرض بل انهم بالتأكيد سحبوا ما كان لديهم من جيوش فيها). ولطالما كنت أتندر عابثاً بتلك الأقاويل التي كانت ترمي إلى التأكيد ان أعظم خلفية تاريخية يحتفظون بها كجوهرة مكنونة هي أن تراجعهم، هو من أكبر أسباب قدرتهم على التنظيم. لم يحسبوا ان شدة التنظيم يقابلها ضعف في الانتاج، وهذا ما كان يمنعهم من قبول نظرية (النزعة التوافقية) الاعتدال التي تمكنهم كأقلية من التعايش مع الآخرين. وخير ما يمكن أن يوصف به نهج لبنان في تصريف شؤونه هي كلمة كان يقولها دائماً زين زين، أستاذ متقاعد من أساتذة التاريخ في الجامعة الأميركية هي: «اللفلفة» وهو أسلوب وضعت الحرب له حداً. ومن

المؤكـد. فـرغـم أن المسيحيين تنـاسـوا ذلـك، فقـد أطلقـوا على كلايهم اسم محمد، وأشاروا إلى المسلمين، انهم جماعة الطبل والزمر. والمفهوم نظرياً ان على الأقليات ان يخفوا شعورهم نحو الأكثرية خصوصاً في البلاد العربية، على أمل أن تنحو الأكثرية نحوهم في ذلك. وكذلك فالمفروض نظرياً أن تتحاشى الأقلية أساليب الاستفزاز. ولكن هذا ما يظهر الانقسام بين اللبنانيين، حتى ولو أنهم كانوا ينكرونه، وانه لمن المشكوك فيه أن يكون قادة الموارنة قد أدركوا حقيقة أن صوتهم بدأ ينخفض، حتى في الوقت الذي يوهمون فيه أنفسهم، انهم استطاعوا ربح الحوار. ولا غرابة فهذا من تراث الغيتو، ان القيادة المارونية تضع نفسها في موقع من يـريـد تخليـص مـارونيستـان مـن الفلسطينيين والسوريين، (ولا يذكرون انهم طردوا المسلمين الذين كانوا يعيشون هناك). وما على المسلمين إلا أن ينهضوا للقيام بمثل ما تفعله مارونيستان. ومع هذا ليس هنالك ما يؤكد ان الموارنة استطاعوا إرباك المسلمين، بخلق صعوبات لهم، بمجرد كونهم قذفوا بالمسلمين غير المرغوب فيهم، والأكراد والفلسطينيين بعيداً عنهم.

بالتأكيد أن عدداً كبيراً من اللبنانيين الذين يعيشون خارج مارونيستان، يعتقدون أن الموارنة الذين لا يزالون هناك، لا تزال آذانهم مسدودة، دعك مما يبدو من أن هنالك من يحسدون مارونيستان لوجود قوانين وأنظمة وضعها الكتائبيون فيها، تقابلها الفوضى وفقدان الأمن في أماكن أخرى من البلاد. ولكن المسيحيين البعيدين عن ميدان القتال، مثل الأقباط في مصر، والروم الارثوذكس في الأردن وسوريا، وغيرهم من البقايا الموزعين هنا وهناك. أجل لهؤلاء تبدو لهجة الموارنة الخشنة شيئاً مستحباً. ان منطقة مثل الشرق الأوسط تقطنها متناقضات متباينة كتلك التي يمثلها آية الله روح الله خميني، في إيران، ورئيس الوزراء مناحم بيغن في اسرائيـل، ليسـت بـدون فـائـدة كليـة، لجعـل المسيحيين غير مقتنعين بوجود حماية مميتة، لهم على الأخص أولئك الذين يعيشون بعيداً جداً عنهم، اتقاء لأخطار ما قد ينتج عن مثل هذا النهج العسكري أو الحربي من أخطار.

أما في مارونيستان فالمسيحيون في ذلك الغيتو المغرّب المنفصل عن الأكثرية المسلمة فقد أصبحوا مقتنعين أكثر فأكثر بقضيتهم العادلة. ففي تفردهم، بتقوية أنفسهم بعيداً عن دولة أقسموا على حمايتها، وعملوا على سرقة مواردها، وإذلال جيشها، وفرض التدريب العسكري على تلاميذ المدارس الثانوية فيها، كان ذلك ـ في مفهومهم ان الغيتو

المسيحي اتخذ مواقفه وأعدّ تصاميمه لتحرير القسم الباقي من البلاد، متناسين انهم تمادوا كثيراً في إنزال الكارثة في لبنان، مع ذلك رفضوا انهم يتحملون المسؤولية واستمروا بتوجيه أصابع الاتهام إلى الآخرين، ما أكثر ما تنقص الشرق الأوسط، قوة الذاكرة وفهم الأمور وتقدير النتائج.

وبعد ما يزيد على ثلاث سنوات من بدء الحرب الأهلية، قام أحد قساوسة الروم الكاثوليك في لبنان المدعو غريغوار حدّاد، بجدولة آرائه المتغيرة بصدد الحرب بشيء من عدم الاحترام لمنزلته الكنائسية، وهو ما كان قد أدى، في السابق، إلى تنحيته عن مهماته الكنسية، قال، في جدوله هذا: «ان هذه الحرب كانت بين الفلسطينيين واللبنانيين، لا بل بين المسيحيين والمسلمين، لا بل بين اليسار واليمين، لا بل بين اسرائيل والفلسطينيين على الأرض اللبناينة، لا بل بين الامبريالية العالمية والصهيونية، من جهة، والدول المجاورة من جهة أخرى». لم أجرؤ أن أقابل حدّاداً مرة ثانية، خوفاً من أن أجد أن جدوله هذا قد أصبح أكثر طولاً، وأشد أسفاً. على كل حال فجهده كان إيضاحاً مسهباً لحدود التفكير، لأنه وراء هذه الصورة الوحشية للموازنة يكمن الخوف المزمن. والمسيحيون كانوا يميلون بشوق إلى سرد قصتهم المفضلة للغرباء عن الديك والمجنون وهي كما يلي:

المجنون كان يتوهم أنه حبة قمح على بيدر، وان الديك سيأكله. وبعد أن استمر علاجه على يد طبيب نفساني لمدة سنة قال له الطبيب: «أنت الآن يا سيدي يمكنك أن تتأكد بأنك لست حبة قمح».

- «نعم أيها الطبيب ولكن.......».
- «ولكن ماذا»؟ سأل الطبيب..

فأجاب المريض، وهو يهز رأسه: «ولكن هل تعتقد أن الديك يعرف ايضاً؟».

الفصل الثالث

كل شيء تبعثر وتفتت

كنت على الطائرة القادمة إلى بيروت، وقد استطعت أن أرى من ارتفاع منخفض، عندما كانت تناور للهبوط، منظراً مدهشاً. كانت المنطقة التجارية في بيروت كتلة من اللهب تتدافع كأمواج المتوسط من خلال الدخان الكثيف الضارب إلى السماء في تلك الليلة الحالكة، ثم تنعكس أنوارها على مياه البحر المتوسط وكأنها مناسج الشمس عند الغروب، لقد حدث في الأيام الثلاثة التي كنت فيها في الأردن من تطورات الحرب إلى ما أعطى مثل هذا المشهد الليلي، الذي يستحق الأخذ به بعين الاعتبار أما الذي لم يظهر، على الأقل في تلك اللحظة، فذلك القصف المتقطع لأكواخ الطبقة العاملة والفقيرة. كالقنابل المذنية بلهب البارود، وانفجار قذائف المورتار، أو مدفعية الميدان، أو الحمولات المقررة ليلياً لأجساد القتلى، المكدسة في سيارات الشحن. وبدا الآن من جراء القصف منذ أيلول سنة ١٩٧٥، وبعد خمس شهور من الحرب المتقطعة، الخط الأخضر الذي كان يفصل بين القسمين المتحاربين من بيروت، وقد تبدلت خضرته بأكداس من القاذورات.

أما في صباح اليوم التالي فكان هنالك التوقف المؤقت كالعادة لاطلاق النار، فتوجهت دونما إبطاء لألقي نظرة على بقايا الأسواق التي كانت عبارة عن أكوام من الخراب يتصاعد منها دخان كثيف ميت لا تتخلله دفقات اللهب. هذه الأسواق تقع في غربي ساحة الشهداء التي أخذت اسمها هذا كنتيجة لما اقترفه الأتراك من إعدام بالجملة شنقاً لعدد من السياسيين اللبنانيين. هنا وبمحاذاة هذا القسم الذي كان يمثل الحياة في بيروت، فجّر نزلٌ صغير كان يقيم فيه عدد من العمال المصريين، وعشرات من الآخرين الذين حوصروا في المكان الذي دُمِّر. وأمام هذه الأنقاض وبالقرب من المكان الذي كنت واقفاً فيه، رأيت ثلاثة نماذج مما يستعمله بائعو الملابس النسائية الجاهزة للعرض، كانت هذه التماثيل غائصة بالوحل، وحولها ما سلم من أيدي اللصوص من ملابس كانت تُزيِّن بها

واجهات هذا المتجر الذي أصبح أثراً بعد عين. وكنت أرى رجال الاطفائية السوريين، الذين جاؤوا للمساعدة في اطفاء الحرائق وقد بدأوا عملهم بعد أن اتُّخذت تدابير لإيقاف عمليات القنص، كما وأني رأيت أولئك التجار الذين هرعوا إلى إنقاذ ما يمكن انقاذه، من محتويات متاجرهم ينقلونه بواسطة شاحنات إلى أماكن في الجبل، لا يطالها القصف، ولا تصل إليها أيدي النهّابين. أجل بعد أربعة أيام من الحرب، تمكن الكتائبيون من تدمير هذه المنطقة التي تشكل حزاماً من متاجر، يفصل المنطقة الشرقية عن المنطقة الغربية، ويمتلكها التجار المسلمون.

غير أن ما هدّمه الكتائبيون، لم يكن في الحقيقة إلا منطقة تجارية محايدة، يأتي إليها كل قادم إلى بيروت. إذ أن الكتائبيين اعتقدوا أن الجيش اللبناني، الذي يعتبرونه جيشهم، كان سيتدخل ولكنه لم يفعل، وقد كان هذا من أخطاء حساباتهم، بيد أنه في نظر المسلمين كان منحازاً إلى العسكرية المارونية. كان هذا المكان، ساحة الشهداء، وهو الذي يلتقي فيه اللبنانيون بفئاتهم الست عشرة، بالإضافة إلى الأجانب من مختلف الجنسيات، فيه كانوا يلتقون ويتعارفون. فإذا انتهى العمل هنا يعود الأغنياء إلى قصورهم حيث يعيشون محاطين بجماعاتهم، والفقراء إلى أكواخهم. ان الذي كان يفعله الموارنة أكان عن قصد، أو صدفة، إنما كان مثل ذلك الذي يقتطع في الغابة المشتعلة من أمام النار كل الأشجار، لإيجاد فسحة خالية. كانت تصريحات الموارنة تغطية لما يقترفونه من أعمال تخريب، مقرونة دائماً مع هذه السخافة التي اعتبروها شعاراً لهم «نحن الذين بنوا لبنان، ونحن سنحرقه» يطلقونها كلما قامت الفئات الأخرى من اللبنانيين تطالب بإجراء اصلاحات، ولو ضئيلة في النظام الاقتصادي، أو بنصيب في السلطة، أو كلما قام الفلسطينيون بتعديات أو تهجمات على السلطة، ولو جزئية. لقد كان هذا أقرب إلى الانتحار منه إلى أي شيء آخر، لقد كنت كلما ناقشت أصدقائي من الكتائبيين بهذا الصدد اصطدم بالشعور بالهيمنة، يظهر صريحاً بتلميحاتهم، انه لا بد للغرب وللولايات المتحدة الأميركية بأن تظهر سفنهم على شواطئنا. انهم ولا شك كانوا صادقين بظنونهم، ان اختلال التوازن بالقدرة على إثارة الرعب، بين الفلسطينيين والمنظمات اللبنانية المسلحة، عجز عن إيقاف حرب يفتعلها عناصر غير منضبطة، لدى كل المشاركين، على الأقل، وهذا ما كان الرأي العام مقتنعاً به.

في ذلك الخريف بدا لي أن بيروت ماتت. كانت أسباب موتها، هو ما يمكن سرده كالآتي: العجرفة. فقدان التهذيب، التفكير الخاطىء بوجود اكتفاء ذاتي، ثم التقليد المطلق للغرب حتى فيما يمجه الذوق. ومع أن هذه العاهرة بيروت، الميناء ذات القلب الكبير، كانت خير ما هو موجود في العالم العربي. فما كان من جهود لتحقيق الوحدة العربية، وما كان من نشاط في حقل النهضة الثقافية، بل كل ما كان من ثقل في الميدان الثقافي، وهو عمل قرن بكامله، فجر بالديناميت، أو دمر بالقنابل، وزيادة عن هذا فقد اندثر وتبعثر، كما رأيت في المنطقة التجارية حيث تصفعك رؤية مبانٍ مزّقتها آلاف قذائف الرصاص المدمر. كان عليّ أمام هذا، أن أعرف ما الذي كان يجري هنا لإسقاط دور بيروت كمركز اتصال عالمي. لقد كانت حصان طرواده، طريق الغرب إلى الداخل، إلى الوطن العربي. هكذا كانت خلال الثلاثين سنة، منذ استقلالها عن فرنسا. كان لبنان بعمله هذا يخرج من جلده المستعار، كالحية، بمساعدة المتعصبين من أبنائه، متعصبون جدد ينادون بالثورة، والماركسية، وأيضاً بالتأكيد، كان العرض الماروني للعضلات، هؤلاء الذين هبطوا إلى المدينة من القرية، منذ فترة قليلة، وكانوا يتأثرون بما يعكسه تراث انتقل إليهم من سلف عاش أجيالاً تحت الضغط السياسي، كانت الرموز التي تشير إلى ذلك، وتصفعني في الوجه، وتظهر أمام عيني بحروف كبيرة بارزة، هي أسماء تلك الشوارع المدمرة، أسماء أولئك الأوروبيين: اللنبي، كليمنصو، فوش، غورو، ويغان وهم من كان يمثل الانكليز والفرنسيين، الذين كانوا يعتقدون انهم باقون أجيالاً فيها. ان المدينة الأخيرة، من مدن الشرق العظيمة، التي تمتد من الجزائر إلى اسطنبول، بيروت، كانت تزول، تتبخر ولا يستطيع الباقون عليها شيئاً ينجيها أو ينقذها، أو على الأقل يبقيها على قيد الحياة. لم يحدث منذ الحرب العالمية الثانية أن جُرّدت مدينة عظيمة مثلها من كنوزها. وقد قال الضالعون بالتاريخ في ذلك، لقد أصاب بيروت من النهب ما أصاب الاسكندرية والقسطنطينية من حرق وسرقة على يد الصليبيين في ما مضى، وعلى أيدي المسيحيين اليوم. غير أن الخسائر التي تثير الأسى لم تكن بالضرورة الخراب المادي، انك تدرك ذلك عندما تعرف أن الحي الشمالي في الاسكندرية، كان لبعض الوقت يدعى بيروت، وكأنما كان ذلك إشارة إلى أن صفات لورنس ديورسيل، قد انتقلت إلى بيروت. لقد كانت بيروت تفيد من ذكاء وخبرة أولئك الذين لا يريدون العيش في

بلدانهم تحت ضغط رؤساء لهم يتبوأون سدّة الحكم، كلما عصفت ثورة في بلد عربي. لقد انقضى دونما ريب عهد أولئك الأدلآء المترجمين، الذين كانوا يرشدون الغربيين، عندما يزورون الشرق، إلى ما هو مستحب للعيش، ومربح للتجارة، فاللبنانيون كانوا دائماً يتقنون أكثر من لغة، وكانوا نشيطين مجدين، يعرفون كيف يعملون بمهارة، أكان في حقل التجارة، أم حقل التعامل بالنقد (الصيرفة)، هذه المهارات التي كانت لهم طبيعة ثانية. وبالرغم من أن بارات بور سعيد والسويس، هي قسم من التاريخ والأساطير، فان بيروت كانت لا تزال تقدم ذلك العرض النموذجي، لميناء نصف استعماري على المتوسط، ليالي الشراب، والترفيه والمخدرات، والنساء، فبيروت كانت تزدحم بالشقراوات من السويد، وبنات البارات من انكلترا، لإدارة أماكن الشراب، وإرواء ظمأ الأميركان العطشى، القادمين رأساً من السعودية، وإمارات الخليج، المتلهفين إلى ما يبل ريق الظمآن المحروم، ليدغدغوا حسّهم العاطفي، بما في ليل بيروت من نهج غربي، ومسحة عربية، على جانب من الرقة، تعيد إليهم الهدوء، ولكن لن تدوم الدنيا على حال وكان لا بد في النهاية من أن يصل اللبنانيون إلى ما قد يعكسه هذا الانحراف الجامح من نتائج سيئة، انهم يبيحون مدينتهم، ويتهالكون في سبيل الحصول على المال بتضحية كل شيء في سبيله، بل كانوا زيادة على ذلك، عندما ينصرفون إلى إقامة المباني الشاهقة على حساب الحدائق الخضراء لا يحتاجون إلى من يؤكد لهم انهم المسؤولون عن قتل مدينتهم.

ما أحببته في اللبنانيين هو تلك الحيوية الهائلة، وذلك الرضى عن أنفسهم، وهو ما يمارسه كبيرهم وصغيرهم. ليس بينهم من يرضى أن يعيش بعيداً عن الأضواء؛ فاللبنانيون يظهرون أمامك بسياراتهم الأميركية الفخمة الكبيرة، على طرقات ضيقة سيئة التعبيد. ويتسلقون بها المنعطفات الجبلية، ورجالهم، يلبسون أزياء بيار كاردان، ونساؤهم أزياء كريستيان ديور، وكل ما هو شفّاف فوق الصدور. وبينما كان الغرب قد اعتاد لبس «الجينز، وكل ما هو صغير جميل» كان اللبنانيون ينصرفون إلى اختيار الجواهر، والملابس الفضفاضة التي لها حفيف وخشخشة أوراق الشجر. كان في بيروت ما يوحي إليك وكأنك على شاطىء ميامي (ميامي بيتش). بيد أن سكان بيروت الغربية كانوا أكثر تأرجحاً بين القديم والجديد، من سكان القطاع المسيحي، وربما كان ذلك يعود إلى كون الجبليين العرب، كما كان يدَّعي الموارنة أبناء الجبال سابقاً، كانوا أقل انفتاحاً،

وتحرراً من المسيحيين والمسلمين الآخرين سكان (الشواطىء) الساحل الذين كانوا منجذبين إلى اغراءات الموضة وإلى كل ما هو ذي طابع فرنجي منذ أيام الفينيقيين. ان السينمات والملاهي الليلية، وعلب الليل، والمكاتب والنوادي الليلية، والشقق المفروشة الجذابة ومنظر البحر المتوسط، هذا كله كان في بيروت الغربية. وكانت بيروت الشرقية تقصد الحمراء للّهو والثقافة. واللبنانيون طالما اغتروا بما كان يكتب في منشوراتهم السياحية الخاصة بلبنان، التزلج على الجبال في الصباح، والغداء في ميناء بيبلوس القديمة، والعشاء في كازينو لبنان ثم المقامرة، والتفرج على البنات المستحضرات من أشهر مقاهي باريس. هذا ما كان لبنان، الضفادع والشمبانيا للأغنياء والغرباء من الغربيين، الذين جعلوا بيروت مقراً لأعمالهم. ومن موقع آخر فهناك بشاعة الفروقات بين ما تراه من أسمال بالية يقابلها خز وطيلسان. وإنفاق بلا حساب، يقابله تشرد وفقر، وحرمان من التعليم حتى في المراحل الابتدائية، وطرقات وتمديدات مائية أو تجهيزات كمثل التي تراها في أي مكان من قرى الشرق الأوسط. بيد أن الحشيشة كانت أحسن ما في الشرق الأوسط. إن لم نقل في العالم. ولكن لماذا لم تكن الدولة قادرة على ضبط زراعتها أو منعها. في أرض هي ملجأ طبيعي للمنبوذين وغير المرغوب فيهم، كما هي لأولئك السياسيين المحترفين الذين خسروا دورهم بانقلاب حديث أو قديم، أو على وشك الحدوث، في بلد مجاور. جاء وقت كان فيه كل مقهى في الحمراء، يمثل اتجاهاً ايديولوجياً خاصاً به، وفي ذلك الشارع التجاري المزخرف يمكن لأي رجل، ذكي نشيط، أن يعرف ما يدور في أنحاء العالم والعواصم الغربية بثمن بضعة فناجين قهوة. في أرض يجري الحديث فيها بثلاث لغات مجتمعة في جملة واحدة (شو هيدا، شيري، هَو آر ذي نيوز).

لتكون شرقياً. على حد قول مؤرخ الشرق الأوسط، البرت حوراني، يجب أن تعيش في عالمين أو أكثر، بوقت واحد، دون أن تكون منتمياً إلى أحدهما، وأن تكون قادراً على تخطي الاعتبارات السطحية التي منها أن تكون لك جنسية، أو هوية، أو مذهب أو ثقافة أنت لا تملكها ولا تجوز عليها.

ليس من الضروري أن تكون في المستوى المطلوب علمياً واجتماعياً لكي تكون عبقرياً خلاقاً. إذ يكفي أن تحسن التقليد، ولو لم يكن تقليداً دقيقاً، لأن، حتى ذلك، يحتاج إلى

بعض الخلفيات والأصالة. ثم أن لا تكون منتمياً لأية فئة، ولا أن تكون لك فئتك الخاصة، فهذه هي شروط العبقرية التي ستظهر نفسها في ما أنت فيه من الضياع، وعدم الانتماء، والمزاجية واليأس، كان الحوراني يستعمل فعل المضارع عندما كان يكتب هذا في سنة ١٩٤٦ أي قبل خلق اسرائيل بسنتين. ونستطيع القول جدلاً، ان هذا كان المسلك الاسرائيلي المثالي لكلٍ من الفئتين، من الأقليات المسيحية، أو الأقليات الاسلامية، في الدول التي دينها الاسلام، ذلك طابع يشمل كل الشرق والشرقيين.

بيد أن الشرق بعالمه كان قد زال من بيروت في سنة ١٩٧٥.

كل المراهنات على لبنان وبيروت، أكان من أبنائها أم من الأغراب، أصبحت في مستودع التاريخ، كومة من النفايات. بيروت تلك باريس الشرق، وسويسرا الشرق الأوسط، وهونغ كونغ المشرق الأقصى، وملتقى الحضارات، بلد الضيافة والترحيب، الأكثر نمواً بين الدول النامية، هذه الأرض التي كان يفترض أن تكون وارفة الظلال، المنغمسة في مباهج المجتمع المترف، أصبحت وبصورة مفاجئة مثلاً لأسوأ مظاهر الفوضى. ان آخر ما تبقى في المشرق من تراث في العرف الانساني، والانفتاح على العالم الخارجي، زال، ولم ترتفع أصبع للاعتراض. أما العرب الآخرون، فهم الذين يأتون إلى بيروت للمقامرة، أو المغامرة الجنسية، والتمتع باللذات، وهم الذين موّلوا لوردات الحرب من المسيحيين المعارضين، واشتروا صحافة بيروت، لترويج ايديولوجياتهم الحربية، هم جعلوا بيروت موقعاً يقاتلون عليه ويطلقون فيه أولئك القتلة المأجورين، لتحقيق أغراضهم الخاصة، وقتل أعدائهم الآنيين. وإذ كانت بيروت تلفظ أنفاسها كانت دموع العطف تسكب من قبل دول أخرى بينما لم يحاول حتى القليل منهم، حل مخلفاتهم إلى عواصمهم الخاصة. فالبنوك. والصحف، والجامعات والمقاولون لا يضمن نجاحهم في الأرض التي تغطي رمالها منابع الزيت في البلاد العربية، كل هذه وسواها، كمحاولة التدجين الزراعي لم تنجح هناك. في خريف سنة ١٩٧٥ كان عشرات الألوف من الغربيين، قد هربوا، وهكذا كان قد هرب عدد كبير من أبناء الطبقة العليا، والطبقة الوسطى. ممن كانوا قد هربوا إلى لبنان أو لجأوا إليه في الماضي، نتيجة انقلابات أو ثورات في بلدانهم، وقد تقاطروا إلى هنا قاصدين هذا المستراح الشرقي، مقدمين له ما لديهم من خبرات وتقدم في الشؤون المدنية.

كل هذا يمكنني تقديمه، ملخصاً، ويمكنني إيضاحه، ومعالجته، بحكمة. لقد كنت صحافياً ومراقباً اجتماعياً في الأزمات، خصوصاً في مجتمعات العالم الثالث، انها على كل حال وظيفتي. ولكني في مدة أقل من شهر واحد تقريباً، اختبرت بنفسي حظ أولئك اللبنانيين الكثيرين الذين تملكهم الخوف والأهمال، وكان على وشك إغراقهم جميعاً في ظلامه.

انني أخطأت في تقدير الخطر الذي كان يقترب متمثلاً بتلك الزخات من القنابل، تقذفها مدافع المورتر إلى أهدافها. ويعلم الله أن ما كان يشير إليه ذلك كان معروفاً لقد كان أولئك المتخصصين بتوضيب الحاجيات للشحن يقيمون لهم مركزاً بجوار مكان اقامتي لكثرة الاقبال عليهم من الغرباء وأغنياء اللبنانيين. وكانت تظهر أيضاً عربات النقل، كمؤشر لا يمكن إنكاره، بأن العقلاء كانوا يغادرون إلى شواطىء أقل خطراً، أما موجوداتهم الأخرى الثمينة فقد كانت تشحن جواً، في حقائب منتفخة.

ومع هذا، ربما اعتقدت أني كنت مسروراً جداً، ليس لأني كنت من محبي الحروب، بل لأنه كان سيتسنى لي العمل خارج مدينة باريس، فهذه كانت أمنيتي منذ سنوات، علّه يتاح لي البقاء مع مراسلي واشنطن بوست في بيروت لمدة ستة شهور، إذ كان مقر الاقامة هناك مريحاً ومهوياً، ولا يبعد عن مكاتب شركة رويتر للأخبار المكان الذي أرسل منه تقاريري إلى واشنطن سوى ثلاث دقائق. وكان يتم انتقالي إليه عبر شارع ممتاز، وفي أسوأ الحالات بالتكسي، مقابل دولار واحد، من أي من هذه المساكن المريحة للمراسلين، التي كانت تحمل أسماء مشوقة مثل أوتيل سان جورج، أو كوفاديس، أو لو كرنيه، أو نصف دزينة من رستورانات الشاطىء المجمعة بالمقربة منها. كنت مسروراً لمغادرة باريس برفقة صديقة لبنانية على أمل الاجتماع بأصدقاء لبنانيين أخر، كنت قد لقيتهم في زيارات سابقة، وكنت في الواقع قد حملت معي كل ما أملك، وهو ما لم يكن ولا في مرة بهذا القدر، تاركاً ورائي ذكرياتي السيئة في فرنسا، التي لم أحمل معي منها إلا ما أباهي به من ملابس انكليزية كان قد فصلها لي، سفيل رو، أحد الخياطين هناك أثناء اقامتي الفعلية فيها، وذكرى سيدة صديقة، كانت تظهر أسفها ودهشتها، من وضعه خزانة ملابسي، إذ هي التي كانت قد اقترحت بأنه من المعقول أن تساعدني هذه الملابس الجديدة، على إراحة فكري من المتاعب. وهي ملابس ثمينة انيقة اشتريتها خصيصاً لهذه الغاية، ولكني

بالكاد أن أكون قد لبستها إذ أنني لم أكن من الذيـن يحبـون التأنق في الملبس، وكنت أفكر اني في الحقيقة لم أكن بحاجة لها، لكون السبب الذي من أجله اهتمت صديقتي بأن تكون لي مثل هذه الثياب، لم يعد قائماً أو موجوداً. فبعد أربعة أيام، وبالتحديد نهاية شهر تشرين الأول سنة ١٩٧٥، حبست في غرفة مكتبي خلال معركة دامت يومين، معتقلاً من قبل مسلحين أساءا الظن بي، وقد أنقذني منها صديق قديم ذو نفوذ. ولكن لأجد نفسي قد وقعت في حصار آخر لمدة ثلاثة أيام عدت بعدها إلى بيتي، فوجدته منهوباً، والبناء خالياً من السكان.

وفي يوم أحد، استيقظت قبل الفجر على صوت معركة في الشارع المجاور لي، وهو من الشوارع التي غرست على جوانبها الأشجار، اسمه شارع القنطاري، وسرعان ما أصبح مكان المعركة المجاور مقفراً، كان الكتائبيون يظهرون في الشوارع المجاورة. وربما، كما تصورت، لحماية السكان المسيحيين من أبناء الطبقة العليا، الذين اعتادوا في ماضيهم أن يحدجوا بنظراتهم الجميليّين بأزدراء لسذاجتهم. وربما لاتهامهم بسرقة الذهب الموجود في البنك المركزي الذي يبعد قـرابـة ثمانين متراً إلى الغـرب في منطقـة اسلاميـة. كـانـت الرشاشات، والصواريخ، وقذائف المورتر، والأسلحة الخفيفة، كما قدرت قريبة جداً مني. لم أجرؤ على الخروج إلى السطح الفسيح الذي يحيط بهذه البيوت لأرى ما يجري وأين يجري كل ذلك، ان كل ما استطعت أن أراه من خلال النوافذ المغلقة، حيث كنت أقف بحذر شديد، خوفاً من أن ألفت أنظار المحاربين وأصبح هدفاً لنيرانهم، لتأمين رؤية أكثر، فدخلت إلى المطبخ بالمؤخرة ومن هناك استطعت أن أرى لهيب النيران يبتلع فندقاً كان يديره أحد النمساويين على مرمى حجر مني، وكنت مشغول البال على مالكه الذي كان صديقاً قديماً لي. ورأيت في الشارع سيارة ألفا روميو تحترق. في هذه الأثناء كانت تصلني مكالمات تليفونية مشجعة من أصدقاء يعدوني فيها، بأن جنوداً من الجيش في الثكنة القريبة سيتدخلون لإنقاذي، وفي الواقع اني تمكنت من رؤية سيارة مسلحة لا تبعد عن المكان الذي أنا فيه أكثر من تسعين متراً، غير أنها لم تتقدم سنتمتراً واحداً نحوي، وقد كنت متأكداً، بأنها لو فعلت، فلن تكون لي الثقة بأن أهبط إلى الشارع. أثناء الليل توقفت المكالمات التليفونية، كنت قبـل ذلـك قـد استطعـت إملاء قصـة اخبـاريـة إلى واشنطن، وصرفت فكري عن متاعبي لفترة قصيرة، وقد تأكد لي إذ ذاك اني كنت

وحيداً في المبنى، ولم يكن من المحتمل أن يأتي من ينقذني قبل اليوم التالي، كان اللبنانيون في الشقق الأخرى حذرين. فقدروا وقوع مثل هذه المشاكل، والتزموا مساكنهم في الجبال، مع السجاجيد الايرانية، التي كانوا قد نقلوها في أسابيع سابقة، احتراساً لما قد يقع؛ في مثل هذه الحالات المتأزمة، تنشغل الأفكار بالآخرين، ولذلك فقد كنت منشغلاً في «تقدير امكانية ما إذا كان البنك المركزي لا يزال يحتفظ بأي ذهب في خزائنه». وعند هبوط الليل، غمرني الشك في إمكانية إنارة الأنوار، وتعريض نفسي إلى بنادق المسلحين، أخيراً قررت إبقاء الأنوار مضاءة ولجأت إلى أكثر الأماكن سلامة في بيتي، غير مهتم لكون نوافذ الزجاج والأبواب كانت غير محفوظة، ولكني جئت بفراشي من غرفة النوم ووضعته على الأرض في الصالون.

الساعة الثانية والنصف صباحاً في يوم أحد استيقظت من نوم متقطع، لأفاجأ برؤية ألسنة اللهب، تبتلع بناية فخمة، مؤلفة من ثلاث طبقات تقع على الشارع، وهي بالواقع جوهرة من جواهر الفن المعماري في العهد العثماني، وإذ كان كل تفجير يهز شقتي هزاً، كنت أعجب وأنا بحالة نصف نائم ما الذي يمكنني أن أفعله، لو أن الرجال المسلحين الذين كنت أسمع أصواتهم، ولا أراهم، في الشارع تحت البناء، أشعلوا البناية التي أعيش فيها. واذ تعبت من صوت المعركة، لجأت أخيراً إلى قراءة كتاب لصديق من المؤرخين اللبنانيين عن الحرب الأهلية التي تركت آثارها على المسيحيين اللبنانيين في حربهم ضد الدروز في سنة ١٨٦٠. أذكر بعد قراءات متكررة للافتتاحيات ان هذه كانت آثار ذلك النزاع. ها هم، المسلمون والمسيحيون، فيها مرة ثانية. ومما أذكره بعض الشيء، سماعي الجرس في الطابق الأرضي يدق في الفجر الباكر، ومحاولتي تجاهله، لأنه ليس من عاقل على استعداد لأن يخاطر بالنزول لمعرفة ما إذا كان الجرس قد تعرض لمس كهربائي من جراء القتال، أو إذا كان أحد ما ـ بصورة غير محتملة ـ قد جاء يبحث عن احدى المنظمات المقاتلة. بعد دقائق، فتح باب شقتي واندفع إلى الداخل اثنا عشر رجلاً مسلحاً، ولحسن حظي كانوا من أفراد منظمة شيوعية ـ (غيروا طريقهم تحاشياً للقصف) ـ يديرها شبان مسيحيون أذكياء، وهي ككل ميليشيات بيروت الغربية، معظم أفرادها من فقراء الشيعة المسلمين. في مثل هذه الفوضى كان هؤلاء المتطفلون يمثلون على الأقل سلطة ما، وحضوراً مهدداً ولو بصورة مقبولة.

اني في مدى السنوات العشر كنت قد أصبحت خبيراً بمثل هذا النوع، أكان في التعرف إليهم أو بالمواظبة على مخاطبة نفسي بما أعلمه من أنني إذا لم تطلق عليّ النار مباشرة، وكان بإمكاني أن أتحدث معهم، فالفرص تكون سانحة لنجاتي.

ومع ذلك فقد كان هنالك شيء غير مقبول، ومحرج، وهو وضع اليدين مربوطتين فوق الرأس، ان شعوري بمثل هـذه الاهانة لم ينقصه كوني كنت حافي القدمين ولا ألبس سوى ما يلبسه المصارعون وقميصاً سوداء عليها كتابة تعلن عن مطعم لصديق لي في نيويورك، هكذا كنت في هذا الشكل غير الدفاعي، إذ كيف يمكن لمن يواجه الآخرين بهذا الشكل أن يفرض احترامه عليهم، ولهذا فقد قدمت بطاقة زيارتي المطبوعة باللغتين الفرنسية والعربية إلى شاب أسمر يلبس القميص فقط، وهذا مثل رفاقه كان يحمل سلاحاً سوفياتياً ماركة (اي ـ ك ـ ٤٧) للهجوم، قال مشيراً إليّ، وهو يخاطب رفاقه « هذا قادم من واشنطن إذاًانزلْ إلى تحت » قالها بعصبية وبلهجة الآمر، وعند خروجي من باب الشقة، رأى أنه لا بد لي أن ألبس حذائي لأن الدرج كان مفروشاً بالزجاج المفتت بنتيجة القصف بالقذائف التي كانت قد هزّت المبنى، وهكذا سمح لي بانتعال حذائي، بعد أن لبست جواربي وقميصي « السبور » وطقم « الجينز » الأزرق وحاولت أخذ بعض الدراهم، فمحفظتي كانت تحتوي على بطاقات نقدية وإجازة سوق ودفتر يحمل عناوين، ولكني لم آخذ جواز سفري.أو دفتر شيكاتي، لأن عدداً من المسلحين كانوا يحثوني على الاسراع.

عرّفت عن نفسي قائلاً « أنا صحافي » اعتقاداً مني ان هـذا يقنعهم ببراءتي، ولكـن واحداً منهم عثر في مذكراتي على كتابات عن متاعبي مع الجيش، عندما كنت أقوم بمهمتي في فيتنام. وقد أسفت لأني أحضرتها معي من باريس، غير أن هؤلاء الذين ألقوا القبض عليّ كانوا يقولون أنهم متأكدين من انني قنّاص كتائبي، مع أنهم كانوا ولا شك يريدون إزاحتي من طريقهم ليتمكنوا من اتخاذ السطح الفسيح في الدور العالي لذلك البناء، مربضاً يطلقون منه النار. ولأسباب لم توضح لي أجبرني أحدهم على حمل حقيبة ملابسي، بينما حمل آخر مسجلاً أصرّ على أنه جهاز إرسال والتقاط لاسلكي. وما أن وصلنا إلى الشارع حتى أشاروا عليّ بأن أجري بسرعة إلى الجانب المقابل. لم أكن بحاجة إلى من يحثني على الاسراع بيد اني لا أزال أعجب لماذا لم يخطر ببالي انهم ربما كانوا سيلقون عليّ النار، كما

هي حجتهم في قتل من يهرب. وبعد دفعي أمامهم في ممر مزدحم بالمسلحين، واستعمال الخشونة في تحقيق ذلك، بلغنا شارعاً فسيحاً حيث كانت تقف سيارة فولكسواجن، زركوني في المقعد الخلفي منها. وهكذا انطلقنا عبر مناطق اسلامية مجاورة في طريق معرضة للخطر، ثم إلى مقر قيادتهم.

هناك أطلّ عليّ رجل طويل القامة، يلبس جاكيت متعددة الطيات قادماً من بناء ذي طابق واحد. سألته إذا كنت أستطيع الخروج من السيارة.

فأجابني «بكل تأكيد» مقدماً لي نفسه قائلاً «أنا أبو داود» رداً على تقديم نفسي إليه. كان من اللباقة بحيث اعتقدت انه سيقدم لي بطاقته الشخصية بالمقابل لبطاقتي التي قدمتها له. غير أني لم أكن بحاجة إليها بعد أن عرفت منه انه الرجل الذي اتهم بعملية ميونخ سنة ١٩٧٢، أثناء الألعاب الاولومبية ضد الاسرائيليين. كانت نقلتي الثانية سؤالي إياه عما إذا كان له معرفة بالسفير الجزائري، محمد يزيد، الذي كان صديقاً حمياً لكل من العاملين في الصحافة الخارجية والثورة منذ ١٩٥٠، ولكونه كان الناطق باسم الثوّار خلال ثورتهم المظفرة، خلال ثماني سنوات من النضال من أجل الاستقلال عن فرنسا. وقد كان لكلامي هذا فعل السحر.

قلت ما قلته، لأني كنت أعتقد أنه ربما لجأ إلى الاتصال بن يزيد ليتأكد من حقيقة مهمتي فيما لو طلبت منه ذلك، وهو ما فعلته مع العلم ان الساعة كانت آنذاك السادسة والربع صباحاً، وربما كان الوقت مبكراً بالنسبة لسعادة السفير. «إنه معتاد على ذلك» قال مضيفي ويظهر أن بن يزيد وقف إلى جانبي تلفونياً لأن أبو داود اعتذر بحرارة قائلاً: «آسف لأن نكون قد التقينا في هكذا ظروف» ثم أردف «ولكن لا تهتم فرجالنا لن يمسوا شيئاً على الاطلاق مما في شقتك».

انطلقت مع سيارتين لحمايتي إلى منزل بن يزيد الذي هو عبارة عن بناء شبه مستودع محصن، تتبعه عدة أقسام سفلية؟ (وهو ما أصبح في متناول اليد لوقوعه بالقرب من مكان كان بالواقع هدفاً للقذائف الكتائبية بالقرب من صبرا، المخيم الفلسطيني)؛ أثناء الانتقال، كان مرافقيَّ يتكلمون الفرنسية والانكليزية إلى حد ما، كانوا كلهم شيوعيين. أحدهم الجالس الى جانبي كان يكثر من تحسس ملابسي العسكرية الأميركية، بقرص القماش، وعلى هذا قلت له انها من فيتنام، وانه يمكن حصوله عليها إذا شاء، غير اني

قلت له، ان مثل هذا اليونيفورم الأميركي يبدو غير مناسب لشيوعي لبناني.

وقد استدرك «للحرب فقط للحرب» بعد دقائق قادوني إلى غرفة جلوس بن يزيد، الذي كان لا يزال يلبس البيجاما الكحلية، تحدثت معه مستعيداً بعض المواقف المتأزمة، وكان مرافقي يبدو في موقف من يراقب كل شيء باهتمام إلى أن دعاه بن يزيد، أكثر السياسيين ابتعاداً عن الرسميات، إلى الجلوس. فشرحت له سروري بإبعاده الخطر عني، بعدها قُدّم لنا شراب المشمش. وعندما وقف حارسي ليغادر، تقدم شاب وخاطبني بالفرنسية «بن يزيد يأسف أشد الأسف لما حصل» بعدها عاد بن يزيد إلى فراشه وانطلق سائقه بي إلى فندق بالم بيتش المفضل عند الصحافيين، بعد فندق السان جورج الذي كانت قد ارتفعت أسعاره إلى أكثر ما يستطيع الصحافي دفعه، وبالمناسبة أذكر أن هذا السائق نفسه، كان صديقاً لبن يزيد منذ الحرب الجزائرية.

كان السان جورج لا يزال أجمل بزار للحقائق والأوهام، وتقديم أجود الأطعمة وأجمل النساء، وأكثر المزالج تهتكاً في الشرق.

في اليوم التالي، سرت عبر الشارع لأتناول غدائي، وأبحث عما قد يكون في صندوق بريدي. كان الطقس لا يزال دافئاً، بحيث يمكنني تناول الطعام على السطح المطلّ على خليج السان جورج. كنت أتناول القهوة مع ماك، كما كانوا يسمون السفير الأميركي ماك مورتري غودلي. عندما دعي إلى مكالمة تليفونية. لكنه عاد مسرعاً فوقّع الشيك، وانصرف في سيارته المصفحة (كرايزلر). وقد عُرف السبب بعد دقائق، لإسراعه بالخروج، فقد كان هنالك مجموعة مؤلفة من أكثر من عشرين مقنعاً من ميليشيات كميل شمعون وزير الداخلية، وهي المسماة بميليشيات النمور تقوم بقيادة سيارات رانج روفر إلى الفندق، وسرعان ما باشر هؤلاء بإنزال صناديق الأسلحة والذخائر. وهنا بدأ عمّال الفندق برفع السجاد خوفاً من توسيخه بنعالهم.

كانت آنذاك حرب الفنادق في بيروت قد بدأت، وهو كان رد فعل لعملية القنطاري، تلك العملية التي تمكن فيها المسلمون، واليساريون، بمساعدة الفلسطينيين، من إخراج ميليشيات المسيحيين من جوارنا.

كان المسيحيون ينطلقون من الشاطىء مندفعين نحو سان جورج، وأوتيل فينيسيا والهوليداي إن، الواقع على مرتفع شديد الانحدار. وقد كان المسلمون على مسافة لا تزيد

عن ربع ميل فوقهم يحتلون برج المر الذي كان لا يزال في طور الإنشاء، وهو المؤلف من أربعة وثلاثين طابقاً، من بناء كان المفروض أن يتألف من أربعين طابقاً، بني بسرعة غير معروفة من قبل، كنتيجة إلى تقنية جديدة في عملية البناء، ومن تلك النقطة المرتفعة سيطر المسلمون على المدينة كلها، بالصواريخ وقذائف المورتر والسلاح الخفيف، وسرعان ما بدأ أفراد الميليشيات المتقاتلين، بإطلاق النار بعضهم على البعض الآخر، في الفنادق الواقعة على المرتفع، حيث كانت قنابلهم تثقب الجدران بمتفجرات مشتعلة، أو تشعل النار في الأماكن التي تصيبها. وبحلول الغسق تأكدنا أنه أصبح من الخطر الشديد أن تصل إلينا قوة إنقاذ كنا ننتظرها، ولم يكن أمامي إلا أن أبقى في السان جورج غير مبال، بفواتير المحاسبين، فما كان إلا أن اندفعت في عصبية لإرسال قصتي الاخبارية بواسطة التلكس من الطابق الأرضي، حيث غرفة الاتصالات التي كانت معرّضة حتى لنيران الأسلحة الخفيفة، بكونها مؤلفة من واجهة زجاجية كبيرة مواجهة للشارع، وفي هذه الليلة الأولى لم يبق في الفندق من النزلاء سواي، وسفير هولندا هارمن جورايزن وزوجته، مراسلة الـ «سي بي اس» وبيل ماكلافلن وضيف آخر هو تاجر أميركي، ورجل شديد الإيمان بالفرار ممن لا يجرؤون على الخلود إلى النوم في غرفهم. اشتد اطلاق النار يوم الثلاثاء، وأخذت النوافذ تهتز، فكنّا نصرف الوقت طيلة النهار جالسين إلى الهاتف نلتمس ممن نستطيع الوصول إليهم من مسؤولين، أو أصدقاء، أو أي كان من ذوي النفوذ العمل لإنقاذنا مما نحن فيه، ولكن دون فائدة. ويوم الأربعاء وبعد فطور مؤلف من شطيرة جبن لم تكن في مستوى السان جورج، غادر السفير جورايزن الفندق، مثل كل أو أكثر من كان قد بقي من نزلاء وموظفين، لم تعجبه تلك الأمور، لأن أكثر موظفي الفندق كانوا قد غادروه في الصباح الباكر، بعد القهوة، ولا هو استحسن المحاولات التي كانت تقوم بها وزارة الخارجية اللبنانية، أو كون القوة الأمنية الموعود بها، قد تأخر وصولها ذلك الصباح، لإخلائنا من الفندق، السفير وزوجته اجتازا الشارع إلى سيارتها الـ «بي أم دبليو» وانطلقا باتجاه الشاطيء إلى الجهة الغربية، ولكن ببطء، ولم تمض أكثر من خمس عشرة دقيقة حتى تلقينا مكالمة من فندق الريفيارا، الذي يبعد أقل من ميل واحد، تؤكد لنا انهما وصلا بسلام بفضل اللوحات الدبلوماسية التي سهلت عبورهم مجتازين حاجزين للمسلمين، وحاجز واحد للمسيحيين.

أما في السان جورج، فرجال شمعون المسلحين تدفقوا إلى المدخل الأنيق، وقد أخبرنا السفير غودلي الأميركي، تليفونياً، ان السان جورج، وفندق اكسيلسيور في الشارع القريب، حيث كان يقيم مراسل شيكاغو دايلي نيوز رو وردن مع زوجته وولديه، غير معرضين لخطر قريب. لقد كان ذلك كافياً لنا، لكون أي من الفندقين لم يكن الآن على خط النار في محيط الهوليداي إن، وفينيسيا؛ بيد أن ماك لم يكن يعلم متى تصل مساعدات، ولم يكن باستطاعته أن يعدنا بشيء، وبتأكيدٍ تام قال لنا، ليس لدينا ما يُطمئن، إذ كان يعني بذلك ان هيئة الدبلوماسيين الغربيين، كانت منزعجة من جراء هذا الانهيار السريع للحكومة اللبنانية، ولا يستطيعون التركيز على أي شيء، أما مدير الفندق الفرنسي «هنري فراس» فقد استطاع ان يتسلل من نقطة ما، إلى المطار ولكن ليس قبل أن يتأكد من اجبار زبائنه على دفع حساباتهم إلى آخر قرش.

وبعد أن تجاوزت الساعة الرابعة بعد الظهر، كان الأمل بالنجاة قد أصبح ضئيلاً. هنا قام قائد ميليشيات النمور بالاتصال بشمعون، ليسمح له باستعمال القارب السريع الخاص بعائلة شمعون، فهذا كان رابضاً في موقف قريب من الفندق، أما السبب الداعي إلى ذلك فقد عرفناه، كان بناء على تقرير تلفوني يقول، ان الكتائبيين دحروا في شارع كليمنصو الذي كان يبعد ما يقارب ثلاثماية متراً عن المرتفع. وبعد ساعة تقريباً بدأ النمور الذين عندنا في الفندق يتراكضون إلى الداخل وإلى الخارج، وبكل الاتجاهات عندما بدأت رصاصات الأسلحة الخفيفة تصطدم بالجدران الخارجية، وما هي إلا دقائق قليلة، حتى كان الكل قد غادروه، وانبرى موظفوا الفندق إذ ذاك بالتلويح بقمصانهم البيضاء من نوافذ الطابق الثاني، معلنين السان جورج منطقة محايدة، أما نحن فبدأنا نتصل تليفونياً بأصدقائنا اليساريين، والفلسطينيين، طلباً للمساعدة. وفجأة وصل كتائبيون، وهم جماعة سيئو الأخلاق، فرضوا علينا النوم على الأرض في غرفة الطعام. لم يكن عشاؤنا البارد في تلك الليلة، أفضل مما تناولناه سابقاً لتواري خادم البار الذي مضى بالمفاتيح إلى قبو المشروبات الروحية، وهو عشاء تناولناه في الظلمة، «لا عين ترى ولا قلب يتوجع».

في صباح اليوم التالي أرسل إلينا غودلي سائقه زهير مغربي بسيارته المصفحة، وفيها تكومنا للانطلاق عبر البلوكات إلى أوتيل الريفييرا، ومن هنالك انطلقت راجعاً إلى

القنطاري وكنت أرى النساء والرجال وفي عيونهم نظرات الخوف، يندفعون من البنايات إلى كل مكان ذهبت إليه، ويكدسون ما لديهم في شاحنات، وسيارات خاصة، كانوا يقومون بذلك بذهول ملحوظ مسرعين، وكأنما قد تملكهم الخوف من أن يظبطهم أصحاب هذه الأشياء. ويسلمهم إلى الشرطة بجرم السرقة المشهود. كان ذلك في الأيام الأولى من القتال. وكان لا يزال هناك شيء من احترام للقانون، مع العلم أن الشرطة كانوا قد ألقوا بمسؤولياتهم بعيداً. منذ أشهر سابقة، إذ كانت بيوت مسدساتهم خالية، وذلك ما كان يؤكده مـا نراه مع الشرطة كلما عادوا إلى مراكزهم فور وقوف النار شقيت طريقي بين أولئك الناس الذين كانوا يسدون المدخل المؤدي إلى شقتي في البناء واستمريت سائراً أتسلق السلم إلى الطابق الثالث وهوما لم يتمكن أصحابه من افراغه. ألقيت نظرة خاطفة إلى احدى الشقق فرأيت الأثاث مقطعاً إلى قطع صغيرة ثم تابعت طريقي متسلقاً، ولقد عرفت أن الطابقين العلويين كانا قد احترقا، كانت تنم على ذلك، الرائحة المنبعثة من رماد مبلل. واجهتني عندما فتحت الباب غير المقفل لمكتبي في الشقة. وعند إجراء تفتيش سريع. أكدت صحة توقعاتي السيئة، فقد كان الشيوعيون الذين حرروني، أو أي من الذين احتلوا المبنى بعد دخولهم إياه لتنظيفه من الكتائبيين، قد سرقوا المكان وكل شيء ذا قيمة مما كان عندي ثم أحرقوا المكان لإخفاء سرقتهم، فأخذت أبحث في الدواليب. لأنقذ قميصاً هنا. وقميصاً هناك، مما سلم من الحريق واللصوص. لقد قهقهت بيني وبين نفسي. على ما شعرت به من زهو عندما توصلت للحصول على ثلاث بدلات من صنع سفيل رو. وتلك الجاكيت السبور المصنوعة من الكشمير، متعجباً كم ستكون ملائمة لواحد من هؤلاء المسلحين الشباب، ثم صُدمت أكثر عندما فتحت باب غرفتي، التي تضم مكتبتي وقد كانت مجهزة برفوف للكتب، إذ أنها كلها بما كان فيها كانت قد تحولت إلى عشرة سنتيمترات من الرماد الذي كان يغطي الجدران. ولأول مرة في ستة أيام من التشنج. بدأت أرتجف وشعرت انني بحاجة إلى كأس استقيها، إلا أن ضيوفي كانوا قد أتوا على كل ما كان عندي من مشروب فجلست تعباً على كرسي محترق ومنذ تلك اللحظة توقفت عن الشعور بالحاجة إلى مقتنيات، اني لم أكن قبل ذلك من هواة التملك. غير أن رؤية كتبي وقد تحولت إلى رماد أزعجتني، انه حتى مغول القرون الوسطى. مهدمو المدنيات. حافظوا على الكتب عندما استولوا على الجبال التي كان يقطنها

الحشاشون، هؤلاء الذين كانت توحي إليهم الحشيشة ارتكاب الجرائم السياسية وهم من وصلت أسماؤهم إلى مسامع العامة.

ها أنا، وما استطعت جمعه من ممتلكاتي في حقيبة رخيصة، أصبحت جاهزاً للخروج، فالحقائب الرخيصة كانت قد أصبحت في لبنان ظاهرة وطنية، هذه الحقائب التي كانت تصلح لجمع السرقات، أو على الأكثر، ما يمكن إنقاذه، ونقله بسهولة. كان الأنسب منها هو الأرخص، حتى لا يثير الشبهات ليس من الشرطة العاجزة التي لم تكن تجسر أن تقوم بأكثر من تنظيم السير، بل من العصابات المسلحة، والمدهش أن الحقائب كانت في كل مكان على جوانب الشارع في الحمراء حيث كانت تباع. وفي شارع الحمراء، كان أصحاب المتاجر الكبيرة يراقبون باشمئزاز تجار السوق المفرق الذين أقفلوا محلاتهم، بسبب الحرب، وأخذوا يفاصلون النهّابين، الذين كانوا يبيعون قدّاحات الكارتير الذهبية بقيمة دولارين للواحدة.

ومع اني على قيد الحياة، فاني لا أجد مكاناً أعيش فيه، وهي توقعات كان واحد من ثلاثة من اللبنانيين يشاركني إياها في الماضي القريب، غير أني كنت سعيد الحظ اني انتقلت إلى فندق. خلافاً لأولئك الناس المهجرين الذين كانوا مضطرين للإقامة في المدارس والأديرة أو الأكواخ على الشاطىء، هذا إذا لم يقوموا باحتلال شقق خالية كان قد هجرها أصحابها.

وقد بدأت أتفهم ان ما كان يجري في لبنان بهذه الصورة الغريبة كان مخيفاً أكثر من كل الحروب التي رأيتها، من الجزائر إلى قبرص، ومن الكونغو إلى فيتنام، وهي المناطق التي كنت أغطيها اعلامياً في العشرين سنة الماضية. ولئن كان تدمير الأسواق إنذاراً للبنانيين فتدمير القنطاري مقر الطبقة العليا وتدمير الفنادق الفخمة زرع الشيء نفسه في نفوس الغرباء المقيمين فيها واللبنانيين المغربين الذين يعيشون مثلهم.

والمسيحيون الذين كانوا يرغبون في إظهار حقيقتهم العدائية لكل شيء عربي ويفاخرون بانتمائهم إلى الغرب وأساليبه، ظهروا وكأنهم مصممين على تحقيق مهمتهم الكبيرة في التدمير. وإذا كان المسلمون يشاركونهم في مثل هذه الأعمال التهديمية الهائلة، فان ذلك كان يثير دهشة أقل، لأن جذورهم متأصلة في العالم العربي، ما خلا الأغنياء الذين كانوا كالمسيحيين، يقلدون طرق الغرب، ومن هنا فقد تبين أن المسيحيين والمسلمين متوافقون

على تمزيق جمال بيروت الغربية المعالم.

إن ثأرهم المشترك من الغرب كان يمارس بالأساليب الرجعية أكان من الرجال أم من النساء، وكان يبدو طبيعياً، وما كان يكفي لأظهار الشعور المسيحي بالكبت، اولئك الذين بدا أنهم قد تناسوا التقاليد الحربية للكنيسة، ومما كان يبدو متوازيا مع ما ذكرت أن راديو بيروت وهو آخر مظهر من مظاهر الشرعية لم يتوقف عن عزف الموسيقى الغربية الصاخبة، حتى في الأيام السوداء عندما كان عدد الذين قتلوا هنا وهناك لا يقل عن مئتي ضحية، ولم تكن الأقنعة التي يلبسها الكتائبيون في أيام الحرب لمجرد التقليل من الخوف والحؤول دون معرفة هؤلاء المسلحين بل كانت لتضمن لهم عند وقوف القتال حرية العودة إلى الجانب الآخر من المدينة، كما كانت هذه الأقنعة تقليداً لما يعرض في المسارح لممثلين يستعملونها في مشهد حربي، وإضافة إلى ذلك، فقد كان واحد من الميليشيات الشيوعية قد اعترف لي في وقت ما بسروره البالغ، عند استعمال السكين لتمزيق المفروشات وتكسير الأواني الأثرية، وأية محتويات أخرى في بيوت المسيحيين في القنطاري، مساكن الطبقة العليا وقد أقسم لي أنه أقدم على إتلاف ممتلكات الغرباء، ولم يقتحم سوى منازل أولئك الذين كانوا على علاقة مع الكتائبيين، غير أني اعتقدت أنه كان يقصدني إذ اني كنت قد أخبرته بما أصاب أشيائي، انه كان يحادثني بلهجة النادم الخائف من الله لما اقترفه. ان مجتمعاً عُرف بانصرافه إلى التمسك بالأصول التجارية مثل لبنان بدا من المستغرب عمله هذا لتضحية كل ما كان لديه، حتى أرواح الناس، ولبنان حتى قبل الحرب كانت التقارير الدولية غير الدقيقة تضعه أحياناً فوق الولايات المتحدة الأميركية في الاحصاءات الاجرامية، وفي هذا الوقت كانت المذابح اليومية وعمليات التشويه تقود إلى مجازر كبيرة، والمسيحيون من أفراد الطبقة العليا، الذين يسكنون التلال الباردة فوق بيروت كانوا يعرضون أمام زائريهم، مشاهد اطلاق دفعات من قنابل المورتر التي كانت مصفّرة (موجهة) على مخيمات الفلسطينيين، وكانت عمليات التقطيع والتهشيم شيئاً عادياً، فالمسيحيون كانوا ينقشون الصلبان على أجساد من يقتلون، أو يأسرون. وكلا الجانبين كانوا يسحبون بالسيارات أسراهم حتى الموت، كان اللبنانيون والفلسطينيون كلهم ممن تثير المشاعر عندهم، الأسلحة الحديثة، لاستعمالها في القتل، وقد بدلوا مسدسات حرب ١٩٥٨ المدنية بالكلشنكوف الروسي، والرشاشات (أم ١٦) الأميركية والمورتر وقاذفات

الصواريخ ومدافع ١٠٥ ملم و ١٢٢ ملم و ١٣٠ وحتى ١٥٥ ملم، قبل أن يتوصلوا إلى الحصول على راجمات الكتيوشا، وصواريخ الغراد أرض ـ أرض.

وهؤلاء اللبنانيون الذين كانوا يفاخرون بأنهم من أبرع تجار السلاح، كانوا يعرفون أين يجدوا هذه الأسلحة. كانت بلغاريا هي التي تزوّد ميليشيات المسيحيين قبل سنة ١٩٧٥، بها وحتى بداية الحرب، وإلى أن اعترض عليها الحزب الشيوعي اللبناني. وكان كل تاجر سلاح، جدير بهذا اللقب، يأتي إلى بيروت أو يتصل مباشرة باللبنانيين في أوروبا؛ كما برهن اللبنانيون على مقدرة في التمويه فان محرر جريدة صديق لي، اتصل به مرة أحد اللبنانيين المسيحيين وطلب إليه بإصرار، أن يشحن له السلاح بغلافات كتب إذ كانت مؤسسته التجارية تشحن الكتب إلى مكاتب في لبنان. كان السلاح المرسل في نصف دورة حول العالم تنتهي دورته في الشرق الأوسط، ولكن إلى أيدٍ أخرى، فان أسلحة مشاة روسية كان قد استولى عليها الاسرائيليون في سنة ١٩٦٧، أثناء الحرب التي وقعت بينهم وبين السوريين والمصريين، قد جرى بيعها إلى الثوار في بيافرا. وعندما سحقت نيجيريا بيافرا، جرى بيعها إلى غانا حيث قام المغتربون من التجار اللبنانيين بشرائها، ثم بإرسالها إلى مارونيستان، ومثل هذه الصفقات الراحلة من السلاح، كانت شيئاً عادياً، وفي سنة ١٩٧٠ قامت (س جي س) و (سي آي أ) واسرائيل بتزويد الأكراد الذين كانوا يحاربون الحكومة العراقية، بأسلحة مصادرة من صنع سوفياتي، كما قامت اسرائيل أيضاً ببيع السلاح إلى إيران، وبينه قطع تبديل لطائرات أميركية، وذلك لمساعدة آية الله خميني في حربه ضد العراق، والمسيحيون اللبنانيون كانوا يتفاخرون بأن ما حصلوا عليه من سلاح في باديء الأمر كان ما اشتروه من الفلسطينيين المملقين، وكذلك كانت كل من العراق، وليبيا، .... والأردن، والسعودية، تواصل تقديم السلاح، وهكذا كانت تفعل اسرائيل في المرحلة الأخيرة من الحرب، ناهيك عن أن مثل هذا السلاح الثقيل، لم يكن ضرورياً لحرب قروية، لأن معظمه كان يطلق عشوائياً، مع تقدير أن نتائج الاصابات في صفوف المحاربين كانت لا تزيد على عشرة في المئة. إذ كان من النادر أن تحدث مواجهة بين محاربين وأعدائهم، فالحرب من المواقع البعيدة كانت هكذا، ان احدى الطبيبات اللبنانيات الدكتورة أمل شمّاع في مستشفى البربير من غربي بيروت، اعتادت أن تتلقى مكالمات تلفونية غير مهذبة من مسلحين مسيحيين، تختتم بهذه العبارة (انتظري

إرسالية بون بون إليك) والمقصود رشقاً من قذائف المورتر على الطابق الرابع.

إن درجة الكفاءة الحربية كانت ضعيفة ولكنها تحسنت في المرحلة الأخيرة من الحرب، عندما انشق الجيش اللبناني إلى قسمين، وأصبح كل قسم لديه خبرة فنية، في الشهور الأولى من الحرب لم يكن لدى محاربي بيروت الغربية خرائط حديثة تمكنهم من إصابة أخصامهم المسيحيين في شرقي بيروت، لذا فالنسبة من الاخفاق التي ظهرت عند القاذفين القليلي الخبرة الذين لم يكن باستطاعتهم حشو مدافعهم بإتقان، كانت كبيرة بينما لم يبدُ ان الميليشيات تعبوا ولو مرة واحدة من اصطياد الناس، وفي الأوقات التي كان يعم فيها الهدوء كنتيجة لهدنة كان الوقت يبدو مناسباً لعمليات الخطف والقنص، حيث أن المدنيين كانوا يخرجون من مخابئهم متنقلين في الشوارع دون احتراز.

أما هدنة آخر كل شهر، فقد كانت من أجل الانتقال إلى البنوك وصرف الشيكات، إذ أن معظم الشركات في بيروت، استمرت في الدفع لموظفيها بصورة دائمة، على أمل أن ينتهي القتال وتستعيد الأعمال نشاطها كالسابق، كما أن الحكومة كانت تدفع لموظفيها من المدنيين، ومن الجيش وقوات الأمن، الذين كانوا من زمن طويل قد توقفوا عن مزاولة مهماتهم. أخبرني صديق لي في وزارة الاعلام، انه كان لديه خمسة محررين (سكريتاريين)، وكان يشتكي أن أحداً منهم لم يأت إلى العمل في أي يوم. غير أنه عندما أصبح لبنان سائباً، فان متابعة نهب الأسواق، وسرقة المساكن في الضواحي، كانت شيئاً عادياً في نظر الجميع؛ كانوا يسرقون السجاد العجمي، والنقود، والأشياء الثمينة الأخرى. ومع مرور الشهور دخل المسلحون مستشفى المجانين، وأخلوا رفقاء لهم، كما اقتُحمت السجون، وأخليت ثم دمرت، وفي احدى حالات التخريب المتفاقمة أقدمت ميليشيات المسيحيين على سرقة المرفأ بينما قام الفلسطينيون، وعلى الأرجح بمساعدة ذوي اختصاص من العصابات الأوروبية، بسرقة، بل بأكبر سرقة بنوك، في التاريخ، وهكذا كان الموردان الاقتصاديان للبنان قد انتهكت قدسيتها في ما دعي بأبشع جريمة انتهاك اقتصادي. ان حجم الخسائر حتى هذا اليوم لا يزال تقديرها غير ممكن، ولكن من المعتقد أنها تفوق البلايين من الدولارات. كما وأن الخسائر لم تقتصر على الماديات فان سمعة لبنان الحسنة كميناء، كانت قد انهارت منذ أكثر من سنة، كما أهميته في حركة المناقلات التجارية والخدمات مع البلدان العربية في الداخل، والتي كانت موجودة قبل الثروات

النفطية، وما بلغه الخليج من مكاسب وتكديس للدولار النفطي، وان البنوك الحديثة والأكثر علاقات فقد كانت حوّلت بيروت إلى مركز مالي رئيس في الشرق الأوسط، إذ كان عددها يساوي عدد ما في لندن، وكانت قوانين السرية البنكية بلا نظير، وكان الغطاء الذهبي يبلغ تسعة ملايين ونصف أونصة من الذهب، وهو أكبر غطاء في العالم، وهكذا اصبحت الجمهورية التجارية في خراب. بيد أن جهد من جردوا أنفسهم للدفاع عنها والتضحية في سبيل بقائها كانت صاحبة الفضل في عدم زوالها.

وإذ أصبح العنف جزءاً من الحياة فالقيام بمشوار في الشارع، أو محاولة حضور فيلم سينمائي، أو اخراج كلب في نزهة، كان يكلف الحياة ثمناً له. إن لم يكن بقذيفة مورتر، أو مدفع، فبرصاصة قنّاص أو خطافين على الحواجز. في بادىء الأمر كان البيروتيون يلجأون إلى مكالمة أصدقائهم تلفونياً ليعرفوا أية الضواحي كانت تقع تحت القصف. حتى اللبنانيين الذين كانوا قد غادروا لبنان هاربين إلى الخارج، كانوا يجرون اتصالات بعيدة يعلمون فيها أصدقاءهم البيروتيين عما حصل من خراب في بعض البلوكات البعيدة عنهم. في هذه الاتصالات لا يتكلمون إلا عن الحرب، وتدريجياً بدأت القنابل التي تلقى من السيارات تثير هلعاً عاماً في شطري المدينة، وبينما في بيروت الشرقية يسود الهدوء كان الناس يذهبون إلى متاجرهم، بل حتى إلى ممارسة أسباب اللهو كالتزلج أو سباق السيارات وتكون بيروت الغربية في الوقت نفسه ميداناً لأعمال العنف اليومي. وفي المقابل فان سكان بيروت الغربية كانوا لا يبدون اهتماماً لقصف بيروت الشرقية بين الحين والآخر. ان الذين بدأوا عمليات الخطف كانوا يخطفون في ضباب الحرب الأهلية، ولكن اتساع تكرارها أصبح أعظم مظهر مستجد للنزاع، كان المسلمون يزعمون أن الكتائبيين هم الذين بدأوا بإجبار اثنين منهم على النزول من سيارة باص في بيروت، وأطلقوا عليهما النار بعد أن حاولا، بناء على أوامرهم. الهرب. بينما يدعي المسيحيون ان عصابة من المسلمين الشيعة تطلق على نفسها فرسان علي، كانت قد بدأت مثل هذه الممارسة قبل ذلك في ايار ١٩٧٥، فقتل خمسون مسيحياً بينهم على ما يعتقد، أفراد من المنظمات الموالية لهم، وقد وجدت الجثث في مقبرة للمسلمين بالقرب من خط التماس، وكانت أطرافها مقتطعة، وهكذا كان الجانبان يقترفان جرائم التقطيع والتشويه، وهناك حالات مسجلة لمسلمين اعتقلوا في منطقة مسيحية والعكس بالعكس. وهناك الذين كانت سباباتهم أو كل

أصابعهم أو أنافهم أو آذانهم مقطوعة، وكنت ترى بطوناً مبقورة، وجثثاً محروقة في السيارات لرجال ونساء على السواء، وقد أقسم لي بعض الصحافيين الذين زاروا ساحة المدينة المدمرة أثناء وقف للنار في ربيع سنة ١٩٧٦، ان امرأة شابة تلبس اللباس العسكري وتقف وراء حاجز في الجانب المسيحي، أرتهم كيساً مملوءاً بأشلاء الذكور، غير أن ما كان أكثر هولاً، حتى من قنابل السيارات فهو تلك الحواجز الطائرة المعبأة بمجموعات من المسلحين الذين كانوا يوقفون السيارات ويحتجزون ركابها على الهوية المعطاة لهم من الدولة.

إن صديقاً لي اسمه سمير صعب مارونياً، أوقف مرتين من قبل مثل هذه الحواجز، كانت المرة الأولى عندما كان يقود سيارته إلى منزله من بيروت الشرقية في نصف الليل، حينما جرى توقيفه على الممر المعروف بالمستديرة التي تربط بين قسمي المدينة، حدث ذلك في أيلول سنة ١٩٧٥، وقد كان في السيارة برفقة اثنين من الشباب الموارنة، كان رفيقاه يحملان بطاقة الهوية، ولكن هو لم يكن يحملها لأن كلي الاسمين سمير وصعب مشتركين بين المسيحيين والمسلمين، وقد حاول يائساً إقناع معتقليه انه كان مثلهم مسلماً، وقد قال لي: «كانوا يضربون صديقي ويحاولون قتلنا جميعاً، لأن الكتائبيين كانوا قد قتلوا خمسة من المسلمين. ضربونا بأعقاب البنادق» ثم ذكر لي مُردفاً «كنت أعرف أنهم سيقتلوني، عند ذاك فتحت ملابسي الداخلية وأريتهم اني مختون (مطهّر) كالمسلم الحقيقي. هنا توقفوا عن ضربي وأخذوا يحققون معي، وهل أنا غني أم فقير وفي أية مدرسة تعلمت، ولما توقفت التحقيقات ظهروا وكأنهم مترددين ثم بادروني بالسؤال إذا كنت أستطيع أن أقرأ لهم آية من القرآن». بقولهم «هل تعرفها» والمقصود هو الفاتحة، ثم أردف مكملاً، «لم أكن أتذكرها في ذلك الوقت».

فسألته: «وكيف أنقذت نفسك إذاً؟».

«لم أستطع فبدأت بترديد بعض أشياء تافهة، اني من أبوين فقيرين، واني تلقيت علومي في أوروبا، لم أضف شيئاً على ذلك، وهكذا اشتبهوا بي، اني ورفيقي، مدينون بحياتنا إلى صدفة، فالكتائبيون تلفنوا لأحد المسلمين في الجانب الآخر ليقولوا لهم، ان ثلاثة أشخاص كانوا قد خُطفوا، وهل من أحد يعرف أين هم، وسرعان ما قدم رجل يبحث عن ثلاثة شبان، انه لم يسأل عن أسمائنا واكتفى بأسماء من اعتقلونا، وعن الوقت

الذي اعتقلونا فيه، وهذا تطابق مع الوقت الذي كان قد اعتقل فيه ثلاثة من المارة، ونجونا » فسألته: « والمرة الثانية »: قال: « في المكان نفسه تماماً، ولكن في ضوء النهار، كنت ذلك اليوم أحمل بطاقة هوية لأحد زبائني المسلمين، كان قد نسيها في مكتبي وكنت قد حملتها كشيء ضائع لأعيدها لصاحبها، واحتفظت بها معي، كنت أبدو شبيهاً به كما ظهر في الصورة »، ولما سألته عما إذا كان تعرض لضرر في هذه المرة أجاب « لا » على الاطلاق تركوني انصرف ولكنهم أوقفوا السيارات التي كانت ورائي.

في مطلع خريف ١٩٧٥، كان قد بدأ المسلمون يمتنعون عن الذهاب إلى المنطقة المسيحية، ولهذا فالمسلمون الذين كانوا فيها، وجدوا لهم ملجأ في بيروت الغربية، بينما عشرات الآلاف من المسيحيين، كانوا يعيشون في بيروت الغربية، كما كان مئة ألف من المسيحيين يتنقلون ذهاباً واياباً بين المنطقتين في طريقهم إلى العمل في الميناء، إذ كان أصدقاؤهم وما يدفعونه من رشاوٍ يمكنونهم من الحصول على بطاقات هوية مزوّرة، تقول انهم مسلمون، أو بمستندات من مختلف الجماعات المسلحة في بيروت الغربية، كان عندي أيضاً صديق مسيحي، اسمه جان بول زبوني، مسيحي كلداني، عائلته هربت من الاضطهاد من العراق سنة ١٩٣٠، ولدى توقيفه من قبل مسلحين في غربي بيروت قدم لهم بطاقة هوية، كان اسم جان واضحاً، ولكن اسم بول لم يكن كذلك، بل كان مثيراً للشكوك، هكذا قال له معتقلوه قبل أن يتركوه ينصرف، لم يكن كل الذين يوقفون الناس على الحواجز ذوي طبيعة مرحة، فقد رأيت مسلمين يجبرون اثنين من المسيحيين على التوقف ويتفحصون بطاقات هوياتهم ثم يجبرونهم على النزول من سياراتهم ويقتلونهم بالرصاص، وكل ذلك في أقل من دقيقة. كما اني عرفت مسلحين من المسيحيين كانوا يقتلون بدم بارد في حالات مشابهة، أكثر حوادث القتل كانت تشاهد في أسوأ مكان من المدينة، هو تلك الطريق الممتدة بين مستشفى البربير في بيروت الغربية ونقطة العبور من المتحف إلى القطاع المسيحي. فالمتحف كان نقطة العبور الوحيدة خلال حرب ١٩٧٥ - ١٩٧٦ بين شطري المدينة، والقادم من القطاع المسيحي، كان عليه أن يمر في شارع ضيق، محفوظ بسيارة مقلوبة تمنع الانطلاق السريع قبل التعرض لنيران القناص، في أكثر جهة تعرضاً للقنص، كما أن البراميل المملوءة رملاً، وأحد قساطل المياه المكسورة منذ شهور زادت من صعوبة المناورة للخلاص عندما يحاول الواحد التدرج عبر الشارع الضيق إلى

زاوية تضعه في مكان أمين بالقرب من مركز الجيش اللبناني، أنا لا أزال حتى هذا اليوم أشعر بالخوف كلما أمر بهذا الشارع الضيق رغم أنه قد مضى وقت طويل، على استمرار هذا المكان جثة للقناصين، وفي شهر ايار ١٩٧٦ خلال الهجوم بقذائف المورتر والرشاشات تجمد الدم بعروقي عندما هدّدني صديقي مراسل لوس انجلوس تايمز، بتركي قرب ثكنة الجندرما، حيث كنا قد اتخذنا لنا ملجأ وذلك قبل أن نعود لسيارتنا التي ستعيدنا إلى بيروت الغربية. ويؤسفني أن أذكر اليوم أن رفيقي هذا قتل في ايران أثناء ثورة ١٩٧٩.

بعد أسبوعين من هزّة الأعصاب هذه، كان زميلي مراسل النيويورك تايمز يعبر المتحف عندما أصابت رصاصة قناص أدوار صعب، مراسل لو موند، وكانا في نفس السيارة التي كانت تنتقل من القسم المسيحي إلى الجانب الآخر. كنت إذا عبرت هذا المكان تواجه فوراً بساتر من أكياس الرمل، أقامه الجيش اللبناني، وإذا اجتزته تصل إلى حاجز للمسلمين على نهاية حدود منطقتهم. هناك قتل سفيران: السفير الأميركي، والسفير الفرنسي.

كانت هذه العقوبات بالموت خارجة عن أحكام القانون، ان طارق متري، الشاب المتين البنية ذي اللحية، وهو الموظف في المنظمة العالمية للشبان المسيحيين شؤون الطلاب. وخريج الجامعة الأميركية بالعلوم الفيزيائية، قد أصبح خبيراً فيما يختص بإنقاذ المخطوفين اذ بلغ عدد من أنقذهم في بيروت الغربية وحدها، أكثر من مائة مخطوف. ومتري هذا، كان قد اختبر وجود ثلاثة أنواع منهم.

الأول يختص بالميليشيات الذين كانوا يزايدون بتعصبهم على سياسة منظماتهم. فهؤلاء كانوا يعرفون «بالعناصر غير المنضبطة» وفي مفكرة مترى كانوا من النوع المخيف جداً، فهم لا يذهبون إلى أبعد من السؤال «منا» أو «منهم».

والنوع الثاني: يتضمن أولئك الذين ينفذون الأوامر بخطف عدد محدود لغاية المقايضة بمخطوفين آخرين. وهم خليط من منظمات متعددة، ومما يتفق وهذا النوع، ان مثل هذه العمليات كانت تجري بحجة أن الجانب الآخر قد قام بعملية خطف، والجماهير غاضبة ولا تقبل إلا بخطف مقابل، وإلا حلت الكارثة، ومعنى ذلك أننا إذا لم نفعل فستكون الأمور أسوأ. هذا يشير أنه ان لم تتمكن المنظمة من القيام بالرد المناسب، فانها لا محالة تفقد

مكانتها.

والنوع الثالث من الخطف كان يجري على أساس فردي، والمطلوب خطفه يكون مشتبهاً به. ومن المظنون غالباً، ان هذه كان يقوم بها فريق ثالث وبعد تحذير مسبق وكأنها نزاع أحباب أو صراع بين متنافسين. كان متري يجد الشيوعيين أسهل من يمكن التعامل معهم. فقد كان على حد قوله أكثر زعماؤهم من المسيحيين وكان بالإمكان أن تعتمد على ايديولوجيتهم.

وفي الجدول الآخر عند متري، جماعة المتعصبين المسلمين الذين يفتقرون إلى النظريات الفلسفية ولا يتمسكون بولاء معين (وهؤلاء معظمهم كان المال يأتيهم من دول عربية عديدة على شاكلتهم) فهؤلاء كان الكلام معهم على غير طائل مهما بُذل من جهد ومحاولات.

سار متري مضطرباً إلى مقر عمله «بيت استضافة طالبي»، فقد كان عضواً في جماعة المسيحيين الوطنيين. وهم جماعة في بيروت الغربية يشكلون بديلاً للمسيحيين في الجانب الآخر من بيروت. ومما قاله متري، انه يتذكر أن له عدداً من الأصدقاء بينهم يعرفون انه على علاقات جيدة مع الفلسطينيين، لها شأنها ما دامت الحرب قائمة. ففي بيروت الغربية، عبر الشهور، وجد الفلسطينيون أنفسهم في موقع المسؤول يرجع إليهم برضى الدولة أو بدونه، كما يرجع إلى أي مركز شرطة أو جندرمة أو أية سلطة محلية كانت سلطتها قد انتقلت إلى عصابات في الضاحية، مسلحة ومدعمة بالكومندوس الفلسطيني. وقال ان ما يذكره عن تجربته الأولى عندما اضطر إلى التدخل يوم اختُطف جار له، وجاءت إليه عائلة المخطوف تطلب المساعدة. ثم بدأت ثورة تليفونات من رجال أكليروس، من الجهة الأخرى، يسألونه فيها إذا كان في الامكان الاتصال مع الخوري الفلاني بالأبرشية الفلانية.

كان ذلك في ايار سنة ١٩٧٥ بعد أقل من شهر من بدء الأعمال الفدائية. وآخرون تقاطروا ليعرضوا قضاياهم مثل، فلان، فقد في المكان الفلاني، وآخر في المنطقة الفلانية، وكلهم كانوا من الاجراء العائدين من أعمالهم إلى بيوتهم. وهنا سألت متري عن أسلوبه في العمل وأجابني، انه كان يراجع جداوله ويمضي لمقابلة من تقتضي مقابلته في كل مرة..

فسألته: «كل مرة؟؟».

وأجاب بالإيجاب، قائلاً انه كان يقابل الأسماء بما بجدوله، فمنهم من كانوا يقولون لي انهم لا يعرفون شيئاً، فاضطر إلى الذهاب لمقابلة مجموعة أخرى، وكان يحدث أحياناً، انه ليس بينهم من يستطيع أن يقول شيئاً، لأنهم لا يحتفظون بهم، وما كان عليه، إلا أن يذهب إلى أولئك الذين قد يكون عندهم ما يقولونه. ولكنهم كانوا أحياناً يفضلون أن يرسلوا معي واحداً منهم، بعد أن يقدموا لي في غالب الأحيان، الشاي أو القهوة. ثم كنا ننصرف معاً، وهذه علامة مطمئنة، فهؤلاء الأخر يعترفون بأن الرجال لديهم، ولكنهم سيحققون معهم وهكذا كانوا يصرفونني بقولهم: «عد غداً ظهراً».

«أكنت تعود فعلاً؟».

«كنت على الغالب أجري مع أهل المخطوف مكالمة تلفونية بعد ظهر ذلك اليوم وإذا لم يحدث شيء قبل انتهاء الموعد كنت أعود لتكرار جهودي».

«وإذا لم تستطع شيئاً؟».

«عندئذ كان لا بد من إيجاد آخرين ليتولوا العمل، فانك، غالباً ما تجد أن ثقلك السياسي أقل من المطلوب. وهنا كنت أذهب إلى «فتح» التي، باعتبارها أكبر المجمعات الفلسطينية، لا بد وأن يكون لديها دلواً تدلي به. وقد يحدث أن تتنصل فتح من المسؤولية، وعند ذلك تبدأ بالدوران من باب إلى باب. فقد تفاجأ بأحد الخاطفين يقول لك «هاي نحن نعرف أن هذا الشخص هو من أبناء القرية الفلانية والنائب الذي يخصه هو فلان» فاذهب إلى ذلك النائب في البرلمان، ليتوسط ويجرب ضغوطه».

حتى أن متري نفسه، والفريق الذي معه في عمليات الوساطة، وجدوا أنفسهم مراراً في مواقف استجداء. قال لي مرة: «عليك أن تدرس الحالة أولاً فقد تكون أخلاقية، وقد ذكر أن السجون لدى المنظمات كانت في القيادات، ولما كان الخاطفون في أغلبيتهم من العقد الثاني من العمر أو أقل، وكان رؤساؤهم الذين يتولون هذه العمليات، لا يقل عمر الواحد منهم عن العقد الثالث. فالمسألة تكون دقيقة، ومع أن متري كان يعرف أناساً من مختلف الأحزاب والمنظمات، فانه لم يتخذ مسلكاً جدياً في القسم الأخير من سنة ١٩٧٥، وأوائل سنة ١٩٧٦، إذ كان هنالك هيئة أمنية متعاونة لحل مشاكل الخطف، والمشاكل الأخرى، لكنها مع الوقت انحلّت ككل شيء آخر. عندئذ لم يبق عند متري مركز لتصريف الأمور، ولم يكن قادراً على تأمين علاقات دائمة مع الحواجز، فقال لي: «لا

تكاد تتعرّف على واحد أو آخر، حتى يقال لك انه مات، أو صرف إلى عمل آخر».

هذا جعل متري في حالة عصبية سببت أصابته بقرحة في معدته، وعلى هذا قال لي «هذا ما نحن فيه، من محاولات لإنقاذ بعض المسيحيين الأبرياء من قبضة بعض الميليشيات الصغيرة ممن يدفع لهم بلد عربي مئات الدولارات شهرياً، وقد بذلنا جهوداً وتعرضنا لأخطار مميتة في إقناع أولئك الذين يجهلون كل الايديولوجيات من مسلحين غير خلوقين، بأن المسكين الذي يهددونه بالقتل لم يكن كتائبياً ولا عميلاً اسرائيلياً»، وقد حدث أن تدخل متري حتى لحساب مخطوفين من الميليشيات المسيحية، وكان على الغالب ينجح في تلك المهمة المستحيلة. بيد أن أمثال هؤلاء الذين أنقذهم كانوا غالباً قد تعرضوا إلى ضرب مميت، ويقول انه لم يتمكن ولا مرة من استرجاع القتلى، فكلا الطرفين كانوا يفضلون طمرهم في كهوف في احدى الغابات. كان مكب المسيحيين مجرى نهر تحت خط سكة الحديد شمالي بيروت بالقرب من كازينو لبنان، وطالما توقف سائقو الدراجات النارية ليلقوا نظرة على الهياكل العظمية هناك، وكأنما ذلك المنظر كان مشهداً تمثيلياً لأحد المسارح المتنقلة على سبيل الإثارة، أما الأماكن التي اختارها المسلمون فقد كانت أقل عرضة للمشاهدة غير أنهم هم أيضاً كانوا يفضلون الجسور والطرقات الجبلية، على الأخص الممرات الجانبية بالقرب من مستشفى البربير. وبالاضافة إلى ذلك، كانت هنالك بعض الاستثناءات إذ عدد قليل من النساء اختطفن أو اعتدي عليهن لأنه في العالم الثالث لا تعتبر النساء في الحسبان، غير أن الخاطفين اعتقلوا مرة صديقة حميمة لمتري، اعتقلت لكونها على علاقة قربى بآل الجميّل. لقد كانوا يأملون أن يقايضوها، بإطلاق سراح اثنين من رجالهم، ولكنهم أطلقوا حريتها عندما أقنعوا أن عائلتها لا تشارك الشيخ بيار الجميّل ميوله السياسية. بعد حين اعتُقل متري نفسه. حصل ذلك أثناء وجوده بالقرب من مستشفى البربير ذات مساء، ولدى خروجه من اجتماع، وجد سيارته محطمة. وقد أوقف على حاجز، بينما كان يحاول إيجاد تكسي، نقل في سيارة جيب على أساس تذكرة هويته، فهو لم يحاول أبداً أن يحمل تذكرة هوية مزوّرة.

وكجميع الموظفين، فهو لم يستطع معرفة من الذين خطفوه. «لقد رفضوا أن يقولوا من هم» «كنت أعرف واحداً على الأقل من كل منظمة وقد صرفت الوقت بمراجعة ذاكرتي بكل أولئك الناس الذين كنت أعرفهم، والمفاجأة انهم عندما فتشوا محفظتي

وجدوا بطاقة أميركية، وصاحوا جميعهم، أميركاني أميركاني هذا جاسوس أميركاني، عندها قلت لنفسي: « هذه المرة وقعت » استمر توقيفي ساعتين وأخيراً أطلق سراحي ». ثم أضاف « ولكوني كنت مقيماً في بيروت، فقد كنت أعرف ما هو شعور البيروتيين. لقد أوقفوني على الحواجز عدة مرات وبالرغم من أني أحمل بطاقة صحفي وجواز سفر خاص، فقد كان خاطفيّ يمتنعون عن الاتصال بأشخاص كنت أعرفهم كانوا من أصدقائي، حتى ولو انهم من بين رؤسائهم في المنظمات. وكان يبدو لي أن هذا التصرف كان اجتهاداً يساعدهم على التحقق من شخصيتي. بل كانت بطاقتي المالية كافية لاعتباري جاسوساً، وهذا التجاهل كان من نوع تجاهل واحد من الشيوعيين عندما أصرّ على أن جهاز التسجيل ليس إلا وسيلة اتصال لاسلكي » (توكي ووكي).

ومن عوامل الحرب الأهلية كان التشكيك بالمسيحيين، حتى بمتري، والمسؤول عن ذلك لم يكن سوى لوردات الحرب في المسيحيين، فهم من يجب أن يوجه إليهم اللوم، ففي ذلك اليوم الذي أطلق عليه اسم اليوم الأسود، في السادس من كانون أول سنة ١٩٧٥ قامت زمرتهم المحاربة، بارتكاب جرائم القتل ضد الآمنين، وكان لهذا الفعل ردة فعل مشابهة لدى المسلمين، وهذا دفع إلى رفع حدة القتل والذبح والشهوة لارتكاب المجازر. إذ لم يعد القتل يمارس ضد أفراد وحسب، بل أصبح يمارس ضد جماعات، فزمرة الميليشيات المسيحية المتعطشة لسفك الدماء أقدمت على ذبح ألفي فلسطيني ولبناني مسلم عند اجتياح تل الزعتر في شهر آب سنة ١٩٧٦، بعد حصار دام اثنين وخمسين يوماً. صوّر هذا المشهد واحد من أفراد الميليشيات المسيحية، وفي الفيلم المشار إليه تفصيلات وافية لذلك اليوم من القتل بالجملة. إذ يرينا الفيلم صور الناجين وهم يتسلقون 'شاحنات خاصة الصليب الأحمر الدولي حيث لم يظهر بينهم رجال.

وأوضح ما يشير إليه يوم السبت الأسود، هو فقدان السلطة في لبنان كلياً. قال مخترعو الأعذار ان هذه المذبحة كانت رداً على تقطيع أربعة من الكتائبيين بالفؤوس قبل ليلة واحدة، أثناء عودتهم إلى بيوتهم من سهرة متأخرة عند مرورهم بالقرب من تل الزعتر. بلغت حصيلة قتلى السبت الأسود في وسط بيروت المركزي مائتي قتيل من المسلمين،

وهيأت المسيحيين إلى انتظار ردود فعل مشابهة.

في ذلك اليوم بالذات، السبت الأسود، وجدت نفسي في حيرة لم أفهم مسبباتها. كنت عائداً إلى شارع البنك للكشف على حسابي عندما وجدت نفسي في وسط قافلة من السيارات وقد علا تزميرها إلى عنان السماء، كان هذا التدفق مخالفاً لكل أنظمة السير في العالم، وكانت وجهته غربي بيروت، غير أني الآن عرفت، فقد كانت التقارير عن المجازر لا تصدق. حدث كل ذلك بينما الشيخ بيار الجميّل، رئيس الكتائب كان قد سافر ذلك الصباح إلى دمشق.|...

أظهرت زيارة الجميّل إلى دمشق ومذابح السبت الأسود اتجاهين متعارضين للتفكير المسيحي في لبنان، الاتجاه الأول الرغبة في نبذ كل ما هو عربي واسلامي، والثاني الميل لافتعال علاقات مع العالم العربي المتمثل بسوريا التي تعد قلب العروبة. لقد كانت نتائج السبت الأسود سبباً في قطع الطريق على الكتائب في الحصول على موارد نقدية من مثل السعودية والامارات النفطية في الخليج. فأمر المواجهة العدائية لليسار الذي يمثل الشيوعية شيء، وذبح المسلمين بالجملة شيء آخر. ولو أن الكتائبيين كعادتهم في التهرب كانوا قد وضعوا اللوم على ذلك الصحافي البارز منهم، الذي راح يطلق النار عشوائياً على المسلمين ليثأر لولده الذي كان واحداً من الأربعة الذين قتلوا في الليلة السابقة، كما كان قد قتل له ولد آخر في ذلك الصيف في وادي البقاع عندما كان في احدى مسابقات السيارات، يجتاز بسيارته منطقة اسلامية على طريق السباق. فالحرب كانت قد وصلت إلى درجة من التعصب، تكفي لأن تجعل لكل حادثة ردة فعل مساوية. فقبل ثلاثة أيام أحرق المسيحيون على طريق الشام عند الكحالة بالقرب من بيروت، كميوناً محملاً بنسخ من القرآن الكريم، فقام المسلمون بحرق الكنائس (واحدة بواحدة).

ونقلاً عن شاهد لصباح يوم السبت الأسود: «ان فؤاد بزري رئيس شركة كهرباء دولة لبنان، كان يلقي نظرة من نافذة مكتبه في الطابق الثالث عشر في شرقي بيروت،

عندما وقع نظره على عدد من المسلحين يجرون وراء المدنيين، ويمسكون بهم. وقد قال لي البزري: « كان الناس يتدفقون من كل مكان، ولكني لم أفهم ماذا كان يجري، غير أنه كان من عادتي أن آمر بإقفال باب المدخل الرئيسي في الطابق الأرضي، وكنت أحاول هذا، عندما رأيت أن لا أخيف الموظفين المسلمين، محاولاً جعلهم يأخذون السيارة والانطلاق بها خوفاً من التعرض لما هو في الحقيقة شيء بشع، وبديلاً عن ذلك طلبت إليهم أن يصعدوا إلى الطابق حيث كنت » (ومن الجدير بالذكر القول إن البزري هو مسلم سني ومن خريجي الأخوية اللعازارية في بيروت، قبل أن يدرس الهندسة في فرنسا) ثم ذكر لي أنه حاول الاتصال بقائد الدرك اللبناني، وطلب منه إرسال سيارتين مسلحتين لمرافقة الموظفين المسلمين إلى بيروت الغربية، ولكنهما لم يأتيا أو على الأقل لم يصلا إلى المبنى. ثم أردف مكملاً: « كان أمامهم النزول إلى الشارع ولكنهم لم يكونوا ليجسروا على ذلك، حتى ولو جاءهم رديف مسلح، فالمسلحون سيكمنون لهم ويعتقلونهم، دخل في هذا الوقت مهندس مسيحي إلى مكتبي بوجه شاحب مضطرب وقال: « هل تستطيع مغادرة هذا المكتب، إن عدداً من الميليشيات المقتنعين يطلبون مقابلتك » ويقول البزري « فأجبته على الفور قل لهم أن يصعدوا إلى هنا إلى مكتبي »، غير أن البزري كان لا يعرف ماذا سيحدث لحظة فتح الباب، وهل أنهم سيطلقون النار عليه فوراً؟ أو أنهم سيعتقلونه؟ فهي المرة الأولى التي يقتحم فيها مسلحون البناية، لجأ إلى التلفون ليتكلم مع القصر الجمهوري حيث كان قد عمل كمستشار لدى رئيسي جمهوريتين سابقين، وقد كان سعيد الحظ لكونه استطاع أن يتصل، في وقت كان الاتصال التلفوني فيه من الصدف العجيبة. واستطاع أن يكلم مرافق الرئيس فرنجية العسكري الذي بدوره اتصل بقيادة الكتائب العسكرية. وعندما فتح الباب دخلت بعثة من كبار الكتائبيين الذي اكتشفه البزري فيما بعد، انهم كانوا ثمانية عناصر بقيادة ضابط منهم، شقوا طريقهم إلى البناية لرؤيته. كان البواب قد أخبرهم أن البزري غائب ولكن الكتائبي كان قد عرف سيارته الجاكور الواقفة قرب المدخل، والبواب الذكي لدى ملاحظته ذلك أردف قائلاً « ان المهندس البزري ذهب في جولة تفتيشية في احدى سيارات الشركة الصفراء اللون » ثم أرسل الكتائبيين إلى الطابق الثامن حيث كان الموظفون المسيحيون يعقدون اجتماعاً. وقد أكد لي البزري قوله: « جميع الموظفين المسيحيين سدّوا على الكتائبيين الطريق، وقالوا لهم نحن مسيحيون يمكنكم

أن تقتلونا قبل أن نسمح لكم بالمرور » وهنا أجاب المسلح « ولكن البزري نفسه طلب إلينا الدخول » وأجاب الموظفون « نحن نعرف ما تريدون وعليه فلن ندعكم تدخلون، وما دام هو هنا تأكدوا أنكم لن تمروا إلا من فوقنا » ويقول البزري: « ان الكتائب كانوا يريدون رأسي فأنا المسلم الوحيد ذو المكانة، أما الباقون فهم من العمال ».

أخيراً نقل المسلمون الخمسون، بسيارات إلى الخط الفاصل، بينما كان الكتائبيون لا يزالون يعتقلون العمال المسلمين العاملين في بيروت الشرقية. وهم في طريقهم إلى المنطقة الغربية وكان المسلحون المسلمون يعجبون والشك يأكلهم، لتدفق هؤلاء من الخط الفاصل إلى بيروت الغربية، ولم يعرفوا في باديء الأمر ماذا جرى. وأكمل البزري، « أخيراً والحمد لله نجونا ». ومما يذكره البزري أيضاً أنه عندما وصل إلى شقته في بيروت الغربية وجد نفسه بحاجة إلى كأس من الوسكي، ولما سألته، كأساً واحدة؟ قال « نعم ولكن زوجتي لم تعلم ».

بعد أسبوع عاد إلى مكتبه في شرقي بيروت وطلب إلى موظفيه مسلمين ومسيحيين أن يعودوا أيضاً إلى مكاتبهم ومزاولة أعمالهم. كان البزري شديداً في إدارته، وعلى علاقات طيبة مع الآخرين، وطنياً صادقاً. كان أيضاً من الرؤساء القلائل الذين خصموا على المتغيبين من وظائفهم معاشاتهم. وقال لما سئل عن أسباب تشدّده: « اني أفعل ذلك لأن شركة الكهرباء تؤدي خدمات لجميع المواطنين على السواء »، وقد كان لهذا التصميم على العمل الجدّي الحازم أثره في نفوس قادة العمليات الحربية على الجانبين، الجميّل، وعرفات اللذين التقيا ربما فقط على تأييد البزري ومساعدته على تأمين سير عمله، مع العلم بأن كِلاَ الجانبين كانا من حين إلى آخر، يدمران خطوط الشركة وتجهيزاتها. وفي سنة ١٩٧٩ عندما وصلت التعديات على خطوط الكهرباء إلى حد أن تعطلت الخطوط الثلاثة عشر تآزر الجميّل وعرفات على تأييد البزري في عمله، فلجأ إلى تأليف فريقين، واحداً من موظفيه المسلمين وآخر من المسيحيين، فكانا يعملان في وقت واحد بحيث إذا حصل أي تعد على أحدهما، تعرض الآخر إلى معاملة من نفس الحجم والنوع، وهكذا كانت تجري الاصلاحات بانتظام.

والبزري توسط لدى عرفات لتزويد معمل الذوق بالوقود اللازم لتشغيل المعمل الذي يستطيع تزويد الخطوط بخمسة آلاف كيلوات، مع العلم أن معمل الذوق يقع في المنطقة

المسيحية شمالي بيروت. وهكذا كان هناك تبادل، جهة تزود بالوقود وجهة أخرى بالخدمات. أكانت الكهربائية أم المائية. فالكهرباء ضرورية لضخ المياه كما هي ضرورية لتشغيل الأفران وتأمين الخبز للجميع. ومن هنا لقب البزري «أبو النور». لم يكن عرفات يعرف البزري بعد، ولكن الذي كان يعرفه عنه أنه الناجي الوحيد في يوم السبت الأسود من المسلمين العاملين في الشرقية. وهكذا فقد أتيح لهما أن يلتقيا في ١٩٧٦ ومما قاله البزري لعرفات: «ليس من المعقول أن تستمر الأمور على هذا الحال، لئلا تخرب البلاد، وعليك أن تساعدني»، وقد وافق عرفات على المساعدة على شرط أن لا تستعمل الكتائب هذا الوقود لمصلحتها الحربية. وهكذا بعد ذلك أخذت معامل الذوق تؤدي خدماتها بمعدل أربعة ساعات في اليوم، ومن جملة الأشياء التي قدمتها المنظمة الفلسطينية الشريط، والعوازل، واللوازم الأخرى، تلك التي كانت تؤمن خمسين ألف كيلوات من معامل الجنوب. والبزري كان من الذين اشتركوا في مباحثات تل الزعتر الذي كان محاصراً، والتي تمت فيها أدنى درجة من العلاقات بين الجانبين المتقاتلين. كان نجاح محادثات البزري يرتكز على فكرة انشاء هيئة توفيقية، كانت تظهر بين حين وآخر لإقناع المتحاربين بضرورة العمل لمصلحتهما معاً أو على الأقل حفاظاً على أرواح أولئك الناس الذين يمثلون. كان العمل الجاد لمعرفة ما يجري يوماً بعد يوم من الأمور الروتينية. وقد كانت هنالك مجموعات من الحوادث التي تبدو منطقية، كما كانت تبدو من زاوية أخرى وكأنها تتعارض مع أي تفكير سليم، إذ لم تكن سوى انقياد لأوامر خاصة. غير أني كنت أصطدم بحدوث انحرافات مروعة، بسبب رفض المتحاربين التوقف عن الأعمال الحربية مدة أطول، أما لعدم رغبتهم في مثل ذلك أو لعدم قدرتهم عليه. فالتوقف عن الحرب بين الجولة والثانية، كما كان يسمي ذلك اللبنانيون، كان يختصر تدريجياً، ففي كل مرة يبدو أقصر من المرة السابقة. أما التوقف في آخر كل شهر، فكان مؤكداً بسبب الاضطرار - لقبض الرواتب وصرف الشيكات. كان المسيحيون في أكثر الجولات في موقف الخاسر، ومع هذا استمروا في دفعها بالرغم مما كانوا يلاقونه من ضربات مؤلمة. اني كنت أندهش لرفضهم العنيد، لما كنت أراه، وما كان يظهر مخيفاً وهو الثمن الذي يدفعه الصديق والعدو على السواء.

ولشدة رغبة المسيحيين بإخلاء الفلسطينيين والمسلمين من مناطقهم فقد قاموا في كانون

الثاني سنة ١٩٧٦ باحتلال موقعين محصّنين من مواقع، من كانوا يسمونهم، أعداءهم، وهذان الموقعان كانا دائماً عاملي تهديد بقطع الاتصالات بين بيروت الشرقية والمنطقة المارونية في الشمال وفي الشرق من بيروت. أهمهما كان الموقع المسمى الكرنتينا الواقعة بالقرب من المسلخ وأكثر سكانها من الشيعة الفقراء، بينهم عدد قليل من الأكراد والأرمن، وكلهم من العمال الذين يشتغلون في المسلخ أو في الميناء كعمال مياومين. والمكان غاص بالسكان، يقدّر عدد المقيمين فيه بثلاثين ألفاً بينهم عدد من أبناء الجنوب، أما الأرض فيملك أكثرها الرهبان، وإلى الكرنتينا كان قد تسرّب الفدائيون الفلسطينيون فوزّعوا السلاح وأداروا شؤون ذلك المكان. (في هذا المكان تعرضت مرة حياتي للخطر من جرّاء طلقات نارية طائشة)، وما كان يزيد الأمور تعقيداً وخطراً، هو أن الجسر المعدّ للعبور كان أشبه بسنام جمل، ولا يمكنك رؤية القادم من الجهة المقابلة حتى يصل إليك، بينما كانت الطريق دائماً مزدحمة بالسيارات كل الوقت، هذا الوضع الذي وصفته قد يكون أحد أبرز أسباب مجزرة الكرنتينا.

لم تكن حادثة الكرنتينا حرباً بالمعنى الصحيح، فقد قال الناجون أن الفلسطينيين كانوا يمنعون غير المحاربين من مغادرة المكان. والفلسطينيون أنفسهم حوصروا في مبنى لشركة سليب كومفورت لمدة ثلاثة أيام، وفيه قتلوا جميعاً عن آخرهم. وما كان مثيراً وغريباً كالقتال، هو السماح للصحافة بنقل الوقائع إلى العالم، مما أضرَّ كثيراً بقضية الكتائب. ومنها أن ترى الكتائبيين يشربون الشمبانيا على ضوء اللهب ودخان البيوت المحترقة، ورائحة جثث القتلى والنار تأكلها، وهو من أشد المشاهد بشاعة وإثارة للاشمئزاز. كما وقع نظري على ما هو أسوأ، عندما كنت أرى الذكور من السكان كباراً وصغاراً يقفون إلى الحائط رافعي الأيدي في خطوط طويلة يحرسهم كتائبيون يلبسون حول أعناقهم الصلبان الخشبية الكبيرة، أو منظر تلك النسوة يركضن في الطرقات باكيات وهن يحملن الاعلام البيضاء، يلوّحن بها وليس بينهن رجال على الاطلاق. أما الذي لا يبرح ذاكرتي فهو رؤية جماعات الأطفال وقد رفعوا أيديهم إلى ما فوق رؤوسهم، يسوقهم الكتائبيون أمامهم إلى مصير مجهول. صدف اني كنت أقف إلى جانب صديق كتائبي فقلت له «ان هذه الصورة تعيد إلى ذاكرتي صورة لأطفال لليهود عندما أخرجوا من الغيتو في وارسو ببولونيا على أيدي النازيين» وقد رأيته يهز رأسه بالإيجاب، ولكن دون أن يظهر عليه أى

أثر للشفقة أو الاستهجان. ثم رأيت امرأة عجوزاً عرجاء تجر نفسها جراً في الشارع، فقلت له ألا يعتقد أن مساعدة مثل هذه العجوز يفيد القضية الكتائبية من ناحية سمعتها، خصوصاً إذا أخذت لها هذه الصورة وهي تنقل إلى سيارة؟ فما كان منه إلا أن وجّه إليّ نظرة ساخرة وكأنه كان يقول لي «اني مجنون» عندها تركته وعدت إلى بيروت لأكتب قصة مشاهداتي، إذ ذاك كان النساء والأولاد يُشحنون، ويلقى بهم على خط التماس بالقرب من المتحف، وكانوا يقصون على من يصغي إليهم كيف كان الرجال يقتلون بلا أي مبرر، وكيف كان على من يريد إنقاذ نفسه أن يدفع للأرمن المبالغ الطائلة ثمناً للنجاة. فالأرمن كانوا يعيشون بالقرب من الكرنتينا. وأصح تقرير لعدد القتلى، انه بلغ ألف قتيل. ثم أن الكرنتينا جرفت أكثر بيوتها وأخفيت معالمها وما بقي منها، كان تلك الأكواخ التي أعدت لإيواء متدربين على القتال من أولئك الشبان الذين يأتون بهم من الجبال والقرى الريفية.

عندما ظهرت صور حوادث الكرنتينا إلى العالم الخارجي، ثارت ثائرة الكتائبيين على الصحافة لكونهم سجّلوا ما حدث فيها. ومثل هذا الغضب أظهره لي أحد القساوسة الموارنة بعد مذابح صبرا وشاتيلا متسائلاً كيف يجوز أن نسمح للتلفزة بالتدخل، وكأنه كان يريد أن يقول إن ما جرى في صبرا وشاتيلا، أكان من الاسرائيليين أم من الكتائبيين كان يمكن اخفاؤه، متجاهلاً ان بيروت في هذه المناسبات كانت تعجّ عجّاً بالصحافيين من كل أقطار العالم.

بعد يومين قام الفلسطينيون، وأعوانهم اللبنانيون، باجتياح الدامور، قرية مارونية على الشاطىء تبعد عن بيروت مسافة ١٨ كيلومتراً. وقد ظهر لبعض المراقبين أن الهجوم هذا كان من أجل السرقة، أكثر منه من أجل الذبح على المستوى الذي عرف في لبنان. وقد رأيت بنفسي عائلات مذبوحة، وملقاة جثثها خارج البيت المحروق أو المدمر بالديناميت، سكان هذه البلدة يبلغون تقريباً عشرين ألفاً. ولا يبدو أن نسبة عدد القتلى كان كثيراً، هناك من قدّره بستين قتيلاً، وهو بالطبع نسبة قليلة. وآخرون قدّروا أن العدد كان مئة وخمسين، وهو نسبة متوسطة أما الذي قدّره بنسبة عالية فقال خمسماية ضحية، وهذا يدل على أن الذبح لم يكن الهدف الوحيد عند الفلسطينيين. أما في الأيام التي تلت فقد التقيت بجماعات من النهّابين الذين جرّدوا الدامور من كل شيء ذي قيمة،

حتى أنهم توصلوا إلى تجريد السطوح من القرميد، والمنازل من الأنابيب، والأدوات الصحية. كنت أذهب إلى هناك يوماً بعد يوم وكنت أتعجب عندما أرى النهّابين يتحركون من مكان إلى آخر، لأنه من وجهة نظري لم يكن قد بقي هناك شيء للنهب، فسيارات المرسيدس القديمة من خصوصية وتكسي، والشاحنات الصغيرة تنتقل بسرعة جنونية بين الدامور وبيروت محملة بتوافه الأشياء. كنت أرى حرّاساً من الفلسطينيين لا يأبهون لما يجري ولا يوقفون أحداً عن السرقة خصوصاً مهجّري الكرنتينا الذين كانوا يبحثون دائماً بيأس عن فرشات وأسرّة وكراسي، يحملونها إلى الأكواخ الخشبية التي تراكموا فيها في غربي بيروت. وأخيراً جاء الفلسطينيون أنفسهم ليسكنوا في الدامور وبينهم العدد القليل من مهجّري الكرنتينا للتمويه.

إن مثل هذا العمل بدا أنه كان سبباً فيما جرى بعد نصف سنة في تل الزعتر. في ذلك الوقت كانت تل الزعتر هي الموقع المحصّن الأخير للفلسطينيين في المنطقة المسيحية، وكان مقدراً للميليشيات المسيحية، ربح المعركة، لأنهم كانوا يتمتعون بالمساعدة. ......
.... فالمسيحيون في الواقع كانوا بحاجة إلى انتصار، بعد ما ذاقوه من هزائم. والفلسطينيون كانوا يندفعون إلى الاستشهاد، وكأن تل الزعتر كانت ستالينغراد ثانية. وقد نال كل منهما ما أراد فالمسيحيون انتصروا والفلسطينيون استشهدوا. لقد كان دائماً هناك مجال للمفاوضات ولأن تنجح بسهولة، فالصليب الأحمر الدولي قام بجهد لتحقيق ذلك، لكن عوضاً عن الوصول إلى مفاوضات مات آلاف في المخيم من الفلسطينيين ومن اللبنانيين المقيمين فيه دون أن يكون هناك حاجة لذلك.

وعلى غرار ما جرى في الكرنتينا، فان اللبنانيين المسيحيين شكوا أنهم كانوا محاصرين بالفلسطينيين الذين يحيطون بهم والذين لديهم السلاح، والذين كانوا يحتفظون بالطعام والماء لأنفسهم. عدد كبير من اللبنانيين والفلسطينيين قتلوا رمياً بالرصاص بعد سقوط تل الزعتر، كما قتل أيضاً عدد كبير ممن كانوا ينقلون إلى نقطة العبور عند المتحف. وقد شوهدت أيضاً جثث تجرّها السيارات وكأنما كان المسيحيون يثأرون لما جرى لموتاهم في حالات سابقة.

في المرحلة النهائية من حصار تل الزعتر، ضاعف المسيحيون من نشاطهم الدعائي لإثارة وحثّ الجيوش. وقد قام شخص يدعى ايتيان صقر، وهو ضابط شرطة سابق بتنظيم فريق

خاص به، كان يلقب نفسه أبو أرز، وما كان يقوله: «إذا خطر لكم أن تظهروا شفقة على النساء الفلسطينيات والأطفال فلا تنسوا أنهم شيوعيون، وان النساء سيحملن ويلدن شيوعيين جداً»، والجدير بالذكر أن أبو أرز هو من مواليد فلسطين. ذكر لي أحد الأساتذة الأوروبيين في مون لاسال، المدرسة الثانوية على تلة بالقرب من بيروت، انه رأى بعينيه كتائبيين يرمون جثة على مسافة تسعين متراً من المدرسة، وانهم لم يجسروا أن يقتربوا منها لعدة أيام، وذكر أنه ورفاقه لم يستطيعوا عمل أي شيء وقد بقيت هناك إلى أن جاء من سكب عليها البنزين وأحرقها، وقال أيضاً لقد وضعوا كثيراً من المدافع في جوار المدرسة لتدمير تل الزعتر. وهنا ظهر عليه التأثر الشديد فقال: «نعلم أن كل سنتيمتر مربع في أوروبا مجبول بدم الشهداء ولكن ذلك في أكثره كان منذ زمن طويل جداً».

وإذا كانت هذه الأعمال الجنونية تنتشر فتشمل لبنان، فقد كان مستشفى الأمراض العقلية المكان الوحيد الذي يعيش في حالة مثالية من الهدوء، والمستشفى يقع على تلة تشرف على بيروت في نقطة بين نارين، نار المسلمين من الغرب ونار المسيحيين من الشرق، وهذا كان السبب في توقف ٦٠٪ من العاملين فيه عن عملهم. فالمسيحيون كانوا يخشون الرصاص الطائش، والمسلمون يخشون الميليشيات المسيحية. أما بين المرضى فلم يسجل أي احتكاك، بين المسيحيين والمسلمين. إذ لا ريب أن يكون للأدوية المسكّنة عملها المفيد. فقد قال لي السيد انترنيك مانوكيان مدير المستشفى، وهو نائب في البرلمان عن الأقلية البروتستانتية، ان الحياة هنا مستقرة وكأن شيئاً لم يحدث، وهذا كما تدل التسجيلات في مختلف الأماكن المشابهة ما عرفناه في أزمنة الحروب، إذ تصبح الحالة عند المجانين أكثر سلاماً مما هي عند العقلاء، وكأنما الفوضى في الخارج هي خير علاج للمجانين في داخل المصح. والمجانين كانوا يعرفون كل ما كان يجري في الخارج بواسطة الراديو والتلفزيون والصحف.

لم يكن الخطر الكبير فيما تعرض له المستشفى بفعل الانفجارات، بل كان من الهجمات التي كان يقوم بها أفراد الميليشيات المسيحية. إذ لم يمت في المستشفى من جرّاء القصف سوى مريض واحد، كان الخطر يبدأ عندما تظهر الميليشيات وتأخذ باطلاق النار على الأقفال الحديدية للأبواب، لاطلاق سراح أقاربهم وأصدقائهم، كانوا دائماً مسلحين، وعلى عجلة من أمرهم، ولم يكن بينهم، أي بين المسلحين، زوجات أو أمهات أو

صديقات، كانوا كلهم من السفّاحين الذين لم يصغوا إطلاقاً لنصائحنا، فما يمكن أن يحصل نتيجة لتحرير مجانين خطرين، انهم كانوا يأخذون من يشاؤون، والمشكلة كانت ان هؤلاء الذين أطلق سراحهم كانوا يغتنمون الفرصة للقيام بتظاهرات جماعية، ويقتحمون بوابات السجن. منهم من كانوا يعودون بمطلق إرادتهم، ومنهم من كانت عائلاتهم تعيلهم، بينما وجد آخرون منهم في عداد المقتولين برصاص أولئك المسلحين الذين كانوا يطلقون النار على كل شيء متحرك.

أشار بأصبعه، مانوكيان، إلى جزء من باب مدهون باللون الأخضر، حديث العهد، وقال: «لقد اضطررنا لإصلاح هذا القفل ثلاث مرات، وأخيراً لجأنا إلى تدبير آخر، إذ كنا نسأل المسلح عن المريض الذي يريده ونحضره له، وكان هذا أكثر ضمانة لإبقاء الآخرين في أماكنهم بعيدين عن الخطر».

لم يمض وقت طويل، حتى بدأنا نتلقى أسئلة من المرضى عن وجهة التعقل والحكمة فيما كان يجري في الخارج، بل كانوا يقولون: «إذا كان ما بنا جنون فما هو الذي يفعله أولئك الناس في الخارج؟»، وأنهى مانوكيان عبارته بقوله: «لماذا يقتل الناس بعضهم بعضاً؟ لماذا هذه التفجيرات؟ لماذا يطلقون متفجراتهم باتجاهنا؟».

كان أمر استمرارية العمل بالمستشفى بالنسبة لمانوكيان، هذا الرجل النزيه البالغ العقد السابع من عمره، شبيهاً بما كان للبزري، وقد بدا لي أن مدير المستشفى كان يلجأ إلى مواجهة الصعوبات، فقد اضطر إلى السعي لتأمين الوقود من الجانب المسلم، والطحين من المسيحيين الذين يضعون يدهم على المرفأ، مع العلم أن المستشفى بقي أشهراً في بعض الأحيان بلا ماء ولا كهرباء، والدرك الذين كانوا مكلفين بحراسة المحتجزين وعددهم سبعة عشر دركياً، كانوا قد غادروا منذ وقت بعيد. وكان على مانوكيان أن يجري بين الصفين المتحاربين، ليأتي بالمال يدفع به رواتب الموظفين، كان الناس قد بدأوا يمتنعون عن قبض الشيكات، وكان عليه أن يأتي بالنقود، وهو، برغم كونه من أعضاء البرلمان، لم يصطحب معه حرّاساً مسلحين، كان يسوق سيارته الشفروليه بنفسه وعليها اللوحة الرسمية ذات الرقم ١٠٤، ولما سألته لماذا لا تستعمل سيارة سواها؟ فأجابني: «لأني لا أملك غيرها».

في مثل الحالات التي ذكرنا، من القيام بمساع لتصريف الأمور، كان يستيقظ في

الخامسة صباحاً، منطلقاً في الطريق، على اعتبار ان هذا الوقت هو هدنة كان معمولاً بها على الغالب تستمر ساعة واحدة، كانوا يسمونها هدنة الصحافة، يتيحون بها لموزعي الصحف الانتقال دون تعرض للخطر. ومانوكيان كان يغتنمها فرصة لتصريف شؤونه كما قلت. ولم يكن ليصطحب معه حرّاساً لأن وجودهم لن يمنع عنه الرصاص، ولا كان يخشى أن يتعرض له اللصوص في الطريق لسلبه ما معه من مال، بل قال لي انه لم يحاول تخبئة المال الذي كان يحمله في حقيبته، وقد أقسم لي أنه لم يعرف ان أطلقت عليه النار ولا في مرة واحدة، انه كان قد تعرف ببعض القناصين وهؤلاء كانوا يرشدونه إلى اختيار الوقت المناسب والمكان المناسب للعبور.

سألته: «لماذا لا تكلف سواك بهذه المهمات؟»، فأجابني: «ان الأعمال بلبنان يمكن تصريفها فقط بالعمل الشخصي، لأن الناس الذين يعرفونك شخصياً هم الذين يثقون بك». وانه في ظني أن مانوكيان لم يكن ليقوم بمثل هذه المخاطرة برغبة ولذة نفسية لو كان يعلم ان الحرب ستطول إلى هذا الأمد.

إن جميع الناس كانوا يعتقدون انه لا يمكن أن تستمر هذه الحال أكثر من أسابيع قليلة.

لا ندري كم سيكون لدينا بعد سنوات من حالات أمراضٍ عصبية تحتاج إلى علاج، ان مثل هذه الأمراض لم تبدأ بالظهور بعد، غير أن الناس بدأوا يفقدون كل أمل، في وقت ما، أثناء القتال، أشار مانوكيان إلى أن العمل الوحيد الذي لا يزال مستمراً في لبنان هو أحد أجنحة المستشفى، لأن في هاتين الموجتين من العنف، كل المؤسسات التي تمكنت من تفادي السقوط في الدوامة قد غرقت أخيراً. الأولى موجة الكرنتينا، والثانية موجة الدامور.

وفي كانون الثاني ١٩٧٦ تم الانقسام بين صفوف الجيش اللبناني المؤلف من ثمانية عشر ألف رجل، لم تكن قسّمته بعد الحزازات السياسية بين المسلمين والمسيحيين، كما أنه كان عرضة لأعمال العصيان لعدة شهور سابقة فقد قام الضابط أحمد الخطيب السنّي، بدعم من الفلسطينيين، معترضاً على إهمال ترقيته من قبل رؤسائه المارونيين في ٢١ كانون الثاني، بالانفصال عن الجيش وتكوين ما سمي بجيش لبنان العربي، وقد استطاع خلال أيام أن يضم تحت قيادته ألفين من الجنود المسلمين، ثم تمكن فيما بعد عندما بلغ أوج قوته أن يعلن

أن ثلاثة أرباع الجيش اللبناني أصبح جيش لبنان العربي.

في هذا الوقت أغلق مطار بيروت الدولي المتنفَّس الوحيد للبلاد، واستمر اغلاقه أسبوعاً، وفي غربي بيروت جرى نهب محلات سبينز في ضوء النهار، من قبل جماعات من الطبقة الوسطى، كما دلّت على ذلك ملابسهم، فأخذوا كل ما كان فيه من طعام وشراب وأجهزة تلفزة، وكل ما أمكن حمله، كان الناس أيضاً يسرقون بعضهم بعضاً فمن ترك مسروقاته في الساحة الخارجية أو في سيارته ورجع للمجيء بمسروقات جديدة كان يجد أن ما كان قد وضعه في السيارة قد سُرق. كما جرى أيضاً اطلاق نار بين النهّابين في عمليات السرقة المثيرة.

في هذا الوقت بدأ الملاّكون في بيروت في اقامة السواتر على مداخل بيوتهم كما أنه تعرض بعض المقيمين في بيروت ممن كانت لهم الشجاعة الكافية ليتناولوا طعامهم في الخارج، لهجوم قام به مسلحون لمطعم النورمندي فسرقوهم أو بالأحرى شلّحوهم أموالهم، وساعاتهم، وجواهرهم، واختطفوا فتاتين تعرضتا لسوء المعاملة والاغتصاب.

أذكر اني كنت في طريقي إلى الفندق الذي أعيش فيه في صباح يوم، عندما فوجئت بشاب يرسل لحيته، استوقفني ووجّه إليّ فوهة مسدسه من جيب معطفه، ثم أمسك بمعطفي فتظاهرت اني لم ألاحظ ذلك وتابعت طريقي وكأنما شيء كان يقول لي، لن يطلق عليك النار هكذا دونما سبب في شارع مزدحم، وانني إذا استسلمت له وملكته مني فسأتعرض لخطر أكثر، في اليوم التالي، اتصل بي تليفونياً الصراف الذي أتعامل معه منذ سنوات، وأخبرني أن الشيك الأخير كان بلا رصيد، ظهر لي من حديثه انه كان غاضباً ولم يظهر عليه انه صدق الاعذار التي قدمتها وعلى الفور، اتصلت بالبنك الذي كنت أتعامل معه في نيويورك، وتبين انه كان هنالك خطأ من الكومبيوتر، ولكن ليس قبل أن أتعرض إلى انفعالات نفسية كنت فيها شديد الشحوب، في نهاية ذلك الأسبوع دخل إلى بيروت لواء من جيش منظمة التحرير الفلسطيني استطاع أن يحفظ شيئاً من النظام والقانون لمدة شهرين. ....

في ذلك الوقت كان نصف سكان المدينة قد هربوا، والذين بقوا كانوا قد اعتادوا على ما كان يجري، مثلاً لو تعطل تلفونك، استعنت بتلفون جارك الغائب، وإذا تعطلت خطوط الكهرباء في بيتك لجأت إلى التعليق على الخط الرئيسي في الشارع. أما وقد كان

انقطاع الماء مستمراً فقد لجأ البيروتيون إلى حفر الآبار الارتوازية في ساحات بيوتهم. وكانت المناطق التي يسيطر عليها القناصون، تظهر فيها اشارات الانذار كما كانت تظهر في الشوارع الخطرة أكوام الرمل، وكذلك كان الخروج إلى الشرفات والوقوف أمام النوافذ خطراً وأحياناً كانت هذه مسدودة بحجارة القرميد، ولما جاء دور قذائف المورتر أصبحت الطوابق العليا شديدة الخطر فهجرها سكانها، وعندما جاء دور المدافع الثقيلة كان من الضروري إضافة حيطين أو ثلاثة من أكياس الرمل إلى الحيطان المواجهة للمدافع، وحتى على خطوط التماس كان الناس يعيشون في الشقق الخلفية بينما يبقى المسلحون في الخطوط الأمامية في غرف محصّنة، كانت المستشفيات والمدارس، والثكنات، ومستودعات المخازن، والأسواق، وأي مكان يجتمع فيه الناس، عرضة للقصف، فكل القاذفات من مورتر، وصواريخ، ومدافع ميدان، كانت (مصفّرة) على هذه الأهداف الثابتة وهذا كان أقصى حدّ من الحذق الذي استعمل أثناء هذه الحرب، وباستثناء حصار المسيحيين لتل الزعتر، ونقمة اليساريين على الفنادق الفخمة، فالجانبان كانا بشكل افرادي بريئان من قسوة الحرب، وكانت الخسائر بين صفوف المسلمين أكثر عدداً لأنهم يعيشون في مناطق مزدحمة بالسكان معرضة للقصف. وفي مراحل الحرب الأولى امتنع أكثر المسلمين عن أخذ حتى الاحتياطات البدائية، مثل التحصين بأكياس الرمل، والامتناع عن التجمع في الأماكن العامة، وكذلك فان المسيحيين شأنهم شأن المسلمين، لم يحاولوا أن يضعوا الشرائح اللاصقة على زجاج النوافذ، برغم ما كان يحصل من جروح بسبب شظايا الزجاج، وكانت عبارة (المكتوب ما منه مهروب) هي ما يتردد على الألسنة، وهي عبارة شرقية معروفة.

في الحادي عشر من آذار ١٩٧٦ انتهى الفاصل الشتائي، عندما أعلن العقيد عزيز الأحدب قائد موقع بيروت تولّيه السلطة، وطلب من الرئيس سليمان فرنجية الاستقالة في مهلة أربعة وعشرين ساعة، ثم اجراء انتخابات جديدة خلال أسبوع واحد، ومع أن (جنرال الشاشة التلفزيونية) كما سُمّي الأحدب، تبعه أقل من ألف جندي فقد استقطب عمله هذا، كل اللبنانيين إلا فرنجية نفسه، المسيحيون والمسلمون المدنيون وقادة الميليشيات شاركوا في الاستعراض وثمانية وستون من أعضاء المجلس النيابي قرروا محاكمة فرنجية، وهذا كان العدد المطلوب ليشكل الثلثين، ولم يؤخر ذلك سوى قرار صدر من

الشيخ بيار الجميّل في اللحظة الأخيرة، يمنع النواب الكتائبيين من متابعة هذا الأمر، وهكذا تحطّمت واجهة الدولة الأخيرة.

وبعد مشاورات بين اليسار اللبناني وحلفائه الفلسطينيين قام الفريقان بهجوم صاعق على المسيحيين، وأجبروهم على التراجع والانكفاء، كان دور الفلسطينيين اخراج الكتائب من فندق «الهوليداي إن» المكوّن من سبعة وعشرين طبقة وقاموا بمساعدة حلفائهم على اخراجهم من المناطق المجاورة، حتى ساحة الشهداء بمدة أقل من أسبوع، وفجأة ظهر الزعيم كمال جنبلاط الذي تبنّى إلى حد ما الحركة الوطنية، برز هذا الزعيم من الظل ليعلن ضرورة الحل العسكري لهذه الحرب، وكان أن قام المسيحيون بعد اخراجهم من الهيلتون والنورمندي الواقعين على الشاطىء، وشعورهم بعجزهم عن إيقاف هجوم أعدائهم القادمين من الجبل، قاموا بالالتفاف حول فرنجيه ثانية.

....

غير أن المسيحيين لم يكونوا متأكدين من أن السوريين إنما جاؤوا لإنقاذهم، وما سمع من دق أجراس الكنائس في بيروت والمناطق المسيحية في الداخل في أواخر شهر آذار لم يخبىء مظاهر الفوضى في المنطقة المارونية التي تزامنت مع الهزائم العسكرية. لقد كانت القيادة المارونية تلوّح دائماً بفكرة تقسيم لبنان، وكانت قد هدّدت بتنفيذه ما لم يقم أعداؤها بذلك، وهكذا كان التقسيم مفروضاً على لوردات الحرب، في هذه الفوضى قام المسيحيون باقتحام سجن روميه، الواقع في الضواحي المسيحية من بيروت، واطلاق سراح خمسمئة وسبعين سجيناً. في أثره تم اقتحام سجن الرمل في بيروت، في اليوم التالي الواقع في ١٧ آذار. وفي هذه الأثناء قام أقرباء السجناء المشتعلين فرحاً يحيط بهم الفدائيون الفلسطينيون بإحراق المباني التابعة للسجن، وجميع ما فيه من معدّات وفرش، أشعلها المحجوزون في الداخل، واستطاع إذ ذاك السجناء من التغلب على الدرك العزّل، فأخذوا منهم المفاتيح، وفتحوا الأبواب الخارجية، حضرت في تلك الأثناء فرقة من فتح، مؤلفة من عشرة أشخاص لمساعدة السلطة المسؤولة عن السجن، فأحاط بها ما يزيد على مئة شخص، وأخذوا يطلقون النار في الهواء ويلوّحون بالاعلام الفلسطينية، بلغ عدد الذين أطلق سراحهم سبعمئة وعشرة سجناء. ثم أحرقت جميع القيود المتعلقة بهم («علمت أنه وجدت فيما بعد قيود لدى موزعي الطعام») وهذا السجن الذي يعود تاريخه إلى أيام

العثمانيين فلحت أرضه إلى درجة أن اختفت المعالم كلها. وفي مظاهر الابتهاج مما يعيد إلى الذاكرة حادثة اقتحام سجن الباستيل في فرنسا ١٧٨٩. (أرض السجن اليوم تستعمل كموقف للسيارات في كلية الهندسة التابعة للجامعة العربية التي تدعمها مصر) وفي اليوم التالي جرى كذلك اطلاق سراح ستة وستين سجيناً بينهم بعض الأجانب من سجن النساء في بيروت الغربية، وقد جرى تبادل السجناء من كلا الطرفين، عند نقطة العبور في المتحف، المسيحيون ذهبوا إلى المنطقة المسيحية، والمسلمون إلى المنطقة الاسلامية. كانت السلطة غائبة تماماً حتى ولو بدون سلاح، إلى درجة ان الكومندوس التابع لفتح دخل إلى مباني الأمن العام بالقرب من المتحف وأخذ الاضبارات (الارشيف). وحضر إلى السفارة الأميركية أيضاً عدد من السجناء الغرباء الذين كان بينهم أميركيون قد حكم عليهم بجريمة تعاطي المخدرات وهي أحكام قوبلت في حينه بعدم الرضى من قبل السفارة، لم يكن أمام السفارة إلا أن تعطيهم جوازات سفر تصلح لسفرة واحدة إلى الولايات المتحدة.

كان القادة الكتائبيون المفروض فيهم احترام الملكية الخاصة والعامة موضع لوم وتحقير في النصف الأخير من شهر آذار مما كان كافياً لإخراجهم من مركز رئيسي لهم في الهوليداي إن، وذلك بعد أشهر بلغت فيها سمعتهم الحربية مبلغ الأساطير، وذلك عندما كانت دعاياتهم عند احتلال الهوليداي إن، شبيهة بحكاية حصار الكازار في الحرب الأهلية الأسبانية. وتدنت الأخلاق عندهم ولم يعد بإمكانهم الحؤول دون سرقة البنوك ونهبها (كان هذا العمل مما نسب لأعدائهم) وهذا ما قامت به ميليشياتهم وما أوصل إلى الحد الذي يعتبر أنه تهديم للاقتصاد كله، وسبب في انقسام الجيش الذي كان انقلاب الأحدب قد بدأ به.

وكان قد سبق منذ أيلول الماضي أن تمركز الجيش بجنوده داخل المرفأ وفي شارع البنوك. ولكنهم اختفوا فجأة. والدرك الذين أرسلوا مكانهم لم يكن لهم شأن، وهناك من يقول أن الكتائبيين لو لم ينصرفوا إلى سرقة المرفأ لما خسروا فندق الهوليداي إن، كما جرت إشاعة تقول: «كان اهتمامهم بالسرقة أكثر من اهتمامهم بالحرب» بينما الحقيقة أن فريقاً من الكومندوس الفلسطيني الذي يستعمل السيارات المصفحة المعطاة لهم من جيش لبنان العربي، هم الذين طردوا الكتائبيين في الواحد والعشرين من آذار، ثم كان عليهم أن

يعودوا ثانية لاتمام عملهم، وفي اليوم التالي بعد أن انشغلت الميليشيات اليسارية التي كانت قد تسلّلت وتسلمت الفندق، بقصد الدعاية لإقامة حفلات الابتهاج بالنصر، تشجعت الميليشيات المسيحية على التسلّل ثانية عند الفجر. وهنا كان اليساريون يمارسون الضغط على الكتائبيين، مما لم يترك لهم وقتاً للتفكير بالنهب قبل بلوغ خط الدفاع في ساحة الشهداء، وكم كانت الأيام ثمينة للغانمين بهذه الحرب الأهلية، عندما يقوم أخصامهم المحاربون بمنح أنفسهم هدنة خاصة، (فقد كانت هنالك حكاية أن المتحاربين في المنطقة التجارية عندما انتهوا من نهب المخازن منحوا نفسهم هذه الهدنة ليتقاسموا السرقات، لقد اجتمعوا ونظموا هيئة وعينوا فريقاً مشتركاً لنهب المخازن كما تؤكد الحكاية وعندما أنهوا مهمتهم عادوا إلى التقاتل وإطلاق النار).

مثل هذه الحكايات المشكوك بصحتها تتضاءل أمام أكبر سرقة بنك في التاريخ الحديث، جرت دون أن يعترضها أحد. بقي أصحاب البنوك لمدة أسابيع مجبرين على الاعتماد على ما يدفعونه من رشاوٍ للميليشيات المختلفة من أجل تأمين الحماية لهم، ان مثل هذا التدبير كان قد ظهر في وقت مبكر مع ابتداء انسحاب الجيش من المواقع التي يحتدم فيها القتال في مكان مجاور. وحتى بعد السّرقات استمرت البنوك بدفع رشاوي الحماية، كان ذلك واضحاً عندما توقفت الأعمال الحربية في شهر تشرين الثاني ١٩٧٦، فان مشاهد النهب بالجملة في المنطقة التجارية والأماكن الأخرى لم تحصل في شارع البنوك، حيث كان يلاحظ أن لوحاً واحداً من الزجاج لم يكسر غير أنه كانت في الربيع السابق قد بدت للعيان حالة لا شبيه لها وهي أن تخرج المناطق التي تضم أغنى البنوك في العالم من سلطة الحكومة وتقع في قبضة العصابات المتحاربة، قال لي أحد أصحاب هذه البنوك بمرارة أن أشد القلاع تحصيناً لا يمكن منع السرقة عنها إذا لم يكن هناك جيش يحميها «بين السرقات الاحدى عشرة كانت السرقات الأكثر سوءاً وهي سرقة خزانات الأمانات في البنك البريطاني للشرق الأوسط، وفي بنك دي روما، وفي بنك مصر ولبنان» والذي يظهره سجل الامانات في البنك البريطاني، أن المسروق بلغ على أقل تقدير عشرين مليون دولاراً ومن المحتمل خمسين مليوناً، وهي أعظم نصر في سرقة البنوك، ولكن مسؤولين آخرين عن البنوك اعتبروا ذلك شيئاً غير معقول.

وقالوا لو خصمنا من المبلغ مليوني دولار على الأكثر، مما يمكن أن يكون قد استولى

عليه اللصوص كنقود أو شيكات لحامله «شيكات سياحية» فلكي نصل إلى الأرقام المقدّرة في سجل الأمانات لا بد أن يتضمن كلٌّ من الاربعمائة صندوق أمانة التي لم يسرق منها إلا صندوقاً واحداً مبالغ بمعدل خمسة وأربعين ألف إلى مئة وعشرين ألف دولار. أما في الواقع فالخسارة لم تكن من الوجهة القانونية خسارة للبنوك، في الواقع ليس من أحد يعلم ما هي المبالغ التي سرقها اللصوص، فالبنوك التي كانت قد سرقت لم تطلب اجراء تحقيق بالمسروفات ومع ذلك لم يجر تقدير لهذه المبالغ ولم تعلم للعموم. ولو أخذنا حكاية أحد هذه الصناديق وكان مؤجراً بمبلغ لا يقل عن سبعين ألف دولاراً في السنة في بيروت فان الذي يعرف ما هي محتوياته هو صاحبه فقط، انه لم يكن قد جرى أي تأمين على ما فيه فالصندوق بحد ذاته نوع من الضمان والتأمين، وليس هنالك من قانون دولي يقدم أي تعويض في مثل هذه الحالات، من بين الذين أودعوا أشيائهم الثمينة من ذهب ومجوهرات في مثل هذه الصناديق كان التجار في سوق الصاغة، وذلك عندما هدّمت تلك المواقع الأثرية في شهر أيلول سنة ١٩٧٥. بينما الآخرون وجدوا أن نقل هذه الأشياء الثمينة هو عين الصواب نظراً لحالة الأمن غير المستقرة ومن الممكن أن تكون الأشياء الثمينة قد دفنت في بيروت إذا اقتضى الأمر وذلك دون تعريض للخطر أثناء نقلها إلى المطار أو حملها إلى الجبال. ومع وجود الجيش في شارع البنوك، في ذلك الوقت واهتمام الحكومة الأكيد بحماية المصارف لما كان يبذل من رشاوٍ للميليشيات كان من المعقول أن تبدو البنوك أكثر الأماكن أمناً في لبنان فضلاً عن أنه كان بين مستأجري هذه الصناديق عدد من أبناء الدول العربية وبلدان الشرق الأوسط والأجانب الذين كان لديهم سبب ما لعدم التصريح بما يملكونه ويفضلون إخفاءه في الصناديق، انها عادة جرى عليها الشرقيون في إخفاء الجواهر والأموال.

تقلبت الأيدي عدة مرات على شارع البنوك قبل خروج الجيش منه، وكان مثل هذا كافياً لنشر الشائعات لأنه جرى صدام مسلح بين الكتائبيين والنمور وهما من الميليشيات المسيحية لتحديد من سيكون له شرف سرقة البنك البريطاني مما فيه من نقود وشيكات سياحية.

....

في أحد الأوقات وجد النهّابون أنفسهم مسيطرين تمام السيطرة على شارع البنوك، مما شجعهم على الاستعانة بذوي اختصاص بالتفجير من أوروبا، والمرجح أن هؤلاء قدمتهم المافيا، هذا ما قاله واحد من المسؤولين في البنك البريطاني، وهذا ما علموه، انهم ثقبوا الحائط في كنيسة الكاثوليك للكبوشيين، وهذا مكّنهم من شق طريق قريبة إلى البنك البريطاني وأنجزت الخطوات الأخيرة بإتقان دقيق، فمع ما يتصاعد من أصوات تفجيرات بسبب المعارك، فتحت بوابات الأمان المصنوعة من القضبان الفولاذية، من ثلاثة أطواق؛ ثم نسفت أبواب السراديب وهي مصفّحة بحديد سماكته خمسة وأربعون سم، استعملت الكمية المطلوبة من مواد التفجير بمعدل مدروس، لصقت حول الباب بحيث تكون كافية لتفتح الباب أو جزء منه، دون أن يتهدم السقف على رؤوس اللصوص، وتم فتح صناديق الأمان بسكب الأسيد في الغالات، ويقال أن إشارات الإنذار عملت، فدقت الأجراس في مكتب شرطة النجدة، لكن دونما فائدة، فأفراد الشرطة كانوا قد هربوا، ولو افترض ان أحداً كان موجوداً في المكتب فهو واحد من اثنين، اما من العصابة أو من الذين يقال عنهم (سمع وطنّش) حفاظاً على حياته، وفي الوقت نفسه أحرقت بالقنابل الحارقة كل الأجزاء الأخرى من البناء بقصد إخفاء ما قد يكون هنالك من بصمات، يقول موظفو البنك ان المجوهرات أما أن تكون قد صهرت أو بيعت، أما السندات لحامله فهي بمثابة نقود، لكن تلك التي هي اسمية وما شبهها فقد رميت بعيداً.

من القصص المثيرة قصّة صديقة مارونية اسمها سارة من سكان بيروت الغربية كان أهلها يملكون صندوقاً في سرداب البنك وكانت قد تلقت خبراً من بنك خارجي، بضرورة الذهاب إلى البنك الفرنسي الوطني لإنقاذ ما يمكن إنقاذه فاليوم هو اليوم الأخير للقيام بعملها، وهنا تجري قصة محاولتها للوصول إلى البنك المذكور، وكيف أن الكتائبيين والفلسطينيين عاونوها كل على حده في الوصول إلى دهاليز البنك. قالت «ان ذيب انسطاس الكتائبي أعطاني عنصراً يقود سيارتي وقد فعل بسرعة جنونية، عند اجتيازنا شارع اللنبي الذي كان معرّضاً لرصاص القناصين، ثم توقف فجأة في مكان لا أعرفه، ولكنه فاجأني بقوله «انتظري»، فقد كان الرصاص ينهمر من كل الجهات، كان البنك في بناية فتّال، ولكن المكان لم يكن مدخل بناية فتّال، سرت وراءه عبر عدّة بنايات، ثلاثاً أو أربعاً اتقاء للرصاص، رأينا في طريقنا الأوراق المبعثرة والمعلبات

المفجرة، مما كان في شركة فتّال، كما كنا نشاهد عناصر الميليشيات في كل مكان، أخيراً وصلنا إلى باب، وقال لي أدخلي أنت وسأنتظر، ولما سألته ما الذي سأفعله أنا الآن، اكتفى بأن أشار إلى الباب. وكأنه يقول لي أدخلي، دخلت وكان الظلام مخيما مع أن الساعة كانت العاشرة صباحاً. رأيت عناصر أخرى من الميليشيات، واحدا منهم سألني عن اسمي، ثم أخذ يبحث في قائمة بين يديه، ثم قال سأعطيك مرافقاً نظرت في عينيه ورأيت فيها علامات الطمع واضحة. لم أخف لأني كنت أعرف انه ليس في الصندوق جواهر ونقود ولو اني كنت أقرأ ما في ضميره من حسابات لربح منتظر. وصلنا إلى المدخل المبلّط بالرخام فعلمت أنه مدخل البنك، إذ ذاك قال لي انبطحي وازحفي»، سألتها «وماذا كنت تلبسين يا سارة»؟ قالت: «لحسن الحظ كنت ألبس بنطلوناً». أخيراً (والكلام لسارة) اجتزنا الممر الخطر الذي كان لا يبعد عن بنك سوريا ولبنان أكثر من مئتي متراً، هناك كان مقر منظمة أحمد جبريل القيادة العامة. ومن ثم نزلنا إلى السرداب ويا للمنظر، الغرفة طويلة وكل أبواب الصناديق مخلعة يغطيها الرماد، فكميات غير معقولة من الخشب والفولاذ استعملت لفتح الأبواب، نظرت في وجه مرافقي وقلت له، آسفة ليس لدي مفتاح والمفتاح مع والدتي وهي في الكويت، وكان جوابه لا عليك، عندنا أساليب عديدة لفتح الصناديق وفجأة طلع علينا من حيث لا أدري شخص يحمل بيده شعلة زرقاء ودرعاً على عينيه ليحميهما من اللهب، وبدأ العمل ولكن دون فائدة، فحديد الأدراج ذوّبته التفجيرات وجعلت فتحه عسيراً لذلك استغنى عن الشعلة الزرقاء وجاء بعصاً من حديد طويلة فتح بها الدرج».

كانت لحظات مثيرة، أبعد ضوء الكهرباء عني وابتعد تاركاً لي فرصة لأفتح الصندوق دون رقيب. بينما بقي هو كل الوقت يراقبني بطرف عينيه، أخذت من الصندوق مغلفين فيها الأوراق المطلوبة، طلب مني أن أفتح الصندوق وكم كان يطمع أن يكون هنالك مجوهرات-أو مال وهكذا عدنا بنفس الطريق، لاحظت أن جماعة جبريل كانوا في البنك الآخر. أعطيت كلاً من الشخصين اللذين ساعداني خمساية ليرة وذهبت في سبيلي، وعندما تجرأت وسألت من فعل كل ذلك جاء الجواب كل هذا عناصر غير منضبطة».

هذه العبارة لم تكن تلقى رضا أحد الكتائبيين المدعو نازو وهو ذو سيرة مستقيمة، مخلص للقضية التي يعمل من أجلها «نزير نجاريان» كان أرمنياً مع العلم، ان الأرمن لم

يشتركوا في القتال، وكان قد جرح وأصبح أعرج مدى الحياة، وكان قد تولى قيادة الكتائبيين إلى المنطقة التجارية في بيروت، طلبت إليه مرة أن يريني مقر عمله القديم، فأصابني ما أصاب سارة بالعبور من بناية إلى بناية حيث كنا نرى الحيطان مغطاة بصور الممثلات والممثلين والراقصات والراقصين، وحيث استطعنا أن نرى الشوارع وقد غطاها العشب في ساحة البرج فلا الكتائبيون في الجهة الشرقية قطعوها، ولا الفلسطينيين في الجهة الغربية، وهنا ذكرت نبوءة تقول: «وستنموا الحشائش في الأسواق»، هنا جرت أعمال كثيرة من زرع ألغام من قبل خبراء.

سألت نازو كيف كان يشعر في آذار ١٩٧٦ عندما كان رفاقه يُقتَلون، بينما كان الكتائبيون الآخرون لاهين بسرقة المرفأ، تلك السرقة التي قدرها المسؤولون بسبعماية وخمسة عشر مليون دولاراً، ٦٠٪ منها في المنطقة الحرة أكثرها كانت مشحونة إلى العراق، ومنهم من يقدّر السرقة بسبعة أضعاف الرقم المشار إليه. ومما قاله نازو تعليقاً على ذلك، أن نابليون قال مرة: «هنالك نوعان من الناس في الثورات أولئك الذين يصنعون الثورة وأولئك الذين ينتفعون بها»، وما يجري في لبنان هو ثورة. ثم عاد نازو إلى الإجابة على السؤال الأول عن سرقة المرفأ قال: «في البداية اتصلت بجميع المراكز وبحثتها، فمن وجهة نظري لم تكن السرقة مقبولة، كان النهّابون يتشاحنون ويطلق بعضهم النار على البعض الآخر أو يتلاكمون طمعاً بسرقة المستودعات والحصول على حصص أكبر، وكنت أقول لنفسي المهم أن نحفظ رؤوسنا ان التفكير بالمرابح المادية تسبب لنا الفوضى، وإذا وقعت الفوضى سنعجز عن الاستمرار بالحرب وستتفكّك، ليس هنا في لبنان فحسب، بل ستتفكّك المسيحية في الشرق الأوسط».

ونازو وهو الأرمني، بدا مصمّماً على الحرب من أجل أن يبقى المسيحيون في لبنان في مركز قوي وهو شعور نابع من التطلع إلى إيجاد أرمينيا مستقلة عن تركيا يمكن أن تعتمد عليها تركيا بدلاً من أن يكونوا مهجري الأرمن في هذا الجزء من العالم، وفي مهجرهم الآخر في الولايات المتحدة الأميركية، وقد بدا نازو غير مستريح عندما قلت له ان الجيوش لا تلجأ إلى النهب إلا في حالة التراجع. والكتائب كانت في حالة تراجع عندما كانوا ينهبون المرفأ. وأولئك الأشخاص الذين كانوا يبيعون الشباب الحشيشة والهيروين والكوكايين، انها المرة الأولى في تاريخ الحروب التي يستطيع جندي أن يتمتع فيها بهذه

المتعة الخاصة بالأغنياء.

أجابني: «لم تكن الأمور كما أشتهي، كنا نريد أن نعيش حياة طاهرة كنت قد قرّرت سلوك هذه الطريق، لقد استمريت مع الكتائب أو مع القوات اللبنانية كما يسمونها اليوم. أما الآخرون فقد انصرفوا إلى أعمال تعود عليهم بالربح. لكل شأنه ها أنا هنا والغريب انني ممن درسوا المحاسبة».

لم يكن في مقدوري إلا أن أفكر بما قاله لي صديق من الطرفين بمعرض الكلام عن سرقة المرفأ، قال هذا الصديق ما عليك إلا أن تدفع لكتائبي مبلغ كان يصل أحياناً إلى ستة آلاف دولار وتنصرف لتملأ شاحنة بما تريده، ثم يعود الكتائبي ليحصي بذكاء الأشياء الثمينة أمثال السجاد، والقطع الأثرية، والسيارات، والمشروبات، وأجهزة التلفزيون الملون، وسكاكين السفرة الفولاذية، والله يعلم ما غير ذلك، والمعروف أنهم كانوا يقيمون سوقاً للبيع بالمزاد العلني بكلية للمسيحيين بالجميزة، على مقربة من المرفأ. وقد كنت وأنا أقول ذلك أتساءل فيما إذا كان نازو يقرأ ما في فكري عن سوق المزاد الذي يقيمه الأخوة المسيحيون لأنه هو من خريجيها (فهي مؤسسة يتعلم فيها أبناء الطبقة الوسطى وأبناء العمّال)، المدرسة كانت تقع شرقاً من منطقة خطرة هجرها سكّانها وليس فيها في الحاضر إلا بعض المسيحيين. ومما قاله نازو انه من المؤكد ان الناس سرقوا المرفأ ولكن عليك أن تعلم انه لولا هذه السرقات لكان المسيحيون في ظروف مادية صعبة، وحتى أولئك الذين لم يمدّوا أيديهم للسرقة استفادوا بشراء وبيع السرقات. ذكرت ما كان دائماً يجول في خاطري انها فينيقيا الأزلية، فينيقيا التجار، ولم أقل شيئاً أكثر، وقد قاومت رغبتي في سؤاله عما إذا كان من خريجي الأخوة المسيحية أم من خريجي الجزويت ولكن أمام هذا الجندي المسيحي المستقيم «نازو» لم أرد أن أتعرض لمثل هذا الاحراج، ان ما جرى هو جزء من عقلية الغيتو المسيحي، حيث تحرّك كل شيء أجهزة الدعاية، وهناك تتحول الهزائم إلى انتصارات، والأعمال الجبانة إلى أعمال مثالية، وهناك يحول رماد الأخطاء إلى جمر تفاؤل. في الواقع ان اللبناني الوحيد الذي بقي بعيداً عن الشبهات هو الأمير موريس شهاب الذي يدل لقبه على أنه من أفراد عائلة اكتسبت لقبها في زمن العثمانيين فحكمت لبنان مدة طويلة، وهذا الرجل الذي يرأس دائرة الآثار ويدير متحف بيروت لم يشارك المواطنين، بأن الحرب ستنتهي بسرعة كما ابتدأت، وقد قال مرة: «قلت

من البداية ان هذه الحرب والأحداث ستستمر خمساً وعشرين سنة »، لذلك فانه في نيسان سنة ١٩٧٥ أفرغ المتحف من محتوياته الثمينة مبتدياً بما خفّ حمله وغلا ثمنه. المتحف المحصّن بأكياس الرمل حيث كان يقيم هو وزوجته برغم ما كان يتعرض له من قذائف صاروخية، ومورتر، ومن وجود بطاريات مدافع للسوريين في ميدان سباق الخيل المجاور، كان في الواقع من أخطر المواقع في بيروت « ان الاسرائيليين رجموه بالقنابل ».

ولكن أين أصبح الذهب الذي هو من آثار الفينيقيين؟ أين أصبحت المجموعة الأثرية المصرية التي لا يعادلها إلا ما في متحف القاهرة؟ وأين أصبحت مجوهرات الرومان والبيزنطيين، ومجوهرات العرب والفرس؟ والمجموعات من قطع الموزاييك المدهشة وغيرها؟ عندما ألقيت هذا السؤال على الأمير، ابتسم وقال انه عرف ما كان يجول في خاطري وقال: « بدأنا بإخلاء المتحف منذ وقت طويل وكنت حريصاً على أن لا أخرج كل شيء دفعة واحدة، وهنا سألته ولكن ما رأيك بالشائعات التي قالت ان مسلحين من الجيوش المختلفة سرقوا المتحف، فابتسم مرة ثانية وكأنه عرف ان لدي سؤال محدّد ومحرج فقال لا تخف، ولما رأى الحيرة في عينيّ وشعر ان وراءها سؤالاً آخر قال: « إن رئيس الجمهورية يعرف أين هي، ومن جهة أخرى، نقول ان هذه المعلومات تضاهي أثمن ما في البيت الأبيض من رموز وأسرار ان بعد نظره هذا في لبنان، نادر كهذه الأشياء التي عمل على الاحتفاظ بها. أحياناً خلال هذه التسع عشرة سنة من العمر أدركت أن رفضي الاعتراف بالتشاؤم كان مجرد عناد فعبر السنين وفي بلدان عديدة طالما رأيت زملائي عندما ينغمسون في مثل هذه المواقف المعقّدة يستسلمون ويضعون على أعينهم الزجاج الملون، من العسير دائماً أن يشق المرء طريقه في مستنقع. وكالعادة كان لا بد من مواطن حقيقي بكل معنى الكلمة يرشدني لذلك. ان صديقاً لي يدعى لوسيان جورج دخل هذا المأزق في تشرين الثاني ١٩٧٦ عندما وافقت الجامعة العربية على الوجود السوري في لبنان لقوة ردع عربية وكان مما قاله: « انها ليست النهاية انها البداية ».

الفصل الرابع

بشير الجميّل في الذروة

صرّح أحد السياسيين الكتائبيين: «إن ما في لبنان اليوم من مدّ وجزر هو أطول الانقلابات الدولية مدّة»، قالها وهو يضحك في عبّه، وأضاف «بل ربما كان هذا ما هو ظاهر»، قيل هذا الكلام، في الشهر الأخير من سنة ١٩٨٢، انه كلام يعكس تاريخ لبنان خلال نصف قرن، مشتركاً بتطورات مسيرة حزبه الذي اسسته عائلة الجميّل من بكفيا. وكان هذا السياسي يعلم أن على أرض لبنان أكثر من ستة جيوش، وان المستقبل يبدو غير واضح، وان ما كان له ولسواه من آمال في الوصول إلى حل سريع لمشاكل البلد قد تلاشى. والأسوأ من هذا أن بشيراً مات، قتل قبل أن يتولى الحكم. وزيادة على ذلك ما هي الانجازات التي تنتظرها الكتائب تحت قيادة مؤسسها بيار الجميّل، انها استمرت ستاً وأربعين سنة، تدرّب كشّافيها تدريباً عسكرياً فأصبح لديها اليوم جيش حقيقي، انها لم تعد مجرّد حزب بل هي بالتأكيد في طريقها لتصبح دولة. ان لبنان القديم الذي أحبه بيار الجميّل وجاهد فيه قد مات سنة ١٩٧٥، ولكن حزبه ومطامع عائلته قد بلغت أوجها، انه الآن يرى اثنين من الجميليّين، ولديه ينتخبان لرئاسة الجمهورية (فقد تم انتخاب أمين رئيساً خلفاً لأخيه بشير في غضون أسبوع) والشيخ بيار كما يسميه اللبنانيون، ظل محتفظاً بلقب المشيخة من أيام العثمانيين، كان القوة الوسيطة بين القوات اللبنانية، وهي القوة الضاربة التي أسسها بشير كدولة ضمن الدولة، وبين الجمهورية وعلى رأسها ولده أمين، استطاع الشيخ بيار في السابعة والسبعين من عمره أن يحقق حلم حياته انه لم يتمكن من الوصول إلى كرسي النيابة حتى سنة ١٩٦٠، وهو حتى عندما كان وزيراً، لم يكن ولا في يوم قريباً من كرسي الرياسة التي كان يطمح إليها، وأقل ما يقال، انه اليوم أقوى مما كان منذ ست سنوات، عندما خيم عليه ظل ولده بشير.

كان الشيخ بيار في شبابه مثالاً للرياضي، ولا يزال يحتفظ بهذه الصفة حتى في متوسط

عمره، فهو منتصب القامة شعره الأبيض مصفف على رأسه الأصلع، أنيق الملبس على طريقة أبناء الجيل القديم، والعارفون يقولون انه ليس من مواليد لبنان، بل من مواليد مصر، وربما كان لولادته على تراب غريب سبب في تعصبه لوطنيته المسيحية ولأجداده اللبنانيين، وهو من خريجي كلية مار يوسف، التي يديرها الفرنسيون الجزويت وقد كان مشهوراً في حقل الرياضة البدنية، مارس الملاكمة، والمصارعة، ولعب كرة القدم، ولدى الذين يحتفظون بالصور التذكارية صورة له بالسروال القصير «شورت» بعدها أخذ يتدرب ليصبح صيدلياً ثم أدار مخزن أدوية في ساحة الشهداء وبوجوده في هذه المنطقة ذات الألوان الحمراء، فان أخصامه يسمونه بيار الكوندوم هذه كانت الأيام التي كان فيها موضع سخرية هو وحزبه.

يعترف الشيخ بيار بكل صراحة، انه استوحى فكرة تأسيس حزب الكتائب مما شاهده في الألعاب الأولمبية في برلين سنة ١٩٣٦، غير أنه في السنوات الأخيرة كان يركز على أن المنظمات الرياضية في تشيكوسلوفاكيا، لا النازية، هي التي أثارت في نفسه حب التنظيم، ولكن على أية حال فانه عندما عاد إلى بيروت طبّق على أتباعه قوانين الثلاثينات للجناح اليميني في البحر المتوسط وسياسته، الخوذة، والطاق، والقميص الأسود، وربطة العنق الكاكية ما يميز الكتائبي عن سواه ثم التحية ببسط الذراع بقوة. وبالرغم من أن الكتائبيين جنّدوا أنفسهم لحماية الجالية اليهودية الصغيرة في لبنان، فقد كان الاسرائيليون ينظرون إليهم كحزب مكروه، لأن مظهرهم الخارجي كان يشبه مظهر النازيين، والعارفون يعطونا القليل من الاهتمام لما للفاشية الأوروبية من تأثير على الفلسفة الكتائبية، ولكنهم يوجهون نظرهم إلى التنظيم العسكري، الذي يقر ان وجود قيادة واحدة له كل الأهمية.

في الأيام الأولى كان الشيخ بيار يقود أعوانه إلى معارك بالحجارة والعصي مع الجيوش الفرنسية المستعمرة. وفي الثلاثينات كان في لبنان منظمة أخرى مشابهة تدعى منظمة النجّادة التي كغيرها من الأحزاب السياسية الاسلامية، تطالب فرنسا بإعادة لبنان إلى أحضان السوريين أصحابه الحقيقيين، الشيخ بيار كان دائماً يفضل التخاطب باللغة الفرنسية وبالطبع فان لغته العربية، حتى يومنا هذا لا تزال، ركيكة غير معبّرة.

الشيخ بيار كان يرى دائماً في حزبه الكتائبي سنداً للدولة، كقوة مسيحية منظمة، ان وطنيته هذه التي وضعته في مواجهة الاستعماريين الفرنسيين، كانت حافزاً له ليصبح من

مؤيدي الميثاق الوطني. ولما تغلب الانكليز وجيش فرنسا الحرة على فرنسا فيشي، التي كانت في لبنان سنة ١٩٤١، ساعدت هذه (الميثاق الوطني) الوثيقة غير المكتوبة بين المسلمين والمسيحيين في الحصول على الاستقلال من فرنسا المغلوبة (وهذا كان مما أغضب الجنرال ديغول من الأميركان والانكليز اللذين كانا عرّابي الاستقلال) كان الشيخ بيار دائم التغني بالميثاق الوطني الذي كرّس أول استقلال مسيحي لقوة المسيحية السياسية في الشرق الأوسط منذ أيام ممالك الصليبيين، كان الزوار لقيادة الكتائبيين يواجَهون بعرضٍ لما كان يفعله المسلمون في الماضي، إذ كان الشيخ بيار يقول لهم ان جده في بكفيا لم يكن يسمح له بلبس الحرير، أو بركوب فرس إلى بيروت، وكان عليه أن يركب حماراً، كان يذكر هذه الأشياء وكأنها حدثت بالأمس. هذا كان ما يشكو منه الشيخ بيار إلى كل الناس، عما أصاب المسيحيين من عناء عندما كانوا يعتبرون مواطنين من درجة ثانية، وقد حدّثني أحد سفراء أميركا في لبنان ان ما يذكره عن جلسة مع الشيخ بيار، ان الأحاديث دارت كلها حول تلك المواضيع ولم نعط للبحث في الأمور الهامة، موضوع الاجتماع، إلا قليلاً من الوقت، وعبر السنين كانت تصريحات الشيخ بالصحف تتحدث عن تزايد عدد الفلسطينيين واليسار المخرب، والطوابير الخامسة، التي تعمل على إلغاء ميثاق سنة ١٩٤٣، وكان يكرر دائماً أنه لا يذكر ان الموارنة أخلوا أرضهم كما فعل اليهود والفلسطينيون، وانهم دائماً على استعداد ليقاوموا أي ضغط لاخراجهم، حتى الموت، هذه كانت نقطة كل بحث مع أي من الموارنة، لقد كان للشيخ بيار تأثيره القوي على جيلين من مسيحيي لبنان، ولكن على الأخص على أتباعه الموارنة، فرسالته هذه كان المقصود منها التأكيد على ما يرمي إليه ولو ان عدداً كبيراً من المسيحيين كانوا لا يرغبون في التظاهر بذلك أمام العموم، لحاجتهم إلى الاختلاط بالمسلمين اللبنانيين.

وبالرغم من أن الحزب لم يكن شديد التعلق بحكم الأقلية التي كانت تدير لبنان قبل سنة ١٩٧٥، أو بأولئك النوابغ، فان قائمة خريجي مدرسة الكتائب كانت طويلة بأسماء السياسيين المسيحيين المتفوقين، حتى ولو كانوا لم يدخلوا الحزب إلا لفترة قليلة، فانما كان ينسب إليهم، ان نجاحهم عائد لما كانوا يتلقونه من نهج كتائبي في مدرسة الشيخ بيار، ومع هذا (فهنالك نكتة يتندر بها الناس في لبنان تقول ان أحدهم سأل لماذا لا يوجد صالون حلاقة مواجهاً لقيادة الكتائب، فكان الجواب لأن الناس هنا يغادرون هذا المكان

قبل أن تطلع ذقونهم)، ومع هذا فالكتائبيون في المجلس السياسي المركزي بتركيبه المعقد والمختلط من قبل منظمين محليين واختصاصيين، كان يسمح بالنقاش السياسي، حسب ادعاء المدافعين عن الديمقراطية والحزبية شعاره: الله والعائلة والوطن، وهذا ما كان يرضي الموارنة القادمين من قراهم ليعيشوا في بيروت أو في ضواحيها أو لأولئك الذين لم يغادروا الجبال، ممن لا يعترفون بالعائلات المارونية القديمة ذات النفوذ، ولهؤلاء الذين أصبحوا غير مرتبطين تقوم الكتائب، كحزب، بتقديم الخدمات لهم لدى الجهات الحاكمة، وهي كانت موجودة في كل المناطق المسيحية على المستوى القروي على أقل تقدير، وفي داخل الكتائب نفسها، دعك عن التخرس بالديمقراطية، فكل القرارات النهائية يصدرها الشيخ بيار، ولكنه كان من الذكاء بحيث يضع في المقدمة، القضية الحزبية نفسها، وفروعها المختلفة، بدلاً من أن يعتمد على الأشخاص كما فعل منافسوه في الأحزاب الأخرى، هذا الذكاء التكتيكي التنظيمي، عرفه الرئيس السابق كميل شمعون وسليمان فرنجية وكذلك ريمون اده ابن الرئيس اميل اده، ولكن بعد فوات الأوان.

لقد شعر الكتائبيون بأنهم كانوا محظوظين في الوقت المناسب. فقد بدأ قبل ابتداء الحرب الأهلية وكأنهم نهر جارف يتدفقون من كل مكان، وفي بدء الحرب الأهلية في نيسان سنة ١٩٧٥ ارتكب المسلمون واليساريون والفلسطينيون غلطتهم الكبيرة بمحاولتهم استئصال الكتائب من الحياة السياسية في الدولة اللبنانية، إذ من ذلك الوقت أخذ عدد كبير من الموارنة وكذلك من المسيحيين من أبناء الطوائف الأخرى، الذين لم يكن لهم شيء إلا الشماتة بالكتائب ينضمون إليهم، أن المسيحية بدت مهدّدة بالدفع إلى الانزواء والعزلة وفي هذه الشهور الأولى كان الارتماء المفيد، هو الارتماء في احضان الكتائب فتدفق المراهقون إلى متاريس الكتائب كما فعل من هم أكبر منهم سناً من قبل، وقد كان حزب الكتائب على استعداد لضمهم بما لديه من إمكانات بفضل نظامه، وما ناله الأفراد الذين سبق أن كانوا في الجيش اللبناني من تدريب، وقد اعترف لهم بذلك عالم بريطاني من رجال السياسة بعد مراقبته لهم بعدة سنوات، وكان يتساءل بينه وبين نفسه، عما إذا كانت الكتائب أقوى حركة وطنية فاعلة في الشرق الأوسط والذي كان يحيره، هو ما الذي ستفعله هذه القوة.

منذ بدء القتال، كان الرهبان الموارنة أقوى حلفاء الكتائب، فهؤلاء كانوا يمارسون

القوة الحقيقية في الكنيسة بعيداً عن نفوذ البطريرك انطونيوس خريش، الذي كانوا يعتبرونه مجرد فلسطيني سابق، مولود بالقرب، وعلى رمية حجر، من الحدود الاسرائيلية بعيداً عن قلب الوطن الماروني، هؤلاء الرهبان وهم من كبار الملآكين والأساتذة، كانوا يمارسون نفوذاً كبيراً على الموارنة، خصوصاً في أوقات الشدّة، لقد آووا عدداً كبيراً من العائلات المسيحية التي هجرت مناطقها، من جراء الحرب، وقد ساهم في ذلك رئيس الرهبان الأب شربل قسيس، مساهمة منه في عمل الخير، أما أعداء المسيحيين فكانوا يصرّون على أن الرهبان هم الذين يجمعون الأموال لشراء السلاح، اني أردّد هنا قولاً للزعيم كمال جنبلاط: «ان رؤوس هؤلاء الرهبان المحلوقة تنبعث منها أشعة الذهب».

بين المحاربين المسيحيين من غير الموارنة كان الشريك الوحيد الكبير ميليشيات النمور التابعة للرئيس السابق كميل شمعون، الذي كان طيلة معظم الحرب الأهلية وزيراً للداخلية، ثم وزيراً للخارجية، وشمعون ابن هذا القرن بقي في الأشهر الأولى، بعيداً عن الحرب مفضلاً البقاء في عمله السياسي داخل حزب الوطنيين الأحرار، حيث كان منفرداً في عمله ولم يشرك معه أياً من ولديه، دوري أو داني، أو أي شخص آخر، كان يمارس سلطة ضعيفة على ميليشياته غير المنضبطة ولكنه عندما قرّر إشراكهم بالحرب جعلهم تحت قيادة ولده داني، وقد حمّوا وطيس القتال في (حصار تل الزعتر) هذا الموقع الذي كانت الكتائب تفضل أن تتلافاه، وقد شبّه بعض المسيحيين، النمور بعصابة بيغن (أرغون زيغي ليومي) الارهابية خلال الحرب الفلسطينية سنة ١٩٤٠، التي تحدت جماعة البلماك من أجل الحصول على التفوق السياسي، وكان النمور يصرحون بلسان شمعون، نحن الذين كنا نحارب، وليس الكتائب، اننا بدأنا حرب تل الزعتر وهم انضموا إلينا، ولو أنه كان عندنا تموين منظم للسلاح، لكنا غزونا بيروت الغربية، ثم كان يضيف، وبذلك كانت انتهت الحرب الأهلية.

أما سليمان فرنجية الرئيس اللبناني الذي كان عهده الذي يمتد ست سنوات من ١٩٧٥ على وشك النهاية فقد كان بكل تأكيد يواجه معارضة غير أنه في الشمال كان يتمتع مع تابعية بسلطة عالية، إذ من طبيعة الموارنة عندما لا يقعون تحت ضغط ما، التمسك بقيادتهم دونما تفكير بتغييرها، وفرنجية هو من مواليد سنة ١٩١٠ والأصغر بين السياسيين الموارنة الذين يديرون هذه الحرب، (فكميل شمعون وبيار الجميل أكبر منه

سناً).

أما وقد أصبح الموارنة في جبل لبنان، وكأنهم في قفص ، ...... فقد دبّ بين صفوفهم النزاع وكان أول الخاسرين ريمون اده، ابن المدينة العبقري البرلماني، الذي انشغل بالجري وراء الرئاسة بصورة مستمرة، مما جعله يهمل تأمين العنصر الأساسي للنجاح، وهو الميليشيات كما أن لتعليقاته اللاذعة واستهزائه بالقادة المسيحيين الآخرين ما جعله هدفاً لغضبهم وحقدهم، أذكر أني كنت على الغداء عنده في بيروت الغربية في ربيع سنة ١٩٧٦ عندما قام المدفعجي المسيحي الكولونيل انطوان بركات بقصف المكان المجاور، وبدا لي انها لم تكن المرة الأولى، التي يقصف فيها المكان المجاور لبيت اده، لأن الشبابيك من هذا البيت الذي ورثه ريمون عن والده رئيس الجمهورية الأسبق أثناء الانتداب الفرنسي، كانت بلا زجاج، ولكم كان صوت ريمون اده غريباً عندما تعالى ضحكه لدى انبطاحي تحت الطاولة بينما كانت القذائف تنهمر حولنا بغزارة، وقد أرفق ضحكته بقوله: «لا تخف انهم في الشرق يقتلون الفرس لا الفارس»، وكأنما أراد أن يوضح لي أن القادة لا يتعرضون للخطر في حالات الفوضى. غير أن هذا القول كان قبل أن يكمن رجال بشير الجميّل له ويطلقون عليه النار ويصيبونه بجراح يضطر بعدها إلى نفي نفسه في فرنسا.

وبأخذنا بعين الاعتبار، عمل بشير هذا في تحقير واحد من سياسيي المسيحيين أكبر منه سناً بضعف عمره، يظهر لنا بما لا يقبل الشك، ان بشيراً أصبح قوة بذاته وظهر ذلك واضحاً في شهر تموز سنة ١٩٧٦، عندما أصبح قائداً للقوات الكتائبية إذ جاء كخليفة لوليم حاوي الذي قتل عندما كان يتفقد قواته التي تحاصر تل الزعتر في ١٣ تموز، كانت هذه الميتة لحاوي بالنسبة لبشير تدبيراً من العناية الإلّهية، وكثيرون من اللبنانيين بما فيهم أعضاء عائلة حاوي كانوا على قناعة أن بشير الجميّل هو المسؤول عنها (غير أن ضباط منظمة التحرير الفلسطينية الذين لم يكن يعنيهم تبرير ساحة بشير أكدوا أن فدائياً في العقد الأول من العمر استطاع الهرب من الحصار وادعى انه هو الذي قتل رجلاً تنطبق عليه صفات حاوي) ومهما كانت الحقيقة فان بشيراً لم يعط الأمر أي اهتمام، وبالرغم من تحفظ والده أمام وضع القوة في يد مثل هذا الشاب المتحمس، وهذا ما كان قد سبق وعارض به الشيخ بيار وحاوي، فكلاهما لم يرشحاه حتى لنائب قائد، ولكن بشيراً توصل

إلى المركز الذي مكّنه من سحب خيوط القوة منها، وبعد هذا الذي جرى فان والده وشقيقه لم يعارضا ما قدّرته العناية الإلّهية بأن توضع السلطة في يد من له مثل هذه النزعة للسلطة، ففي حالة الحرب لا مكان للسياسيين، والسلطة هي حق من حقوق الشباب المحاربين، إذ ليس من محل للتقليديين، ولولا الحرب لما كان لنجم بشير الجميّل نصيب في الارتفاع في السماء اللبنانية.

انه كان قدر غير منتظر للولد الثاني، الذي لم تكن له طلاقة وأناقة وذكاء أخيه الأكبر أمين أن يتحقق مثل هذا. ان كل الذين عرفوا بشيراً كمراهق وكشاب عرفوا فيه الخشونة والقسوة، بيد أنه كان عنده ميل إلى التصرف بحريّة، وتخطيط المشاريع، وكلما كانت دموية كلما كان أفضل، هذا ما قاله عنه استاذ كان صديقاً له.

ففي أحد الأيام من سنة ١٩٦٦، في نهايتها، فتح بشير قلبه لصديقه هذا إذ أخذ يتصفح البوم صور لوالده في الأيام الأول، وكان يتحدث وهو يفعل ذلك عن نفسه، قال انه يريد أن يكون محامياً، وأن يتزوج، غير أن المستقبل السياسي لا يبدو مشجعاً، وان والده لا يزال على قيد الحياة، وهكذا شقيقه أمين، مع أن الكتائب بحاجة إلى دم جديد، هذا ما قاله صديقه عنه. ومما قاله بشير أيضاً ان والده جعل هدفه محاربة المسلمين والسلطة الفرنسية المستعمرة، والشيخ بيار كان له صداقة عمر مع رفاقه ثمرة سنوات من العمل السياسي الجاد، انه من المستحيل استبعاد مثل هذه الظروف الخاصة، قالها بشير بلهجة الرافض وزاد في قوله ان لبنان اليوم يعيش عهده الذهبي، ولا يبدو أن هنالك في الأفق ما يهدّده. كان أصغر أخوته الستة وكانت حياته في وسط ماروني متوسط في مدرسة الجمهور لليسوعيين، ومن ثم في جامعة مار يوسف اليسوعية، حيث درس الحقوق، أما كتكوين جسدي فلم يكن خلاّب المظهر، وكانت تظهر على وجهه الدمامل وهو تحت العشرين، لذلك كان يعمل إلى تغطية هذا النقص الطبيعي في جاذبيته باجتهاده، ذكرت لي امرأة كانت رفيقته في الدراسة، انه كان مجتهداً جداً، واستمر هكذا في سنيه الأخيرة، وبالرغم من اندفاعه فقد كان في طباعه شيء محبّب، كان منفتحاً على الجميع وكان من محبي الإصغاء للآخرين، أمثال أولئك الذين لا يشعرون بالأمن ويتوقون لمعرفة ما في العالم، وكان هو الابن الذي يساعد أباه الشيخ بيار بكل الأساليب، على سبيل المثال، في سنة ١٩٦٩ استعمل كمال جنبلاط نفوذه عندما كان وزيراً للداخلية لتخليصه

من أيدي منظمة التحرير الفلسطينية فقد كان بشير واحداً من الكتائبيين الذين نصبوا كميناً على طريق بيروت ـ دمشق عند أحد المنعطفات في الكحالة، وفتحوا النار على القافلة الفلسطينية العائدة إلى سوريا وفيها قتلى من الفدائيين، ولدى رجوع هؤلاء الشباب إلى بيروت الشرقية، أوقف الفلسطينيون سيارة بشير بالقرب من تل الزعتر وعند تفتيشها وجدوا قبعات عليها آثار دماء (وليس كما زعموا رؤوساً مقطوعة).

ولدى رجوعه من أميركا حيث كان يدرس الحقوق، في جامعة دلس اللاهوتية وبعد إقامة قصيرة في مكتب محامي في واشنطن بدأ بشير بممارسة السياسة بشكل رسمي، كان قد انتسب إلى الميليشيات الكتائبية للشباب وهو في الثانية عشرة، فكانت له نشاطات هامة طالبية في الجامعات، وعلى يد الكتائبي المسنّ جان نادر، تعلّم وتدرّب في الأشرفية، أكثر فروع الحزب مكانة في بيروت. (ونادر هذا قتل في سنة ١٩٨٢ مع بشير) قال لي نادر مرة أن بشيراً لم يكن تلميذاً سهل الانقياد، وانه كان يعتقد ان بامكانه عمل أي شيء بقوة عضلاته، غير أنه مع الوقت بدا يفهم أن ليس كل شيء ممكن التحقيق بقوة العضلات، وانه لا بد أحياناً من اللجوء إلى السياسة، لقد تخاصم مرّات مع الشرطة ومع الدرك في الشارع، ومع أي كان، وقد أنقذته من مآزق كثيرة، كان كثير المشاكسة، كانت له قرارات فورية ملحة، وكان يميل لتصديق رفاقه في الميليشيات عفوياً غير أنه كان يقبل الانتقاد، ثم أردف نادر« ولكني أؤكد لك أنه لم يقتل أحداً بيديه».

كان الشيخ بيار يعارض تدريبه في الأشرفية، وكان مقتنعاً بأنه يجب أن يبدأ في الفروع ثم يتدرج عائداً إلى العاصمة، ولكن بشيراً الذي كان معتزاً بقوته، أصرّ على انه قام بواجباته وشق طريقه إلى المستوى الرفيع. وكان حريصاً أن تكون كل أحاديثه عن أنه في لبنان الجديد يجب مراعاة الكفاءة في الشخص بعيداً عن الخضوع لقواعد الخدمات المدنية الموزعة على الطوائف المختلفة بنسب معينة، وهو هنا إذ أصبح في موقع المسؤولية يبرهن على أنه ابن أبيه. ان كلي بشير وأمين كانا يتألمان، من عرقلة أبيهما لتطلعاتهما، فالشيخ بيار كان يعتبر أن الكتائب خرجت عما كان يراد بها (ان تكون أداة لتحقيق مطامح وأن لا تكون قيادته لها موضوع تساؤل من ولديه في مطامحهما) كان بشير دائماً مضطراً للمناورة في وجه المنافسة العائلية لأن أميناً كان غالباً يعترض على أساليب شقيقه الخشنة، وكانت هذه المنافسة العائلية تشكل عنصراً هاماً يتعارض مع طموحات بشير،

أكثر مما تشكله معارضة أخصامه السياسيين من مسلمين ويساريين وفلسطينيين أو حتى بين الساسة المارونيين المحافظين.

لا ريب بأن نجاحه لم يكن مرتبطاً بمولده أو بالحرب ولكنه كان نتيجة لجهده، ان أمينة سرّه المخلصة «ايزيز» كانت تضع أمامه على مكتبها بصورة دائمة صندوقاً من الشكولاته لعلمها أن بشيراً كان يفضل التهامها على إضاعة الوقت في تناول الوجبات التي يضيع فيها السياسيون وقتهم خصوصاً في لبنان، ان الزعماء المسيحيين يتلهون بالسياسة، ويتلهون بالحرب، ولكن بشيراً كان يعمل ويعمل أحياناً خمس عشرة ساعة في اليوم، وبدلاً من أن يتّبع خطة السياسيين في حضور حفلات الزواج، والعمادة، والدفن، والجنانيز، كان يفضل أن يتخذ قراراً هاماً، وقد بنى له مؤسسة خاصة بدلاً من أن يتخذ من الكتائب منطلقاً.

في ربيع سنة ١٩٧٦ تكونت على الورق منظمة القوات اللبنانية لتشترك بالمجهود الحربي المسيحي، وكانت تضم ميليشيات الكتائب والوطنيين الأحرار وتنظيمين آخرين أصغر منها التحقا سنة ١٩٨٠ وهما جرّاس الأرز وهي منظمة على صلة بالرهبان، وعلى عداء شديد للفلسطينيين وتنظيم آخر مؤلف من المثقفين من أطباء ومحامين، ومهندسين، غير أنه من المؤكد أن بشيراً هو في الواقع المكوّن للقوات اللبنانية خصوصاً بعد انتهاء الحرب الأهلية في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٧٦ أثناء فترة هدوء تمت بفضل وجود قوات الردع السورية في لبنان، في هذه المنظمة أعطى بشير رفاقه الشباب رتباً عالية وهم في أوائل العشرينات من العمر وممن لم تكن لهم علاقات بالكتائب.

أما في المجلس الكتائبي فلم يكن بشير إلا مراقباً، وكان كثيراً ما يتغيب عن اجتماعات يوم الاثنين التي كانت تعقد عند الساعة الحادية عشرة، كان ثلاثة أرباع رجاله كتائبيين بالاسم ولكنهم لم يكونوا ليؤدوا خدمات الكتائب بصورة جدية، كانوا حريصين على أن لا يمسوا هيكلية الحزب بأي ضرر، ولكنهم كانوا يريدون إفراغه من الحيوية، وعندما تكونت القوات اللبنانية، وتجاوزت الميليشيات الحربية مرحلة الفوضى، ودخلت في مرحلة الانضباط لتكون قوة حربية منظمة كان هؤلاء بالواقع رجال بشير لا رجال أبيه ولا رجال أخيه (في سنة ١٩٨١ اغتنم بشير فرصة غياب أخيه أمين في أوروبا، وجرّد ميليشيات أمين في المتن من السلاح) وبما أن التراث الماروني يشير إلى أن كل جبلي هو

محارب قوي، فرجال بشير كانوا مأخوذين من أبناء الجبال والعمال القاطنين في ضواحي بيروت المسيحية ومن جاعات أخرى كبيرة من المهجرين من مناطق جرى فيها قتال، أو من أشخاص متطوعين مندفعين لتقوية الحصن الحصين، مارونستان، بعد أن أقسموا أن يحاربوا حتى تحرير بيوتهم. هؤلاء الأفراد من الفريقين كانوا منقطعين عن أسرهم، فريق قُطع عن رباطه الروحي في الجبل، وفريق كان محتجزاً لا يسمح له بالعودة إلى بيته.

في سنة ١٩٧٨ كان بشير يعمل لحسابه في مخاطرات العنف التي كانت طابعه الخاص. مئة فقط من رجاله كانوا يطلعون على الهدف قبل التنفيذ. ولكن الهجوم، المثلث الانطلاق، على اهدن الواقعة فوق تلة في الشمال بدأ دون اعلام سابق بعد الساعة الرابعة من صباح الثالث عشر من حزيران سنة ١٩٧٨ إذ توجهت قوة إلى طريق بشري شرقاً، لتستدرج المدافعين بعيداً عن القصر الصيفي للرئيس سليمان فرنجية يوم كان رئيساً، وفريق على الطريق إلى زغرتا، التي كانت عاصمة الاقطاعيين من آل فرنجية على بعد ١٨ كيلومتراً من طريق لولبية إلى الشمال الغربي، والغزاة هاجموا وقتلوا الحامية التي حذّرتها الأصوات التي سمعت عند بدء العملية، أما القوة الثالثة الرئيسية فهاجمت القصر نفسه، وخلال ربع ساعة انتهت كل مقاومة للهجوم الذي قام به بشير، ان كل الذين كانوا داخل القصر الصيفي الحجري الفسيح، وجدوا أمواتاً ومن بينهم كان طوني فرنجية (٣٦ سنة) وزوجته ڤيرا ولها من العمر (٣٢ سنة) وطفلتها جهان (٣ سنوات) والخادمة والسائق وكلب العائلة.

ومثل كل الأشياء في لبنان، كان هذا الهجوم عملاً غير صحيح، ولكن إلى متى يبقى الخطأ موضع جدال، وموضوع توقعات غير محددة وغير واضحة. لقد أقسم بشير أنه لم يكن يعلم أن طوني كان موجوداً في اهدن عندما أمر بالهجوم على القصر، وقد تبين فيما بعد أن سيارة طوني كانت قد تعطلت، وهذا ما منعه من العودة إلى زغرتا باكراً في ذلك اليوم، كما كان مصمماً، ولكن هل كان توقف السيارة مجرد حادث؟!

وبالرغم من أن بشيراً كان قائد العملية، فالأشياء مختلفة عن هدف الهجوم، فان أحداً منهم لم يصرّح بأنه كانت هنالك خطة لقتل طوني أو أفراد عائلته، وفي الواقع فالأسباب التي قدّمها بشير ورجاله لتبرير العملية لم يقبلها اللبنانيون الذين يشككون بصحة هذه الادعاءات، إذ قد يكون بشير يرمي من وراء ذلك إلى إزالة منافسه من شباب الجيل

الصاعد (وبعد سنوات أسرّ إليّ صديق وهو واحد من العناصر التي نفّذت العملية أن بشيراً كان قد أبلغ المهاجمين مسبقاً، ان قتل طوني هو المقصود) وبعد تسعة وثلاثين شهراً من انفجار الحرب سنة ١٩٧٥ التي وضعت الميليشيات المسيحية في مواجهة الفلسطينيين والمسلمين اليساريين، برز المعسكر المسيحي وكأنه وقع فريسة للعنف والفوضى التي كان دائماً يجاهر بالشكوى منها.

لقد كان هذا في النهاية واضحاً لآل فرنجية وأتباعهم عندما ظهر أمران على جانب من الأهمية من جراء المذبحة في اهدن التي ذهب ضحيتها أربع وثلاثون نفساً نصفهم كانوا محاربين في الحرب الأهلية، ولابناء الجبال الوعرة في شمال لبنان، لم تكن نتائج عمليات العنف لتقابل بكثير من الأسى، فالنساء الزغرتاويات اعتدن على لبس السواد حداداً على رجالهن الذين كانوا يقتلون في مثل هذه المصادمات الاقطاعية، ولكن اليوم بموت طوني كان هذا مثار اهتمام عظيم. اذ كم كان عظيماً أن يكون قد مات محافظاً على تراثه كابن الشمال، مسرعاً إلى الحصار واستعمال السلاح دفاعاً، كان المكان الذي حاصر فيه هو المطبخ الذي كان أنسب نقطة للدفاع. واستمر طوني بك بإطلاق النار كما علمه أبوه الذي درّبه يوم كان صغيراً على إصابة قطع النقود، وقد بقي يدافع إلى أن أصابته قذيفة قضت عليه وعلى رفاقه.

إحدى شقيقاته الثلاث، واسمها لمياء، وصفت هذا العمل بأنه إنتهاك للحرمات، عندما لقيتها في بيت أبيها، في زغرتا، أثناء الغداء، بهذه العبارة وصفت المجزرة «انها خسارة كبيرة أن تفقد العائلة وريث أمجادها، النائب في البرلمان، والوزير السابق، وقائد جيش التحرير الزغرتاوي، بكر العائلة، الذي كان مرشحاً للرئاسة، وانه لانتهاك للحرمات أيضاً، أن تقع الجريمة في قصر من تراث العائلة في قاديشا الذي هو مصيفها المفضل، والمرجع والملجأ للموارنة، منذ آلاف السنين، ورمز للعزة المسيحية في الخضم الاسلامي».

«اننا نؤمن أن امتهان الكرامات يجب أن يعاقب عليه»، أضافت لمياء مردّدة ما في تراث هذه البيوتات من أقاويل، في أمثال هذه المواضيع، إذ من المؤكد أن مذبحة اهدن، تدعو إلى أعمال عنف أخرى، مما يزيد في بؤس اللبنانيين، وهنا أذكر عبارة للفيلسوف (تاليران) حيث يقول: (إن الجريمة عمل سيء، ولا شك، ولكن الوقوع في الخطأ أسوأ،

وهذا القول وارد عند الذين يتأثرون بالثقافة الفرنسية، ان انفجار هذه الحرب المارونية الأولى، عقّدت أوضاع جميع المسيحيين في لبنان، وكذلك المسلمين الذين يحسبهم المسيحيون أول المستفيدين من هذه المجزرة، بل ربما كان كذلك الاسرائيليون والسوريون، إذ كل منهم يتمنى أن يبقى لبنان في حالة غليان، فمصالحها تقضي بذلك، ومثل هذا التقدير بأن الغرباء هم أساس كل تفرقة في لبنان، نابع من أجيال سابقة عاش فيها لبنان تحت وطأة الغرباء.

وحتى بشير الجميّل وجذ ذلك، مساعداً له على إبعاد تهمة جريمة قتل خصمه السياسي عنه، فبعد يومين اثنين من حدوثها اعترف بعض رجال ميليشياته «انهم هم قاموا بهذا العمل، لحسابهم الخاص، وبمساعدة «جهات غير معروفة» وعليهم تقع مسؤولية مذبحة اهدن»، «ان مجلسه الحربي، لم يأمر بهذا الحادث المؤسف، ويمكن إجراء تحقيق» والكلام هنا لبشير، «بالطرق القانونية، لاتخاذ اللازم بحق مرتكبيه»، ولكن هذه الكلمات لم تخدع أحداً من الذين كانوا يعرفون حقيقة تصرفات قائدهم، من وراء الأقنعة للتمويه، واللبنانيون لم يكونوا يأبهون لمثل هذه التوعدات بمعاقبة مرتكبي الأخطاء، فقد كانت دور القضاء آنذاك في لبنان مغلقة، خصوصاً في القضايا الجزائية، وأنصاف الحقائق، التي اوردها بيان بشير ستكون أكثر قيمة من عشرات البيانات التي يصدرها القادة الأخر، (مع الاشارة إلى أن أحد معارضي الاكليروس، من اللبنانيين، صرّح أن بشيراً كان يتصرف بوحي من ثقافته اليسوعية) هو في الواقع كان يريد التمويه على أتباعه غير الأوفياء، وعلى الرأي العام بصورة عامة، وبعمله هذا لم يخسر فقط أن يكون له موطىء قدم في الشمال، الحصن التقليدي للموارنة، ولكنه أيضاً دفع بأخصامه إلى أحضان السوريين الذين أصبحت جيوشهم بعد ذلك تحكم قبضتها على هذا الجزء الغالي من المنطقة المسيحية في لبنان، وانه بفضل ما بدا انه مغامرة. فالموارنة الذين كانوا مدفوعين للاعتقاد بأنه سيكون بإمكانهم التسلط على البلد بكامله، تقلصت سلطتهم لتظهر فقط في عشر المساحة، وعلى أقل من نصف الأقلية المسيحية.

إن السبب الحقيقي لعملية اهدن يعود إلى أحداث ترجع إلى الحرب الأهلية، عندما لجأت العائلات الاقطاعية في شمال لبنان، التي هي في الأساس من مؤيدي العروبة، إلى الكتائب في طلب المساعدة ضد المسلمين، اضطراراً، إذ كان قد سبق النظر إلى حزب

الشيخ بيار بسخرية، لما كان من اعجابه بكل شيء غربي، ورفضه للثقافة العربية، وربما كان هذا هو السبب في أن بقيت الكتائب بعيدة عن الشمال، ولم تكن لها قوة في زغرتا. بيد أنه بعد الحرب وجدت طريقها إلى تلك المنطقة، تبحث عن متطوعين، وتبني المرابض والتحصينات، خصوصاً على الشاطىء في شكا، لذلك كانت ردّة الفعل المحلية واضحة لهذا العمل اللاإنساني، وفي أواخر ربيع سنة ١٩٧٨ كان الكتائبيون يفقدون عدداً من الرجال كل يوم إذ كان يخطفهم المردة التابعون لفرنجية، هؤلاء الذين كانوا بقيادة طوني فرنجية وغير بعيدين عن منطقتهم. بينما كان الكتائبيون المحليون غير مسموح لهم بالعمل في الأفران، ومحطات بيع الوقود، ومخازن الأدوية، وكان التجار الذين لا يدينون بالاحترام لفرنجية، يُعطون لوائح سوداء بهؤلاء، والويل لمن يخالف فقد كان متجره يدمّر بالديناميت.

كل المحاولات التي اتخذت برعاية البطريرك الماروني في كرسيه في بكركي لإصلاح ذات البين بين بشير وطوني في الماضي، كانت قد فشلت، وفي المقابلة الأخيرة بين بشير وطوني قال بشير: «ان زمن الاقطاع في الشمال قد انتهى»، وهنا أجاب طوني منفعلاً: «ارفع يدك عن كل ما هو شمال جونيه، وإلا كسرناها»، وفي أوائل حزيران قتل جود بايا، مدير أحد البنوك في بيروت، وقائد فرع الكتائب في زغرتا، وقد صرّح بشير الجميّل فيما بعد، ان الرئيس فرنجية لم يسمح بدفن بايا في زغرتا، ولا أن تقام الصلاة عن نفسه في الكنيسة، وبالتأكيد مُنع خوري البلدة من أداء مراسيم الدفن، فقام والد الضحية وابنه بإيوائه الثرى منفردين، وهكذا قرّر بشير أن يوجه ضربته قبل أن يتمكن آل فرنجية من تشويه سمعته في الشمال، وفي الوقت نفسه قام فرنجية وأتباعه من المسيحيين في الشمال، بالتعاهد على تحسين العلاقات مع المسلمين في طرابلس، الذين كانوا أخصاماً له في الحرب، وهم من كانوا على حذر من الزغرتاويين في أيام الهدنة (ومما هو جدير بالذكر أن سليمان فرنجية كان قد توقف عن حضور اجتماعات الجبهة اللبنانية منذ شهر ايار، والجبهة هذه هي عبارة عن مجموعة من القادة الموارنة هدفها الوقوف في وجه مواطنيهم الموالين لسوريا وذلك بمساعدة وتشجيع من اسرائيل) وفرنجية وأتباعه كانوا مصممين على عدم الاعتراف بتفوق آل الجميّل، بل كانت قد سرت شائعات أنهم كانوا يهيئون لتأمين حماية أكثر للشمال، من قبل الجيش السوري.

كان المنفّذ الذي اختاره بشير شاباً في السادسة والعشرين من عمره، يدعى سمير جعجع، وهو ابن لشرطي مناوىء سياسياً لآل فرنجية، وكان علاوة على ذلك من سكان بشري المنافسة لزغرتا في ارثها الاقطاعي، متعلم مفكر ذو نزعة ثورية، سحب من مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، حيث كان ينهي السنة الأخيرة من دراسته وتمرينه كطبيب. والدكتور هذا، طلب أن يُعطى (كرت مفتوح) صلاحيات مطلقة، وكما يظهر في مذكراته فان بشيراً وحده وعدد قليل من المجلس الحربي، كانوا يعرفون ذلك (عدد من اللبنانيين اعتبروا ذلك محاولة شخصية لتحاشي زجّ قيادة حزب الكتائب في العملية).

وما صرّح به بشير كان، ان المقصود بعملية اهدن هو توقيف قتلة جود بايا، الذي دلّت تحرياته، انهم في القصر، فالفكرة كانت إذلال فرنجية وأتباعه، بتحقيق هجوم جريء على اهدن، قبل الانتقال إلى المقر الصيفي، ولكن جعجع كان يؤكد أن تصميمه يرمي إلى ما هو أكثر من ذلك. كان مصمماً على احتلال اهدن، والاحتفاظ بها، إلى أن يخلي فرنجية وأتباعه شكا، حيث معمل الاترنيت والاسمنت ولوازم السقوف، والفرنجيون كانوا مقتنعين بأن قوات جعجع كانت متوجهة إلى شكا، ولذلك حرّكوا عدداً كبيراً إلى المرفأ على البحر، ولم يعلم سوى اثنين أو ثلاثة أن الهدف هو شكا؛ (فشكا) كانت تشكل مورداً دسماً لأية ميليشيات تضع يدها على انتاجه؛ وفي الأسابيع التي تلت، عشرات من الميليشيات المتنافسة، مات أفرادها في سعيهم للحصول على مثل هذا الامتياز الاحتكاري. هكذا كانت الحال دائماً في لبنان، فاللبنانيون كانوا يعبدون دائماً ربّين، الله والمال (فالفينيقيون أيضاً كانوا يعبدون بعل الذي هو في معتقدهم الإله الغني) ولكن جعجع أدرك أن ذلك لم يكن بالخطة السليمة، فان عدد الرجال الذين معه قليل، ولم يكن لديه سوى هذا الخيار، وبشير كان يواجه ضغطاً من الجبهات الأخرى، لا يسمح له بالاستغناء عن مسلحين؛ جمعت القوة على حافة وادي قاديشا في قرية صغيرة (قناة)، ثم حرك جعجع رجاله في الطرقات الخلفية، بحيث استطاع الوصول إلى اهدن، قبل الساعة الرابعة صباحاً، وكان الهجوم الرئيسي بطبيعته معد لضرب القصر في المرحلة الأولى، إذ كانت الغاية القضاء على الأجاد التي لفرنجية، وقطع المواصلات الرئيسية، ومهاجمة مصنع الأسلحة، ومما قاله جعجع: «سمعنا اطلاق نار فردينا بالمثل، وعندما دخلنا وجدنا طوني والعائلة جثثاً هامدة، وعلى كل حال فقد كان من المقرر، أن يكون

طوني فرنجية بين يوم وآخر ميتاً »، خلال المعركة أصيب جعجع بجرح بليغ في كتفه، فقد على أثره وعيه، عندها أجهض نائبه العملية. كان الانسحاب عسيراً فحواجز السوريين كانت في كل مكان، والطيران السوري تتبع الغزاة المبعثرين، وميليشيات فرنجية كانت تعمل بقوة، فكان على العدد الكبير من كومندوس الجميّل أن يختبئوا، إلى أن يرخي الليل سدوله، ثم ينجرّون عائدين إلى خطوطهم، مشياً على الأقدام، ولما كان الغزاة في أكثريتهم، من ضواحي بيروت، فقد كان يصاحبهم أدلاء من أبناء الشمال، يعرفون مخارج الأرض ومداخلها، وقد اعتبر جعجع انه كان موفقاً، لأنه لم يخسر سوى سبعة من رجاله في هذه العملية، عندما استعاد وعيه في مستشفى أوتيل ديو في شرقي بيروت بعد ظهر ذلك اليوم، كان بشير هناك، يقوم بزيارته، وقد خاطب جعجع قائلاً: « ليس موقفنا سيئاً، ولو أن العملية لم تنجح كما كان منتظراً ».

إن ملاحظة بشير اللاأخلاقية كانت لإخفاء رعونته، فهذا الرجل القوي الجسد كان له العديد من سوء التصرفات، بدءاً من انصرافه عن محاربته أعداءه التقليديين، أمثال الفلسطينيين والمسلمين، إلى محاربة الموارنة المحافظين والمسيحيين الآخرين الذين كانوا قد حاربوا تحت علَمِه في الحرب الأهلية، ان قيام معارك بين بعضهم بعضاً كان أكثر مما كان متوقعاً، لدى المسيحيين، خصوصاً عندما شمل ذلك قتل قائد منافس، مع زوجته وابنته، ان تاريخ لبنان قد تضمن أمثلة متشابهة من أعمال الغدر، ضمن الكيان الماروني، ولكن الحاجة إلى الوحدة في الحرب الأهلية أوجبت طي صفحة الخلافات ما بين العائلات المارونية ذات المركز السياسي أو الحزبي أمثال الشمعونيين، وآل فرنجية وآل الجميّل. والآن جاءت عملية اهدن، تعرّض للخطر، قوة وتأثير الموارنة النازعة إلى إقامة دولة مسيحية لا تتأثر ولا تأبه بالمسلمين والفلسطينيين.

ولكن مذبحة اهدن، لم تحظ برضى أسرة بشير وهي خطة مدروسة، فالجمهور اللبناني كان يعرف أن آل الجميّل كانوا متفقين على تقاسم الأدوار، كأن يكون الشيخ بيار ذلك الأب صاحب المبادىء والاستقامة والمؤسس لحزب الكتائب، وأمين الشقيق الأكبر والنائب في البرلمان، السياسي المعتدل، والتاجر الذكي الناجح، الذي كان يعارض شقيقه الأصغر بشيراً. وبشير القائد الحربي القوي العضلات المحبوب شعبياً، ومن وجهة نظرهم المبسطة، كان من المفروض أن يصدق اللبنانيون، ان مثل هذا التباين في الأسرة كان

في مصلحة المجموع، بينما هو في الواقع لم يكن كذلك، وتطبيقاً لهذه السياسة العائلية لم يخف أمين عدم موافقته على مهاجمة اهدن، وكثير من أعمال بشير الأخرى، ومما قاله واحد من أفراد الحزب المتقاعدين وهو في الأربعين من العمر انه كان يشك في أن يكون بشير قد استشار أخاه أو أباه بصدد العملية، «لقد كان الشيخ بيار غاضباً شاحب اللون متأثراً غاية التأثر للانغماس بعملية اهدن، فكأب حاول أن يتلافى الانتقاد كما أخبرني، ولكن عملية اهدن وضعت في النهاية حداً لمحاولاته بسط سلطته على بشير، وإيقاف تحدياته المتزايدة». (كان الشيخ بيار يتظاهر دائماً بأنه غير راضٍ عن أعمال بشير بالرغم عن شعوره الداخلي) ان أولئك الذين كانوا يسمعون بشيراً يحط من قدر والده في مهمته في كل الأمور الصغيرة والكبيرة، كانوا مقتنعين بأن الشيخ بيار انتهى دوره وأزيح من أمام الأضواء، ولكن لم يكن هنالك من يفكر أن اهتمام بشير بإعداد القوات اللبنانية كان في الواقع قد أمّن له أرضيّة صلبة مستقلة.

أما من وجهة نظر العالم الخارجي، فان عملية اهدن ظهرت وكأنما كان المقصود بها، إظهار قوة بشير وسلطانه في داخل الغيتو المسيحي، وفي نطاق أسرته الخاصة. وفي التحليل الآتي الذي قدّمه أحد مستشاري حزبه، ما هو أقرب إلى الحقيقة من أي قول آخر. (كان بشير بذكائه ودهائه يعمل بقوة وحزم، مقتنعاً بأن أباه لا يريد أن يعرف، إذ لو عرف لوجد نفسه مجبراً على البكاء والتأسي، وهكذا فان الشيخ بيار كان يلجأ في النهاية إلى التستر على ابنه بشير) هذا ما قاله المستشار المشار إليه غير أن عملية اهدن كشفت عن حق بشير، ذلك الحمق الذي تجده عند المقامر المهووس، الذي يرفع حجم المراهنات، بالرغم من معرفته بأنه خاسر. قال أحد مأموري شركة التأمين على الحياة: «أنا لا أبيعه بوليصة تأمين على حياته»، وأضاف سياسي أميركي في اليوم الذي تلا عملية اهدن، «ان بشيراً وقّع وثيقة وفاته في تلك العملية»، ولكن بشيرا (كالعادة) مؤمناً بالقدر وأحكامه، كان يجاهر بأنه حتى ولو فقد حياته فأن الحزب الذي أسّسه ووضع نظامه أبوه، سيستمر، بينما آل فرنجية قد وصلوا إلى خط النهاية، وكان يقدر أن آل فرنجية بعد أربعين عاماً من النضال من أجل السيطرة، أولاً في زغرتا، هم الآن في طريق الانحدار، أثناء رئاسة سليمان فرنجية غير الناجحة. وعلى كلّ فهنالك بين اللبنانيين من يوقع اللوم على سليمان فرنجية، ناسباً إليه العمل لتفاقم النزاع في الحرب الأهلية، غير أن الأجواء في زغرتا لم تكن لتشجع

بشيراً على التفاؤل.

ولنصغي إلى لمياء دحداح التي رأت عملاً بالتراث الزغرتاوي، أن تنقل لابن طوني «سليمان» وهو ولد في الثالثة عشرة من عمره، نبأ المجزرة في اهدن أثناء العودة وإياه من بيروت قالت:

ـ يا سليمان هل لا تزال تذكر كلبنا الذي في اهدن، لقد قتلوه.

ـ من الذي قتله؟

ـ الكتائبيون.

ألم يحاول أن يعقر العديد منهم قبل أن يموت؟

ـ «محتمل» أجابت عمته، ثم استطردت «يا سليمان هل تذكر خادمتنا فدوى التي في اهدن؟ هي أيضاً قُتلت.

ـ من الذي قتلها؟

ـ الكتائبيون.

ـ من المؤكد أنها لم تستطع المقاومة لأنها امرأة.

ـ «نعم»: أجابت عمته. لقد أطلقت عليها النار من الخلف. وقبل أن يصلوا إلى زغرتا بقليل قالت له: «الآن يا سليمان قد كبرت، أنت الآن رجل.

وإذ توقع ما جرى قاطع عمته قائلاً: «انهم قتلوا أبي أليس ذلك ما فعلوه؟»، «نعم». وردّ الولد بقوله: «أنا متأكد انه قاوم هؤلاء القتلة من الكتائبيين». والولد يحمل اسم جده الرئيس السابق، الذي ينسب إليه قتل سبعمئة، عبر السنين، دون أن يتهم بأحد، هذا ما قاله أحد أقاربه المعجبين به. كان معروفاً بأبي الهول، لالتزامه الصمت والاختصار بالحديث، وسليمان فرنجية الكبير، كان قد مارس أساليب المافيا سنة ١٩٤٠ عندما أصبح المعاضد والمفتاح الانتخابي لشقيقه الكبير الأكثر حصافة، حميد، وعندما كان حميد عضواً في البرلمان، على جانب من دماثة الخلق، ثم وزيراً، ثم مرشحاً للرئاسة، كان سليمان يشغل وظيفة صغيرة في المرفأ في عمليات تفريغ المواد الغذائية، وكان يومياً ينتقل بسيارة مرسيدس ١٧٠ قديمة، بين بيروت وبيته في طرابلس لأنه كان مملقاً لا يستطيع أن يدفع أجرة منامة في بيروت. وتمشياً مع عادات زغرتا كان يرى أنه يجب أن يتقن الرماية بالسلاح وكان عليه أن يقتل مسلماً من طرابلس كل شهر، مذكراً بذلك الذين يتناسون حقيقة من

هو صاحب الأمر، وفي تاريخ العائلة، أن حميد، حنا باللائمة على سليمان، لأنه بحماقاته أضاع عليه مركز رئاسة الجمهورية سنة ١٩٥٢.

كان شمعون مصمماً على استبعاد منافسه إلى الرئاسة في سنة ١٩٥٨، وهو ما كان يعد له، باجراء تعديل في الدستور، يجيز له تمديد رئاسته ست سنوات أخرى، ففي سنة سابقة رشح للبرلمان سمعان الدويهي، (كاهن غير محصّن دينياً من محبي المال ومعاشرة النساء)، ينحدر من احدى العائلات الخمس الكبرى في زغرتا، وهذا بتأييد من شمعون تقدم على الرؤساء الآخرين الأقل نشاطاً، من أبناء العائلات الرئيسية. وطالما كان شمعون يثير مؤكداً، ولا يزال إلى يومنا هذا، ان آل فرنجية وآل الدويهي كانا يتعاركان دائماً بالأيدي وبالسلاح. (وهذا شيء لم يذكره أبداً الأب الدويهي) عندما يشار إلى الحادثة التالية.

الحادثة حصلت أثناء جنّاز لأحد أنصار آل فرنجية في كنيسة بالقرب من بلدة مزيارة حاول آل الدويهي الاشتراك فيها وقد أصرّ آل فرنجية أن آل الدويهي، لم يكن لهم ما يعنيهم هناك، مع العلم أن مثل هذه المناسبات هي من الثوابت التقليدية في حياة النواب المنتخبين، وهذا لا يختلف عليه اثنان. بدأ اطلاق النار فور وصول سليمان فرنجية ورجاله بإثارة خلاف مع آل الدويهي، كان عدد آل الدويهي في الخارج أكثر من آل فرنجية، أما في داخل الكنيسة فآل فرنجية كانوا أكثر عدداً، ولما قام آل الدويهي بالهجوم إلى الكنيسة، فوجئوا بأنهم في مكان مظلم، لأن الداخل من النور يفاجأ بمثل ذلك، وهذا أعطى آل فرنجية الأفضلية في القتال، وقد قال بعض الشهود العيان أن كلاً من سليمان فرنجية، والأب الدويهي أطلقا النار (إذ ليس هنالك من يجادل أن كليهما مسلحان بالمسدسات، ولكن ابنة سليمان الكبرى، صونيا الراسي، تنكر أن أباها أطلق النار، وتؤكد أنه كان يدير المعركة من وراء عمود، يحرسه فريق من رجاله وهم يقولون: «إذا حدث له شيء ضعنا كلنا، أما إذا أصيب أحد منا فلا يهم»، هذه الكلمات تقول صونيا، انها سمعتها، سمعت واحداً من الرجال يقولها، على كل حال، فآل فرنجية ربحوا هذا اليوم، وتصرّح صونيا بأن الأب الدويهي قبض عليه بثوبه الكنسي، وجرّد من سلاحه، وكان سيقتل لو لم يبادر سليمان صارخاً بالذي قبض عليه «انتبه انه بثوبه الديني». بلغ عدد القتلى في ذلك اليوم أكثر من عشرين قتيلاً، أكثرهم من أتباع آل الدويهي وبعضهم من آل فرنجية وعدد من الأبرياء المؤمنين، بينهم النساء والأولاد، وقد سمع حميد فرنجية وهو بالقرب من

مزيارة اطلاق النار، فعاد أدراجه إلى طرابلس التي كان قادماً منها لحضور القدّاس.

من وجهة نظر صونيا الراسي وكل الزغرتاويين، ان وراء كل هذا، يد كميل شمعون وقد ثبت ذلك باصداره ستاً وأربعين مذكرة توقيف فوري، بحق سليمان فرنجية وأعوانه (بينهم شاب كان متغيباً في دير بعيد منذ أكثر من شهر حيث كان يدرس اللاهوت)، وهكذا هرب سليمان فرنجية عبر حدود شمال لبنان إلى سوريا، حيث خصصت لهم الحكومة السورية على نفقتها، فندقاً يقع على الشاطىء في مرفأ اللاذقية للإقامة فيه.

....

بعد حادثة مزيارة بأشهر قليلة أصيب حميد فرنجية بانهيار عصبي فكانت نهاية حياته السياسية، وهنا بدأت حياة سليمان بشوق واندفاع، كان قد صدر عفو عنه بعد حادثة مزيارة فعاد إلى زغرتا، حيث استقبل بحفاوة بالغة إن لم نقل مضاعفة كزعيم، فالمؤهلات المطلوبة التي تعطي الزعيم شهرة، هي في أن يقتل أو يأمر أتباعه بأن يقتلوا وهو في مزيارة قام بالأمرين معاً، قتل، وأمر بالقتل، وعلى هذا، كان تقييمه كزعيم كفؤ فانتخب فيما بعد نائباً في البرلمان، خلفاً لأخيه ثم كان وزيراً غير متألق في أكثر من حكومة.

وفجأة وقبل أن تجرى انتخابات الرئاسة سنة ١٩٧٠ ألقيت الأضواء مجدداً عليه من قبل مجموعة لم تكن منتظرة من سماسرة السياسة للتغلب على رغبة العهد القائم، لاختيار الياس سركيس، إذ كان سبق للحكومة في مدى عهدين، أي اثني عشر عاماً، ان كانت تبحث عمن يمكن أن يحجم التقليديين، لتضع بذلك حداً لهم، فعثرت في اللحظات الأخيرة على مرشح معجزة، وتحققت الخدعة في مكتب غسان تويني محرّر النهار، أكثر الصحف شهرة في العالم العربي، ومن هناك من الطابق الثاني عشر صدرت الخطة وعرضت على اده، والجميّل وشمعون وجنبلاط وسلام وعائلات سياسية أخرى كانت في الواجهة منذ استقلال لبنان، وقد أقسم سليمان فرنجية على الحفاظ على المراكز السامية لهذه العائلات، والقضاء على سلطة المكتب الثاني، الذي كان ممسكاً بخيوط السلطة لمدة اثني عشر عاماً، ويقاوم نفوذ الفلسطينيين المتنامي، ويفرض النظام والقانون، في مجتمع تشمله الفوضى المتفاقمة، وعلى هذا الأساس نودي به مرشحاً مثالياً، بوصفه زعيماً شمالياً وابن عائلة لها مقام الزعامة، وابنٌ للجبل، يتمتع بالرصانة، كل هذه كانت إثباتاً لمؤهلاته. وكل هذه

البيانات كانت تسندها قوة من رجال فرنجية المسلحين يتراوح عددها بين أربعة آلاف من أبناء الشمال نزلوا إلى بيروت في ١٧ آب، ليضمنوا أن البرلمان اللبناني، المؤلف من تسعة وتسعين عضواً، سيحقق المطلوب منه تجاه مرشحهم، كما أن واحداً من ضباط الدرك ينتمي لآل فرنجية أدخل خلسة خمسة من المسلحين الزغرتاويين إلى قاعة البرلمان رغم ان حرس رئيس المجلس صبري حماده كانوا يشعرون بعدم الارتياح لوجودهم.

في الاقتراعين الأولين لم ينل أي من المرشحين الأكثرية المطلوبة. وهنا بدأت عملية الاقتراع الثالث، كان كل نائب يدلي بكلمة السر قبل إسقاط ورقته في الصندوق، وهكذا كان يعرف لصالح من أسقط هذا الصوت، وعند فرز الأصوات، نال فرنجية خمسين صوتاً، ونال سركيس تسعة وأربعين صوتاً، هنا أعلن رئيس المجلس الذي كان يفضل سركيس ان النظام يقضي باقتراع رابع، على اعتبار أن أياً من المرشحين لم يحصل على الأغلبية المطلوبة التي قرر انها واحداً وخمسين صوتاً. ولكن أتباع فرنجية في الخارج وقد ذكرنا عددهم سابقاً، اعتبروا مرشحهم فائزاً، وفي المجلس هجم فرنجية على الرئيس صبري حماده حاملاً مسدسه وصاح به قائلاً: «لا تلعبها معي» وفي هذه اللحظة كان أولاد حماده يتعاركون مع الأب الدويهي (فالدويهي كان في هذا الوقت قد نسي خصومته السابقة مع فرنجية وأصبح من مؤيديه) كما أن حرس حماده اندفعوا ببنادقهم لحمايته وأصابعهم على الزناد، ولكن رجال فرنجية سارعوا لتصويب مسدساتهم على رجال حماده، هنا انسحب حماده إلى مكتبه واتصل تلفونياً بالرئيس شارل الحلو طالباً النصيحة، فردّ عليه الرئيس حلو، (ان معلوماتي تخوّلني أن أقول لك أنك إن أصريت على عنادك فلن يبقى أحياء في قاعة البرلمان، فاعمل ما يجب عمله لإنقاذ البلاد من الدمار).

وهكذا لم يعد هنالك لزوم لاقتراع رابع، وأعلن فوز سليمان فرنجية. هكذا استمرت حياة الميثاق الوطني الذي أقر سنة ١٩٤٣ خمس سنوات أخرى، ان بعض اللبنانيين من مسيحيين ومن مسلمين على الأخص، شعروا انه قبل وخلال حرب ١٩٧٥ - ١٩٧٦ عمل سليمان فرنجية بقصر نظره وتحيّزه، على إظهار فشل حكمه، والآخرون ينحون باللائمة على أولئك الذين قرروا ضرورة انتخابه في البداية، ولكن مصرع طوني فرنجية سنة ١٩٧٨ أعاد سليمان فرنجية ابن العائلة إلى مركز القيادة لدى الرأي العام.

ولأول مرة في حياة القائد البالغ من العمر ثمانية وستين عاماً تظهر علامات التأثر على

وجهه وهو يرى ولده المسجى، فتنهمر الدموع من عينيه بينما كان يضع رأسه بين يديه مطرقاً، وهو جالس على كرسي كبير، وبعد مضي أقل من شهر على أثر نوبة قلبية دخل بتأثيرها المستشفى، كان هذا الرجل الخفيف الشعر الشاحب اللون وهو الرئيس السابق، يستقبل ضيوفه من ذوي المكانة، وقد جاءوا لتعزيته. كانت شوارع زغرتا غاصّة بعشرات الآلاف من الشماليين في يوم حار شمسه محرقة، وكانت الاعلام السوداء ترفرف فوق كل بناء ومكان مرتفع، وصور طوني وزوجته وابنته تغطي الحيطان في شوارع بلدة زغرتا، أما سليمان وعائلته فكانوا يلبسون الثياب البيضاء لأن التقاليد في زغرتا لا تسمح بلبس ثوب الحداد الأسود إلا بعد الأخذ بالثأر.

ترأس القدّاس البطريرك الماروني انطونيوس بطرس خريش، وكان يحضره ممثل البابا والسفير الفرنسي وشقيق الرئيس السوري الأسد، وعدد من وجهاء الكاثوليك والارثوذكس وقائد الجيش فيكتور خوري والأب شربل قسيس رئيس الرهبانية المارونية وغيرهم من الوجهاء، وإلى جانب سليمان كان حفيده يلبس ككل الصبيان والبنات الزغرتاويين قميصاً قصير الأكمام على صدره صورة رأسية لطوني، بينما كانت النساء في الكنيسة التي عمرها خمسماية سنة والمعروفة بكنيسة العذراء، أحل في هذه الكنيسة وخارجها وفي ممراتها، كان النساء يولولن (ومن مميزات البناء في هذه الكنيسة ان كانت مداخلها الضيقة مبنية بشكل يمنع دخول أي فارس مسلم على ظهر فرسه) في هذه المناسبة سمح بالعودة لسمير فرنجية الابن الأصغر لحميد فرنجية والذي كان يلقب في العائلة بالكبش الأسود، لانتمائه إلى الجناح اليساري ومعارضته للمسيحية المارونية، وذلك بعد نفيه إلى بيروت الغربية لمدة ثلاث سنوات، ومما قاله سمير: «انهم أعادوني وقبلوني بينهم بعد ثلاثة أسابيع، لأنني طالما قد نبهت سليمان إلى أن الكتائبيين أولاد زنى، والآن قد ظهر له صدق قولي».

لزم سليمان فرنجية الصمت بخصوص الثأر، فلا هو قال شيئاً عند الدفن ولا طوال ذلك الأسبوع، الذي كان يستقبل فيه المعزين، ولكن الجريدة، لوريان لوجور، التي تصدر باللغة الفرنسية كتبت انه استناداً إلى المعروف من التقاليد الشرقية، فالمأساة لن تنتهي بانتهاء عملية الدفن. في ذلك اليوم الشديد الحرارة وعند نهاية الاسبوع كان سليمان قد استدعى جميع القساوسة الموارنة وأخبرهم بأن يعمموا على كل مراكزهم «أبرشياتهم»

انه على الكتائبيين من أبناء الشمال أن يسلموا بطاقاتهم الحزبية وأسلحتهم ويقدموا تصريحات باستقالاتهم إلى مراكز معينة، محدداً أن عليهم مغادرة المنطقة في نهاية الشهر أو يكونوا على استعداد لتحمل معاملات قاسية. فتدفقت جماهير الكتائبيين معلنين الطاعة، أما المسؤولين الرسميين في مختلف القرى الشمالية، فقد التمسوا اعتبارهم حياديين، وقد تأزمت الحال إلى أن اضطر عميد الجامعة اللبنانية الرسمية، لأن يجيز للتلاميذ من الشمال تأدية امتحاناتهم في طرابلس، عوضاً عن الاضطرار لاجتياز المنطقة الكتائبية إلى بيروت، وكذلك فان الزغرتاويين الذين يعيشون في مناطق كتائبية هربوا إلى بيروت الغربية، أو إلى بيوتهم، التي كانت لا تزال تحت نفوذ الفلسطينيين والسوريين، أما أبناء الشمال المعارضون لسياسة فرنجية فقد نزحوا جنوباً حيث كان أبناؤهم منضمين لميليشيات بشير.

أصيب الكتائبيون بصدمة، بكون آل فرنجية لجأوا إلى الكنيسة لإذاعة انذاراتهم، وأعلنوا بمرارة ان مثل هذا التصرف هو طابع دكتاتوري في الشمال الاقطاعي طالما استعمل للاستيلاء على كل شيء من الخروف حتى العذارى، وكانتقام لاذع فان العائلات الخمس الزغرتاوية وقعوا عريضة طويلة، يتهمون فيها الكتائب بأنها تحاول القضاء على أية نهضة مسيحية، توصلاً إلى تقسيم لبنان لمنطقتين، اسلامية ومسيحية، ثم تعمل لتؤمن للفلسطينيين المكروهين إقامة دائمة في لبنان، وفي الوقت ذاته وجه إليهم بأنهم يحكمون بالرعب والرشوة والأفكار المستوردة، وفي هذا إشارة إلى العلاقات مع اسرائيل. وإلى انهم فرضوا ضرائب على أمهات استشهد أبناؤهن، ونساء ترملن في هذه الحرب الأهلية. وإلى عمليات الابتزاز وإلى اختطاف أغنياء المسيحيين، بقصد الحصول على فدية قبل اطلاق صراح الرهينة. وتتساءل هذه العريضة فيما إذا كان آل الجميّل يهدفون لأن يصبحوا حكّاماً على المقابر، يحكمون الأموات، وآل فرنجية كانوا يرفضون أية مصالحة يحاول اجراءها ممثلون من الفاتيكان بهذه العبارة: (لا نستطيع أن نصافح الأيدي الملطخة بدماء الأبرياء).

وكذلك فقد وجد شمعون نفسه في وسط المستنقع، فخلافاً لما كان يتمتع به آل فرنجية في الشمال أو الكتائب إلى الجنوب منهم فان الوطنيين الأحرار وميليشيات النمور لم يكن لهم موقع جغرافي أو مكان يركنون إليه، وشمعون فيما استمد نفوذه باللعب على الحبلين بين الفئتين المتخاصمتين آل الجميّل وآل فرنجية لم يبادر للتوجه لتقديم التعازي لآل فرنجية في زغرتا إلا بعد مرور خمسة أيام، وفي لقائه مع فرنجية لمدة سبعين دقيقة كانت عيناه

مغرورقتين بالدموع ، معتذراً عن تأخره حتى هذا الوقت لأسباب قاهرة ومظهراً استياءه لمثل هذه الأعمال التي لا تتفق مع تقاليدنا ، كما قال ، فان قتل النساء والأولاد يخالف القيم الاخلاقية التي قام عليها لبنان. ومثل هذه العبارات من التأسف والاستياء قوبلت بما يناسب من التأثر العاطفي. بيد أنه من المؤكد أن آل الجميّل كأي انسان في لبنان يعرفون أن نمور كميل شمعون لم يعفّوا عن النساء والأطفال، عندما اجتاحوا مخيم تل الزعتر في آب ١٩٧٦ ، بينما الزغرتاويون، يفاخرون بالتمسك بالقيم في حروبهم، فلا تشويه للقتلى ولا اغتصاب للنساء ولا ذبح للأبرياء (سوى في حادثة واحدة) والشماليون يفاخرون منذ القدم بهذه الخلقية الحربية، ويشيرون لأن مثل هذه الممارسات لدى المسيحيين في جنوبهم اشارة إلى الخوف وفقدان الشخصية وعدم الاطمئنان لاستمرارية بقائهم في قراهم الموروثة عن الأجداد ، من أجل ذلك فهم أيضاً يتمسكون ويفاخرون بالانتماء إلى كل ما هو غربي.

وردّ سليمان فرنجية على شمعون قائلاً : « الله كبير ويحكم بالعدل فلو أن ما حدث كان تضحية من أجل لبنان لكنا قابلناه بالرضى ».

ولكن إيزيس زوجة سليمان (أم طوني) كانت أكثر خشونة من زوجها عندما وجهت كلامها إلى شمعون قائلة: « كن شديد الحرص على أولادك حفظهم الله لك سالمين ».

في الذكرى السنوية الأولى لمقتل طوني، نجا الشيخ بيار بأعجوبة وبجروح طفيفة من محاولة اغتيال استهدفت القضاء على حياته. فان سيارة ملغمة بأربعة وأربعين رطل من الديناميت فجّرت بجهاز لاسلكي على الطريق من بيروت إلى الجبل، وذلك لحظة مرور سيارة الكتائب البويك البيضاء ، اثنان من حرسه قتلا ؛ وفي ذلك اليوم نفسه كان الأب يوسف يمين يقيم قدّاساً في زغرتا، ويردّد عبارة آل فرنجية: « كل أولئك الذين انتهكوا حرمة اهدن سيقتلون، على الأخص أولئك الذين ينتمون إلى آل الجميّل هم وأبناؤهم، جيلاً بعد جيل، حتى لا يبقى منهم رجل أو امرأة.

وفي ٢٣ شباط سنة ١٩٨٠ فجرت سيارة مفخخة بستة وستين رطلاً من ديناميت شديد الانفجار، عندما كانت سيارة مرسيدس ٤٥٠ خضراء اللون يملكها بشير الجميّل تمر بالقرب من وزارة الخارجية شرقي بيروت، قتلت بهذا الانفجار ابنة بشير « مايا » وهي كانت قد ولدت عشية مذبحة اهدن، كما قتل السائق واثنان من الحرس وأربعة

غيرهم. كان هؤلاء الرجال يرافقون «مايا» إلى منزل جديها بسيارة بشير، والقتلة اعتقدوا أن بشيراً كان في السيارة. وقد شوهد السائق ميتاً وهو يحتضن الطفلة بيديه.

أما بشير فبدا هادئاً. فمن المؤكد أن بقاء الحزب هو المفضل على شخصه وأفراد عائلته. غير أن احتياطات شديدة كانت تؤخذ فيا بعد، لحمايته وحماية أبيه وأخيه، إذ زودت سياراتهم بتلفونات لاسلكية، وكانوا يتبادلونها للتمويه، بيد أن بشيراً لم يكن يرغب بأن يكون له حرس في سيارات مرافقة لحمايته.

وعندما التقيت سليمان فرنجية سنة ١٩٨٠ كان اجتماعنا في غرفة جلوس يستعملها فرنجية وقد لاحظت ان جدران هذه الغرفة كانت مغطاة بالخناجر والسيوف والبنادق الأثرية المرصّعة باللؤلؤ. فالتفت إلى فرنجية وسألته عما إذا كان مقتل «مايا» يعني نهاية للثأر. هنا قالت لمياء: «كل ما كان باستطاعتنا زرع الرعب في قلوبهم، كان ذلك من الأفضل لنا». ثم أنها بعملية تمثيلية وضعت يديها على ركبتيها وقالت: «إذا كان بشير هو الأول فسيعقبه أمين ثم بيار، وإذا كان أمين هو الأول فسيعقبه بيار ثم بشير، وإذا كان بيار هو الأول». وهنا قطعت كلامها قليلاً ورفعت يديها عن ركبتيها وقالت: «عندما كنت في المدرسة تعلمت انه إذا كان لديك ثلاثة متغيرات فيمكنك أن تحصل على تسعة مركبات». ولكني بعد أشهر دهشت عندما ذكرني صديق بقول لمياء مؤكداً لي انه صحّح لها الخطأ الحسابي بأنه إذا كان لديها ثلاثة متغيرات فلن تحصل على أكثر من ستة مركبات.

والرهبان أيضاً خطّأوا لمياء الدحداح وصونيا الراسي وشقيقهم الأصغر روبير الوريث المنتظر. بأنهم يتكلمون كثيراً، وقد علّق على هذا الكلام أحد المفكرين الزغرتاويين بقوله: «بالتأكيد انهم رجال أشداء وكذلك النساء، وهذه مميزات مرموقة، غير أنه ليس من المستحسن ان نظهر سرورنا بموت ابنة بشير»، كان سليمان من هذا الرأي ولم يظهر عليه أي تأثّر، وكذلك لم يتفوه بأية كلمة (إن كنت زعيماً حقيقة فأنت الذي تستطيع إبداء السرور حتى في حالة الحزن ولا يجوز لك أن تظهر الأسى) مضت السنوات وإيزيس فرنجية تداوم على زيارة الكنيسة يوماً بعد يوم لتتلو الصلوات على تابوت طوني وتابوتي زوجته وابنته، فهي لا تزال في كنيسة بنيت خصيصاً لهم، لقد كان أول ما تفوّهت به إيزيس عند سماعها بالمذبحة قولها: «انها بداية حرب المئة سنة» وعند وداعي للمياء سألتها

أين وصلت هذه المسرحية مع آل الجميّل؟ فأجابت: «انه المشهد الأول من الفصل الأول»، أما سليمان فأخذ وقته متحيناً الفرص الملائمة، ....

.... بدأ بتنفيذ عمليات الانتقام، فأحصيت عمليات قتل لثلاثماية واثنين وأربعين من الكتائبيين وأتباعهم وعائلاتهم (الواحد من ضحايا اهدن مقابل أكثر من عشرة) فمما يذكره كميل شمعون في مذكراته قوله، «ان قطع الرقاب لنشر الرعب هو عادة متأصلة في الشرق الأوسط». ....

إن عملية اهدن، بقيت وصمة عار على جبين بشير، أسف لها أعوانه، واستنكرها مؤيدوه، وهكذا تضاءلت نجاحاته ذلك الصيف والخريف الذي تبعه، وكما شمعون، كان هو يكره السوريين وكان يأمل أن تكون المساعدة الاسرائيلية عوناً له لطردهم من لبنان. غير أن هذا العون لم يمتد، وبالرغم من موافقة الأميركان والفرنسيين له، فقد استطاع السوريون أن يلقنوا شمعون وبشيرا، درساً بقصفهم بيروت الشرقية، ولكن خلافاً للدعاية المسيحية بدون وقوع ضحايا، فشرقي بيروت كان بغالبيته خالياً من السكان، ولم يكن قد بقي فيه سوى شمعون، بتصميمه على حفظ شرف الكلمة متحملاً عنف قصف البيت الذي كان يقطنه.

أما في داخل حزب الكتائب، فقد أسند إلى شقيق بشير بسلطات وصلاحيات كثيرة تحت عنوان المنسّق، لكونه لم يكن مصبوغاً بما يشير إلى علاقة باسرائيل، وكان مهيأ للتفاوض مع الفلسطينيين والسوريين، وناجحاً في اعلانه أن بشيراً كان متحمساً وخطراً، ولكونه عرف بالشجاعة (ربما كان هو أكثر شجاعة من بشير) فقد كان يحمل جرحين في جسده ليبرهن ذلك، وكان أنيقاً، مدني المظهر، نائباً في البرلمان، وعضواً في المكتب السياسي الكتائبي، لذلك ظهر لأول مرة في سنة ١٩٧٥ بمركز محاذ لشقيقه ومؤهل لاتخاذ الأولوية. ولكن في خلال ستة شهور، عاد بشير إلى الظهور، ساعده على ذلك عدم قدرة أمين، على أخذ القرار، والتصلب، الذي جعل الحزب يلقبه بالسيد العنيد، وكان أمين يحتفظ بسلطة على ميليشيات خاصة به في منطقة المتن، وكانت له مشاريعه التجارية الرابحة بدءاً من تعاونية تموينية، إلى شركة تأمين للخدمات العامة يستخدم فيها أفراد الميليشيات المتقاعدين كحرّاس، ويجني أرباحاً طائلة، ومنتقدوه لم يفرقوا بين مؤسسته لتقديم الخدمات العاجلة، وقيامه بفرض ضرائب الخوية (بلطجة) التي لم يسلم منها أحد.

وبمثل هذا. خسر أمين مكانته. فوالده كان سبق له أن أعلن اختياره، وككتائبي يعرف الأخوين معرفة صحيحة قال: «السباق انتهى ولكن النتائج لم تظهر بعد».

أخذ بشير يبتعد تدريجياً بقيادته السياسية، وبدأ علاقة عملية مع السوريين ليجعل منها علاقات متوازنة مع علاقاته مع اسرائيل. حتى أنه وجد نفسه في وقت ما في مركز من ينتظر أن تتيح له أحوال الشرق الأوسط المتفجرة، فرصة الانقضاض. فأمام ما يحتمل من سلام مترجرج مع جيرانه. تحوّل بشير إلى الاهتمام «بمارونستان» (المنطقة المارونية) وكان شغله الشاغل السياسة اللبنانية. تلك السياسة التي قد لا يكون لها ما يعنيها في الدولة غير الواضحة المعالم. إلا على الأقل بقدر ما يتاح له أن يمارس سلطانه على جماعته.

ولكون بشير كان ينظر إلى سركيس بازدراء، فقد جعل من القوات اللبنانية قوة تستولي على الدولة اللبنانية. كان الشيخ بيار في أيام سابقة يصرّح دائماً بقوله: «ان قوتنا في ضعفنا». وكان يعني بذلك أن سلامة لبنان هي بكونه أقل قوة من جيرانه، إذ لن يكون له ما يخيفهم به. وهو يعني هنا اسرائيل، ولذا فلن يعتدوا عليه، وفي هذا الوقت من الفلتان ظهرت على شاطىء البحر المتوسط، الموانيء الخاصة، كانت صخوراً ناتئة على الشاطىء يمكن ربط الزوارق بها. وكذلك استولت القوات اللبنانية على الحوض الخامس في مرفأ بيروت الرسمي. حيث يمكن للسفن الكبيرة أن ترسو وتفرّغ حمولتها، هذا الحوض كان مورداً من موارد الدولة كرسوم جمركية على الوسكي، وأجهزة التلفزيون الملوّن، والمواد الغذائية المشحونة إلى لبنان. والتجار المسلمون كانوا يفضلون استعمال مرافىء التهريب هذه. على المرافىء الحكومية، أو التعاطي مع أي جون غير شرعي في القطاع الفلسطيني. أو في القطاع السوري. التي لم تكن موضع ثقل، وهكذا عندما حُرمت الدولة من الرسوم الجمركية (وهي أكبر مواردها) وجدت نفسها مضطرة لتخفيض الرسوم على السكاير والمشروبات الروحية لتسلم من المضاربة.

أما الأسمنت الذي هو من انتاج شكا، فقد وضع آل فرنجية ضريبة عليه. فهم كانوا أسياد ذلك الموقع. وفي الوقت نفسه وضعت القوات اللبنانية، ضريبة ثانية عليه في محطة البربارة. وفي داخل مارونستان. وضعت القوات اللبنانية ضرائب اضافية على البنزين، وعلى المطاعم. وعلى الملاهي الليلية. وعلى نوادي القمار، غير الشرعية، وعلى الأملاك، وفرضوا ضريبة إسكان بالنسبة لحجم المسكن. وعندما زادت قوتهم امتدت تدابيرهم

لتشمل جميع سكان مارونستان، وخلال سنتي ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ تعرضت الجالية الأرمنية المؤلفة من طبقة عاملة متحدّرة من الناجين من مذابح تركيا، إلى هجوم قامت به ميليشيات الكتائب، وميليشيات شمعون، ان الأرمن كانوا سياسياً متحالفين مع الكتائب ولكنهم كانوا قد تعلموا درساً قاسياً في ١٩٥٨ عندما اشتركوا في الحرب الأهلية إلى جانب المسيحيين وخسروا بالرجال والماديات، لذلك فانهم هذه المرة بقوا على الحياد لذا كانوا متهمين باتخاذ جانب الحياد الكلي، ومما أثار حفيظة قادة المسيحيين وغضبهم زيادة، هو أن الأرمن يرفضون دفع الضرائب للميليشيات، أما الأرمن الذين كان البحر من ورائهم، وكانوا محاطين بمناطق الميليشيات فقد صمدوا وناضلوا وأحسنوا الكر والفر، انهم في النهاية تمكنوا من التهرب من دفع الضرائب للميليشيات ولكن ليس دون أن يكلفهم هذا الصمود العشرات من الضحايا.

بلغ دخل القوات اللبنانية باعتراف لجنتهم المالية، مئة مليون دولار في السنة، بينما بعض اصحاب البنوك الخاصة، يقدرون بأن الرقم يصل الى ثلاثة اضعاف ما ذكرنا. كان المال يستخدم لدفع رواتب عناصر الميليشيات، البالغ عددهم كما هو مذكور في التقديرات، الفي رجلا، ولتغطية اللوازم الحربية، لأن اسرائيل وغيرها كانت تطلب أن يكون الدفع نقداً، وفي مقابل ذلك كانت القوات اللبنانية توسع مشاريع الخدمات الاجتماعية الكتائبية، بتحديد اسعار الادوية، وتسيير خطوط نقل رخيصة، للذين لا يملكون سيارات خاصة بهم، وتأمين مواقف عامة لهذه السيارات (لغاية اخرى أيضاً وهي الحؤول دون التعرض الى اخطار التفجير) وكان كلما وقع تفجير تسارع القوات اللبنانية لرفع الزجاج المحطم، وهياكل السيارات المحروقة، والتأكد من نقل القتلى والجرحى الى المستشفيات، فبشير الجميلّ كان يرمي من وراء ذلك الى ايهام الرأي العام انه هو المسؤول. أما في بيروت الغربية فلم يظهر الزعماء مثل هذا الاهتمام، وعلى كل حال، فالناس في شطري بيروت كانوا يقللون من الخروج الى الشوارع لمدة عشرة ايام تقريبا بعد كل انفجار.

ولكن من المعروف ان بشيرا لم يكن من الممكن أن يأخذ هذه الحيطة عندما يكون لديه عمل ما. وفي يوم من الايام فوجيء شارل رزق، مدير التلفزيون اللبناني بعنصرين، في سن المراهقة، يلقون القبض عليه وذلك في صباح احد ايام صيف سنة ١٩٨٠،

ويقذفون به الى صندوق السيارة الخلفي، حيث طرح ووجهه الى تحت، ثم داسا على رقبته بحذائيهما ليبقياه هكذا. ثم قاداه الى المرفأ حيث وضعاه في مستودع لا يدخله الهواء، وتسكنه الفئران. حيث مضي عليه هكذا نصف ساعة قبل أن ظهر أمامه بقرادوني وبشير، وهما يظهران الدهشة لوجوده في مثل هذا الوضع المزعج، ثم عرضا عليه مطالبهما، كان المطلوب تأمين قنال تلفزيوني جديد، تمكنهما من ايصال رسائلهما السياسية الى الرأي العام ولتكون موردا لدخل جديد من الاعلانات التي تظهر فيها، كان رزق قد رفض سابقا الاستسلام لهذه المطالب، كما وانه كان يمتنع عن الرد على المكالمات التلفونية، التي قالوا أنها كانت السبب فيما حصل، ثم كان ان سمح له، بعد أن تبلغ المطلوب منه بالخروج. وقد اخذ رزق طريقه مباشرة الى الرئيس سركيس، وقدم له استقالته، ولكن سركيس لم يجرؤ على وضع الكرة في ملعبه، بل اشار الى أن موظفي الدولة يتعرضون دائماً للأخطار، لم يقل شيئاً آخر وهكذا اعطى رزق نفسه فرصة طويلة، وغادر الى اوروبا. لم يبدأ بشير ابدا بتشغيل محطة تلفزة مماثلة ولكنه اكتفى بأن حصل على نفوذ في القنال التابعة للدولة، وعندما عاد رزق بعد اربعة شهور وجد ان رواتبه لم تقطع خلال تغيبه الطويل، لأن الرواتب لم تكن لتقطع عن الموظفين المدنيين إلا إذا كانوا غير مرضيّ عنهم من الكتائب.

ومع مرور السنين بدأ الخصام مع شمعون ومليشيات النمور. (ولو أن مثل هذه التصادمات بين الكتائب والنمور، يرجع تاريخها الى شباط سنة ١٩٧٦، وطوال الحرب الاهلية، فأن المسيحيين تستروا دائما على منازعاتهم، أكثر مما كان يفعل المسلمون والدروز في غربي بيروت حيث تتالت خلافاتهم وتفجيراتهم، فكانت جزءا من الحياة هناك، أما النزاعات المسيحية الوقتية فقد كانت توصف بأنها اعمال عاطفية ولا علاقة بشمعون أو الجميّل بها، ولا يتحملان أية مسؤولية لما ينتج عنها من أعمال عنف). واخيرا وفي يوم الاثنين الواقع فيه السابع من تموز سنة ١٩٨٠ هاجمت القوات اللبنانية التابعة لبشير، ثكنات شمعون وموانئه ومكاتبه ومعاقله الاخرى. كان بشير وضباطه قد قرروا موعدا لبدء الهجوم عند انبثاق الفجر الساعة الرابعة صباحاً غير أنه بسبب ما واجهوه من احراج في اهدن في الماضي فقد قرروا الامتناع عن استخدام عنصر الاثارة في المباغته، وفضلوا ان يكون الموعد عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً، اذ في هذا الوقت يكون قائد مليشيات النمور داني شمعون، قد غادر منزله على شاطىء البحر في صفرا مارين، ليذهب

الى عمله في مشروع الاصطياف في الجبل، استمر الاقتتال كل ذلك اليوم حتى دخول الظلام، كنت في طريقي آنذاك ولكني اوقفت عند حاجز البربارة، والمكان الذي هو المدخل الى المقاطعة الكتائبية، واستمر حجزي هناك حتى الساعة العاشرة بعد الظهر، وفي هذا المكان كانت جميع السيارات القادمة من المناطق التي يشرف عليها السوريون في الشمال، تفتش من قبل رجال بشير، وكان سائقوا الشاحنات يدفعون رسوما لمشحوناتهم، وكانت اصوات المدافع الهادرة وأزيز الرصاص المستمر مسموعة بوضوح، بينما كانت ثكنات شمعون في عمشيت تصفى، وتدمر وبالرغم من الاحتياطات التي أتخذها الكتائبيون، فإن ذلك اليوم الطويل من القتال، كانت له ويلاته. ان ما قصد به بالتأخير في البدء بالعملية، انقاذا لداني، تسبب بقتل عدد من المدنيين الابرياء الذين كانوا حول المكان، بعد أن خرجوا من بيوتهم في الصباح. كان المهاجمون مشحونين بالمخدرات، وقد قال شاهد عيان هذا، وهو يراهم بالقرب من شاطيء المارين ومجمع الفنادق، وفي احدى المنتجعات، اوقفت القوات اللبنانية كل الرافعات، وحتى المصاعد توقفت ليمنعوا الهرب، وفي الوقت نفسه تسلقوا سلالم البيوت، وكانوا يطلقون النار على كل من يشاهدونه، وكانوا يقذفون الناس من نوافذ الطوابق العليا، وتطلق عليهم النار قبل بلوغهم الارض. واحد من السكان في ذلك المكان اغتنم فرصة يوم عطلة، وراح يسبح في المسبح الاولمبي القريب من المارين، واطلقت عليه النار، وتفجرت دماؤه صابغة المياه بلونها الاحمر، في ذلك المسبح المعد للرياضة البريئة، ولم يسمح لعائلته برفع الجسد، الا بعد يومين، وهذا كان نصيب العديد من النساء والاطفال الذين لقوا حتفهم بهذه الطريقة.

ومما قاله داني شمعون، «أن بشيراً قتل خمسمئة من الناس أغلبهم من المدنيين الابرياء الذين كانوا متواجدين في ذلك المكان» غير أن القوات اللبنانية اعترفت رسمياً بأربع وتسعين ضحية، بينهم ثمانية عشرة من محاربيهم، وخمسة مدنيين، وعدد من الباكستانيين السيئي الحظ، المستخدمين في تفريغ البضائع في مرفاء الوطنيين الاحرار، كانوا اهداف تمارين لمطلقي المدافع. وبعد شهور ذكر ضباط شمعون، بأن حصيلة القتلى كانت مئة وخمسين على الاكثر وخمسة واربعون من الباكستانيين والباقون من المليشيات في اعداد متساوية.

مبدئيا ظهرت المجموعة المسيحية غير مستريحة لما جرى من سفك دماء، ولكن بعد

اسبوع جرت عملية اللفلفة اللازمة لتغطية هذه المقامرة بأساليب بارعة من الدعاية، فقد اتُهم النمور بكل اعمال التجاوزات بدءا بتسهيل عمليات المقامرة غير القانونية في الدهاليز الى تهريب الحشيشة من المرافيء الخمس (القوات اللبنانية كانت دائما تنكرانها سمحت بعد ذلك بأية عملية لنقل الحشيشة الى الخارج)

.... كان لا يمكن نقله الا عبر جبال لبنان، وعبر قرية مسيحية مؤيدة للكتائب تدعى دير الاحمر، ثم بعد ذلك عبر جزء كبير من المنطقة التي هي لفرنجية وبعدها يتم اخراجه من مرفاء طرابلس .... ، هذا في الاساس كان الخط الرئيسي للكتائب، ولكن ناقدي بشير يظهرون شكوكهم، دون تقديم أية براهين، بأن القوات اللبنانية كانت ترفض منع تصدير ما هو مورد كبير للبنان، وبما ان سلطة الحكومة كانت غير موجودة لعدد من السنين فان المساحات التي كانت زراعة الحشيش محصورة فيها وهي المكان المعروف بالهرمل في القسم الشمالي من البقاع قد اتسعت لتمتد الى الجنوب، وفي سنة ١٩٨٠ وصلت الى طريق بيروت الشام حيث حلت زراعتها محل المنتوجات الأقل ربحا، مثل القمح، والبطاطا، ان هذه الزراعة تساوي ملايين الدولارات لدى شبكة التهريب اللبنانية، التي تسرب هذا المحصول في شكله النهائي الى مصر التي تعتبر اكبر سوق تقليدية له. وأيضا الى افريقيا السوداء وأوروبا والولايات المتحدة الامريكية. حيث تعتبر حشيشة البقاع البيضاء أحسن ما في العالم. واكثر زراعيها من فقراء الشيعة المسلمين الذين مارسوها مغتنمين فرصة بدء الانشاءات الجديدة والمخازن الحديثة التي كانت مملوءة بهذه البضاعة الثمينة في بعلبك وهي اكبر شاهد على ذلك.

بادر بشير الى اغلاق موانيء النمور الخمس اظهارا للحفاظ على الاخلاق «ولكن ليعيد فتحها بعد ثلاثة اسابيع مدعيا انها تساعد على تخفيض كلفة المعيشة في هذه الايام التي بلغ التضخم فيها اعلى مستوياته، اجرى معي احد اصدقائي من الشرقية حديثاً، مبررا المذبحة قائلاً: «أن بشيرا تخفيفا وتبريرا لهجومه على الشمعونيين يسمي عمله هذا حركة السابع من تموز التصحيحية» ....

.... ولكن صديقي ختم قوله: «لقد خسرت ثلاث شقق منذ سنة ١٩٧٥ وقد يكون في امكاني الآن أن استقر»، ان بشيراً فرض النظام في مارونستان، وهو كان

يستعرض مشهدا مما يعرض في احد مشاهد الافلام، عندما لا يتاح للمرء غير رؤية جانب واحد من الاشياء، الجانب المستحسن اذ هكذا كان الناس في شرقي بيروت قد اعتادوا على النظر الى مجتمع يفرض فيه القانون والنظام تخفيفا لما يسود المجتمع من اعتقاد بتجاوزات على الصعيد الرسمي.

كانت التلفونات سابقا مراقبة، ولكن اولئك كانوا يلجأون الى طلب الحماية من المليشيات المسيحية الاخرى، وفي هذا الوقت اصبح الناس اكثر حرصا وحذراً أما شمعون وقد جرد من قوته فإنه رمى نفسه في المجهول مع الريح، ممارساً خبرته الطويلة في استخدام الهزيمة نقطة انطلاق الى انتصار مؤمّن، فشارك في الاجتماعات منفردا أو مع مرافقية. سألته مرة لماذا لم يعتزل السياسة وينضم الى قوى معادية لبشير؟ فأجابني بقوله: «اتريدني أن اكون مثل سليمان فرنجية، .... هذا الامر الوحيد الذي كان بأمكاني فعله واذ ذاك تكون النتيجة، الف ضحية، وانا لا اريد أن يموت عن يدي حتى مئة». لقد كنت اتساءل كلما رأيته هل هذا هو اصعب اختيار لك، فيجيب مغمغما لا اهتم على الاطلاق. اما ولده المحبب لديه داني، فقد انطلق مسرعا الى الشمال لمقابلة فرنجية، مقسما على الثأر ثم سافر الى خارج البلاد متهما بشيراً بأنه ذو نزعة فاشية، ويريد أن يكون لنفسه دكتاتورية، وعندما منعت القوات اللبنانية الصحافيين من القيام بجولة الى الخنادق حيث ادّعى داني أن عددا من المدنيين كانوا قد قتلوا، علق بقوله هذا منتظر، لأنهم لم يمحوا بعد الدماء التي لطخت بها الجدران (وكان رد بشير على هذا القول هازئا ان داني في اوقات فراغه يبدو فيلسوفا كبيرا).

داني تعلم في مدارس ناطقة بالانكليزية في لبنان وفي انكلتره، وامه نصف انكليزية لجهة امها، وقد افرغ كل حقده على حليفه السابق، ومما جاهر به قوله «مع الاسرائيليين الناطقين بالانكليزية، كان بشير يعتمد عليَّ بإدارة الحديث، ثم يتسلل من ورائي ليقابل نفس الاشخاص. وعندما كان يجد نفسه امام قوي كان يبدو خجولا ضعيفا، انه امام والدي ينحني بخضوع».

ولكن بشيراً كسب كميل شمعون فيما بعد، أن ذلك استغرق شهرين اذ طلب إليه بشير بالحاح حضور المجلس العسكري للقوات اللبنانية، اثباتا لسلطته وقد قبل شمعون، بعد ذلك ومن خلال الوسطاء سُمح له بأخذ حصته من ارباح مرفأ ضبية. وهو مبلغ لا

يقل عن مليون دولار دفع ليده، وكانت قد سرت شائعات تقول، أنه عندما علم في السابع من تموز، أن ابنه كان حيا سليما اتصل ببشير وقال له: «على الرغم مما حدث لا تلغي ما بيننا من علاقات مالية» (وهي الاتفاق على اقتسام مكاسب المليشيات).

وكان بشير ملكا على مارونستان ولكنه لم يكن ملكاً على المسيحيين، لأن نصفهم ربما كانوا خارج سيطرة عائلة آل الجميل المحدوده، غير أن الشخص الوحيد الذي كان يمكن ان يحسب له حساب هو بشير، هذا ما قاله واحد من الذين لا يفيدون منه، وزاد في قوله ولكنه غدّار كما كان نابليون وتاليران، ان بشيرا هو عملاق اسطوري يصر على أن لبنان بحاجة الى دم جديد، دم الشباب. ان الشيوخ الساسة في لبنان، الاباء الذين صنعوا الاستقلال سنة ١٩٤٣، لم يكن لهم من الاعمال ما يحفظ لهم مكانتهم السياسية، وان قدرة بشير الاسطورية مكنته من كنس حتى الاجيال التي كانت في العقد الرابع والخامس من العمر، الذين عانوا من تصرفات الاباء المؤسسين، وكان يعتقد انه من حق الشباب ان يكون لهم مكانهم تحت الشمس، أن سركيس بعد الحرب الاهلية مباشرة في سنة ١٩٧٦ كان يستشير بيار وكميل شمعون وفي سنة ١٩٧٨ بشيراً وشمعون، ولكن بعد ان حقق بشير تجاوزه المزدوج لكليهما، اصبح الوحيد الذي يذهب الى قصر بعبدا، كلما اضطر سركيس ليجد له معينا في مارونستان.

لم يسبق قبل ذلك أن انحصر التمثيل الماروني برجل أو هيئة واحدة، كما وأنه لم يسبق للموارنة أن مارسوا سلطتهم على جميع الطوائف المسيحية في لبنان، وهي التي اذا اجتمعت تضاهيهم عددا. اصبحت اخطاء بشير لا تحصى، وفي القاء نظرة عامة، يبدو ان الاحداث بين السابع من تموز سنة ١٩٨٠ والاجتياح الاسرائيلي بعد أقل من سنتين، كانت كلها عبارة عن تصريحات وخطب، تجاهر بالتحرير، والعنفوان، واستعادة الامجاد المارونية، غير ان تحليلا دقيقا لهذه الفترة من الزمن، تكذب ذلك، اذ أن اللبنانيين من كل الاتجاهات كانت تعتبر هذه التصريحات غير منطقية.

وفي تشرين أول (اكتوبر) سنة ١٩٨٠ وجد بشير أنه من الضروري اخضاع الجيش اللبناني بأزالة الوحدات العسكرية التي كانت تحرس بقايا/الشمعونيين بعين الرمانة، وعمال الضاحية، وهو المكان الذي بدأت فيه أحداث سنة ١٩٧٥، وبذلك ازال البقية الباقية من ثقة المسلمين بجيش كانوا يحسبونه جزءا من الجهاز الماروني الضاغط. وبعد شهرين

حرك قـواتـه آملا بسـط نفـوذه على زحلـة ، وهـي مجمع رئيسي للـروم الكـاثـوليـك ولم تكن ولا مرة في النطاق الماروني أو الكتائبي، غير أن قوات الردع السورية، أنزلت بالقوات اللبنانية ضربة موجعة.

والمغامرتان لم تستطيعا أن تحسّنا صورة بشير ، وكلاهما مكنتاه فقط من تقوية الضغط على الغيتو المسيحي. ومناوراته العدائية أوجدت شكا وعدم ارتياح في نفوس الاحزاب الاخرى، بينما كان هو يجاهر أن مارونستان هي المكان الوحيد المحرر في لبنان، وهي حسب قوله، تحت الحصار ، وقـد فسر ذلـك احـد العلماء النفسيين منير شمعون بتأكيده ان « سياسة المقاومة » (كما كان يسمي هذه الممارسات المتلاحقة في الغيتو المسيحي، بلغة مقتبسة مما كان يقوله اولئك الاوروبيون الذين كانوا يقاومون الاحتلال النازي بتنظيماتهم السرية أثناء الحرب العالمية الثانية) اجل هذه المقاومة كانت تستخدم لرفع معنويات الموارنة، وكذلك الاب بولس الخولي، وهو كاهن سرياني ومن الذين عانوا من اضطهاد العثمانيين في الحرب العالمية الاولى، كما الارمن، لخص بكلمات، الشعور الماروني بقوله « عندنا كره خاص لكل المسلمين» (وهو ما لم يكن يجاهر به علنا، حتى اكثر المسلمين تعصبا) ، واضاف الاب خولي قوله « لقد اعتقدوا عند بدء الحرب الاهلية أننا لن نصمد اكثر من اسبوعين، لقد فكروا اننا للمشط والمرآة (أي مخنثين) ولكنا تمكنا مـن قهـر مئـة وعشرين مليون مسلم » ان جماعته السريان كانت تقدم لصفوف النمور عند شمعون امهر الرماة والمحاربين، الذين هم اكثر خشونـة وانحطـاطـا مـن اولئـك الذيـن في التكتـات المسيحية، لقد استعملهم شمعون، وبعد ان تخلى عنهم التقطهم ثانية بشير ، ولكنهم لم يحصلوا على بطاقات هوية ، يعتبرون بموجبها لبنانيين، بصورة قانونية، ومع ذلك فقد كانوا معادين لأولئك الذين عاملوهم في الماضي بقسوة، واكثر نشاطاً من المسيحيين الآخرين عملا وقولا .

وفي عمق الكيان المسيحي، كان ينظر اليهم المسيحيون الآخرون بأعجاب وكانوا ، لما كان يبدو منهم من عدم الاهتمام بالحصول على الجنسية اللبنانية. يعبرون عن عدم قناعهم بصلابة أرضية الدولة اللبنانية التي تبناها الفرنسيون لعدم قدرة اللبنانيين على النضال من اجل الاستقلال، وبأستثناء افراد قلائل، فإن جميع مارونستان بمن فيها، ظهرت وكأنها صف واحد وراء زعيمها الاوحد ، كل هذا كـان نـوعـا مـن الشعـور السـائـد داخـل

مارونستان، ولكن لغير المقيمين فيها من اللبنانيين، بما فيهم المسيحيين، لم تكن كـذلـك، فمن هم خارجها كانوا بعيدين عن هذا الجو الخانق، أنها كانت المكان الذي لطخت الجدران فيه سنة ١٩٧٦ بعبارات مرسومه بالأصباغ «لتسقط فلسطين» ولكن بكلمات انكليزية. وتحتها نفس العبارة باللغة العربية: وكأن ليس لهم علاقة بالعالم العربي. في سنـة ١٩٧٧ كان الاساتذة الذين يقومون بالتعليم في كلية مار يوسف يشعرون بعدم الارتياح، لكون رجال المليشيات في معسكر قريب يكثرون من قراءة الدعاية النازية، بينما مئات من رفاقهم المسيحيين يذهبون الى اسرائيل لتلقى التدريبات.

أما مكتبة بشير فكان يظهر فيها كتاب لوزير خارجية اسرائيل الاسبق ابا ايبان وهو من مذكراته بينما كان يظهر الى جانبه كتاب آخر يحمل عنوان «المسيح في لبنان» مؤلفه كاتب كاثوليكي كانت له علاقات مع الحرس الحديدي الفاشيستي، وعلى الكتاب عبارة تقول «إلى بشير الجميلّ، القائد الكبير وحامي الامة المارونية» (والكاتب هو جيورجيو الروماني المولد) كما وان مجمع الرهبانيات الماروني كان يتمتع بمساندة الكاثوليك الذين احتفظوا بأدارة كنائسهم واديرتهم في اسرائيل بموجب اتفاقية الهدنة سنة ١٩٤٨، مـمّا اتاح لهم الاحتفاظ بعلاقات مكشوفة مع اسرائيل، وموظفو الكنيسة هم وحدهم من بين اللبنانيين المدنيين، الذين منحوا حق اجتياز الحدود، فالاب بولس نعمان كان لسنوات عديدة قبل ان يصبح رئيسا للرهبان سنة ١٩٨٠، وهو يلبس الصليب الذهبي الخاص، بمثل هذه الوظيفة، كان لا يخفي هذه العلاقات ومع ذلك فقد كان دائما يرفع اصبعه في وجهي ويصفني بالسيء، لأني كنت قد وصفته بأنه مهندس التحالف الاسرائيلي، وقد صارحني مرة مجاهرا، أنه اخبر مرة الرئيس السوري حافظ الأسد أن بشيرا لم يكن ابن بيار الجميلّ، بل هو ابن كل المظالم التي حلت بالمسيحيين في الشرق الاوسط وسببت لهم المعاناة طيلة العصور.

وقد كانت اسرائيل تقوي بصورة مباشرة بشيرا واعـوانـه العسكـريين وعـداتهم بالمساعدة وكانت دليلا لبشير لدى الجمعية الامريكية اللبنانية في الولايات المتحدة تلك الجمعية التي يرأسها الفرد ماضي، الذي حصل بسرعة على نفوذ في واشنطن، يفوق نفوذ السفير اللبناني، وبايحاء من اسرائيل، فإن بعض الوسائل الغربية جعلت من بشير نموذجا لحسنات العالم الحر، ففي سنة ١٩٨١ في شهر نيسان صور احد المعلقين الاذاعيين في

شركة (أي. بي. سي.) بشيرا بصورة القائد الصليبي المعاصر، الذي يقود حربا ضد منظمة التحرير الفلسطينية، التي هي مخلب قط لروسيا، ممثلا في ما صوره القيم الغربية التي تشارك فيها كل من الولايات المتحدة واسرائيل وقد اعترض مرة ممثل نيويورك تايمز في بيروت على المحررين في نيويورك عندما مهدوا لكاتب هاوٍ المجيء الى لبنان في غواصة اسرائيلية ليجري مقابلة مع بشير، اذ كان من المعروف انه لم يكن لأي من مراسلي الصحف المقيمين في غربي بيروت الجرأة على مقابلته، كما وأن مجلة فرنسية هي «نوفال اوبسرفاتور» وهي ذات ميول يساريه. خرجت بالقول أن بشيراً كان دائماً على حق قالت ذلك مسايرة له في مارونستان، بينما كان بشير غارقا في بحر من الاعجاب، وفي بيروت الشرقية وفي شوارعها الضيقة المزدحمة، كان الاباء يأتون بأبنائهم من داخل البيوت مسرعين ليتيحوا لهم فرصة مصافحة بشير كلما توقفت سيارته في مكان مزدحم بالسيارات. اما زوجته صولانج وهي ابنة لوالد من مؤسسي الكتائب، والتي كانت في صفوف المجندات منذ أن بلغت الخامسة عشرة من سنيها، كانت تقوم على شؤون بيتها بصبر. وتعمل كل ما تستطيع لحماية زوجها، ومما كانت تقوله «انا لست مسالمة ولكن بشيرا مسالم، وقليلا ما كانت تعترض على تأخره في العودة ليلاً، اذ غالباً ما كان يرجع بعد منتصف الليل من عمله الحزبي، وكانت تفرض على نفسها عدم الاتصال به في المجلس العسكري (ولو انها كانت تتحرى عنه سراً بواسطة امينة سره الخاصة ايزيس) صرفت معه اسبوعا في خريف سنة ١٩٨٠ محاولا بكل الوسائل دراسته والتعرف عليه، كان في عمله يُدخل النهار في المعاء، والمساء في الليل، كان يميل الى التحدث مع الحزبيين المخلصين. يعقد معهم الاجتماعات ويتناول وإياهم وجبات الطعام، وكان يتظاهر بالانصاف قائلا للمراهقين الصغار منهم «لا تهربوا مع صديقاتكم المراهقات، لانه لا يسمح عند الموارنة بالطلاق ولماذا تعرضون حياتكم للدمار من أجل انثى». أما الوجبات المسائية فكانت مخصصة لشكر الضباط على اعمالهم الناجحة. وتقوية معنوياتهم، وفي احدى المناسبات استثار احد الشعراء البارزين عاصفة من التصفيق الحاد عندما اعلن «أن بلادنا ليست عربية. وسنغير ما جاء في الانجيل، ولن ندير خدنا الايسر، نحن فداك يا بشير. عندما كنا نتجول في مارونستان كنت احاول دائما أن اجعله يتكلم عن نفسه، وعن مشاكله. وعن علاقاته مع اسرائيل، والامريكان، والسوريين. ولكنه نادرا ما كان

يصارحني. وعندما كنت اضغط عليه كان يتخبأ وراء عبارات مبهمة مثل «لك الحق في ترجمة الاشياء كما تشاء».

بعد يوم احد طويل من الانشغال السياسي انطلقت بصحبة بشير الى ملعب صغير في ضاحية الجديدة، حيث وصل في الربع الاخير من مباراة لعبة كرة القدم، كان قد نظمها شقيقه. لم يكن قد تطرق الى ذكر هذه المباراة من قبل، والآن اظهر استياءه من فكرة اجراء مبارات بين فريق مسيحي وفريق مسلم للمرة الأولى منذ الحرب الاهلية وقال أن والده يعيش في السماء السابعة فهو لاعب كرة قدم قديم، ومؤمن بإزدواجية التعايش، كما في ميثاق سنة ١٩٤٣، أن اللاعبين في كلا الفريقين كانوا يحاربون بعضهم بعضا في سنتي ٧٥ ـ ١٩٧٦، ان فريق بيروت الغربية كان يرافقه ثلاثة آلاف من المسلمين المشجعين يلوحون بحماس بأعلامهم الخضراء (وهو لون خاص بالمسلمين) في جانب منفصل من المدرج، وكانت النتيجة أن ربح فريق انصار ـ . ومنح رئيسه كأساً قدمه الشيخ بيار، فقام الرئيس المسلم على الأثر بتقبيل الكتائبي القديم وولديه.

وفي العودة الى البيت تنهد بشير قائلاً «منذ اربعين سنة من استقلال مزيف كنا خلالها نكتفي بلعب كرة القدم ولا ندخل في صميم الاشياء، أجل فعلنا ذلك لمدة اربعين سنة وخرجنا بالنهاية بمئة الف ضحية» فسألته «أكان الامر يستوجب ذلك؟» قال: «هذا ما اعتقده اذ أنه ليست لي قدرة على الخداع، ان الاهتمام باللعب يصرفنا عن الاهتمام بالعظائم، هل نستطيع أن نقبل دعوتهم بالذهاب الى الجانب الآخر من المدينة وهل يمكنهم أن يؤمنوا لنا السلامة؟».

كان بشير أيضاً يبدو غاضبا على جماعته الموارنة، مع أن الاساس الذي كان يبني عليه بقي هو هو، السيادة المارونية، ثم يتخذ موقف الثائر فيتطرق بعنف الى الاعتداد بالنفس كماروني فيقول، أن رئيس الجمهورية ماروني، وأن قائد الجيش ماروني، ورئيس القضاء ورئيس الامن العام كلهم موارنة وبرغم هذه المراكز دُمرّ لبنان. وفي وقت آخر قال لي «اكثرية الموارنة يعتقدون أن الماروني العاطل أحسن من المسلم الجيد في أية وظيفة رئيسية، لأنه ابن لعاهرة منا. كان يوضح دائما انه برغم تأييده لمثل هذا التدبير العشائري، فالذي يريده هو حقيقة أن يكون على رأس كل وظيفة مارونيا شرط أن يكون جيداً.

وفي كانون الثاني «يناير» سنة ١٩٨٢ كان يجاهر بضرورة وضع ماروني من مستوى معين على رأس كل وظيفة. كانت مسألة دفع بشير الى سدة الرئاسة، مجرد فكرة تدور في خيطه الداخلي. ولكن عندما اعلن الرئيس سركيس استعداده لتقديم المساعدة أخذ بشير قراره، لم يكن من المحتمل أن يعمل سركيس على الاستمرار لفترة اخرى بتمديد ولايته بصورة استثنائية، وهي الولاية التي تنتهي في ايلول، ولو أن هذا كان مخططه، لكان عليه أولاً أن يبعد عنه تهديد منافسة بشير، ثم اقناع اللبنانيين في الداخل والخارج بتأييده، غير أن سركيس طالما فكر في اوقات اخرى أن بشيراً هو الشخص الوحيد الذي يملك القدرة على احياء السيادة اللبنانية. استمر ضغط بشير في منطقته، واستطاع أيضاً أن يعزل شقيقه بضم مليشيات امين في المتن الى اقطاعيته، ويجعل مرفأ بيروت بكامل اجزائه تحت سلطته. فهذا المرفأ كان قبل ذلك بادارة امين واصدقائه ....

.... بيد أن اصحاب الفكر الثاقب كانوا يتحسسون أن ترشيح بشير كان جدياً، ومما قاله ميشال ابو جوده، المحرر ذو النزعة المستقلة في جريدة النهار. ذلك الماروني الذي رفض السكنى في بيروت الشرقية أجل قالها لبشير بشيء من عدم الارتياح في شهر آذار، «انت موسوليني صغير، او فرنكو صغير، أو هتلر صغير، وانت مصمم على أن تكون رئيساً للجمهورية وتملك تأييد خمسة وسبعين بالمئة من اللبنانيين، أما الآخرون فإنهم يقفون لك بالمرصاد غير ان من هم في سني انا في الثامنة والاربعين من العمر فقد انتهى دورهم، اجل لم يبقَ لنا مكان حتى للمعارضة».

اعترض بشير، لأن مثل هذه الازدواجية السياسية، التي يمثلها المحرر، لم تكن في حسبانه في المجموعة المارونية، فعلى الموارنة والمسيحيين أن يتراصوا في هذا الوقت الدقيق، وليعودوا فيما بعد تحرير البلاد تحريراً كاملاً، الى استعراض نظرياتهم المتعارضة، وهذا يعني، بعد انتخاب بشير. قال واحد من تجار المسيحيين الناجحين حول مناورات بشير. «لقد اصبحوا اسياد بيروت» مشيراً الى القوات اللبنانية، «انهم جايمس بوند المعاصر، ويحملون ترخيصا بقتل أي كان ليزيدوا الضغط، أن هذا لم يعد مما نراه في الافلام السينمائية على الشاشة، بل هو الحقيقة والواقع الذي نعيشه، أنهم يزيدون من حدة الضغوطات وينتظرون النتائج».

كان بشير يصارح التجار بما يعرفونه هم، أنه في سنة ١٩٨٢ لم يعد مضطربا ثائراً وها هو يشكرهم عبر السنين لأنهم أخذوا كل الاحتياطات وحولوا مارونستان الى منطقة ذات اكتفاء ذاتي ان لم نقل دولة مكتفية، ان ما يقارب مئة الف مسيحي، كانوا ينطلقون الى اعمالهم في غربي بيروت نهاراً ويعودون اليها مساء. لم يعودوا يترددون كثيراً على الشواطيء للسباحة أو على النوادي الليلية للسهر، أو على السينمات للتسلية، أن ذلك كان قبل سنة ١٩٧٥ فكل هذه التي ذكرنا موجودة في بيروت الغربية، المضاربون منهم غزوا الشاطيء النظيف في مارونستان، فأقاموا موانيء صغيرة، وفنادق فخمة على شاطئهم، فالاسواق المكثفة وابنية المكاتب والشقق المفروشة احتلت محل الابنية القديمة الجميلة.

استطاع بشير أن يضمن نجاحه قبل دخول الاسرائيليين الى لبنان، وبينما كان اكثر اللبنانيين قلقين على وجودهم، كان سكان مارونستان يركزون على حملة بشير الانتخابية، كان ميشال المر مدير المواصلات، وهو شاب حصل على ثروة في افريقيا، وله إلمام بتسيير الامور، كان هو الذي تولى بصورة رسمية القيام بالحملة الانتخابية، فالانتخابات في لبنان تكلف اموالاً طائلة والنواب الذين ينتخبون الرئيس هم من بين أكثر الرجال انحرافا في الشرق الاوسط، ومعرفة المبالغ الطائلة التي دفعت لتحقيق الانتخاب تتوقف على من ينقل اليك اخبارها، فأخصام بشير يقولون ان رئيس مجلس النواب كامل الاسعد، وهو من المفاتيح الانتخابية، تقاضى عشرة ملايين دولاراً، ان لم يكن اكثر من ذلك، قبل ان يوجه دعوة الى النواب بعقد جلسة انتخابية للرئيس، أما النواب المترددون فكانوا يبيعون الصوت الواحد بمليون، والذي يقوله الناطق بأسم القوات اللبنانية هو، أن المبالغ التي صرفت كانت اقل مما كان مخصصا، مع انهم أي القوات اللبنانية اعترفوا في محادثات خاصة ان خزائنهم افرغت، وفي كل حال فقد كانوا يرددون بكبرياء، أن كل المال مصدره المنظمة وليس كما كانت العادة في الماضي، مأخوذاً من افراد مقابل الحصول على خدمات مستقبلية، وقد كان أعوان بشير يصرحون أن اعدائهم كانوا يتقاضون مبالغ كثيرة من السعودية وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية ليفشلوا الانتخابات.

وفي المقابل يسهل علينا معرفة كيف ربح بشير الرئاسة، انه كان قبل كل شيء المرشح

الوحيد اذ لم يكن هنالك من يجرؤ على مزاحمته، مع ان شمعون انتظر حتى الدقيقة الأخيرة قبل أن يسحب ترشيحه في الوقت الذي كان يعترض فيه على الضغوط الاسرائيلية، ولكن ليس قبل الدقائق الأخيرة من اكتمال النصاب في مكان الاجتماع الذي كان ثكنات الفياضية على التلال بمقربة من القصر الجمهوري، ان تأكد الناس من أن بشيرا يستطيع أن يحقق النجاح، فالمسلمون السنّة الذين كانوا تقليديا، هم الذين يختارون الرئيس المارونى كانت افكارهم مشغولة بأنقاذ بيروت الغربية التي كانت لا تزال تحت الحصار الاسرائيلي، وكان قد مضى يومان فقط على مغادرة الدفعة الاولى من الفدائيين الفلسطينيين مرفأ بيروت الى المنفى، وكذلك فإن نبيه بري قائد المليشيات التابعة لأمل كما السنة كانوا يريدون تأجيل الانتخابات الى ما بعد انسحاب الاسرائيليين من بعبدا وبيروت والضواحي المجاورة، وقد عمل فيليب حبيب المبعوث الخاص للولايات المتحدة الامريكية، بعد معاضدته لحملة بشير الانتخابية لمدة شهر واقتناعه بأنه ليس هنالك من بديل حقيقي له، على عقد اجتماع بين بشير وصائب سلام، على امل أن يتخلى هذا الزعيم السنيّ عن خطته لمقاطعة الانتخاب. ولكن سلاما ومستشاريه كان عندهم قناعة بأنهم لا يستطيعون ان يقنعوا واحداً وثلاثين نائباً بمقاطعة الجلسة وبذلك لا يكتمل النصاب، كانوا يفكرون أنه اذا لم يتمكن بشير من الوصول في هذا اليوم بلا تأخير، فسيكون مجبرا على التخلي لمرشح التسوية، وسلام مع مستشاريه انكبوا بحرارة على مراجعة القوائم التي لديهم باسماء النواب، واحصوا عدد الذين يقفون الى جانبهم، وتوصلوا الى التنبوء بامكانهم افتشال بشير. ولكنهم هم الذين فشلوا. فالاسرائيليون مع القوات اللبنانية، اقفلوا الطرقات، ومنعوا الخروج من المنطقة (بيروت الغربية) وكذلك قطعوا خطوط التلفون، بين المنطقتين في الوقت الذي كان فيه المطار مغلقا منذ السابع من حزيران، وهكذا بعد ان قطعت اسباب الاتصال، وجد سلام نفسه يتحرك في الظلام، وهكذا كان أيضاً السوريون والسعوديون الذين كانوا لبضعة أيام قبل الانتخاب مقتنعين ان بشيرا سيحال دونه والرئاسة، وكريم بقرادوني المستشار الاقرب لبشير لم يحاول اثناء زيارته لدمشق قبل الانتخاب باسبوع واحد، أن يزعزع ثقة السوريين بتقديراتهم. كان يخشى ان تتغير الصورة في الدقائق الاخيرة.

وفي الفياضية في يوم الانتخاب، وهو يوم اثنين، كانت سيارات النواب الكبيرة

ترافقها مجموعات من سيارات « الرانج روفر » سيارات الحرس الحكومية، تصل متباطئة أو مسرعة في ضحى ذلك اليوم، وقد قال واحد من الذين عملوا لتأمين انتخاب بشير بثقة فجر ذلك اليوم، « سيحضرون كلهم، اثنان وستون منهم حتى ولو كانوا مصابين باقصى حالات الاسهال » لقد ظهر جليا انهم عملوا كل حساباتهم، ولم يتركوا شيئاً للقدر، حتى سركيس كان قد ارسل حوامات الجيش اللبناني الى قبرص ليأتي بنواب ثلاثة، كان قد استدعاهم من أوروبا حيث كانوا يتمتعون باجازة للاستراحة، كان رئيس المجلس الذي ظهر للعيان بثوبه الناصع البياض ذي التفصيلة الاستعمارية، قد اعلن الساعة الحادية عشرة قبل الظهر موعدا لافتتاح الجلسة، غير ان ذلك لم يتم في الوقت المعين، اذ لم يكن قد وصل سوى خمسين نائبا أو اقل، دخلوا البناية البيضاء المنخفضة، سائرين على السلم المنحدر الى احدى قاعات التدريس المصففة بالمقاعد، اذ أن هذه القاعة هي المكان المخصص لاجراء الانتخاب، كان التعب يبدو حتى على اكثر النواب صحة ونشاطا، أن عمليات الانتخابات النيابية بسبب القتال كانت متوقفة منذ سنة ١٩٧٢، وكان المجلس النيابي يمدد دورته بنفسه من سنة إلى سنة، أن القليل من المليشيات كان لهم في البرلمان أهل، وهكذا كان يبدو أن هؤلاء النواب أقل تمثيلا للبلاد من كل من سبقهم، بتصرفاتهم الخشنة، دقت الساعة الثانية عشرة ولم يكن هنالك سوى ستة وخمسين نائبا. فالنصاب لا يزال ينقصه ستة نواب. وقد بدا وكأن رئيس المجلس سيطلب رفع الجلسة وتعيين موعد آخر للانتخاب، هنا اعلن رجال بشير باعتزازان لديهم صوتين آخرين، سمع اذ ذاك صرير المكابح لسيارتين قادمتين من جديد، فأصبح العدد ثمانية وخمسين، وبعد الساعة الواحدة بقليل وصل اربعة نواب أخر دخلوا دفعة واحدة من باب خلفي، اذ ليس بينهم من كان يريد ان يقال عنه انه القادم الأخير ومما قاله بقرادوني بعد ذلك « لو ان هؤلاء الاربعة لم يصلوا في ذلك الوقت لما كان في استطاعتنا ان نبقي الآخرين في القاعة اكثر من نصف ساعة زيادة.

انتهى الاقتراع الاول بمدة اربع وعشرين دقيقة. وبدأ اطلاق النار ابتهاجا في الخارج، بعد ان نزلت الورقة السادسة والاربعين في الصندوق، كان الجنود والقوات اللبنانية يتشاركون معا في اطلاق رصاص الابتهاج، فالعدد ستة واربعون كان هو المطلوب

لانتخاب بشير في المرة الثانية اذا لم يحصل على الاغلبية المطلقة في المرة الاولى، كان بين الاوراق في المرة الاولى اربع بيضاء، واحدة لريمون اده، وهذا ما حرم بشير من الفوز في الاقتراع الأول، لأن المفروض أن يكون قد نال اكثرية الثلثين أي اثنين وستين صوتا، ولكن رئيس المجلس بدأ انه قد نسي القوانين الداخلية، التي كان قد مارسها لأكثر من عشر سنوات فأعلن فوز بشير. غير أن واحدا من موظفي المجلس النبلاء، أظهر له خطأه، وهكذا كان النواب في الاقتراع الثاني يجرون نفسهم جرا الى الصندوق الزجاجي، اربعة من هؤلاء النواب كانوا مرضى بمرض الدوالي أو مرض القلب أو مرض العجز، وهذا مما أضطر فراش المجلس ليحمل اليهم صندوق الاقتراع، اما في الخارج، فكانت الاصوات تتعالى عندما انتشر الخبر في بيروت الشرقية والضواحي، كان الشيخ بيار* يقف منتصبا جامدا يتلقى التهاني من انصاره هو والمخلفات الباقية من سنة ١٩٤٣ وهم يعترفون ضمنا بأنهم يقترفون عملية الانتحار السياسي.

«والجنود اللبنانيون رفعوا الصور الملونة للرئيس الجديد والجنود الاسرائيليون كانوا يربتون على ظهور بعضهم بعضاً مبتسمين، والمراهقون من الشباب المسيحي انطلقوا بسياراتهم عبر الاسواق، تتعالى اصوات ابواقها مختلطة باصوات البنادق ومدافع الاسلحة الخفيفة، والمسيحيون كانوا يطلقون النار من بنادقهم في الهواء وقد بلغت حصيلة القتلى ستة مدنيين برصاصات طائشة (ومثل هذا حصل عند وداع الفدائيين في الجانب الآخر من المدينة) مئات السيارات انطلقت باتجاه بكفيا حيث وضعت يافطة تبين موقع منزل آل الجميل، كتب عليها قصر الرئاسة، الاسطول السادس القى مراسيه في مكان يطل على الطرق الجبلية حيث كان المتحمسون الموارنة يوقفون السيارات ويفرضون على ركابها شرب كؤوس الشمبانيا، كما دقت اجراس الكنائس ابتهاجا، كان الذين يدعون بالتوفيق منهم الكبار والاقوياء والضعفاء، وكان القائد الاسرائيلي قائد موقع بيروت، يصل بلباسه الرسمي في الوقت المناسب، فاسرائيل قد قامت اخيرا بكل ما يجب عليها لتحقيق انتخاب بشير، وعلى كل حال فقد كان الموظفون الاسرائيليون ورئيس الموساد «هوفي» ومن يرافقه زينة الحضور دائماً بين النخبة من الصالات البيروتيه لعدة شهور. كان تصريح وليد جنبلاط القائد الدرزي اليساري الذي لم يكن يؤيد هذا الانتخاب (أنه

مرشح الدبابات الاسرائيلية) وكذلك فأن زعماء السنة كانوا معارضين، لانتخاب رئيس لبناني لا رغبة لهم فيه دون أن يجهروا بالتصريح، بأنه انتخاب غير قانوني، وقد قال صائب سلام «ان الأسس التي بني عليها لبنان قد هدمت، حتى سائق التاكسي الماروني الذي عاد بي الى بيروت من الفياضية كان يخاف النتائج فقال لي، «هذا ما ارادته اسرائيل».

كان بشير مع اعضاء المجلس العسكري يراقبون الانتخابات على شاشة التلفزيون وقد قال الآباتي نعمان، بعد ان فتح قنينة شمبانيا ملتفتا الى بشير واصدقائه «تذكر انه لديك ستة سنوات فقط» ولكن الذي كان أنه لم يعش بعد ذلك الا ثلاثة وعشرين يوماً، ظهرت طائرتان اسرائيليتان فوق المشيعين للدفن وقام وزير الدفاع شارون بزيارة عابرة لبيت العائلة كما كان رئيس (الموساد) الاستخبارات الاسرائيلية احد المعزين في بكفيا يوم الخامس عشر من ايلول، ومما قاله هذا الرئيس للموساد الى مراسل اسرائيلي بالعبرية «في الحقيقة اكلناها» وقد كان يعني في ذلك أنهم أي الاسرائيليين، قد ضيعوا اقوى علاقة لبنانية لهم، وفي الوقت نفسه فإن اللبنانيين من الطائفتين كانوا يتهمون اسرائيل بمقتل بشير، باستثناء بيغن الذي صرح أنه حزين الى اعماق نفسه، وفي يوم الاربعاء اجتمعت القوات اللبنانية في بيت امين ليقرروا ترشيحه للرئاسة، كان امين قد صرف النهار بطوله يستقبل المعزين ووجهه حزين ملطخ بالدموع، تغطيه نظارتان سودوان كبيرتان، كان على المعزين ان يسلموا سلاحهم قبل الدخول الى مكان الاجتماع في حديقة صغيرة، ثم يتسلقون سلما مبنيا من الحجارة. كانت النساء تتجمع في غرفة الى اليسار، حيث كانت أم بشير وأرملته وزوجة اخيه تقفن والدموع في عيون اتعبها البكاء أما الرجال فكانوا يدخلون من شرفة مستديرة الى قاعة استقبال كبيرة «ان عزل النساء عن الرجال كان عادة تقليدية عند الموارنة» كانت الكراسي مصفوفة الى جدران قاعة الاستقبال وكان الشيخ بيار الجميل يجلس في اخر الصف، كان المعزون يدخلون ويخرجون، وكان كل ما جاء معز جديد يواجه عند المدخل، البطريرك الماروني، لقد استمرت عملية قبول التعازي اسبوعا شارك فيها كل القادة اللبنانيين من روحيين وزمنيين وعسكريين وسياسيين كلهم عبروا هذه القاعة من مدخلها الوحيد، ان الوحدة اللبنانية تجلت في هذا المأتم، عندما اقتربت من الآباتي

نعمان وهو يلبس صليبه المذهب، خاطبني والدموع في عينيه، وكأنه يعتذر «أن البكاء على صديق ليس مما يخجل منه» هذا ما قلته له انا ثم اضفت «اذ ليس هذا جريمة».

فتنهد الآباتي نعمان وقال «بالنسبة لي، انها المرة الأولى التي اذرف فيها دمعي وانا في ضياع» وفي كنيسة مارعبده كان عناصر المليشيات يتهالكون على كفن بشير وقد اضطرت صولانج ارملته ثم امين للتدخل. اما عناصر المليشيات فقد حاولوا رفع امين ووضعه فوق التابوت، ولكنه اخذ يلبطهم برجليه غضبا، آمرا اياهم أن يتركوه، وقد اطاعوا مضطرين. ان القوات اللبنانية هي في الواقع قوات بشير، غير ان السياسة اللبنانية هي مسألة عائلية، ومهما كانت اعتراضاتهم فأمين هو الآن السيد، ولو انه كان دائماً يهزأ من بشير ومن هؤلاء المأجورين. هذا كان رأيه بهم، لا اننا اقسمنا لبشير واتباعه بأن نكمل المسيرة لأيجاد لبنان أفضل»، هذا ما قاله امين عند تأبينه بشيراً، ثم أضاف لقد قتلوا جسداً ولم يتلوا روحه وارادته بالتحرر، أما البطريرك الماروني الذي لم يكن معجبا بالرجل الميت، فقد قال «نجم كبير هوى وتوارى من سماء لبنان أنه شهيد مطامحه لبناء وطن، انه طموح ومثل كل طموح كان لا بد أن يواجه حسد الحاسدين وحقد الحاقدين، وبعد اربعين يوماً ولد هذا الاسطورة ثانيا في حفل تأبيني أقيم له في المجلس الحربي، تشبها بما كان يقام في نورمبرغ ايام النازية سنة ١٩٣٠، والآباتي نعمان استعمل العبارة المناسبة حيث قال «لقد عرفاناه إعصارا وعاصفة وتيارا ونورا ونارا، ان إنسان واحدا بعض الاحيان قد يجمع في نفسه شعبا كاملا، وامة تامة بكل أمانيها وامالها، ان القوات اللبنانية هي درع لبنان وقوته وعنفوانه لقد تركها لنا لتكون الاسطورة والمثال».

كانت وجهة نظر بقرادوني عند انتخاب بشير قوله «صعب عليه الفوز بالانتخاب وسهل عليه ممارسة الحكم» أما عبارته فيما يتعلق برئاسة امين فكانت التنبوء «من السهل فوزه بالانتخاب ومن الصعب تمكنه من الحكم» لقد تغلب بقرادوني وزاهي بستاني وجوزيف ابو خليل على عواطفهم من جراء هذه الخسارة وانصرفوا الى العمل لأنتخاب جديد، قال بقرادوني بعد وقت أنها هذه المرة مضمونة النتائج، ان النواب يأتون الينا وليس علينا الذهاب اليهم» بعد ستة ايام من موت بشير، وبيومين من مذابح شاتيلا

وصبرا عاد النواب نفسهم الى الفياضية وانتخبوا امينا بأغلبية سبعة وسبعين صوتا ضد ثلاثة، كان أول عمل قـام بـه امين بعـد الثـالـث والعشريـن مـن ايلـول وتـولي السلطـة زيـارة المجلس الحربي حيث اقسم بتكريس نفسه للسير في خطوات بشير، مستعدا بأن يقدم التضحية الكبرى كما فعل شقيقه، كان الاستقبال فاترا واحدى الحكايات تقول أن العسكريين كانوا غير واثقين من امين حتى أن صولانج استدعيت في الساعات المبكرة قبل الانتخاب لتقول لهم بتأثر «أمين هو بشير وبشير هو امين» من ظواهر الاستياء، أن امين كان مرة ثانية محظوظا، اليس هو ذلك الشاب الانيق المجتهد الذي تزوج جويس أبنة جوزيف تيان الذي انشغل طيلة ايام حياته في جمع الكنوز. الموروثة؟ اليس امين ذلك الذي انتخب نائبا في الثلاثين من عمره كأصغر نائب في البرلمان اللبناني وذلك خلفا لخاله موريس الجميل، وها هو في الاربعين ينتخب للرئاسة كمرشح تسوية في نظر المسلمين؟ الم يدخل قاعة الاجتماعات في الفياضية يده بيد صائب سلام الذي كان يلوح بسيكاره الكوبي لأتباعه من النواب المبتهجين، وكأنه يقول لهم أن رجال سنة ١٩٤٣ قاموا من قبورهم؟، لقد كان امين وهو الذي لم يتورط بعلاقات مع اسرائيل مقتنعا بضرورة مسايرة المسلمين والمشاركة بالصفقات التجارية ككل أولئك اللبنانيين الذين يحترمون انفسهم، هذا ما اظهر اميناً في اللحظة الأولى، بأنه قادر على ان يعيد الى لبنان ايامه الأولى.

والمؤسف كان، أنّ نفوذ امين لم يجد له مكانا، إلا في بيروت الغربية المسلمة، وليس في منطقته المسيحية، فالقوات اللبنانية امتنعت عن القاء السلاح، بل عمدوا بعد اسابيع الى تخبئة كمية كبيرة من عتادهم، شحنوها من شرقي بيروت وخبأوها في الاديرة والكنائس وغيرها من المناطق الجبلية، كان الشيخ بيار يخاطب القوات اللبنانية بلغة امين، ويخاطب امين بلغة المجلس الحربي، حتى أن الرئيس الجديد بلغ منه الاستياء ان قال لأحد معارفه الذين يحترمهم من الاجانب «ارجوك ان تذهب الى والدي لتقول له أني بلغت سن الرشد، لم يزعج شيء ما أميناً كما ازعجه عناد المجلس الحربي بتسليم قاتل بشير الى الدولة لتحاكمه، انهم بدلا عن ذلك احتفظوا بحبيب طانيوس الشرتوني في سجنهم الخاص، وهذا ما يظهر عدم ثقتهم بأمين وتصرفاته، بينما يعتقد الآخرون ان السبب في الاحتفاظ بالشرتوني البالغ من العمر ستة وعشرين عاما كان أن المذكور سيزج القوات اللبنانية

بعملية الاغتيال. هذا كان المنطق الأعوج الذي لم تتعلم القوات تركه كليا، وبعد كل هذا فما يقال هو «هل من المعقول أن قوات الامن الكتائبي الكثير الحرص، في القوات اللبنانية تعجز عن اخذ الاحتياطات فلا يقتل قائدها في بناء حزبي رئيسي؟ ولم يكن هذا التساؤل هو الوحيد فالشرتوني وكل افراد عائلته كان المعروف عنهم انهم من الاعضاء البارزين جداً في الحزب القومي السوري المنافس القديم للكتائب المسيحية، والشرتوني مع شقيقته وجديه كانوا يعيشون في نفس البناء مع فرع حزب الكتائب، في الاشرفية وفي الطابق الذي فوقه مباشرة، كان صاحب البناء اسمه جين نادر قد اخرجهم منها خلال الحرب الأهلية، ولكن العائلة سمح لها بالعودة» وهناك من يقول أن نادر كان متعاميا عن اخذ الاحتياطات الامنية لعلاقته بشقيقة الشرتوني الصغيرة ذات الجاذبية، وكانت القوات اللبنانية قد بلغ بها الغضب مبلغا كبيرا لتغافلهم والسماح لهم بالبقاء هناك، حتى انهم ارسلوا نفرا منهم الى شرتون القرية الشوفية، فبعثروا المدافن وضربوا الرجال والنساء وانصرفوا دون ان يقتلوا احدا.

من حسن حظهم أنهم اعتقلوا الشرتوني الذي لم يكن ذكيا في اخفاء تنفيذ الاغتيال، لقد ركز جهاز التفجير الياباني الالكتروني قبل ان يتأكد من ان شقيقته وصديقها وعائلته كانوا لا يزالون في البناء، فاضطر للاتصال بشقيقته واخبارها بأن تغادر المنزل وتتصل به في ساحة ساسين، مكان تقاطع طرق رئيسي في الاشرفية، وقد فعلت وكم كانت متأثرة عندما اكتشفت أنها نجت من الموت بأعجوبة، فقد كان بينها وبين الانفجار دقائق، كانت تسير في الشارع وتعلن للناس كم كانت محظوظة، أما الآخرون فلم يكونوا محظوظين مثلها. كان الشرتوني قد حاك قصة طلب فيها من والديه ان يقولوا ان ولدهم كان في المستشفى، وأنه كان عليهما أن يذهبا اليه حالا، ولكن لسوء الحظ، فإن صديقه هو الذي رد على المكالمة التلفونية، ولما كان يخشى ان يعرف هذا الصديق صوته قطع المكالمة وقد كان نصيب الصديق ووالديه الموت في الانفجار.

كان الشرتوني لدى التحقيق صعب المراس والفضل، يعود في اهتداء التحقيق اليه هو عدم احتراز شقيقته، انه بدا في المرحلة الأولى من التحقيق غير خاضع لخدعة المحققين.

وبعد اعتقاله في بكفيا لمدة اربعة ايام تمكن من الهرب، ولكنه التقط ثانية على شواطيء أحدى ضواحي جل الديب، كان المخبرون يؤكدون بأن القوات اللبنانية ستتمكن من نقل المعلومات التي وجدت على شريط التسجيل الى الحكومة، لأنه عندما اعتقل كان يغني ويسجل اغانية، وهذا ما يثبت أن الصوت في المكالمات التلفونية هو نفسه.

ومما تجمع من معلومات فإن الشرتوني كان يعتقد في الاساس أن هذا التفجير أنما قصد به تخويف بشير لا قتله، هذا ما قاله للمحققين، أنه كان يرمي من وراء ذلك أن يجعل بشيرا يقتنع بأنه كغيره من اللبنانيين غير محصن من الخطر، والتفاصيل تظهر أن الشرتوني كان يصر على عدم معرفته بمن هو وراء خطة الاغتيال، أنه التحق بالحزب القومي السوري سنة ١٩٧٩، عندما كان يتلقى علومه في باريس، أن احد قادة مليشيات الحزب القومي الاجتماعي السوري زوده بالمتفجرات وبجهاز التفجير، ثم توارى هاربا الى سورية بعد الاغتيال، وقد كانت هناك اعتقادات، بأن منظمة التحرير الفلسطينية أو احد عناصرها كانت له علاقة، هذا ما نقلته اجهزة مخابراتهم في سورية.

كانت القوات اللبنانية تشير بالأصبع الى منظمة التحرير التي كان لها كما لسوريا او لفرنجية من الاسباب ما يجعلها ترغب في مقتل بشير انه في نظر الفلسطينيين كانت له علاقات في ما جرى من مذابح، وأنه بما له من علاقات مع اسرائيل وارتباطات فقد زوده بيغن وشارون بالمعلومات المساعدة لغزو لبنان، وقهر منظمة التحرير، وما احب هذا الانتقام عند الفلسطينيين الذين كان الموارنة يتهمونهم دائما بأنهم منبع ما في البلاد من مشاكل، فبهذا برهان على ان اللبنانيين انفسهم كانوا غير منضبطين، ومهما كان لموت بشير من تفسيرات، فقد كانت له اثاره على النضال المشترك من الفئتين بما لا يقبل الشك، كما ان موته كان اشارة الى ما كان يصدر من تصريحات لمنظمة التحرير، بأن اولئك العرب الذين يتعاملون مع اسرائيل يصلون الى مثل هذه النهاية، انها فرضية ضعيفة بأعتراف منظمة التحرير نفسها، من أنها لم تتمكن من اختراق القوات اللبنانية، وأن تمكن فدائيوها، في مثل هذا الوقت من ذلك هو في حكم المعجزة. بينما المعروف عن الفلسطينيين انهم لا يؤمنون بالمعجزات وقد كانت ردة الفعل المباشرة على مقتل بشير مذبحة شاتيلا.

فالعملية كانت مدروسة لتنفذ بمهارة، كانت هنالك عدة خيوط للدلالة على منظمين لها، على سبيل المثال فإن سليمان فرنجية الذي اضطررت لمقابلته بالاستعانة بالقوات اللبنانية والسوريين وبالمردة ليؤمنوا لي سبيل الوصول اليه ولما سألته، قال أنه لم يفعلها، ولا تسبب في فعلها ومما قاله « يسيؤني أن لا اكون مسؤولا عن هذا العمل الانتقامي » بينما كانت ملامحه تدل على ارتياح خفي، ثم أوضح مشيرا الى ثوبه الابيض « لهذا السبب لم البس ثوبا اسود » لأنه من وجهة نظره فإن طوني وعائلته لم يؤخذ بثأرهم بعد، ثم القى نظرة على وادي قاديشا العميق وقال اننا كنا نحاول منذ سنة ١٩٧٨ ولم نوفق. سألته اما وقد مات بشير اتعتبر أن كل شيء قد انتهى وتعفو عن امين وشيخ بيار؟

« لا على الاطلاق » مؤكداً لي بعناية أن الانتقام يجب أن يكون شخصيا وموت بشير في نظره لم يكن محسوبا ثم اردف: « الله كبير، هذا كل ما استطيع قوله فأن تقاليدنا تفرض علينا احترام الموتى ».

وسألته الا يمكن دفن طوني وعائلته الآن. فأجابني: « اسف أن اقول كلا، فإنه ليس لنا أن ندفن احدا قبل الآخذ بثأره » كان سليمان يباهي بصدق نبؤته عندما قال « لقد قلت بعد انتخابه مباشرة أن بشيرا لن يصل الى الكرسي.

ولكن كيف عرفت؟

- « انه الهام الهي فأنا قريب من الله ».

(كانت هنالك احاديث تدور مؤيدة أن السوريين هم الذين أعطوا سليمان هذا التعهد لدى سفره الى دمشق فورا انتخاب بشير) ثم أضاف « كم كنت مستريحا لبراءتي فقد ذهبت إلى فراشي مبكرا، وانا اردد يا للأسف، وذلك عندما اذاع الراديو أن بشيراً قد اخرج من تحت الانقاض سالما، وان ابنته لمياء هي التي حملت له الانباء المفرحة « فاستطرد يقول استيقظت بعد منتصف الليل على اصوات طلقات نارية، أنها عادة عندنا أن نطلق النار كعلامة ابتهاج في المناسبات، ولم اتبين الحقيقة الا عندما وضعت لمياء قبلة حارة على وجهي، عندها عرفت أن بشيرا قد مات، ولكن عمليا فالاغتيال اثر على نفسيته الخيِّرة، كان يداعب حبوب مسبحته وهو يحدق في غطاء اخضر لامع يغطي منضدة امامه مظهرا عدم موافقته على استعمال المتفجرات قائلاً لنفسه « انا من الذين يقابلون اعداءهم وجها لوجه ولست من الذين يقتلون الناس من ظهورهم. وفي الواقع فأن

ما كان يقوله سليمان لم يكن الا تغطية لحقيقة شعوره فأن لمياء وصوفيا وزوجها وروبير تبين أنهم قد حضروا قداسا خاصا عن نفس طوني وعائلته في كنيسة اهدن عند الساعة الثانية صباحا، عند سماعهم بموت بشير، اني اذكر بالتأكيد ان صونيا كانت تلبس الرداء الاسود عندما كنت ازورهم في اليوم التالي، فعند النشيء من آل فرنجيه، ما كان فقد كان وانتهى، وتصرفهم كان يعلن هذه الحقيقة. انهم مدينون بسلامتهم لوجود الجيش السوري الذي كان محرجا اثناء القتال، وكان قريبا من الانسحاب في لحظة ما، وتركهم فيما كانوا فيه، لقد وضع نفوذ سليمان في الشمال على المحك، عندما اعلن عشية الانتخابات بأن كل من يذهب لأنتخاب بشير يعتبر وكأنه ضالع بمقتل طوني، احد عشر نائبا من اصل ثمانية عشر صوتوا لبشير منهم نائب البترون فؤاد غصن، الذي هدم سليمان بيته الواقع على الشاطيء، ولكنه لم يجرؤ على معاقبة اثنين من النواب الزغرتاويين اللذين ادليا بصوتيهما.

بعد أيام من انتخاب امين كانت خطبة القسم التي عرض فيها امين اعتبار ما جرى قد جرى، فلنطوِ صفحات الماضي وهنا اخفى سليمان عنفوانه، او تنازل عن كبريائه ونسي تهديده باستئصال آل الجميلّ عن اخرهم..

....

بينما اصر بعض المواطنين الزغرتاويين، ان سليمان انما كان يتظاهر بقبول المصالحة ترقيدا لآل الجميل، ليشعروا بالأمان، وبهذا يقترب هو من غايته، واللبنانيون كانوا يرددون فحوى ما قالته صونيا لصولانج عندما اتصلت بها تلفونيا معزية «انني مسرورة بموت بشير وآسفة لأننا لم نكن نحن الذين قتلناه، سيكون هنالك ارامل اخريات عندما نبلغ غايتنا» مثل هذه الافكار كانت متوافقة مع تقارير تقول أن ضابطا زغرتاويا في الجيش اللبناني قام بالاتفاق مع احد عناصر المليشيات التابعة للحزب القومي بأقامة حاجز على الطريق بين بيروت وبكفيا في نفس اليوم الذي قتل فيه بشير، هذا التفكير يربط بين القومي السوري الشرتوني وزغرتا في عملية الجميّل وبالاستطراد يربطهم بحماتهم السوريين..
أما الفلسطينيون فكانوا يجاهرون أن الاسرائيليين واصدقاءهم من المسيحيين كانوا مسؤولين عن مقتل بشير، وهذا ما اعتقده بعض المسيحيين الذين كانوا يقولون ان مساعدي بشير العسكريين كانوا ضمن النفوذ الاسرائيلي، هذا ما حلله تاجر مسيحي كان مطلعا على تفكيرهم. هذا الظن كان محتملا لو اردنا تصديقه، فالاسرائيليون كانوا غير

مستريحين لنزعة بشير الاستقلالية، وفرفرته مع الامريكان، ونزعته بأن يصبح زعيما وطنيا على حساب تحالفه معهم ولكن فبدلا من ان يقتلوا بشيرا هم أنفسهم، فليتركوا الطبيعة تأخذ مجراها، وهذا يعني أن يشجعوا عناصر المليشيات لقتله، لقد كان يحكم على نفسه عندما قال بضرورة حلّ المليشيات وتكوين الجيش الوطني من ستين الفا أو مئة ألف، وبه يقوي قاعدته، لكن المسألة هي أن احدا لم يصدق عزم بشير على حلّ المليشيات، ففي شكل او آخر سيكونون حرسه الجمهوري وهكذا لم يكن لهم ما يقتلونه من اجله، ولا كان ذلك في نية اسرائيل، صحيح يجب أن نحسب لما كان بين بيغن وبين بشير من نفور عند لقائهما في نهاريا، غير ان شارون زار بعد ذلك بشيرا واعتذر ولو بصورة غير رسمية عما كان، ولكن في رأس الاشياء فإنه كان لاسرائيل ضمانة ممتازة ببشير، ولديها ما يبرر بأن العلاقات المستقبلية لن تكون سهلة مؤمنة الا بمعاهدة سلام رسمية، واذا لم يكن هذا فسيذهبون الى اضعاف لبنان ثم تقسيمه، ان بشيراً ليس لديه فرصة بافشالهم، لأنهم ستكون لهم القدرة على قتله فيما بعد، ولو بعد أشهر قليلة من احتلاله مركزه اذا ما تبين أنه يشكل خطرا. أن سموم الحياة كثيرة في المجتمع اللبناني، من السهل تحريكهـا، وعلى كل حال فلديهم الوقت الطويل لأخضاع بشير لمشيئتهم، فلا لزوم اذا للتخلص منه قبل توليه السلطة، لمصلحة شقيق له ينظر اليهم بكثير من الشك، اما الذين يعتقدون أن الاسرائيليين هم الذين قتلوا بشيرا فأن تحليلاتهم مبنية على كرههم للسامية وتشكيكهم باسرائيل، والفلسطينيون لم يكونوا وحدهم من قام بترديد القول « يقتلون القتيل ويمشون في جنازته ».

الذي بدأ معقولا حتى في ذلك الوقت، أن اسرائيل لم تجد صعوبة في اقناع اصدقائها في القوات اللبنانية للمشاركة في عملية مذابـح مخيم شـاتيلا، لقـد كـانـت المخـابـرات الاسرائيليةتطلع اللبنانيين طيلة الاسبوع أن الفلسطينيين كانوا يخططون لقتل بشير، وها هو اليوم قد قتل. ومن وجهة نظرهم، فأن العالم يجب أن يقتنع بأن الفلسطينيين انغمسوا بعملية القتل، وأمام تحقير الاسرائيليين لهم لعدم مشاركتهم بالقتال، ما اوقع المليشيات بالفخ، فأن قادتهم برهنوا بغياب بشير انهم اغبياء لا يستطيعون شيئاً. وعندما تساءل كتائبي له مركز استشاري، في الامور السياسية، وذو نشاط بارز في انتخاب امين، لماذا لم يعطَ علما بعملية شاتيلا، اجابه فادي فرام قائد القوات اللبنانية قائلاً دون أن يبدي

اهتماما. « نحن نعلم انك كنت تقوم بعمل مسالم ولم نشأ ازعاجك ». ان موت بشير والمذبحة. لم يعاقب عليها الفاعلون. قد يكون من المعقول أن يحكم على الشرتوني بالموت، ولكن ليس من المؤكد ان المحققين سيتمكنوا من معرفة ما هي القوى التي كانت وراء الاغتيال. والمذبحة أيضاً ستمرّ دون عقاب بالرغم من أن القوات اللبنانية شاركت « جو إده. مارون مشعلاني. وايلي حبيقة. وهم من المعروفين جيدا. أن العقوبة الحقيقة تكمن فيما سيجري في المستقبل بين صفوفهم. ليس فقط لما بينهم من تجاذب على السيادة، بل بفقدهم القائد العظيم لأن بشيرا تمكن من رص صفوف مؤسسته، خلافا للطبيعة اللبنانية التي تأصلت فيها رغبة التنافس والانقسام. وقبل ان يمضي الا القليل بدا واضحا أن الفئات التي تتشكل منها القوات اللبنانية « من سياسيين متنافسين وقادة صغار وجماعات مالية ورهبان » كل منهم كان يعتقد أن بشيرا كان له، وأنهم بدونه لا يزالون اقوياء، وبالتأكيد لديهم القوة الكافية لتهديد امين والدولة، ففي شباط سنة ١٩٨٣ ذهب امين الى اجتماع مع القوات اللبنانية التي سمحت ولكن بشروط. بدخول الجيش اللبناني الى بيروت الشرقية. والضواحي المسيحية. ولم تعد سلطته محصورة فقط في المنطقة الغربية، ولكن تاريخ المارونية الحديث يشير الى أن امكانية حصول انتكاسات هي امور محتلة، وسيكون بأمكانهم كما كان بأمكان بشير سنة ١٩٨٠ أن لا يقفلوا المرافيء الخاصة ولا يمتنعوا عن جباية الضرائب انهم بعد ستة سنوات يلعبون مع امين نفس الدور الذي لعبه بشير مع سركيس.

ان صديقي السياسي الكتائبي الذي كان يمازحني بالكلام عن الانقلاب الكتائبي البطيء بالدولة. ختم عباراته المكررة بالقول « يجب أن تعلم لو أن قتلة بشير ارادوا الخير لهذه البلاد لكان عليهم أن يفعلوا شيئاً واحداً، وهو ان يقتلوا الشيخ بيار فهو الوحيد الباقي ليضم شميلة هؤلاء الجماعة معا.

* * *

الفصل الخامس

الاميركي العجول

بصوت مرتفع غاضب زاخر بالتحقير «الكلاب، الكلاب» كانت المتكلمة الابنة الكبرى لرئيس جمهورية لبنان صونيا الراسي، قالت هذا وهي تكاد تقفز من مكانها، ثم استطردت غاضبة «عليك أن تقدر أنه عندما وصل الرئيس فرنجية الى مطار كندي في سنة ١٩٧٤ ليلقي خطابا بأسم الجامعة العربية، وليقدم القضية الفلسطينية، وياسر عرفات إلى الامم المتحدة، أجل عليك ان تقدر ما حصل». كانت ترتجف غضبا، ولكني سألتها بمنتهى البراءة ان تعود الى الماضي، وتتذكر ما كانت عليه علاقات والدها مع الولايات المتحدة الاميركية، فارتفع صوتها ثانية وهي تقول الذي حدث ان حقائب الرئاسة عرضت على الكلاب لتشمها، ليس مرة واحدة بل مرتين وثلاث مرات، وعندما عرف الرئيس وجد نفسه مُحرجا، تصور انه كان بمعيته رئيسان سابقان للجمهورية، وثلاثة رؤساء سابقين للمجلس النيابي، واربعة رؤساء سابقين للوزارة، كلهم من النخبة السياسية اللبنانية، يمثلون قادة الجامعة العربية، المؤلفة من تسعة عشر عضواً، «الكلاب الكلاب» لم يكن من حاجة للشرح، فالعرب يحتقرون الكلاب والموارنة اللبنانيون عرب.

لم يكن عليَّ أن أهدىء اعصاب صونيا الراسي، وهي تقص عليَّ حكاية ذلك اليوم في نوفمبر، (تشرين الثاني)، في نيويورك، أن مأموري مكافحة المخدرات المتحمسين استعملوا الكلاب ليفتشوا عن حشيشة في حقائب وفد فرنجية (وهي المادة الرئيسية التي يصدرها لبنان بطريقة غير شرعية، والتي تقدر حصة طوني ابن الرئيس منها بما لا يقل عن ثلاثمآية مليون دولار سنويا، وهو واحد من كثيرين) هناك اختصاصيون في المخدرات في السفارة الاميركية من بيروت، دفعت لهم رشوة بصدد خطة لتهريب الحشيش على طائرة الرئاسة وهؤلاء بدورهم اشعروا مكتب المخدرات الخطرة في واشنطن، والسفير كودلي كان قد انذر امين سر فرنجية الشخصي، بطرس ديب، وهذا وعده بأن الموظفين اللبنانيين

في الامن العام سيكشفون على الحقائب، قبل قيام الطائرة. وفي الواقع فإن ممثلي السفارة الاميركية كانوا موجودين للتأكد من اتخاذ التدابير دون ان يعرف بذلك فرنجية، وقد قامت السفارة بعد ذلك بإرسال برقية الى المكتب الخاص، ولكن الموظف اللبناني في المكتب في واشنطن كان نعسانا عند ابلاغه الخبر بأن لا يجري التفتيش على الحقائب، وقد نسي أن يبلغ مكتب مراقبة المخدرات بذلك، لم يجد مكافحو المخدرات شيئاً ومما قاله لي موظف في السفارة «انها اهانة لا يحدها العقل».

وهنا تدخلت صونيا فأسرّت «لا تقل لي أنها كانت صدفة أو خطأ، بل لماذا نضع اللوم على موظف صغير»، وكأنها كانت لا توافق على اية محاولة للتنصل من المسؤولية. وقد اعترضت عليها بقولي، «الاخطاء تقع في كل مكان، وان الغرباء وحدهم يعتقدون دائما بأن كل شيء في الولايات المتحدة كان مضبوطاً كالساعة. كان معنا زوجها عبد الله الراسي، فتدخل محاولا انقاذي بقوله «من المعقول أنه لو كان هنالك حشيشة على متن الطائرة. لما كان عليهم ان يقوموا بأي عمل بصددها»، إنه منطق الدولة».

هذا جعل صونيا تهب لتعداد الاغلاط الاميركية، فقالت «ان كودلي كان يرسل الى واشنطن تقاريره اليومية، ليجعلهم يصدقون ان اللبنانيين كانوا منحطيّن مثل «مدام نو» في فيتنام. وانه ليس فيهم من يحب الرئيس، وان العائلة كانت تجري وراء الثروة، وان طوني قد كسب الملايين عندما كان وزيراً». انها كانت تدلي بما سمعته من اقوال نسبت الى مسيحيين ومسلمين، عن والدها، في السنوات التي تمرس فيها بالحكم، ثم اضافت «ان كودلي، هو الذي اساء الى سمعة الرئيس، ناقلا الى واشنطن كيف ان النخبة من المسيحيين، كانت تكدس الثروات بينما هنالك اناس يموتون من الجوع». ثم عادت لأظهار ما في افكارها، والعودة الى حكاية الكلاب فقالت «انها عملية تحقير واهانة، ليس للرئيس فحسب، بل للجامعة العربية بأسرها، وليس مسؤولا عنها كودلي وحده بل، فان المسؤولية تقع على ادارة فورد جميعها».

وبدقة اكثر، فقد جاهرت صونيا بأن عملية المطار المهينة، وهي واحدة من كثير من عدم التفهم المشين، وستترك اثارها على العلاقات الاميركية، اللبنانية.

وككل غريبين يتحادثان بلغة غير لغتهما، ويحاولان ان يتحدثا بطلاقة اكثر مما يستطيعان، فإن قادة المسيحيين اللبنانيين كانوا يتعثرون بالتعبير، مما جرهم الى المآسي.

فالامريكيون في كل مرحلة كانوا يعتقدون ان رسالتهم وصلت بوضوح، والقادة المسيحيون الذين لم يحبوا ما كانوا يسمعونه كانوا يرفضون تصديقه، ويفضلون تكييف الحديث ليصبح ملائماً لمصالحهم، الى ان وجدوا انفسهم ولو بعد حين، قد عجزوا عن ردم الفجوة بينهما. فالاميركيون الذين كانوا قد اصيبوا بنكسات في فيتنام، وفي ووترغايت سنة ١٩٧٠ لم يكونوا في حالة نفسية تجعلهم يقدمون على القيام بمخاطر تتلاءم مع ما يجول في معاقل المسيحيين، غير أن قادة المسيحيين في لبنان يصرون بصورة عفوية، ان الولايات المتحدة تقف وراءهم وتتحمل المسؤوليات عنهم، وهو نهج يعود الى ما قبل زمن طويل، يوم كانوا يعتبرون الصليبيين القادمين من الغرب، حماة لهم، وأخيراً تعبت الولايات المتحدة من عملية حوار الطرشان فغسلت يديها من لبنان ولم تبال حتى باتخاذ اجراءات رسمية، ولم يهتم أي من الذين في واشنطن ممن يحسب لهم حساب، بأمر لبنان، بالرغم من التصريحات الرسمية بمعاضدتهم للبنان، باستقلاله وسيادته، واحترام حدوده الدولية، ومع الوقت فان السلطات في واشنطن تأكدت أن الرهان جاء متأخراً فالولايات المتحدة وهي نفسها غير قادرة على عمل أي شيء لم تأخذ الخطوات اللازمة تجاه المتنافسين: اسرائيل، وسوريا، لايقافهما عن اقتطاع لبنان والتعدي على حدوده، اما اللبنانيون الذين يشككون بأمريكا فقد أصرّوا على أنها هي التي مهدت لذلك.

ان هذه العملية لم يعلن عنها بهذه الصورة، بل انها الطريقة الوحيدة لتقوية لبنان وصيانته، وربما لم يكن في واشنطن من استطاع تقدير النتائج، ولكن هنا بعد ست سنوات كان هذا ما حصل.

لا غرابة في أن اكون منزعجا من زيارة آل فرنجية، لقد حاولت في المرة الاولى أن امهد للمقابلة معهم في سنة ١٩٨٠ ولكن بسبب عطل الاتصال التلفوني لم اوفق بذلك، رغم أني بذلت جهدا لبضعة ساعات. (كان هذا ايضاً من حكايات التاريخ في لبنان)، وحكاية الهاتف اقدم من الحرب الاهلية، وغالبية اللبنانيين يلقون المسؤولية على طوني فرنجية، الذي كان وزيرا للبرق والبريد والهاتف خلال سنة ١٩٧٠، وكان متهما بأنه ملأ جيبه بمبالغ طائلة كانت مخصصة لتحديث هام في الشبكة، فالاتصال التلفوني بواسطة القمر الصناعي تأخر لعشر سنوات، عندما رفض المتعهدون وعلى الاخص الامريكان الذين يملكون الاجهزة ان يدفعوا المبالغ الطائلة السرية عن قيمة تركيبها واستعمالها الى

طوني، في تلك المرة التي كانت الاولى اخذت طريقي الطويلة لأقابل هذا الزعيم الاقطاعي دون موعد رسمي، فوجدته في مقر اقطاعيته الصيفي في اهـدن، كان من الممكن رؤية القصر الصيفي من مسافة بعيدة، فقد كان مبنيا بالحجارة البيضاء ومصبوغا بالابيض والازرق بأتقان اظهره اكثر فخامة من مقر الرئاسة بالقرب من بيروت. وعبر الشوارع المزدانة بصور ملونة للضحايا طوني، وزوجته، وابنته، انطلقت بسيارتي الى بوابة القصر، هناك جرى تفتيشي من قبل مسلحين، سيئي الظن، الذين بعد فترة من تأخيري امام الباب، اكثر ما هو من اللائق، طلبوا مني أن اعرّف عن نفسي، واخذوا بطاقتي الى من هم في الداخل، وهنا انتقلت الى غرفة المدخل، حيث اوضحت الغاية من زيارتي، لقد اصغوا اليَّ بأدب، وسرت في طريقي وانا متضايق من كون مقر فرنجية كان متحفظا تجاه كل ما هو امريكي، وبعد معـالجات واتصـالات بـوسطـاء مـن اللبنـانيين ذوي النفـوذ استغرقت ساعات طويلة عبر خطوط الهاتف المهترئة من اجل أن تطمئن العائلة وتؤمن لي الطريق الى الرئيس، لقد كان سليمان فرنجية في مقره الجبلي لا يزال رئيسا. واذا بدا لي أن وصولي الى سليمان فرنجية كان يمثل هذه الصعوبة بعد سنوات من نزوله عن كرسي الرئاسة، فقد كان ذلك من الامور المستحيلة على الولايات المتحدة الامريكية عندما كان لا يزال في الحكم في وقت الحرب سنة ١٩٧٦؛ سألت صونيا عما اذا كانت العلاقات بينه وبين كودلي قد تحسنت مما يساعد على جعل الولايات المتحدة تعمل على ايقاف العنف، ولكني شعرت بأنه كان علي أن اكون اكثر اطلاعا لأنها ردت عليّ بما يلي «لسنا نحن الذين نحارب الولايات المتحدة، أنها سياسة امريكا التي تريد أن تكون الحالة في لبنان كما هي عليه، وان يحصل ما حصل. هذه هي الحقيقة التي نؤمن بها وسنبقى الى ان تبرهن امريكا العكس».

في لبنان ما ترمز اليه صونيا، لا يحتاج الى توضيح، انها صورة الحقد الماروني والارتياب الموروث منذ أن طُردوا من سوريا «وهم يشيرون لما لاقـوة مـن أضطهاد على ايدي المسلمين منذ (١٣٠٠) الف وثلاثماية سنة، من حكم الاسلام القوي، واختيارهم الانعزال في الجبال، كله تجمّع في عبارة صونيا، فالموارنة الذين يباهون بنزعتهم الاستقلالية مستعدون لمواجهة كل الاحتمالات بثقة سماوية، وهم ايضاً يشاركون في ذلك الاندفاع الى الاعتماد المميت على الغرباء، اولئـك القـادمين مـن الغـرب عبر البحـار، بينما المسلمـون

اللبنانيون يؤازرونهم بالالتفات الى تلقي العون والتأييد من العالم العربي، وصونيا كانت ولو بتلميح بعيد تشير الى ايمان الموارنة بأنه من واجب امريكاان تعضد المسيحيين، وليكن ما يكون، كان ما يدور من احاديث على الصعيد المحلي، ان لبنان المؤيد للغرب هو المؤهل ليكون مركب امريكا الاقتصادي في الشرق الاوسط، كما هي جارته اسرائيل، المركب السياسي، فالولايات المتحدة الاميركية التي لم تكن لها قبل الحرب العالمية الثانية مضالح حيوية في المشرق، وجدت نفسها تلملم ما كان لبريطانيا وفرنسا من غنائم اقتصادية وسياسية وثقافية بعدما تضاءل نفوذهما عقب مغامرة السويس سنة ١٩٥٦، وما كان لها من اثر في خفض تأثيرهما، انه كان اكثر من الطبيعي ان تكون الولايات المتحدة هي الوريث الذي يلبس عباءة بريطانيا وفرنسا، فالقوات الغربية اصبحت تشتري الانتخابات شراء في لبنان، كما كانوا قد خططوا واستعملوا نفوذهم في طرق اخرى منذ اكثر من قرن من الزمن، ولكن اين الدهشة ألم يصرح وليم كولبي، عندما كان مديرا لوكالة المخابرات المركزية أمام الكونغرس سنة ١٩٧٦، بأن الوكالة قدمت السلاح والمال للكتائب، ولحزب الطاشناق الارمني، فهذه النشاطات التي قامت بها الوكالة المركزية كانت جزءاً من سياسة الحرب الباردة، التي تقول باستخدام الاقليات المؤيدة للغرب في النضال ضد الشيوعية، والمسيحيون اللبنانيون كانوا يعتبرون انفسهم جزءاً من العالم الحر، ان هذا كان اصطلاحا اخذوه دونما ارتباط به، بعد ان كان لفترة طويلة عبارة سخرية على لسان الامريكيين، بفعل تطلعاتهم الى الممارسات الاستعمارية، هكذا كانت تتوسع نشاطات وكالة المخابرات المركزية في سنة ١٩٥٠، عنها قال لي احد سفراء اميركا بعبارة هي عنوان تلك الفترة «اننا نشتري الناس بالجملة». وانا لم استغرب عندما اكتشفت ان كل انسان ممن لهم شأن ما في لبنان، كان على جدول المدفوعات في المخابرات المركزية، ومع هذا كنت احب ان اجد دليلاً كافيا، ولكن ما ظهر أنه الدليل هو ما قدمه احد المشرفين على عمليات وكالة الاستخبارات المركزية سابقا في الشرق الاوسط، وهو ولبر كراين ايفلاند في كتابه، حبال من الرمال، نشر في سنة ١٩٨٠ رغما عن محاولة الوكالة تأخير توزيعه، أن ايفلاند ذهب الى أبعد من اثباته الديبلوماسي، لما كان منذ وقت طويل قد أصبح معروفاً لدى الطالب البيروتي، فباسم محاربة الشيوعية والوحدة العربية وكلاهما كانا موضع شك وزير الخارجية الاميركية جان فوستر دلاس واخيه «الان» مدير الوكالة

فإن الوكالة قامت بتمويل انتخابات سنة ١٩٥٧. كتب ايفلاند ان السفير الاميركي دونلد هيث، أصر على اتخام العملية بالمال، ليتفوق على سبعة من السياسيين[1] كانوا قد استقالوا من البرلمان احتجاجا على سياسة كميل شمعون المؤيدة للسياسات الاميركية، وحيث هذا اشترط أن يكون شارل مالك وهو المؤيد المتحمس ووزير الخارجية واحدا من المرشحين، تلك العملية وحدها كلفت الوكالة كما قال ايفلاند، «خمس وعشرين الف دولار تدفع لمالك لتغطية نفقاته الانتخابية، ومثل هذا المبلغ لتغطية ما يحتاجه شمعون لدحر مخاصميه، وفي الواقع كانت هذه المبالغ المقررة للرشوة بعهدة شمعون، يوزعها بنفسه، وكان ايفلاند أثناء الحملة الانتخابية ينتقل بصورة منتظمة الى القصر الرئاسي، حاملاً معه حقيبة محشوة بالليرات اللبنانية، ثم يرجع ليلاً الى السفارة حيث كانت الوكالة تملأ الحقيبة الفارغة ومما قاله، «لقد كانت سيارتي الاميركية بلونها الفضي الابيض المميز منظراً مألوفاً ومكشوفا للجميع مما جعلني اقترح على شمعون ان يعيّن وسيطا ومكاناً بعيداً، ومما قاله ايفلاند زيادة على ذلك، «ان شمعون أصر على استلام المال بنفسه، فاقنعت نفسي، بأنه من المحتمل بأن لا يكون في لبنان من يأبه حقيقة لمجرد التفكير بما كنت اقوم به، وليس بمستغرب ان يكون مرشحو كميل شمعون قد فازوا بانتصار فائق بنسب عالية ضمنت ايجاد مجلس يخفض من شأن منافسي الرئيس الخاسرين، الذين جُردّوا من مراكزهم في البرلمان، وهي المراكز التي كانت تعتبر شيئاً مفروغاً منه لهم، وشمعون بعد هذا الانتصار اصبح مقتنعاً بأن يطلب من البرلمان في الدرجة الأولى تعديل الدستور، حتى يتمكن من ترشيح نفسه وانتخابه، لفترة ثانية. هنا قام اخصام شمعون بطلب المساعدة من مصر وسوريا، وفي اذار سنة ١٩٥٨ تحولت الازمة الى حرب أهلية، ثم في تموز «يوليو» انزلت الولايات المتحدة المارينز الى الشاطيء، أن لم يكن من أجل مساعدة شمعون وحده فلمساعدة انظمة عربية أخرى مؤيدة للغرب، من دول الشرق، أذ كانت قد هزمتها عملية الانقلاب التي اطاحت بالعاهل العراقي الذي تحميه بريطانيا، فالعراق معناها النفط والولايات المتحدة كانت تخشى ان تمتد الثورة فتشمل العالم العربي

(١) كمال جنبلاط - صائب سلام - رشيد كرامي - احمد الاسعد - عبدالله اليافي - حميد فرنجيه - صبري حماده.

مهددة مصالح الغرب النفطية في نواحي المنطقة كافة، ان لبنان لم يكن يعني امريكا سوى كمكان للمراقبة.

أن وجود المارينز الاميركيين في لبنان جمد القتال، ومكّن شمعون من انهاء مدة ولايته وهي ست سنوات، وللزيادة في اغاظة شمعون كان ان خلفه الجنرال فؤاد شهاب قائد الجيش الذي كان قد اتهمه بالامتناع عن استعمال الجيش لقمع الثورة، وشهاب تمكن من ترقيع العلاقات مع مصر بمباركة امريكا وكانت قد استمرت تمارس المهمات القنصلية في بيروت لعدد من السنين التي تلت، وشهاب تراجع عن العلاقات القوية التي مارستها ادارة شمعون في التأييد الغربي، واعتنق سياسية خارجية غير منحازة اعتقد انها اكثر ملاءمة لأوضاع لبنان الذي هو في جزء منه مسيحي، وفي الجزء الآخر مسلم، وبلد من العالم العربي.

في نهاية الصيف، حزم الالف واربعماية عنصر من المارينز حقائبهم وعادوا الى قواعدهم في الاسطول السادس، كان التقرير غير الرسمي لأمريكا بعد الحرب واحداً من اعمال الانقاذ الصامتة التي كان يمكن للولايات المتحدة أن تلجأ اليها لتنقذ نفسها دون احراج، من مأزق كان من صنعها، غير أن اولئك الذين درسوا الموقف بأمعان اكثر لم يعجبهم ما شاهدوه، وتلاميذ من الشرق الأوسط، وبينهم أشقاء دلس، صرحوا «أن شمعون اضاع وقتنا سدى»، هذا ما قاله سياسي امريكي كانت له نشاطات في الشرق الاوسط عند ذاك، ان سنة ١٩٥٨ كانت في الحقيقية ثورة لبنانية وبارسالنا المارينز اوقفنا تناميها، اذ كانت ستعطي المسلمين نفوذا أكثر في السياسة. ولم تكن واشنطن راغبة في تبني ثورة أو أي أتجاه نحو أمر مثل ذلك حتى في بلد مثل لبنان مؤيد للعالم الغربي، بينما بعد عشرين سنة تصرفت تصرفا معاكسا للتدخلات بما يقودها الى مشاكل خارجية، فبعد حرب فيتنام، لم تعد الولايات المتحدة تهتم بما كانت تصفه بالاضطرابات الشرقية اللاخلاقية كما هي السياسة في الدولة اللبنانية وأضاف هذا الديبلوماسي «عندما نواجه الحقيقة فإن العدد القليل من ابناء الولايات المتحدة خصوصاً في الادارات، كانوا يعيرون لبنان ككل أي اهتمام خلا المبشرين وربما القليل من النفطيين» ومما قاله احد صانعي السياسة لوكالة الاستخبارات الاميركية «ان للولايات المتحدة عدة سياسات سياسة لأسرائيل، سياسة نفطية، وسياسة للعرب المتطرفين «راديكاليين» وسياسه للعرب المحافظين وسياسة للتصرف الاقليمي مع السوفيات ولكن لم يكن لها سياسة للبنان. فالسياسة للبنان لم تكن

في الحسبان ». والشيء المزعج ان لبنان لم يفهم رسالة واشنطن، وهذا العجز في تفهم سياسة واشنطن أثَّر تأثيراً سيئاً على العلاقات الاميركية اللبنانية، قد يمتد الى ما بعد زماننا الحاضر، ربما الى الجيل القادم، ان بيروت كانت مركزا للمخابرات و الجاسوسية، وللتجارة لأمد طويل، مما جعل اللبنانيين يفترضون وجود حقائق لم تكن في الواقع موجودة، لقد أُسيء فهم احد الموظفين المكلفين بدراسة لقضيتهم مع انه كان متعاطفا وملما بشؤونهم، ذلك كان دائماً هو الموقف الصعب في العالم العربي، ولكنه في لبنان كان ظاهرة ثابتة فاللبنانيون وعلى الاخص الموارنة، الذين هم في السلطة، اعتقدوا أن مجرد غمزة حاجب على غذاء، أو عناق سفير، كانت تعني تصرفا سياسيا ». اخبرني احد الاميركيين من ذوي الاختصاص في الشرق الأوسط قائلاً: « انا لا اعتقد أنه كان هنالك التزام اميركي لما كان يفسره اللبنانيون محادثات، فالسياسيون اللبنانيون كانوا يستطيعون التوصل الى المسؤولين من الدرجة الوسطى، أو من الدرجة العليا عبر السنين، ولكن في حدود المجاملات. لقد كانوا يُستقبلون في واشنطن كغيرهم من السياسيين الغرباء الذين يسعون الى التأثير على رعاياهم، بأن لهم في امريكا تأييد. أنهم كانوا يُعاملون بأحترام ولكن اسئلتهم كان يجاب عليها بأبهام مغلف بعدم مبالاة. في سنة ١٩٥٠ كانت السفارة الامريكية في بيروت في حالة جمود ثم بعد الانتصار الاسرائيلي في حرب الايام الستة في حزيران سنة ١٩٦٧ قامت الدول العربية بقطع علاقاتها مع واشنطن. فهذه كانت طريقتها بأظهار استيائها من مساعدة امريكا لاسرائيل، ولكنها كانت اشارة أيضاً لما كانوا فيه من اذلال وتحقير، أما لبنان فلم يُشارك في ذلك وعليه فإن السفارة الاميركية في بيروت اخذت على عاتقها المسؤوليات الاقليمية محاولة « تتبع الاحداث في العالم العربي كافة » ومرة ثانية بدا ان صانعي السياسة في امريكا أخذوا يهتمون بلبنان، ولكن ليس باللبنانيين بينما كانت واشنطن معجبة بالفلسطينيين الذين استحوذوا على ماكان للدول العربية التي هزمت امام الضربة الاسرائيلية الصاعقة، من اهتمام. لقد كان اهتمام الامريكان المفاجيء بالفلسطينيين مبعثه قدرتهم على نشر الرعب لكسب انتباه العالم لقضيتهم التي كانت منذ أمدّ مهملة، فالفلسطينيون اصبحوا القوة الديناميكية في الشرق الأوسط، قادرين على خلخلة الأوضاع، بل ربما ايجاد حالة من القلق توجب التفكير بحل ما، فاختطافهم للطائرات التجارية، وهجومهم على المواطنين الاسرائيليين في الداخل، وفي

الخارج، وعلى الدولة اليهودية، كان مادة للعناوين البارزة في الصحافة.

ان اتفاق القاهرة في نوفمبر «تشرين الثاني» سنة ١٩٦٩، الذي تمّ بين منظمة التحرير الفلسطينية، والحكومة اللبنانية بوساطة عبد الناصر، سجل نقطة عدم رجوع للسيادة اللبنانية، وكرّس فعلاً منظمة التحرير كدولة ضمن الدولة، فأصبحت السيادة اللبنانية على أرض لبنان منتقصة بشكل ملحوظ، لقد كانت المنظمة بعد ذلك مسؤولة عن مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، أمناً وادارة. وكان الفدائيون مسموحاً لهم بأن يقيموا قواعد لمحاربيهم، ومخيمات تدريب، في منطقة العرقوب على الحدود السورية والاسرائيلية بالقرب من جبل الشيخ. كما كان يُسمح لعدد محدود من الفدائيين للتحرك تحت اشراف الجيش اللبناني في القطاع المركزي المواجه للجليل، وخلال شهور لجأ الفلسطينيون الى تجاوز حدودهم هذه، وبداالمسيحيون اللبنانيون في خوف من ذلك، ولكن النواب في البرلمان باستثناء نائب واحد هو ريمون اده وافقوا على اتفاقية القاهرة التي اعتبرت سرية، وجميع السياسيين الاميركيين المعينين في العواصم العربية اسفوا ضمنا لأهتمام واشنطن الرسمي بالفلسطينيين، واعتبروه عملاً غير سياسي، والمحادثات ذات المعنى مع منظمة التحرير الفلسطينية لكونها تتعارض مع الاجراءات الطارئة التي تمليها تعقدات امنية أو ضرورات مؤقتة، كانت تتعارض مع سياسة الحكومة، كان هذا يبدو حقيقياً حتى قبل ان تتمكن اسرائيل من استخلاصها ملحقاً سريا من وزير الخارجية الامريكي هنري كيسنجر، تتعهد بموجبه الولايات المتحدة بأن لا تتفاوض مع منظمة التحرير. لقد كان هذا هو الثمن الذي دفعه كيسنجر الى اسرائيل لصحراء سينا وهو انسحاب نفذته الولايات المتحدة الاميركية في ايلول سنة ١٩٧٥، عرف بالرمز الدبلوماسي بأسم سيناء رقم «٢» فالاتفاقية تضمنت أكثر من مجرد التراجع من سيناء تضمنت السيادة المصرية، وحققت أول اتصال كبير لا بين مصر وسوريا اللتين كانتا محوراً لأتخاذ مواجهة اسرائيل سنة ١٩٧٣ بيوم الغفران، وما نتج عنه من الغاء ما كان سيجري من محادثات في الشرق الاوسط على نطاق واسع مما كان مقرراً بصورة رسمية، لأن اسلوب الخطوة خطوة كان موضع انتقاد عام من الدول العربية المحافظة والراديكالية، معتبرين أن مصر قد اخذت الخطوة الأولى لصلح منفرد مع اسرائيل، وأن ذلك سيكون لصالح اسرائيل، أذ أن العرب سيخسرون أكبر قوة مسلحة في العالم العربي، لقد كانت اتفاقات كامب دايفيد،

تلك التي اخرجت مصر من المعادلة الحربية في المنطقة ومكنت اسرائيل من التفوق على خصميها الرئيسيين سوريا ومنظمة التحرير دون التعرض لخطر كبير، هي ما سيأتي في رأس كل عمل منتظر.

ان المسيحيين اللبنانيين لم يرغبوا اطلاقا في ان يكون لهم جيش وطني بالمعنى الصحيح. أن هؤلاء التجار الذين يدعون أنهم من احفاد الفينيقيين كانوا لا يريدون الانفاق على جيش كهذا، وأنهم كانوا لا يريدون إغضاب اسرائيل كما كانوا يرفضون تشجيع أي عمل يرمي الى تقوية هذا الجيش، خوفاً من أن يصبح قادراً على اجراء انقلاب كما وقع اكثر من مرة في دول العالم العربي، غير أنهم دفعوا الثمن فيما بعد، ففي سنة ١٩٧٠ قام الجيش الاردني بسحق الفلسطينيين فيما عرف فيما بعد بأيلول الاسود، وعلى الأثر قام آلاف من الفلسطينيين المحاربين الذين نجوا من نقمة الجيش الأردني بالانتقال الى لبنان في الوقت الذي كان فيه الرسميون اللبنانيون منزعجين من حزام المخيمات الفلسطينية الذي يحيط ببيروت والذي قال عنه احدهم «انه كالحبل في اعناقنا».

ان اسرائيل والولايات المتحدة توصلتا بعد اغتيال السفير الامريكي في السودان سنة ١٩٧٣، الى الاعتقاد بأن كليهما مهددتان بالأرهاب الفلسطيني الذي يقوم به الفدائيون، وقد ذكر أحد الدبلوماسيين الامريكيين «نحن الامريكان ضد الفلسطينيين مائة بالمائة نحن اطلقنا عليهم اسم مخربين، في وثائقنا وبياناتنا الرسمية، وقد سمحنا لأنفسنا بأن نخليهم من افكارنا. ولكن مثل هذه السياسة كانت عند اسرائيل ما جعلهم يأسفون له، عندما اخذوا يتساءلون عن تقصير مخابراتهم في توقع يوم الغفران أو هجوم شهر أكتوبر سنة ١٩٧٣، الذي اوقعوا اللوم فيه على جماعة الموساد لأنهم صرفوا إنتباههم عن تعقب الفلسطينيين في انحاء العالم، مغفلين شأن أكبر عدوين لهم: مصر وسوريا، وأن اسرائيل تستنتج اليوم بصورة خاصة أن التهديد العسكري لدولة اسرائيل انما هو حرب تشنها عليها الجيوش العربية مشتركة وليس الفلسطينيين.

في سنة ١٩٧٠ توقف في لبنان جوزيف سيسكو الذي كان مساعداً لوزير الخارجية في شؤون الشرق الأوسط وجنوب آسيا مع سكريتاره وليم روجرز، وقد تكوّن لديهم انطباع أن لبنان لم تكن لديه قوة تستطيع ان تفرض الأمن والنظام والسلطة، وأن اللبنانيين كانوا قلقين، لكون الفلسطينيين دولة ضمن الدولة، لذلك ففي السنوات التي تلت قامت

واشنطن بحثّ حكومة سليمان فرنجية على ضرب الفلسطينيين، قبل أن يستفحل امرهم تشبها بالعملية الاردنية التي اصبحت على كل لسان حتى لدى السفارة الامريكية، وهي عملية خرج منها الملك حسين منتصراً في سنة ١٩٧٠ - ١٩٧١ وفي ايار سنة ١٩٧٣، قامت اسرائيل بغارة على قلب بيروت، وقتلت ثلاثة من كبار الفسلطينيين دون أن تواجه بأية مقاومة من الجيش الذي كانت ثكناته واقعة في نفس المكان وعلى الأثر قام صائب سلام، وهو رئيس الوزراء، يطالب باستقالة قائد الجيش، ولما رفض طلبه قدم استقالته هو بنفسه الى فرنجية. ان امتناع الجيش اللبناني عن اتخاذ أي اجراء جعل المسلمين يعتقدون بأن قادة المسيحيين يوافقون ضمنا على الضربة الاسرائيلية، فكان بالنتيجة أن اختطفت منظمة التحرير اربعة جنود لبنانيين، وقام فرنجية على الأثر باصدار اوامره الى الجيش اللبناني المؤلف من خمسة عشر ألف رجلاً، ليتدخل وهكذا تحرك بقواته من ثكنة بئر حسن إلى مخيم اللاجئين في صبرا، الواقع في جنوبي بيروت والمحصن تحصينا قويا، وهو المكان الذي يقع بالقرب من ثكنة بئر حسن، لقد كان يبدو وكأنه قلعة مكتظة بالدبابات، ومما ذكره احد الديبلوماسيين «أنها المرة الأولى بل الوحيدة التي رأيت فيها القوات اللبنانية تقوم بعمل فاعل، كانت هنالك معارك قوية وقد استعين بالطائرات لقصف الفلسطينيين في برج البراجنة بالقرب من مطار بيروت الذي كان الفلسطينيون قد عطلوه بقنابل المورتر. والأمر الغريب كان أن هجوم الجيش المقرر في الصباح لم يحصل إلا عند العصر، وفي اليوم التالي كان هنالك هدنة وبها انتهى كل شيء، ولو أن المناوشات استمرت لعدة أيام، أما من وجهة نظر السفارة الاميركية فإن فرصة القضاء على محاربي منظمة التحرير قد ضاعت «يكفينا تشبها بما جرى في عمان» تلك أقاويل ترددت في بيروت عن لسان رئيس الوزراء المكلف أمين الحافظ الذي كان متزوجاً من زوجة مؤيدة للفلسطينيين، اذ أنها طلبت منه أن لا يصعّب الأمور بينما اللبنانيون الآخرون اعتقدوا بأن سليمان فرنجيه لم يشأ القضاء على الفدائيين، بل كان يريد اخافتهم، ان غاية فرنجية الحقيقية كانت ان يختبر المسلمين الذين في الجيش. فالغارة على المواقع الفلسطينية قام بها طيارون مسلمون، وهكذا فالجيش الذي هو برئاسة مسيحية تبين له أنه يستطيع الاعتماد على المسلمين، رغم الظن المتنامي أنهم ككل المسلمين في المجتمع المدني كانوا مؤيدين بصورة متزايدة للفلسطينيين. ومهما كانت قيمة هذه الممارسات فكلا

الجانبين استخلصا منها نتائج متشابهة، ففرنجية الذي كان قد بدأ بتشكيل ميليشيات المردة الخاصة به سنة ١٩٦٩ بمساعدة من ضباط الجيش اللبناني، دُفع الى الاسراع بتدريب ميليشياته الخاصة. ومثله فعل قادة المسيحيين الآخرين وعلى الاخص آل الجميل، فبدأ السلاح الخفيف يصل من بلغاريا وبدأت التدريبات بشكل جدي في المناطق المسيحية وحتى في الاردن حيث كان الملك حسين منذ زمن طويل صديقا حميا لكميل شمعون وهكذا اصبحت الجبال التي كانت في وقت ما منتزهات أيام الآحاد، مسرحاً لأطلاق النار من البنادق، والرشاشات، وقذائف المورتر، التي كان يتدرب على استعمالها الشباب من المسيحيين والفلسطينين أيضاً أخذوا يقوّون وسائل دفاعهم، فعلى الصعيد السياسي أقاموا علاقات مع حلفاء يساريين ومسلمين لبنانيين، آملين أن تؤمن لهم مساعدة هؤلاء، حماية من حكومة مسيحية كانت كما ادعوا تهدف الى تدمير ملجأهم الأخير، وعسكريا حققوا وجودا مسلحا في مقابل المعاقل المسيحية الرئيسية أو نقط المواصلات الثابتة الاستراتيجية.

وعندما اقتربت الساعة كان المسيحيون يحاولون ضمان المساعدات من اصدقائهم التقليديين، كفرنسا، وعلى الأخص الولايات المتحدة الامريكية، لما كانوا يعتبرونه كحرب لابد منها مع الفلسطينيين واليسار والمسلمين، وبعد اسبوع من وصول كودلي في شباط سنة ١٩٧٤ كسفير للولايات المتحدة بدأ هذا يصغي الى المسيحيين الذين كانوا يتحدثون عن التقسيم، ان مجرد وجوده كان موضع جدل، بل كان تفسيرا لما كان يسميه العرب الغربيون في نزاعاتهم العنصر السيء أو المشؤوم، فان سمعة كودلي عندما كان سفيرا في لاووس في أوائل سنة ١٩٧٠ كعامل مؤيد وجريء لاستخدام القوة الامريكية، كان قد سبقه انتشارها لذلك، فقد اقترح البرلمان اللبناني على الحكومة عدم الموافقة عليه. وفي الوقت ذاته فالمعلومات التي اعطيت له قبل مغادرته واشنطن، كانت أن لا يلعب دور المارشال، أو رجل الحرب، وهي نعوت كان قد وصف بها عندما كان سفيراً في لاووس، ولم يقم في هذا الوقت بالذات باجراء يثير الدهشة، فالولايات المتحدة الامريكية كانت لا تزال في دوار، من جراء عملية الاحتيال في ووتر غايت. لقد كان أيضاً التخلي النهائي عن الهند الصينية في مرحلته الأخيرة، وكانت المخابرات المركزية تخضع لتحقيق من قبل مجلس الشيوخ، فنشاطاتها السابقة كانت موضع شك وتساؤل، من قبل الرأي العام. وكان كيسنجر فقد لمعانه كصانع معجزات، كما كان ايام ولاية نيكسون الأولى،

ايام كان يقوم بمهات سرية الى الصين، ويجري مفاوضات لتخفيض الاسلحة مع الروس، وينظم عمليات انسحاب مشرف لجيوش الولايات المتحدة من الهند الصينية، وهكذا وجد نفسه في شرك من المشاكل لا مثيل له، اذا لم يبقَ له غير القليل من سمعة كان قد حققها منذ سنة، فوُصف بأنه كيسنجر الأسطوري، اذ لم يعد بأمكانه أن يخدع مجلس الشيوخ والبلاد، بدبلوماسيته المكوكية في الشرق الأوسط، فهو الآن أمام ما جرته عمليات المخابرات المركزية في انجولا من سمعة سيئة، وصانعو السياسية في واشنطن كانوا يخشون من مفاتحة مجلس الشيوخ بصدد وجود عسكري في الشرق الأوسط، حتى أن البعثة المساعدة لعملية سينا اسندتها الادارة الامريكية الى متعهد، لا الى الجيش للقيام بمراقبة فكّ ارتباط القوى في سينا الثانية (وللأسباب نفسها تأخر أيضاً التعاطي بقضية الخليج حتى سنة ١٩٧٩) ولكن السياسيين المارونيين في لبنان لم يحسبوا حسابا لهذه الانعزالية الامريكية الجديدة، وهو فشل مذهل لطائفة تعتمد بوجودها وازدهارها عبر الاجيال على ما يجري من احداث خارج حدودها. وفي صيف سنة ١٩٤٩ اغتنمت تركيا فرصة انشغال اليونان بمشاكل عسكرية، فقامت بغزو قبرص، ومع أن هذه الجزيرة تقع على أقل من مئة وخمسين كيلومتراً من الشاطيء اللبناني، فإن اللبنانيين لم يتنبهوا الى حقيقة أن الولايات المتحدة لم تتدخل لأنقاذ المسيحيين الاقباط، الذين يشكلون الغالبية، من المسلمين الاتراك، أن كودلي وآخرين غيره من السياسيين طلبوا من المسيحيين ضبط النفس واللجوء الى المفاوضات والتسوية وكانوا بصورة دائمة يقطعون أمل الموارنة من امكانية انزال آخر للمارينز على الشاطيء اللبناني، غير أن المسيحيين كانوا غير مقتنعين، وأثاروا مطالبهم ثانية وثالثة ورابعة وبعد مدة طويلة في سنة ١٩٨٠ سألت سليمان فرنجية عن ذلك، ولكنه تغافل عن مثل هذه الاعتبارات ولعن كودلي وتصرفاته المنحرفة فقال: «لقد جاء الينا من فيتنام أنه كان اشد السفراء خطراً، وأنت تعرف اكثر مني ما الذي يستطيع عمله السفير الامريكي». بيد أنه كان من الممكن أن يكون أكثر دقة لو أنه قيّم الأمور تقويما آخر، أذ أن الحقيقة هي أنه لم يكن هنالك من كان يعير انتباهه لكودلي ويصغي اليه، إذ نادراً ما يقوم السفراء بوضع الخطط، ومع ذلك فإن بعض أبناء بيروت المتفائلين كانوا يأملون انه بالأمكان تلافي ما هو اسواء (وذلك يعود للتوازن الذي كان قائماً بين ما يستطيعه الفلسطينيون بالاشتراك مع حلفائهم، وما تستطيعه الميليشيات

المسيحية) ولكن بناء على ما اكتشفته بنفسي عند توقفي لمدة اسبوع في بيروت خلال شهر أيلول سنة ١٩٧٤، فقد كان السياسيون والدبلوماسيون متخوفين، لأن أمر الانفجار لم يكن سوى مسألة وقت، وعندما نشرت في الوشنطن بوست نبؤتي بالكارثة، اتهمت بأنني نذير شرّ، فاصدرت الحكومة اللبنانية قراراً بمنعي من دخول البلاد لمدة ستة أشهر، أن نبأ الفضيحة الصغيرة لم يأخذ بها اللبنانيون ولا الولايات المتحدة ولا الحكومات الأخرى، ليعملوا على معالجة الأمور، بل أن بعضاً من اصدقائي أخبروني أني كنت موضوع تندر في محادثاتهم.

ان السياسيين المسيحيين لم يستطيعوا ولا حاولوا أن يفهموا أن الولايات المتخدة كانت تريد أن تبتعد عن مشاكلهم المتعبة واساليبهم السياسية التي كانت تأخرا مما هي عليه أكثر أمارات الخليج، كل الإيضاحات التي قدمت لهم بطول اناة وصبر مشفوعة بالبراهين، لم تجد نفعا، لقد اغلقوا عقولهم في وجه كل حقيقة تتعاكس مع ما يريدونه أن يكون عونا امريكيا فاعلا، فإن ذاكرتهم كانت تتغذى من الانطباعات التي تكونت عندهم في سنة ١٩٥٨، أليست الولايات المتحدة هي زعيمة العالم الحر وأقوى قوة على وجه الأرض، وبالتالي دولة مسيحية؟ وهكذا فهي حليف طبيعي، ان موقف اميركا في خليج الخنازير، وعملية مارتن لوثر كنغ، واغتيال كندي، وما جرى في فيتنام، وكمبوديا ولاوس، وولاية كنت، ووترغايت، لم يكن مسجلاً عند الزعامة المارونية، فكل ما كان يعني المسيحيين هو أنه منذ امد بدأت الولايات المتحدة بتشجيع الحكومة اللبنانية «أي المسيحيين الموارنة، لينقضوا على الفلسطينيين. ان المسيحيين اليوم على استعداد ليقوموا بالمهمة ما دام أن الجيش اللبناني كان قد برهن في سنة ١٩٧٣ عن عجزه في تحقيق مثل ذلك، قد يكون انزال آخر للمارينز شيئاً ملائماً، ولكنه ليس بالضرورة الملحة، ففي هذا الوقت يستطيعون هم القيام بالمهمة أنفسهم اذا كانت واشنطن تؤمن لهم المساعدة الدبلوماسية وتمدهم بالسلاح والذخيرة، أو على الأقل تشجعهم، وكما قال كودلي بعد سنوات «يعلم الله أن الموارنة لم يقبلوا النصيحة، ولكنهم اختاروا تجاهلها بابتسامة عريضة أن لم نقل غبية».

كانوا يعتقدون أنهم يعرفون أكثر منا، ولم يبالوا بلا النافية، كجواب، فبكونهم كانوا مقتنعين أن كودلي كان شخصياً ضد القضية المارونية المقدسة، فقد تمسكوا بما توهموه

من أن من في الادراة بـالبيـت الأبيـض ومجلس الشيـوخ يحبـونهم، وبتجسيـدهـم لهذه التأكيدات التي لا تهتز وبمطالبتهم الوهمية لأستدراج المساعدة الاميركية، فقد كان وزير الخارجية السابق شارل مالك، وهو روم كاثوليك، ولكنه اكثر مارونية من الموارنة، لا يتوانى عندما كان الأمر يقتضي البت به عن زيارة امريكا وعرض الأمور، فإن تخرجه من جامعة هارفرد والعديد من اصدقائه الامريكان الذين اكتسبهم اثناء قيامه بدور سفير في واشنطن لعدة سنوات، وممارسته التعليم في الجامعة الامريكية في بيروت، وعلاقته بعائلة روكفلر، ثم اتصاله الشخصي مع ريتشرد نيكسون[1]، كل هذه الأشياء اعطته المكانة المحترمة بالمعسكر الماروني المعزول واسكتت المنتقـديـن الذيـن كـانـوا يستغـربـون قصر نظـره الستراتيجي، ففي أيام نيكسون كرئيس، كان مالك يقضي ايام نهاية الاسبوع في البيت الأبيض، وكان يتمتع بقوة ضغط كافية حتى أواخر سنة ١٩٨١ ليفيد من علاقته الامريكية، فيتوصل الى تهيئة لقاء مع وزير خارجية امريكا الكسندر هايغ، أن كتائبيا كبيراً أعاد عليَّ ذكر محاولاته غير الموفقة بإيضاح، وعرض أخطاء هذا السبعيني في القيادة المارونية، قبل حلول الضرر في ايامه الأولى للحرب اللبنانية ادعى مالك، أن المارينز سيكونون رهن أشارته، ولكن بعد أن مرت الأيام ولم يأتوا كان يقول « صحيح أنهم تأخروا ولكنهم في النهاية سيأتون » الكلام لا يزال للكتائبي الذي يضيف قوله « لقد سبب لي الكثير من الأسى فوجدت نفسي أقول « لو اعتمدت ما يجري من أحاديث مع امريكان سياسيين أو مراسلين لاستخلصت في النتيجة أن الولايات المتحـدة لـن تسـاعـدنـا . كنـت صغيراً في ذلك الوقت وكان مالك هو من يسترعي انتباه بيار الجميل، كان مالك وشمعون شركاء منذ سنة ١٩٥٠ » وأضاف « لا تنسى عقليتنا. أنه من المؤكد أن السفارة قالت لن يكون هنالك مارينز، ولكن كنا نأمل في حصول أعجوبة الاهية، مثل انقلاب عراقي آخر، أو أي شيء، أي شيء على الاطلاق فقد استمر مالك يقول لا تهتم سأذهب الى الولايات المتحدة واظهر على التلفزة، فهنالك الرأي العام هو ما يحسب له حساب، وعندما سألناه من أين له هذه المعلومات ولماذا وكيف كان كل هذا الوقت على ثقة مما يقول. اراد التهرب أو احب أن يشير الى أن البيت الأبيض كان متورطا، ولكني كنت افكر أنه مجرد تجديف، لقد كنا نريد أن نعتقد أن أي تغيير في بيان أو اعلان يصدر عن الادارة سنة ١٩٧٥ أكان قبل الحرب أو بعدها، فإن كيسنجر لم يعط، في أي حال من

الاحوال شيئاً من وقته الى لبنان، لقد كانت اساليبه الاستعراضية كأي شيء آخر فيه، هي ما يعطي تفسيراً لمثل هذا الاهمال، كان يرغب في حالات راهنة، أن ينصرف إلى العمل فقط عندما تتفاقم الازمة، ليوليها كامل اهتمامه، ولبنان لم يبلغ قمة تأزمه ليصبح في قائمة كيسنجر من الأولويات، إلا بعد أن كان الوقت قد فات، لقد كانت الأشهر الأولى من سنة ١٩٧٥ عند كيسنجر مخصصة لبذل كل جهد اضافي لأنجاح المفاوضات الآيلة لاتفاقية فك الارتباط في سينا الثانية، لم تكن الحكومة اللبنانية معارضة لسينا الثانية في باديء الأمر، ولكنها نبهت الولايات المتحدة الامريكية بأن لا تنسى لبنان حيث قبل كل شيء ظهرت الدول العربية المنافسة وبرزت لتأخذ مكانها، وأظهرت تطلعاتها في الصحف، وكان لهم وجود في بيروت، حيث أصبحوا منظورين أكثر، وكانوا يعملون ليؤمنوا وجوداً لجيوشهم الخاصة بين المليشيات المتعددة التي كانت متواجدة في بيروت كلها في هذا الوقت، في نيسان سقطت الهند الصينية، وكان على كيسنجر أن يزيد تدخله في انغولا، وهذا استغرق كل وقته في سنة ١٩٧٥، غير أن عدم أهتمام كيسنجر بلبنان كان مثيراً للاعجاب، اذ أنه اعطى كل اهتماماته لمصر وسوريا والاردن والدول العربية الأخرى المجاورة لاسرائيل، فإن لبنان الصغير المعقد المزعج المحاذي لاسرائيل، كان لسبب أو آخر مدعاة أهتمام اكثر، فضلاً عن أن لبنان كان طوال السنين مستعدا ليكون البلد الثاني الذي يوقع صلحاً مع اسرائيل، اذ أنه من المؤكد أن لبنان ما كان ليريد أن يكون الباديء، فها أن مصر وهي «الصيد الأكبر» كانت البادئة، وبجانب تصوير ميل امريكا لمعاكسة توريط قوات الولايات المتحدة، بأثارة حروب خارج حدودها، فألطف توضيح لعدم اشتراك كيسنجر، هو أنه كان ضحية لتصرفاته التي كانت الاضواء مسلطة عليها، تلك التي كانت تركز بكليتها على أية مسألة حصلت وباتت بمتناول اليد كأمر واقع يحتاج الى تمويه، وبالرغم من سمعته كصانع معجزات فانه لم يكن يستطيع أن يشغل نفسه بأكثر من أزمة واحدة بوقت واحد، وكيسنجر نسيّ لبنان بكل تأكيد، ولم يعط تعليمات لسفرائه أو يصغي لما لديهم من معلومات، وبينهم من كانوا متورطين معه مباشرة بمشاريعه، ومن واشنطن، فان البرقيات الصادرة من بيروت كان من النادر أن تخرج من ملف الوارد عند سيسكو، والموظفون الصغار حاولوا اقناع كودلي أن لا يكثر من البرقيات في الأشهر الأخيرة التي سبقت الحرب، مؤكدين لكودلي أن يأخذ علماً بأن كيسنجر لم

يقرأها وأنه على الآخرين أن يعرفوا بالأمر، أنه كان يوضح مستوى العمل الديبلوماسي مبينا في دفاعه اهمال الادارة له، أنه قام بواجباته ولكن موظفيه اعتقدوا أنه كان مثل الذي ينفخ في الهواء، وفي حساباتهم فإن صانعي السياسة في واشنطن كانوا يتعثرون دون أي شعور بالدراما اللبنانية المستعصية، وفي تموز من سنة ١٩٧٥ توقف القتال ولكن ليبدأ، بصورة أشدّ مرة ثانية، قبل ان ينتهي كيسنجر بنجاح من محادثاته في سينا الثانية بتاريخ الأول من ايلول «سبتمبر»، وأنه من الواقع أن تجدد القتال في لبنان جعل الدول العربية التي تعارض اتفاقية سينا، تتهم الولايات المتحدة بأنها كانت وراء الاضطرابات في لبنان، ألم يخدم القتال في أبعاد الاهتمام العام عن عملية فك الارتباط؟ ان سياسيا كان متورطا بهذه المفاوضات اسرّ مؤخراً «لا اعتقد أن كيسنجر كان غير مسرور بما يجري في لبنان من اضطرابات ولكنها لم تكن مما خطط له».

ولكن في جزء من العالم حيث اعتاد الناس ان يوقعوا اللوم على الآخرين وينتظروا الترياق من العراق، فغياب الامريكان عن المسرح كان يعتبر وكأنه من عملها، ان اصدقائي كانوا يبتسمون بهزء لما كانوا يحسبونه تظاهرا بالبراءة عندما احتجيت على مثل هذه التفسيرات، كان السبب لديهم أن استمرار الحرب يعود الى أن اللاعبين الرئيسيين في ازمة سنة ١٩٥٨ وهما الولايات المتحدة ومصر لم يكونا متورطين هذه المرة مباشرة. على كل حال فإنه عندما كان لبنان ينزلق الى الانتحار عبر الشهور لم يظهر أي نوع من الخطط الامريكية، بيدَّ أن الفاتيكان كان يرى بوضوح الاخطار المحيطة، ففي نوفمبر تشرين الثاني سنة ١٩٧٥ ارسل البابا مبعوثه الكاردينال برتولي وهو الأول من عدد من المبعوثين، من المقامات العالية في الفاتيكان ليبحثوا مع الموارنة ضرورة اتخاذ الموقف المعتدل، لكنه كالآخرين الذين جاؤوا بعده لم تلق مساعيه اذنا صاغية، وقد تبعه على الأثر موريس كوف ده مورڤيل وزير خارجية فرنسا السابق، ولم يكتب له النجاح رغم ما له من مكانة وما كانت فرنسا تتمتع به من احترام لدى الموارنة في الاجيال السابقة. ومع أن المنطق والحكمة المجمع عليها كانا يفترضان أن اللبنانيين كانوا شعبا واعياً وسيعودون الى رشدهم وسيتوقفون، غير أن الواقع الفعلي والتصرفات اليومية اثبتت عكس ذلك، ان صديقا لي، وهو من اصحاب البنوك البارزين كان يحاول أن يصرف نظري عن التفكير بالقتل والاغتيال باظهاره حقيقة أن مركزاً لبنك روسي، هو بنك نارودني، كان في طور البناء،

وهذا برهان على أن الروس لا يزال عندهم أمل بلبنان ويطلب اليَّ أن أكون كذلك. وفي يوم من أيام الخريف توقف البناء، وسرعان ما هاجر صديقي الى البرازيل وتبعه الآلاف من الغرباء الأُخر ومن اللبنانيين المقيمين، الى المنفى.

ولدهشة اللبنانيين من كل الفئات، ولعدد من الفلسطينيين، فإن الولايات المتحدة، لم تفعل على الأقل شيئاً يمكن رؤيته بالعين المجردة، قال ديبلوماسي امريكي رفيع المستوى بعد سنوات «ولكننا كنا في صدد تجميد قوتنا، بينما التدخل ليس مجرد نزهة مثل سنة ١٩٥٨، أننا بعد فيتنام لم يكن بأمكاننا أن نفعل شيئاً عمليا، وكذلك السوريون فقد كانوا عاجزين مثلنا عن القيام بعمل ما ذي تأثير فعال. كان ما يبديه الامريكان من عدم ارتياح، ما يحير، مما جعل الناس في الشرق الاوسط كلما اشتدت الأزمات يقتنعون بأن المخابرات كان من سياستها الخاصة، المرسومة، ولو بغير موافقة ومباركة ادارة فورد، كما كانوا يظنون وأن السياسة الخفية ترمي الى مساعدة المليشيات المسيحية، لتبقى في اللعبة رغم رغبتها التي جعلتها تقف مترددة على حافة الأنهيار، لقد كان الهدف كما توحي به تصرفاتها، اضعاف منظمة التحرير، والحصول على رضى المخابرات الاسرائيلية «الموساد»، فالمطلوب كان ضمان تعاون الموساد الفعلي، على الأخص بعد اعلان مجموعة من الفضائح المتعلقة بوكالة المخابرات الامريكية، اذ أنها جعلت الثقة بالوكالة الامريكية تهتز وتعتبر غير جديرة بالثقة، وبالتالي لا يصح الاعتماد عليها، ومع كل ذلك فالعلاقات مع المخابرات الامريكية، كانت تشمل الاتحاد السوفياتي، كما تشمل الشرق الأوسط، والاثباتات على هذا القول، اوضحها كتاب عنوانه حبال من الرمال من تأليف ايفلاند. وما قاله كاتب آخر هو روجر موريس احد مساعدي كيسنجر في كتاب عنوانه عظمة مشكوك فيها، فكلاهما فيما كتباه واجرياه من حديث قررا أن المخابرات الامريكية في أثينا، قامت بالمساعدة، وكذلك اسرائيل فيما بعد بناء على طلب من امريكا. لتزويد المليشيات المسيحية في لبنان بالفائض مما لديهم من السلاح الروسي، الذي تمّ اغتنامه، غير أن ايفلاند يعترف بأن ليس لديه البرهان الحسيّ ولكنه يصر على أنه بحث ذلك مع من يعرفون أو يفترض فيهم أن يكونوا عارفين، وصدق بالنتيجة ما قيل له. هذه الافتراضات نقلت إلى حقائق لا تقبل التأويل، بواسطة عضو مجلس الشيوخ من ولاية داكوتا الجنوبية جايمس أبو رزق اللبناني الأصل، الذي أعتبر مصدراً لا يشك به، فإنه أكد هذه

الاتهامات التي قدمها له كمال جنبلاط، الزعيم اللبناني اليساري،وأخرون غيره الذين اكدوا له إن وكالة المخابرات الأمريكية اعطت اسرائيل مئتين وخمسين مليون دولاراً لتحريك عجلة الحرب في لبنان، ولتسريب السلاح والذخيرة الى المليشيات المسيحية، وفي الواقع فالذي قاله أبو رزق كان ان الإدارة الامريكية أخبرته إن المخابرات قدمت لاسرائيل بين سبعين أو ثمانين مليون دولاراً لتشتري تأييداً في الأمم المتحدة من ممثلي افريقيا السوداء، وأنه لم يسمع فيما بعد بعد اذا كانت اسرائيل قد انفقت بالفعل هذه الأعتمادات في صدد ذلك. وما سُمع من شائعات كان أن بعض هذا المبلغ أو كله قد صرف في الوجوه التي أشار اليها جنبلاط، وأصدقاؤه ولو أن مثل هذا التأكيد، كان من المستحيل تأييده أو عدمه، وما كان يتعارض مع رغباتهم فكثير من العوامل الأخرى، وأحدها التشويش الذي تقوم به المخابرات التي كانت عملياتها السابقة المقنّعة موضوعا لتحقيق دقيق في مجلس الشيوخ خلال سنة ٧٥ ـ ٧٦ وكذلك ما كان من الصعب الأخذ به في ما قاله موريس في كتابه من ان المخابرات تصرفت في لبنان دون اطلاع كيسنجر، بل أنه ثار عندما اكتشف ذلك فيما بعد، ولو أن الابحاث التي قامت بها المخابرات تعطي حقيقة رئيسية واحدة، وهي أنه، أي المخابرات، لا تتصرف بناء على رغباتها بل أنها تطيع الأوامر الصادرة اليها من الجهة المختصة. وفي أيام ادارة فورد كانت هذه الجهة المختصة، هي كيسنجر بكل ما يتعلق بالسياسة الخارجية وشؤون المخابرات، والصحيح أن المخابرات كانت لها ارتباطات مع الكتائب في سنة ١٩٥٠ فما أكده داني شمعون قائد المليشيات التابعة لوالده «النمور» أن المخابرات المركزية أعطت كتائب الجميل العديد من ملايين الدولارات بواسطة الجيش اللبناني في سنة ٧٤ ـ ١٩٧٥ «هذا التصريح ادلى به داني في تموز سنة ١٩٨٠ بعد يوم واحد من قيام ميليشيات آل الجميل بتصفية النمور، حتى ان بعض الدبلوماسيين الامريكان في بيروت اثناء المعارك سنة ٧٥ ـ ١٩٧٦ كانوا يقدرون بغير تأكيد، أن المخابرات كانت تساعد المسيحيين في القسم الأخير من سنة ١٩٧٥، غير أنه خلال تلك الحرب نفسها كان المسيحيون يشكون بصورة مستمرة من أن الولايات المتحدة لم تفعل شيئاً لمساعدتهم. هذا النوع من التشكيك بما في سجلات المخابرات المركزية هو ما جعل الدبلوماسية الاميركية ذات المستوى الرفيع المعنية بشؤون الشرق الأوسط طيلة الجيل الماضي، ترفض أي تدخلّ محتمل لوكالة المخابرات، وحتى

تلك الايدي التي عملت مع كيسنجر. لم تكن تعرف بالتأكيد ما كان يرمي اليه، وكل ما استخلصوه كان أنه لم يكن هنالك ما يشير الى ان المخابرات كانت متورطة بعمليات مفتوحة في لبنان. وحتى عملاء المخابرات في لبنان نفسه الذين كانت اعدادهم تتزايد في اثناء الحرب. ليقدموا التقارير عن الاحداث من العمق. يشكون بنظرية التدخل السري. ومما قاله احد موظفي المخابرات ما يلي «قبل كل شيء كا لا بد وأن تكون لنا خطة سياسية. ونحن قطعا متأكدون أنه لم تكن لنا تلك»، والسفارة كما المخابرات، لم تكن على اتصال مع لبنان، حتى أنه عندما عين الرئيس فرنجية جنرالا متقاعداً ليرأس الحكومة العسكرية التي كانت حياتها قصيرة في ايار سنة ١٩٧٥ فأي منهما لم يكن له علم عن ذلك. ولو كانت المخابرات قد قامت بعملية سرية فهل من المعقول أن لا يعرف بها الرئيس المركزي في بيروت، وكان مما قاله أحد رجال المخابرات في بيروت تعليقاً على ذلك «أن الأشياء كانت تجري دون ان نعرف بها».

ومع أن المسيحيين تمّ انقاذهم بواسطة السوريين واستطاعوا أيضاً أن يحصلوا على ما كانوا يعتقدونه وهو بوليصة تأمين مع اسرائيل، فقد كانوا غير مسرورين لأن الغرب وبخاصة الولايات المتحدة الامريكية تخليا عنهم ثانية، بينما كانوا متأكدين أن واشنطن كانت هذه المرة متفهمة، وما عليهم الان إلاّ أن يثأروا لأنفسهم، وبخلال أيام بدأوا يتداولون بكلام اعتبروه منزلاً. كما لو أنهم يقراؤن الأنجيل، وهو أن براون عرض بأخلاص، أن ينقل المسيحيين بحراً الى الولايات المتحدة وكندا، ولكن كيف؟ فالاسطول السادس لم يكن باستطاعته أن يتسع لأكثر من الآلاف القليلة من أصل مليون شخص كما كانوا يتوهمون، إلا اذا كان براون قد اقترح خطة جلاء كتلك التي حصلت في دينكرك (وهي عملية جلاء الجنود البريطانيين المنهزمين من الشاطيء الفرنسي الى الجزر البريطانية في الحرب العالمية الثانية) وبنفس التنظيم نسبياً. ومع هذا فالبحث عما هنالك من اخطاء في هذه الخطة يجب أن يكون الخطوة الأولى المفترضة قبل اعلان القبول بصوابية الخطوط العريضة لهذا التخطيط. وبعد ذلك فإن كان الامريكان لا ينبرون للمساعدة فسيكونون في ادنى درجات السخافة. ان حكاية الاسطول السادس المختلقة كانت الاسلوب الجريء

في ابلاغ الولايات المتحدة أنهم باقون على صمودهم، والمسيحيون لن يصبحوا فلسطينيي هذا الزمن، ويهجروا أرضهم، وقد اصروا بأنها كانت ملكا لهم منذ ستة آلاف سنة (وهو قول خيالي إذ، كان هذا القسم من العالم هدفا للغزوات بصورة دائمة).

في مقابلة لي في سنة ١٩٨٠ وعلى المائدة في زغرتا مع كأس عرق وسيكار، سألت سليمان فرنجية بعفوية عن هذه القصة، مبينا له أن كل إنسان قيل لي عنه أنه كان شاهداً قابلته وهو، أما انكر أو اعلن أنه سمعها منه فقط، وهنا اخذ فرنجية سحبة من المبسم العاجي لسيكارته، على الطريقة الروزفلتية وغمغم قائلاً: «ان كيسنجر ليس امريكيا بل هو صهيوني» فأجبته «ربما، ولكن ماذا عن براون والاسطول السادس؟ وألححت عليه ليعطيني ايضاحاً، غير ان فرنجية احالني على جريدة لو موند المؤرخة في ٢٨ تشرين الثاني «نوفمبر» سنة ١٩٧٨، وعلى كارلوس خوري أمين السر العام الدائم للرئاسة، ولكن العدد الذي ذكره من الجريدة الفرنسية، لم يلق ضوءاً على هذه المسألة وكذلك خوري الذي رفض استقبالي، ولم يكن متجاوباً معي على الهاتف، ولا اجاب على رسالتي اليه، مثبتا ما قاله فرنجيه، وفي الوقت نفسه حادثت بعض الموارنة الذين لم يميلوا الى تصديق ما حكاه فرنجيه. ومثل كل المحاورين الذين جاؤا قبله فقد وجد براون كم هو من الصعب ان يدلي بكلمة أو على الأقل بفكرة مع هؤلاء القادة التقليديين المسيحيين الذين كان معدل اعمارهم يتجاوز السبعين، فإن براون كان مصراً على البحث في أمر لبنان جديد، لبنان اليوم والغد، بينما هم كانوا دائماً يرجعون به الى التاريخ اللبناني الذي كلما كان قديماً كان مثاراً للارتياح عندهم، براون كان يعتقد بأنه لم يصل إلاّ الى نوع واحد من الاراء في اتصالاته، والمسيحيون كانوا مقتنعين بأنهم قد سمعوا كل ما قاله غيرهم، ولم يكن هذا التوهم محدوداً بلوردات الحرب منهم، فبراون زار ريمون اده القائد الماروني الوحيد الذي كان بلا مليشيات وكان على علاقة حسنة مع المسلمين معارضاً لوردات الحرب من ابناء طائفته، استقبل براون بحرارة، لوصوله في الوقت المناسب لتمويه خطة احتيال وكالة المخابرات الامريكية وتغليفها بغطاء براق، ولكن براون اجاب بأصرار ان مثل هذه العملية ليس لها وجود، غير أن اده بقي غير مقتنع. فوكالة المخابرات، كما قال ارادت ان تبرهن أن اسلوب التعايش اللبناني بين مختلف الطوائف في الدولة، ليس من الممكن العمل به، فقد اوضح اده أن المخابرات كانت تعمل لصالح اسرائيل التي كانت

دائماً ترفض بغضب أن الفلسطينيين يمكنهم أن يأخذوا التعايش اللبناني مثالاً يمكن العمل على غراره في دولة فلسطينية مماثلة بدلا من الدولة الصهيونية.

. . . .

في أواسط أيار وصل فرنسيس مالوي ليحل محل كودلي المتوعك الصحة كسفير، بدا وكأنّ هذا الاختيار كان اختيارا ناجحاً، انه عاش عانساً ليس لديه عائلة تشغله، واعتاد على مثل هذه المواقف المحرجة (فإنه عندما كان سفيراً في جمهورية الدومينيكان، كانت الحالة الأمنية متفاقمة الى درجة أنه كان ممنوعاً عليه الخروج الى الشرفة) وفي السادس من حزيران وبرفقة روبرت وارنغ المستشار الاقتصادي الذي كان على وشك التقاعد انطلق مالوي ورفيقه بأتجاه المعبر الدائم الخطر عند المتحف، وهو الممر الوحيد بين شطري العاصمة المقسومة، ولكنهما لم يعبراها، وبعد الظهر وجدت جثتا الدبلوماسيين والسائق زهير مغربي وموظف آخر في السفارة، في مكان لرمي النفايات على الشاطيء في غرب بيروت. وبعد تحقيقات امتدت الى ستة شهور لم تستطع حكومة الولايات المتحدة أن تتعرف على هويات القتلة، ولكن ما كان اكثر احتمالاً هو أن يكون الفاعل منظمة لبنانية تدعى حزب العمل الاشتراكي العربي، وهذا كان تابعاً للجبهة الشعبية الماركسية في منظمة التحرير الفلسطينية، التي أسسها جورج حبش، وكانت مؤلفة من جماعة من المسلحين، ذوي الشعر الطويل والنظرات الغريبة، الذين كانوا يتولون مراقبة الطريق الواقعة بمواجهة المتحف في غربي بيروت. هؤلاء لم يكن لهم مصلحة مع الصحفيين الامريكان، ولا حاجة لهم إلى الدبلوماسيين الامريكيين، ولكن ما لم يكن بالمستطاع توضيحه أن سيارة الأمن اللبنانية المرافقة، كانت قد عبرت قبل وصول سيارة السفير المصفحة الى المعبر بلحظات، وما هو غير واضح أيضاً لماذا توقف السائق بدلاً من أن ينطلق متجاوزا القتلة، أن اللبنانيين ميالون الى الاعتقاد بأن السائق أما أنه كان مهدداً أو مرتشياً ليسلم الدبلوماسيين، غير أن موظفي السفارة لم يوافقوا على ذلك اطلاقا، لقد كانوا واثقين أنهم كانوا يتمتعون بسلطة قوية على سائقهم فمغربي وكل عائلته كانوا موعودين بتأشيرات هجرة، كانوا يرغبون بالحصول عليها، الى الولايات المتحدة الامريكية وانا شخصياً افضل مقولة السفارة لأني اذكر أني في شهر تشرين الاول عندما كنت الزائر الأخير الذي بقي في

فندق سان جورج، أثناء الحرب، كان المغربي هو الذي يقود السيارة المصفحة اياها عبر منطقة القتال لينقذني وينقذ ثلاثة كانوا معي من الزملاء محاصرين في الفندق، لم يكن ميلوي ووارنغ هما أول من يقتل أو أخر من يقتل من الدبلوماسيين في لبنان، كان السفير الفرنسي لويس دي لامار قد قتل بالرصاص في جوار هذا المكان عندما كان منطلقاً الى بيته لتناول الغداء. منذ خمس سنوات احزن موت الامريكيين الكثيرين من موظفي السفارة الذين كانوا يعرفون أن كيسنجر العجول هو الذي حثّ على زيارة المسيحيين في بيروت الشرقية، رغم الأخطار المعروفة جيداً على معبر المتحف، وقد كان بين الدبلوماسيين من أشار الى أن جميع النسخ التي تتضمن أوامر وزير الخارجية اختفت من الملفات في وقت لاحق. كما لاحظت تمرمرا اكثر عندما قال لي أحد الدبلوماسيين الصغار «أنهما قتلا لتقصيرنا في محادثة منظمة التحرير» وأضاف «لو أنه كان لنا أتصال مع الفلسطينيين في ذلك اليوم، لكانا لا يزالان على قيد الحياة».

في شهر كانون الأول «ديسمبر» استقبل كيسنجر غسان تويني في مكتبه، الزائر كان في مهمة خاصة من قبل سركيس ليبحث المساعدات المخصصة للأعمار بعد الحرب، والتي كانت الولايات المتحدة قد لوحت بها ما دام أن الحرب توقفت رسمياً منذ الشهر السابق، كانا يتذكران أيام الدراسة يوم كانا معاً في جامعة هارفرد عقب الحرب العالمية مباشرة، كان كيسنجر يقصد أن يضع التويني في موقع المطمئن، فوضع رجليه على طاولة منخفضة وقال «دعنا نتكلم كما يتكلم زميلا الدراسة» ومما يذكره التويني أنه قال لكيسنجر إن تصرف الرئيس اللبناني ووزير الخارجية كانا طيلة الشهور الماضية مجرد تصرف موظفي مكتب في لبنان، والذي لم يقله كيسنجر، إنه كان قد مضى على الحرب في لبنان أكثر من سنة قبل أن يأخذ أية خطوة للاهتمام بالشؤون اللبنانية، وما قاله لتويني على أية حال، «ما الذي استطيعه بعد إنتخاب جيمي كارتر ذلك الصوص الاعرج، ثم ان المحاولات في التحايل لتعليق الكارثة (هي البديل الذي لابد منه للسياسة الامريكية في مثل هذه الحالات) كانت تظهر في حدودها ومداها. إنها السياسة التي كانت قائمة منذ سنة ١٩٧٥ حتى في سنة ١٩٨٢، اذ ان التصاق اسرائيل بلبنان كان افضل ما يمكن تحقيقه من الولايات المتحدة الامريكية المصممة على اصلاح ازمة بيروت، ومما قاله احد الدبلوماسيين الامريكان «كنا نبقي الكرة في الهواء لنجتذب النظر فحسب، ولو أننا قلنا الحقيقة في أن

الأمور كانت تسوءلكانوا أكثر اندفاعاً للوصول الى الوضع السيء » فالحقيقة كانت أن لبنان هو بلد ثانوي ومسألة ثانوية، فالولايات المتحدة كانت لا تريد حصول تغييرات رئيسية في الشرق الاوسط، إلا بمباركة منها، انها تملك القوة الكافية لأن تمنع لبنان من ان يكون الحافز لحرب عامة اخرى في الشرق الاوسط، ولكن السياسة الامريكية قد تكون عن غير قصد أدانت لبنان، اذ أن هذا كان بنداً رئيسياً غير مكتوب في عملية سينا لفك الارتباط، أو حتى بصورة أكثر من محادثات كمب دايفيد سنة ١٩٧٨ فكمب دايفيد كانت المشجع لمصر واسرائيل لأخذ ترتيبات ثنائية وضعوا لها الاطار الكاذب لحكم ذاتي غير واضح في الضفة الغربية المحتلة وقطاع غزة، بيد أن اي إنسان على معرفة بالشرق الاوسط كان يعلم أن الجهود الامريكية للوصول الى تسوية كاملة، كانت متوقفة، وانه بسبب عدم الوصول الى هذا الاتفاق الشامل بقي لبنان ارضا يجري عليها القتال، ومكانا رئيسيا لدول الشرق الاوسط تستطيع ان تتصارع عليه دون أن تمس مصالحها الحيوية، ان كارتر الذي بدأ عهده معنيا أكثر من سلفه بحل عقدة الشرق الاوسط انتهى تاركاً كل شيء لبيغن لتحقيق سياسته الرامية الى التعديات المتواصلة على جاراته الواحدة بعد الأخرى، وفي سنة ١٩٨٢ عندما بدأت حرب اسرائيل في لبنان اسرّ اليّ دبلوماسي امريكي صغير متأثراً بسياسة ادارة ريغن لعدم اتخاذ أية ردة فعل لها فقال « أني مندهش كم هي الولايات المتحدة عامل نشيط في زرع الشرّ ».

كانت نظريته هذه هي الأقل امتعاضاًبين ما كان لدى الموظفين الامريكيين الآخرين (خصوصاً اولئك الذين كانوا قد تقاعدوا عن العمل في الدولة، فالاميركيون بصورة عامة وخاصة كانوا متوافقين في نظرتهم الى هذا التقارب المتزايد، حتى أنهم كانوا يميلون الى التغاضي عمّا يتراكم من اخطاء، فيما هو تورط من جهة وتغاض من جهة أخرى ذلك كان ما اتصفت به سياسة الولايات المتحدة طوال جيل من الزمن، ولكنهم عندما وصلوا الى الوضع الراهن، ظهر أن هنالك ما هو غير جلي فيما يتعلق بنظرهم نحو لبنان، اذ كانوا يتساءلون هل أن هنالك، في الحقيقة، وجود للبنان؟ واذا كان له وجود فلماذا نحيده عن أن يكون صفقة كما هو الحال في مثل هذه التشكيلات الأقليمية المخترعة؛ ان لبنان هو ابتكار فرنسي، وواشنطن كما هو شأنها التقليدي كان حماسها، لما كونه الاستعماري الفرنسي، ضئيلاً كما كان شأن الانكليز في اوج عزهم.

ولبنان ظهر للولايات المتحدة وكأنه عبارة عن مكان ذي انتماءات غير معروفة. وممارسات معقدة، مما يجعله غير موثوق منه ويمكن التخلص منه. لقد كانت بيروت في ايام ازدهارها ذات فائدة للولايات المتحدة ولم يكن للآخرين أن يجعلوا منها محطة تنصت، اذ ذاك كانت لها جاذبيتها. أما بعد أن تراجع اصحاب الثروات من الاهتمام بها، فقد رأت الولايات المتحدة أن تتراجع أيضاً. وفي كل حال فقد انتقلت الحركة الى مكان آخر، وبيروت لم تعد المركز الرئيسي للمصارف في الشرق الأوسط لقد تزايد حجم اموال النفط بسرعة مذهلة، مما جعل بيروت مكانا صغيرا لاستيعاب الملايين من عائدات النفط التي كانت تذهب مباشرة الى لندن، والمصارف الامريكية. والوسطاء اللبنانيون أنفسهم، لم يستمروا كوسطاء لمشيخات خليج النفط حيث كانوا يقدمون استشاراتهم ويحولون طلبياتهم الى أسيادهم في امريكا والغرب، والشركات الغربية وجدت أنه اصبح عليها أن تجد مركزا لها في الخليج، اذا كانت تريد أن تؤمن مصالحها. ان بيروت كمركز اقامة لأصحاب المصالح الغربيين اصبحت في عداد الاموات، ولكن هذا لا يعني أن اللبنانيين كانوا قد انقطعوا عن جمع المال من الخليج، أنهم كانوا يجمعون اكثر ولكنهم أصبحوا يقررون أقل، كان هذا هو الاسلوب المتبع على اتساع العالم، والامريكان لم يكونوا في يوم من الايام عاطفيين، بل كانوا يتصرفون كالتنين، وعندما انزلوا المارينز مرة ثانية سنة ١٩٨٢ كانوا مهتمين بسلامة رجالهم من رصاص الآخرين، اكثر مما كانوا ذاهبين ليطلقوا النار على أي كان، لقد بقي مجلس الشيوخ يراقب الادارة، والبنتاغون نفسه كان يخشى أن تتورط الجيوش الامريكية في مغامرة أخرى محرجة، ثم يتركون للجنود أن يتحملوا النتائج، قال لي صديق لبناني مؤرخ (اذا اراد الرومان أن تكون لهم امبراطورية فعليهم أن يدفعوا الثمن) أما اذا كان رومان هذه الايام ليست لهم الرغبة في الدفع فما العمل؟ لقد كانت النتيجة المحتملة هي الاستسلام الى مداورات والاعيب القوة الاقليمية الكبرى، اسرائيل، التي لم تكن مدينة في وضعها الراهن الى تأييد امريكا فقط، ولكن أيضاً الى اساليبها الملتوية وعنادها، ولا غرابة في أن تكون اسرائيل رغم سياستها الدموية محترمة ومسترعية للانتباه اذ أنها أخذت دور القوى الاستعمارية السابقة في نهجهم القديم، إن الاسرائيليين على أقل تقدير، يبدو وكأنهم يعرفون ما يريدون.

الفصل السادس

في حبائل اسرائيل

لا اذكر التاريخ بالضبط، سوى أن ما اتحدث عنه كان سابقا للحرب الاهلية في لبنان، ولنقل انه كان القسم الثاني من تشرين الاول سنة ١٩٧٥، لأن كل المشاركين في الندوة كانوا لا يزالون يلبسون، دون استثناء، ملابس ايام السلام، ملابس النخبة اللبنانية في متاجرهم فالمحامون، والتجار، والاطباء، والاساتذة، لم يكن خفيا، أن اجتماعاتهم، كانت لتخطيط تقسيم لبنان، وبمعنى آخر ايجاد دولة مسيحية منفصلة، ان لم يكن في استطاعتهم حكم البلاد كلها، ان كلمة عن مثل هذا التخطيط الراديكالي هي ما دعتني الى الانطلاق الى الكسليك، والى جامعته الذائعة الصيت (جامعة الروح القدس) بالقرب من المنعطف الذي يؤدي الى جونيه، الى الشمال من بيروت، كان المكان وكأنه مدرسة من مدارس (نيو انجليند)، ولكن النقاد يصرون على ان مستواها لم يكن ملفتا للنظر، غير ان الرهبان الذين يديرون الكسليك اغنياء وحازمون، ولكنهم محدودو التفكير، أما طلابهم فكانوا اكثر سذاجة، من صبيان وبنات الطبقة الوسطى من المسيحيين الذين كانوا يتلقون علومهم في جامعة القديس يوسف للجزويت التي تدعمها فرنسا او في الجامعة الامريكية في بيروت للبروتستانت. كان الكسليك يلجأ الى مدخرات كانوا يجمعونها من موارد ممتلكاتهم الواسعة لمشترى الاسلحة التي يحتاجها الموارنة الشباب الذاهبون الى الحرب، وقد علقوا في رقابهم صلبانا خشبية كبيرة الحجم، الى جانب صور مريم العذراء مطبوعة على بنادقهم.

فتحت الحديث معهم عن التقسيم، او بالاحرى اعترضت على فكرة التقسيم، وكان المشتركون في الندوة يصغون بصبر، لم يكن بينهم من يستطيع ان يتصور وجود دولة مسيحية لا تكوّن سوى نتيفة من لبنان، اذ من المؤكد ان لا يقدم احد على مساعدتها وكل ما يمكن ان يجنيه المسيحيون هو اثارة غضب العالم العربي، الذي يعتمدون عليه في

كسب معيشتهم، وتقديم خدماتهم، لم يمكث في الاجتماع اولئك المتوسطو العمر الا قليلاً، وسرعان ما توجهوا الى سياراتهم. غير ان شابا بقي معي ومما قاله لي: « ان المسيحيين لن يستسلموا بل قد يلجأون الى الجبال، ويقاومون كما فعلوا دائماً » ولكني ابديت وجهة نظري معترضاً، « أن الجبال في لبنان لم تعد ذلك الملجأ الحصين في عصر الطائرات النفاثة والحوامات والعربات المجنزرة والطرقات المعبدة، والمدافع البعيدة المدى ». هنا اجابني بعنفوان « سنتعاون مع الشيطان ». ومما قاله ايضاً، « انه من المؤكد ان المسؤولين عن الكسليك هم على علاقة مع اسرائيل، والفضل في ذلك لمعاهدة الهدنة اللبنانية الاسرائيلية سنة ١٩٤٩ التي سمح فيها للاكليروس الماروني بعبور الحدود بهدف زيارة الاديرة والاوقاف المسيحية في اسرائيل، ثم قال ايضاً (انها في منتهى البساطة: فلا احد، بلا سبت » هذا كان رمز معناه ان المسلمين سيتخلصون أولاً من اليهود اصحاب السبت ثم يتخلصون من المسيحيين اصحاب الاحد، اذكر انني دهشت للغاية، لأن تعامل المسيحيين مع اليهود كان المفترض به ان يكون خطيئة حقيقية، فقد كان يلوح لي ان كثيرين من المسيحيين من اللبنانيين فرحوا في عام ١٩٦٧ عندما تغلبت اسرائيل على مصر في حرب الايام الستة، انهم كانوا ينظرون الى ان جمال عبد الناصر كان قد حاول ان يستولي على لبنان سنة ١٩٥٨، وها هو اليوم يلاقي جزاءه وانه لمن المؤكد في هذا العقد من الزمن، ان للمسيحيين اللبنانيين وللاسرائيليين عدو واحد مشترك هو الفلسطيني، والذي لم استطع ان اتصوره ان يكون المسيحيون على درجة من الغباء تجعلهم يطلبون المساعدة من مصدر هو في نظر العرب موضع شبهة، اذ في الواقع ان الذكاء الماروني عبر الاجيال كان يرمي الى عقد تحالفات مع دول قوية بما فيه الكفاية؛ ولكن بعيداً عن لبنان، بحيث تتركهم اسياد مسقط رأسهم إلا في حالة الخطر العظيم، بينما الإسرائيليون متاخمون لهم واقوياء جداً، وقد لا يتجاوبون معهم، وقد يخطر لهم خاطر آخر فهم أي الاسرائيليون، وليس الموارنة سيكونون اصحاب القرار في « متى وأين » ولو أني كنت اعرف وقائع التاريخ المعاصر، لكنت اقل اندهاشا واذا استعملنا الرمز اللفظي للشرق الاوسط فالدولتان كانتا مؤمنتين بالنظرية المعروفة بالدول « الموزاييك » الفسيفسائية. ......

....

.... ليس لدينا ما هو جديد بافكار

كهذه فاسرائيل زودت بالسلاح والذخيرة، مما ربحته سنة ١٩٦٧ من الجيوش العربية، الاكراد الذين كانوا يحاربون النظام العراقي في أوائل ووسط سنة ١٩٧٠، وكانت قبل ذلك سربت مثل هذه المساعدة عبر الحبشة الى جنوب السودان في ثورته ضد الحكومة المركزية في الخرطوم، ان المسيحيين الراديكاليين في لبنان، كانت لهم رؤيا مشابهة وكانوا يرون في اسرائيل قوة عظمى حازمة وعنيدة وحليفا دائماً، بعد ان تخلى عنهم الغرب والاهم من ذلك كون لبنان واسرائيل جارتين، وفي نهاية الحرب العالمية الاولى قامت بريطانيا وفرنسا بتقسيم الامبراطورية العثمانية في الشرق الاوسط فان فرنسا قسمت ما وضعته جمعية الامم تحت وصايتها الى خمس دول مختلفة منها لبنان الكبير في ادارةالمسيحيين، وقد اضافت الى منطقة جبل لبنان المسيحي مناطق كانت تحت النفوذ المسلم، مدينة صور، والجنوب، ومدينة طرابلس، والشمال والبقاع الخصيب في الشرق، لتعمل من هذه المناطق مجتمعة دولة قوية اقتصادياً وفي سنة ١٩٣٦ اعطى البطريرك الماروني شهادته لصالح قيام دولة يهودية في فلسطين، وذلك امام لجنة التقسيم التي أنشئت لأنهاء اعمال العنف هناك، وفي السنة التي تلت ادلى دايفيد بن غوريون الذي كان رئيساً للوكالة اليهودية بقوله الى منظمة العمل الصهيونية العالمية عند اجتماع لها في زوريخ «ان لبنان هو الحليف الطبيعي لليهود في الارض الاسرائيلية، وبكونه مجاوراً لها فسيكون حليفاً وفياً للدولة اليهودية عند تكوينها». مشيراً الى الحدود المشتركة اضاف بن غوريون قائلاً «هذا سيعطينا امكانية التوسع بموافقة ومباركة جيراننا الذين هم بحاجة الينا ان الاغلبية المسيحية من السكان تتمركز في لبنان الحد الشمالي لاسرائيل، والمسيحيون يشرفون على شاطيء للمتوسط يتيح لنا الامتداد بحرا من الموانيء الاسرائيلية»، فور انهيار الامبراطورية العثمانية سنة ١٩١٨، حاول الصهاينة عبثا اقناع بريطانيا بأن تطالب بجنوب لبنان حتى مياه نهر الليطاني التي تعتبر ذات قيمة ثمينة لفلسطين، غير أن فرنسا تغلبت ووضعت الحدود سنة ١٩٢٠ حيث هي الان، وفي الحرب التي اطلقت عليها اسرائيل اسم حرب الاستقلال، تمكنت الجيوش الاسرائيلية سنة ١٩٤٨ من احتلال لبنان حتى نهر الليطاني، وبقيت هناك سنة كاملة قبل ان تتراجع الى الحدود الحاضرة وبعد عقد من الزمان او اقل كتب موشي شاريت وزير خارجية اسرائيل في ذلك الوقت في مذكراته الشخصية في عدة فقرات منها اشياء معادية للبنان، مذكراته هذه كانت ذات قيمة مثل

اوراق البنتاغون، هذه المذكرات التي تأتي على ذكر الاحداث بدأ بكتابتها في سنة ١٩٣٠، ظهرت بالعبرية في سنة ١٩٧٩ بعد ان حاول ابز شاريت بقوة منع نشرها، وقبل مدة طويلة من بروز الفدائيين الفلسطينيين كعنصر تهديد قائم لاسرائيل، كتب شاريت عن مخططات اسرائيل لزعزعة لبنان وتقطيعه وجعله دولة دمية في يد اسرائيل تديرها كما تشاء، وفي عدة فترات من سنة ١٩٣٠ يبدو شاريت في موقف من لا يشجع المتطرفين الموارنة في احلامهم للحصول على مساعدة صهيونية تمكنهم من الغاء لبنان الكبير، واعادته كما كان عليه سنة ١٩٢٠.

وفي ٢٧ شباط سنة ١٩٥٤ نجد فقرة لشاريت يتكلم فيها عن رئيس الوزراء المتقاعد دايفيد بن غوريون، وعن وزير الدفاع بن حاس لافون، ورئيس الاركان موشي دايان، فكل هؤلاء كانوا يريدون اغتنام فرصة انقلاب في سورية، للقيام بغزوها، ولكن بن غوريون اكد مصرّا على انه اذا قامت العراق - بغزو سوريا كما يبدو ذلك ممكنا، فسيكون هذا هو الوقت المناسب لأثارة لبنان (ويعني اثارة الموارنة لأعلان الدولة المسيحية) ومما قاله شاريت في مذكراته..

« قلت لهم هذا كلام فارغ او حلم لا يمكن تحقيقه، فالموارنة منقسمون على انفسهم وهؤلاء الذين يحبذون التقسيم من المسيحيين ضعفاء ولا يجرأون على القيام بأي شيء فلبنان المسيحي يعني ايجاده، التخلي عن منطقة صور، ومنطقة طرابلس، ومنطقة البقاع، وليس هنالك قوة يمكنها ان تعيد لبنان الى حدوده ما قبل الحرب العالمية الاولى، واكثر من ذلك فسيفقد اذ ذاك حيويته الاقتصادية، هنا كان رد بن غوريون عنيفا، واخذ يبين المبررات التاريخية للبنان الصغير وقال اذا قمنا بتحقيقه فإن الدول المسيحية لن تكون لها الجرأة على معارضته، وقد بينت انا انه ليس هنالك المبرر الجائز لخلق مثل هذا الوضع واذا نحن بدأنا نتحرك وندفع لبنان فسنجد انفسنا متورطين بعمل لا يجلب لنا إلا الخزي. هنا ثارت عاصفة من الاستنكار لعدم قدرتي على اغتنام الفرص وعدم جرأتي وقصر نظري، قالوا يجب ان نرسل الجواسيس ونصرف الاموال وقلت لهم ليس لدينا المال، وكان الجواب هذا كلام فارغ يجب ايجاد المال ان لم يكن من خزينتنا فمن الوكالة اليهودية، فلمثل هذا الهدف يمكننا ان نضحي بماية الف او بنصف مليون او بمليون من الدولارات، أو بأي شيء آخر لنحقق الغاية وبعدها سنعمل حتما الى اعادة خلط الاوراق في الشرق الاوسط،

وهنا يبدأ العهد الجديد. غير اني كنت قد تعبت من الجدل في هذا الجو العاصف».

« في هذا اليوم بالذات كان بن غوريون في مقر تقاعده في النقب واعلن ان لبنان هو اضعف الحلقات بسلسلة الجامعة العربية، وان المسيحيين هم الاكثرية في لبنان التاريخي وهذه الاكثرية لها تراث وثقافة تختلفان عما لسواها في الجامعة، وحتى في هذه الحدود الموسعة (وهي غلطة فرنسا الكبرى بتوسيع حدود لبنان) فالمسلمون ليست لهم حرية التصرف كما يريدون حتى ولو انهم الاكثرية هناك (مع اني لا اعرف اذا كانوا الاكثرية) وذلك خوفا من انفصال المسيحيين عنهم، لذلك فان اقامة دولة مسيحية هي خطوة طبيعية اذ ان لها جذور طبيعية وبامكانها ان تلاقي كل مساعدة من الدول المسيحية في العالم الكاثوليكي والبروتستانتي على السواء، ان مثل ذلك في الاحوال العادية امر مستحيل بلا ريب لأن المسيحيين يفتقرون قبل كل شيء الى الشجاعة والاقدام، ولكن في اوقات الفوضى والقيام باثارة حرب اهلية تتغير الاشياء فيصبح الضعيف قادرا على القول، « انا بطل »، ولما كان ليس من شيء ثابت في السياسة، ومن الممكن ان يكون الوقت الراهن هو اللحظة المناسبة للعمل على اقامة وتأسيس الدولة المسيحية لتكون جارة لنا، انها بدون إقدامنا ومساعدتنا القوية لا يمكن ان تكون. انه يبدو لي ان هذا هو الان واجبنا الاساسي، بل على الاقل واحد من واجباتنا الاساسية في السياسة الخارجية، يجب أن نوفر الاسباب والوقت والقوة، ونعمل بكل الطرق الممكنة لنحقق تغييراً اساسياً في لبنان، لدينا مثلاً ساسون « اليهودي العربي » يجب ان نعده ونعبيه واذا كان لا بد من المال فلنأت به ولنستعمل ما يلزم منه ولا ندخر وسعاً حتى ولو كان ما ننفقه سيذهب هدراً، هنا يجب ان نعمل لهذه الغاية. لن يغفر لنا ابناؤنا اذا اهملنا هذه الفرصة التاريخية، ليس في عملنا هذا مدعاة لاستفزاز القوى العالمية، ونحن في الواقع لن نقوم بعمل اي شيء مباشرة، كل شيء يجب ان يعمل بنشاط وزخم. ان الغاية التي نريد، لا يمكن بلوغها، الا اذا ضيقنا الحدود اللبنانية، فاذا كان في لبنان او في خارجه، من يمكن ان يجند لأنشاء الدولة المارونية، فلن تكون لهم حاجة بحدود موسعة او بمجتمع مسلم كبير، ومثل هذه الاعتبارات يمكن اسقاطها من الحساب. واعرف ان لدينا من نعتمد عليهم في لبنان، ولكن هنالك أيضاً طرق كثيرة اذا تقرر تحقيق هذا الامر الذي نقترحه » في ٨ آذار كتب شاريت الى بن غوريون بامتعاض قائلاً « لا أرى ضرورة لمحاولة خلق حركة من الخارج

لا وجود لها في الداخل، يمكن للانسان دفع القوة بالروح الوثابة وبالقلب الخافق، ولا يمكن بعث الحياة في جسد لا حياة فيه، والذي اراه الان، انه ليس هنالك حركة في لبنان، في هذا الوقت، ترمي الى ايجاد دولة مسيحية في تلك البلاد، حيث يكون القول الفصل والقرار فيه بين يدي المجموع الماروني »، أن شاريت في الاساس كان يفتكر ان الفرنسيين كسبوا الخيار في تأسيس دولة مسيحية اسلامية. وفي فقرة اخرى، وكأنه كان يتنبأ قال « ان تحويل لبنان الى دولة مسيحية اليوم، امر لا يمكن الاقدام عليه اذا كان هنالك تدخل خارجي، اني اسمي هذا، تدخلاً خارجيا، مع عدم وجوده حالياً لكوني لا استطيع ان اقرر بأنه غير وارد، فامكانية المواكبة بجملة من الاهتزازات في دول الشرق الاوسط، تحدث خلطا متطرفا للاوراق، وتدفع بالمشتركين لصهرهم في بوتقة ينتج عنها تكونات اخرى »،وليس الامر فقط أن المسيحيين ليسوا بعد اكثرية في لبنان، بل كذلك، فالاقلية من الروم الاثوذكس لا تريد مشاركة في دولة مارونية مسيحية، حتى القادة المارونيين قرروا ان احسن ما يمكن اختياره هو المشاركة مع المسلمين، وعلى هذا يكون اقتراح بن غوريون ما يأتي « انه لخطير بأن يكون قابل للتمزق بحركة واحدة، ذلك النسيج الاسلامي المسيحي المشترك في صنع لبنان في حاضره، هذا النسيج الذي حيك بعمل جاد، وصبر، وتضحيات كبيرة، استمرت جيلاً، اجل انه خطير ان يُرمى لبنان المسلم الى احضان سوريا، وفي النهاية يعود هذا ليجلب الكارثة التاريخية على المسيحيين في لبنان لاخضاعهم لسوريا واخفاء شخصيتهم داخل الدولة الاسلامية العظيمة ».

لنلق اعتراضات بن غوريون لمثل هذه المناقشات جانباً، ونأخذ ما سأل عنه شاريت « ما الذي يجعلنا نفكر ان المناطق الخاضعة للنفوذ الاسلامي في لبنان ترغب في الانفصال عن المناطق الاخرى من هذا البلد؟ او ان جامعة الدول العربية او الغرب سيقفون على الحياد متفرجين، أو ان الحرب الدموية التي يمكن ان تندلع بعد محاولة كهذه ستبقى محصورة في لبنان ولن تصل دون ما ابطاء الى سورية؟ »، كذلك ان المسيحيين في لبنان لم يعرفهم العالم الا بعد توسيع لبنان في سنة ١٩٢٠ »ويضيف شاريت « لنعيد الامور الى ما كانت عليه يعني مجرد اجراء عملية جراحية، بل هي عملية سحق لكافة اعضائه، بحيث لا يبقى له وجود »،وبعد هذا القول اوضح شاريت بما يدل على انه ليس من الحمائم قال: « سأرحب بالتحرك في المحيط الماروني، لما يمكن ان ينتج عنه من عدم استقرار، ومن

ازعاج لجامعة الدول العربية وتحويل الانتباه عن النزاع العربي الاسرائيلي، الذي يمكن ان يؤدي إلى اشعال شرارة رغبة المسيحيين في الاندفاع للاستقلال الذي يمكن ان يأتي في غمرة هذا التحرك، ولكن ما العمل وليس هنالك خميرة. وفي هذه الحالة اخشى أية محاولة نقوم بها لتحريك المسألة اذ ستؤخذ كأشارة تعبر عن تفاهتنا وسطحيتنا، ان لم نقل اكثر من ذلك، كأن يقال اننا نغامر للحصول على سعادتنا من اجل مصلحة مؤقتة لسياسة اسرائيل التكتيكية، وزيادة على ذلك ماذا اذا كان الامر لا يبقى سراً بل يصبح مشاعا للجميع (وهو من الاخطار التي لا يمكن تجاهلها في البيئة الشرقية) اذ ذاك لا يمكن تقدير الضرر الذي سيسببه لنا، اكان من الدول العربية، أم من الدول الغربية على السواء، وهو ضرر لا يمكن تعويضه حتى ولو حكم على العملية بالنجاح».

بيد ان اجابة شاريت العاقلة، لا هي اقنعت بن غوريون، ولا جعلته يتخلى عن اقتراحه بزعزعة كيان لبنان، وبعد مضي سنة او تزيد، وكان ذلك في ١٦ نوار سنة ١٩٥٥ اثناء اجتماع بكبار موظفي وزارتي الخارجية والدفاع، رجع بن غوريون الى ما يسميه شاريت حلمه القديم بالتدخل بالشؤون اللبنانية، كان بن غوريون قد عاد الى الحكومة والى المركز الرئيسي للدفاع. كانت الفرصة هي النزاع الذي تجدد بين العراق وسورية وامكانية غزو عراقي لسوريا، وهذا دفع بن غوريون ليعتقد ان الدروز والشيعة المسلمين يمكن ان يشاركوا في مخاطرة نشر الفوضى «ووضع لبنان في حالة عدم استقرار» هذا ما سجله شاريت لموشي دايان. وهنا قال «كل ما نحن بحاجة اليه هو ايجاد موظف ولو ضابط صغير واما ان نقنعه او نشتريه لنجعله يوافق على اعلان نفسه منقذاً للبنان وللشعب الماروني. عندئذ يدخل الجيش الاسرائيلي الى لبنان، فيحتل المناطق الضرورية ويقيم دولة مارونية متحدة مع اسرائيل، واذ ذاك يصبح كل شيء على ما يرام. ولو اننا اردنا ان نصغي لرئيس الاركان لكان علينا ان نفعل ذلك غدا دون ان ننتظر حتى تحقق الحكومة العراقية رغبتها، وتهزم سورية»، وبن غوريون لم يتباطأ في التأكيد ان مخططه يقصد به ان يوضع موضع التنفيذ في غمرة الاجتياح العراقي لسورية. كتب شاريت متأسفاً «لا أرى من الحكمة ان اخوض في جدال طويل عريض مع بن غوريون، بخصوص مخططاته الوهمية الطائشة، والذي تُثير الدهشة، كم هي بعيدة عن الحقيقة التي ادلى بها بحضور معاونيه الضباط»، وبدلا من ذلك فقد حدد شاريت ملاحظاته بالتنبيه الى

مثل هذا التصرف الذي لن يكون فاعلاً في تقوية لبنان المسيحي، بل حربا بين اسرائيل وسوريا، وباقتراح من بن غوريون شكلت هيئة من وزارتي الخارجية والدفاع للتعاطي مع لبنان بالتوافق مع نظرية شاريت التي هي في الواقع ما يساعد على وضع مشاريع عدم الاستقرار على الرف، غير أن شاريت كان يرثي لحالة الجيش مشيراً فقط الى « عدم جديته في التعاطي مع البلدان المجاورة خصوصاً في المسائل الاكبر تعقيداً مثل شؤون لبنان الداخلية والخارجية ». ومما كتبه « اني رأيت كيف أن اولئك الذين انقذوا البلاد ببطولاتهم وتضحياتهم في حرب الاستقلال سيكونون مسؤولين عن انزال الكارثة بها اذا اعطوا حرية التصرف في الاوقات العادية ». وفي انتقاد آخر موجه من بن غوريون يؤكد شاريت ما يلي: « انه لا يزال ينظر الى لبنان وكأنه لا يزال جزءاً من الامبراطورية العثمانية يسكنها المسيحيون الموارنة المغلوبون على امرهم، ولكن، في لبنان الكبير، فالموارنة منذ زمن بعيد قد فقدوا تفوقهم العددي، والروم الارثوذكس ميالون الى سورية، والمسلمون يشكلون الاكثرية المتنامية لأرتفاع عدد المواليد عندهم، كما ان اللاجئين الفلسطينيين رفعوا الزيادة أيضاً لهذه الاكثرية، وبذلك تضاءل عدد الموارنة الى الثلث، وفقدت المجموعة المارونية كل الجرأة والمبادأة، واكثر زعمائهم كانوا يتواطأون مع المسلمين والجامعة العربية، واية محاولة اسرائيلية لدفع الموارنة للثورة قد تسبب لهم كرها عاما يضعهم في ضيق، وسقوط مميت ». وبعد اسبوعين في فقرة اخرى صرح شاريت مرة اخرى « إن دايان يؤيد استئجار ضابط لبناني يرضى ان يكون مستعدا للخدمة في الخط الامامي، مما يمكن الجيش الاسرائيلي من الظهور وكأنه يستجيب لطلبه في تحرير مسيحيي لبنان من كابوس المسلمين » بيد انه في ١٧ حزيران، يونيو، يصف الخطة وكأنها اضغاث احلام، ثم يكتب « الحقيقة هي ان هناك علاقة لنا مع فئة معينة في داخل لبنان، واننا قمنا بعدة محاولات لنعلن ذلك للاخرين وعلى الخصوص الى اولئك الذين يتوجب علينا حشرهم في الجيش اللبناني للعمل لصالحنا »، وفي ذلك الشهر نفسه كتب شاريت عن رغبة دايان برفض عقد معاهدة امنية مع الولايات المتحدة، لكونها تقيد حريتنا للعمل، وتطوير نظرية الحرب من اجل السلام القائل بها كاتب اسمه، جورج أورول، في (نبؤتي لسنة ١٩٨٤) حيث قال « ان الدولة يجب ان تخلق الاخطار، ولتتمكن من ذلك فيجب ان تعمل بمبدأ الاستفزاز ثم الاخذ بالثأر. وفوق كل ذلك دعنا ننتظر حرباً جديدة مع الدول العربية تساعدنا في النهاية على

التخلص من متاعبنا والتوسع» ثم ان الفقرة التي كتبها شاريت تقول «ان زلقة اللسان هذه، بناء على ما قاله بن غوريون نفسه، لجديرة بأن تجعلنا ندفع لواحد من العرب مليون ليرة لتحريك عجلة حرب».

هذه المقتطفات كتبها شاريت في مذكراته وهي بالمقابلة مع ما حدث في لبنان منذ سنة ١٩٧٥ تبدو شيئاً خارقا، فالحرب الاهلية شغلت لبنان بالفعل، واسرائيل استطاعت ان تستميل ضابطاً انفصل عن الجيش المسيحي / هو الرائد سعد حداد / الذي تولى الامر في الحدود الجنوبية، والدول الغربية تجاوبت مع التقسيم الفعلي في لبنان على الاقل من اجل سلامة المسيحيين المهددين (وهي عبارات كانت ترددها بصورة دائمة الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة لتبرر تحركاتها المشبوهة). ....

....

بيد انه في التاريخ الذي هو الان جزء من الرأي العام ليس هنالك من برهان واضح يظهر أن اسرائيل فعلت في بداية الحرب الاهلية اكثر من انها كانت تراقب لبنان وهو يسقط ويتمزق. ان كل المعايير الموضوعية تحمل اللبنانيين انفسهم حصة الاسد من المسؤولية النهائية بتحطيم بلادهم ماديا، ان السياسيين الاسرائيليين يذرفون دموع التماسيح على ما يجري من عنف على ابوابهم، ولكن موت لبنان ديمقراطيا، كما عرفوه، لم يكن بالشيء الذي لا يباركونه ففي السنوات الماضية كانت اسرائيل تشير الى لبنان كدولة ديمقراطية مؤيدة للغرب مزدهرة اقتصاديا، عندما كان هناك من يلقي المحاضرات للعرب الاخرين متكلماً عن المنافع المشتركة مستقبليا في الشرق الاوسط، واسرائيل تقف الان موقف المتهم بانها قوضت المؤسسات اللبنانية، ليبدو ان اسرائيل اليوم هي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الاوسط (ولا لزوم، لابراز هذه النقطة عندما يُراد التأثير على امريكا بوجود دكتاتورية عسكرية عربية، فتورط الفلسطينيين في الحرب الاهلية اللبنانية، والمظاهر الاسلامية بازاء المظاهر المسيحية، انما يساعد على تبرير رفض اسرائيل لمقترحات منظمة التحرير الفلسطينية من استبدال اسرائيل بدولة علمانية ديمقراطية تضم المسيحيين والمسلمين واليهود معاً) في تاريخ مبكر سنة ١٩٧٥ وفي شهر ايلول سبتمبر قال وزير خارجية اسرائيل ايكال الون ان الطابع اللبناني هو احسن ما يمكن ان تعترض عليه

بخصوص ما تضمنه اقتراح منظمة التحرير الفلسطينية كبرهان لامكان تعايش جماعات من جنسيات مختلفة وديانات مختلفة ضمن دولة ديمقراطية في الشرق الاوسط ومما قاله في اكتوبر تشرين اول في سنة ١٩٧٦ ان الحرب اللبنانية اظهرت ان فكرة منظمة التحرير سراب. واسرائيل تدافع عن تدخلها الخاص في الشؤون اللبنانية مدعية انها تعمل لتأمين استقلال وسيادة وسلامة الحدود لجارتها الدولة اللبنانية، وليس من يقلل من قيمة ما قاله المدير العام للوزارة الخارجية وهو اعلى سلطة مدنية، شلومو افنيري، في آب اوغسطس سنة ١٩٧٦ «انه لولا اسرائيل لكانت سوريا استولت على لبنان».

كل ذلك الكلام كان في الحقيقة مناورات تكتيكية لتسجيل مرابح مؤقتة، وهو تصرف مرغوب به في الشرق الاوسط، غير ان العرف العام يكشف عن نهج مستمر من العنف نحو لبنان، مما ادى الى اثارة احداث قوضت الدولة في بيروت. وعلى سبيل المثال فقد ظهرت في مذكرات شاريت في سنة ١٩٥٥ فقرة تروى عن جهود رئيس الاركان موشي دايان العاطفية غير الناجحة لتؤمن تأييد مجلس الوزراء بالقيام بغارة على قرية لبنانية انتقاماً لاسرائيليين كانوا قد لقوا حتفهم عندما هاجم الفدائيون سيارة باص في الجليل، ودايان كان يريد ان ينتقم قبل ان يبين التحقيق من هو المسؤول عن ذلك، ان مثل هذه العمليات الانتقامية، تنزل في الجنوب اللبناني المزدحم بالسكان، اصبحت طابعا معمولا به لبضع سنوات، بيد ان منطقة الحدود بقيت هادئة حتى سنة ١٩٦٧؛ وبسبب اندحار القوى العربية في حرب الايام الستة ظهرت المنظمات الفدائية الفلسطينية في مظهر القوة، والحكومة اللبنانية لم تكن لديها القوة الكافية لتبقي الفلسطينيين في حالة انضباط وهكذا اصبحت دورة الغارات الانتقامية والغارات المتعاقبة شيئاً عاديا للبنانيين.

بعض اللبنانيين كانوا مقتنعين ان اسرائيل تخلت عن التحرش بلبنان حتى اواخر سنة ١٩٦٠ لانه كان موضع اهتمام فرنسا لكونها لسنوات عديدة المزود الرئيسي بالسلاح لاسرائيل ورمز النصر الاسرائيلي الخاطف في سنة ١٩٦٧ اذ كان للمقاتلات الفرنسية الصنع، الميراج كل الفضل) ذلك الوقت كان الرئيس شارل ديغول شخصيا شديد الاهتمام بلبنان، حيث قام بمهمة بعد الحرب العالمية الاولى يوم كان مفوضا من قبل المنظمة الدولية العالمية ولكن الولايات المتحدة اصبحت في هذا الوقت المصدر الرئيسي للسلاح، بينما تعمل فرنسا لتحسين علاقاتها مع العالم العربي بعد انتهاء حرب الجزائر. في سنة ١٩٦٧،

كان ديغول قد انذر اسرائيل ان لا تقوم بحرب سنة ١٩٦٧ اذ منذ ذلك الحين، كما يقال، اصبح لبنان في حالة خطر غير امن، ومع ان منظمة التحرير كانت ناشطة في الاردن كما في سوريا فإن مكاتب منظمة التحرير في لبنان تستهدف كلما ارادت اسرائيل الانتقام لغارة يقوم بها الفدائيون دون النظر الى المكان الذي انطلقت منه. لقد كان المؤرخون الاسرائيليون، على سبيل المثال ممن انتقد الوحشية الاسرائيلية في غارتها الانتقامية على مطار بيروت في شهر كانون أول، ديسمبر، ١٩٦٨/٢٨ عندما تكبدت شركة طيران الشرق الاوسط التي ترفع العلم اللبناني، ثلاث عشرة طائرة كانت جاثمة على الارض، ومما كان اكثر ضررا من الخسائر المادية هو ما سببته الغارة التي امر بها رافيل ايتان من احتقار للبنانيين في اقدس مقدساتهم، مطار الشرق الاوسط الاكثر حركة كرمز للازدهار اللبناني، وهو ما حصلوا عليه مقابل امتناعهم عن تكوين قوة دفاع، انه كان عملا مقصودا ورسالة الى اللبنانيين بأن عهدهم الذهبي وصل الى نهايته، وانهم بالتأكيد اصبحوا خارج المظلة، لقد كان الامر متروكا لديغول ليلقن الدرس وقد فعل بأن القى الحظر على مبيعات السلاح لاسرائيل، وما كان هو تزايد الغارات الاسرائيلية وتخطي الحدود، والقصف، والخطف، الذي كان يجري في جنوب لبنان. كانت هذه العمليات لا يقصد بها إلا اثارة الرأي العام اللبناني ضد الفدائيين الفلسطينيين مما يساعد على التخلص من الكومندوس انفسهم. وفي اوائل عام ١٩٧٠ فعشرات الآلاف من الجنوبيين اللبنانيين، غالبيتهم من فقراء الشيعة المسلمين، هربوا من منطقة الحدود التي كانت لزمن طويل بعيدة عن اهتمام الدولة، مهملة، غير مشمولة بالتعليم، والرعاية الصحية والخدمات الاقتصادية المتطورة، فالقسم الاكبر منهم انتقلوا الى ضواحي بيروت حيث كان العديد من الفلسطينيين يعيشون في ما سمي بحزام الفقر الذي يلف العاصمة، وهذا جعل التنظيمات اليسارية تنجح في اثارة الشيعة في بيروت وفي الجنوب وهذا اخاف قادة الجناح اليميني الماروني وحث المسيحيين على التزود بالسلاح.

واخيراً عندما بدأت الحرب الاهلية في نيسان سنة ١٩٧٥ كان الجنوب اللبناني على النقيض من ذلك، ملاذا للسلام في بلاد كانت مناطقها دون استثناء يهدمها العنف، اما السبب فكان واضحاً، فالفدائيون الفلسطينيون غادروا منطقة الحدود واندفعوا الى بيروت حيث كانت تجري المعارك الرئيسية، ولم يتمكن الاسرائيليون في الواقع قبل سنة ١٩٧٦

من التركيز على الاتصال الوثيق بمسيحيي الجنوب المنعزلين في جيوب على طول الحدود، فكان ما فعلته اسرائيل ان وقفت تترصد بصبر حتى قامت الوحدات الاسلامية التي خرجت عن الجيش اللبناني، بقطع المياه، والكهرباء، والطرقات الموصلة الى بيروت عن المسيحيين على امل ان تجبرهم على الاستسلام، بهذه الحالة البائسة تحول المسيحيون الى اسرائيل، وتبعا لاقاويل مشكوك بصحتها، فان عريضة بطلب المساعدة وجدت ملصوقة على سياج الحدود، عثر عليها احد حراس الحدود الاسرائيليين، وبصورة مفاجئة ودونما اعلان رسمي فتحت البوابة في (الجدار الطيب) بين اسرائيل ولبنان الجنوبي وهكذا تحقق الحلم الاسرائيلي تحت ستار المساعدة الانسانية للمسيحيين المضطهدين في منطقة الحدود وقد تحركت اسرائيل عسكريا واقتصاديا فامنت العمل للمسيحيين اللبنانيين، وهربت البضائع الاسرائيلية عبر الشمال الى المناطق الاخرى في لبنان لعدة سنوات.

كان الاسرائيليون قد تمكنوا من تخفيض عمليات تجاوز الحدود، التي كانت شديدة الازعاج لهم. هكذا حدّت من تسرب الفلسطينيين وتوصلت الى منعه تماما، ومثالاً على ذلك ففي سنة ١٩٨٠ كان التسرب داخل الحدود او المحاولات لذلك، فقط ثمانية، من اصل مائتين واثنين وستين عملية فدائية من الهجوم او القاء القنابل، كما هو مسجل لدى اسرائيل رسميا، كان هنالك على الارض سياج مزدوج، واجهزة الكترونية للانذار، ودوريات مستمرة، وعمليات دخول متعددة الى لبنان، هذا كله كان الوازع، ولكن مدن اسرائيل الشمالية ومركز الاقامة بقيت في مدى المدفعية الفلسطينية وراجمات الصواريخ، اما اليوم فباستعمال الوحدات المسيحية الانعزالية اعطيت اسرائيل الاداة الفعالة، لوجود حيوي على التراب اللبناني، يمكن توسيعه حسب ما تقتضيه الاحداث. لم يكن اللبنانيون وحدهم يشككون بأن لدى اسرائيل مخططات للسيطرة على الارض حتى نهر الليطاني، وتحويل مياهه وهو ما ارادوه منذ زمن طويل وبالعودة الى ما في الذاكرة عن القرى المارونية الحدودية التي استولت عليها اسرائيل في سنة ١٩٤٨، فان الديبلوماسيين الغربيين كانوا مقتنعين بأن اسرائيل ستدفع مصالحها الى اي اتجاه تستطيعه وفي اي مكان.

قبل بناء الجدار الطيب بنصف سنة او تزيد، كان المسيحيون في الشمال على علاقة مع اسرائيل، يتزودون بالسلاح والذخيرة، فداني ابن كميل شمعون، قائد مليشيات النمور، فتح صفحة العلاقات مع اسرائيل في خريف سنة ١٩٧٥ وكان ذلك اختيارا منطقيا فان

شمعون الأب كان شيئاً في منطقة الشرق الاوسط لمدة القسم الاكبر من الاربعين سنة الماضية. لقد كان سياسياً على المستوى الاقليمي، ورئيساً سابقاً، ووجودا معروفا، وفي مذكرات شاريت قبل عشرين سنة في شباط سنة ١٩٥٥، سُجل استقباله لمبعوث لبناني يمثل رئيس الجمهورية اللبنانية كميل شمعون، ليعرض لاسرائيل بأن لبنان سيكون مستعداً لتوقيع صلح منفرد، اذا كنا نقبل بشروط ثلاثة: ضمان الحدود اللبنانية، المجيء الى لبنان لمساعدته اذا هاجمته سوريا، مشترى الفائض من الانتاج الزراعي اللبناني، وبالاضافة فبناء على ما يقوله شركاؤه كانت مساعدات اسرائيل بالسلاح شيئاً غير جديد، ففي الحرب الاهلية سنة ١٩٥٨ استلم الرئيس اللبناني لمعركته، خمساية بندقية ماركة طمسن، وبارته، وبرتي، من اسرائيل وبعد سنوات عندما كان رابين قائداً للقطاع الشمالي في اسرائيل، ومركزه في الناصرة، يذكر انه تعاون مع شمعون في منع تسرب السلاح من سوريه للمساعدة على خلع الرئيس اللبناني، ولكن المساعدة الاسرائيلية الرئيسية الثانية، بدءاً بالوقود، فالمدافع الثقيلة الفائضة من الحرب العالمية الثانية، والدبابات الامريكية الصنع شارمن ومنها الى الاجهزة الالكترونية والالبسة العسكرية، كانت كلها تصل باستمرار بعد دخول الجيوش السورية الى لبنان سنة ١٩٧٦.

فاسرائيل كانت تريد ان تخضع عدوين رئيسيين: السوريين والفلسطينيين، فالمليشيات المسيحية الشمالية التي نجحت في ضربة السوريين في تلك الايام، وضيقت عليهم المسالك، كانت مبتهجة لتجند نفسها كقوة فاعلة، تؤمن التوازن لمنقذيها، وبازدياد المساعدة، وجدت اسرائيل ان عليها ان تتعامل مع فئتين من القائمين بالحرب، وفي نظر الاسرائيليين كان شمعون اختيارا معقولاً اكثر من آل الجميل، لأن الكتائب يبدو انهم اخذوا بعض الشيء عن النازية التي من المؤكد ان الشيخ بيار تأثر بها عند حضوره اولمبياد برلين سنة ١٩٣٦ (مع ان آل الجميل كانوا قد اسسوا علاقات حميمة مع الجالية اليهودية في لبنان، (فالكتائب كانوا حماة شبه رسميين لليهود في لبنان، وقد اثبتوا ذلك بالبرهان في حرب الايام الستة سنة ١٩٦٧ عندما قامت ميليشياتهم بتنظيم طوق حول يهود وادي ابو جميل بجوار بيروت، ليبعدوا احتمال دخول مخربين)، كان شمعون معارضاً لسوريا دونما تحفظ، بينما شكل الكتائبيون المنفتحون ذلك الجناح الذي حقق تحالف الاحدى عشرة ساعة بين لبنان وسوريا.

تمكنت اسرائيل بحذاقة في بداية الامر من ابقاء الحليفين المتنافسين من القادة المارونيين في موقعين منفصلين بصدد ما كانت تقدمه من مساعدة لكل منهما، كان اللقاء الاول على مستوى عال، ذاك الذي تم بين وزير الخارجية الاسرائيلي رابين، وكميل شمعون على ظهر مركب اسرائيلي مسلح، عند ميناء جونية المسيحية، في اوائل نيسان سنة ١٩٧٦ وكان مهندس هذه العملية شيمون بيريز الذي كان في ذلك الوقت وزير الدفاع (يذكر بيريز «لقد اتصلنا بكل على حدة»، ومما قاله اسرائيلي رافق المحادثات، انه عندما جاء دور الشيخ بيار للقاء مع الاسرائيليين، كان يبدو غير مستريح، فهي المرة الاولى التي يجتمع فيها بوزير خارجية اسرائيلي، وهكذا فقد بدا عليه انه يحاول تذليل الحاجز النفسي، انه كان حاد المزاج حذراً معتدا بنفسه، برغم تأزم الاوضاع).

بدأ الاسرائيليون بتوزيع السلاح والذخيرة بين الجميل وشمعون مناصفة، وهذه مكنت شمعون الذي كانت مليشياته قليلة الاهمية، بالمقابلة مع التنظيمات الكتائبية العسكرية القديمة العهد، اجل مكنته هذه المناصفة بالحاق اعداد اكثر من الجنود، مع العلم انهم لم يصلوا بوقت ما الى مساواة الكتائب عددا وتنظيما. كان شمعون يغذي صندوقه الحربي ببيع الفائض لديه من السلاح الكتائبي للميليشيات مسيحية اخرى اقل عدداً، وفي شهر تموز (جولاي)، بلغ تدفق السلاح الاسرائيلي مبلغا جعل احد الدبلوماسيين الامريكان في بيروت يبدي ملاحظاته على ذلك بقوله: «ان المسيحيين يقومون بمساعدة اسرائيل، بأحسن ما يكون، مما يجعلنا غير مضطرين للتورط حتى ولو شئنا».

منذ البداية اوضحت اسرائيل انها تريد مساعدة المسيحيين في الشمال، لتمكنهم من مساعدة انفسهم على ان لا تحارب عنهم «انه مبدأ نيكسون، كما اوضح ذلك مرة بيريز عند كلامه عن السياسة الامريكية بخصوص تسليح الحلفاء عبر البحار، نعطيهم السلاح ولا نشاركهم بالحروب، وفي الكلام عن الشماليين قال لي بيريز «اني معجب بهم كثيراً، لقد حاربوا بشجاعة مع العلم انهم بنظرنا شاعريين نوعا ما» (انه كان يعني بذلك، انهم يفتقرون الى التنظيم العسكري)، والاسرائيليون كانوا يساعدون حلفاءهم في الجنوب من المسيحيين والشيعة المسلمين بالقيام بدوريات مشتركة منتظمة داخل الشريط الحدودي الذي كانوا يستعملونه مربضاً لمدفعيتهم في الكثير من المناسبات، ومع مرور الوقت فقد حاول المسيحيون باطراد، توريط اسرائيل بخططهم المحض لبنانية، وفي اكثر الأحيان

تمكنوا تقريباً من اثارة مواجهة مع سوريا اكثر مما كانت تريد اسرائيل، وعليه ففي جملة من المحادثات كنت قد اجريتها مع قادة حزب العمل سنة ١٩٨٠ بعد ان كانوا قد خرجوا من الحكم، انهم كانوا يشددون على القول بأسف، انهم كانوا مثاليين بالتعامل الشريف مع المسيحيين واكد هذا الزعيم بقوله «اني لم اضللهم ابداً» هذا ما قاله رابين بحماس لأنه على ما اظهر كان يعتقد اني افكر بأن اسرائيل حققت مصلحتها عن طريق الزعماء المسيحيين المحاربين، والمسؤولون الاسرائيليون، وحتى الموارنة امثال داني شمعون كلهم يجاهرون ان المسيحيين لم يطلبوا ولا وُعدوا بشيء سوى المساعدة المادية، الا في حالة الاجتياح والابادة، هذا التهديد الذي لا قوة لهم على دفعه، واستمر الموارنة بالرغبة في الاعتقاد ان الاسرائيليين في مناسبات عديدة كانوا على وشك القيام بعمليات رئيسية مشتركة على الأرض لولا أنها كانت تلغى في اللحظة الأخيرة. حتى في ايام حكومة رابين، فالمسؤولون الاسرائيليون عن الاعلام تكلموا كثيراً عن الحماية الاسرائيلية للمسيحيين اللبنانيين، وذلك على الغالب ليظهروا تخلي الغرب بصورة معيبة عن ابناء دينهم، مضحين بهم من اجل النفط العربي، هذا الاعلام كان يكبر ويتعالى التصريح به سنة ١٩٧٠ مع وصول مناحيم بيغن الى السلطة، فهو كان يعتقد كلياً بأن المسيحيين كانوا مهددين بالابادة، على حد التعبير الشرق اوسطي، وهم في كل الاحوال ينعمون الآن بالتمتع بحماية اليهودي القوي الذي يصون المسيحية المضطهدة. قال لي يهودي عربي ان المسيحيين اللبنانيين تعلموا كيف يتلاعبون ببيغن بمناشدة اسرائيل بتحمل مسؤوليتها بحماية كل الموارنة الذين في كل الشرق الاوسط، حتى من الاقباط المصريين المسيحيين والاكراد الذين هم مسلمون سنيون، ثم اضاف هذا المتحدث «عندما يتكلم بيغن عن مخاطر ذبح المسلمين لا يمكنك أن تصدق كل كلمة»، بينما كان الاسرائيليون الاخرون شديدي السخرية بعلاقة بلادهم مع المسيحيين اللبنانيين، لقد كانوا يريدون أن تكون العلاقة مقتصرة على المنطقة الحدودية، بدلاً من أن تمتد الى بيروت وقلب الأرض المسيحية في اقصى الشمال اللبناني، وان الاسرائيليين الذين يتصرفون ضمن حدود المعقول، يعرفون جيداً أن المسيحيين في المنطقة الحدودية، لا يؤلفون اكثر من عشرة الى خمسة عشر بالماية من السكان، مع العلم انه من المعروف أن الاتفاق يصف المليشيات هناك بأنها مسيحية، بينما هي كالسكان غالبيتها من الشيعة المسلمين وليس سوى قائدها اللبناني المطرود الرائد سعد

حداد مسيحيا وهكذا بعض الضباط. مما اوضحه جندي اسرائيلي عن التفكير السائد لدى القوات المسلحة بشأن هذه المليشيا قوله « نحن في الحقيقة ليس لهم عندنا أي اعتبار، لدينا دائماً لواء درزي، والآن عندنا لواء مسيحي او هكذا يعتقد الناس، ان كل ارتباطنا مع المسيحيين هو شبيه بالزواج الحديث، بضعة سنوات سعيدة معاً والعلم عند الله بعد ذلك»، لا ريب ان المسيحيين اللبنانيين ساعدوا في استقدام اليهود العراقيين والسوريين الى اسرائيل في اواسط سنة ١٩٧٠ ولكن بالحقيقة نحن نتصرف بخشونة مع شعبنا، اذ نستعملهم الى ان يحترقوا. وعندما تورط المسيحييون مع اسرائيل تورطاً كبيراً كان ذلك امراً غير متوقع بالنسبة الينا (اذ ما الذي استطاعوا ان يحصلوا عليه منا سوى سلاح نستفز به السوريين. اذن اين هي مصلحة اسرائيل؟ الجواب لا يحتاج الى ذكاء، هكذا كنا مع المسيحيين دائماً فيا مضى، وليس فقط، للضغط على السوريين، وجعل منظمة التحرير الفلسطينية تقف دائماً موقف الحذر، بل على امل ان تبقى لنا يد في الحكومات اللبنانية القادمة، فمن الأحسن ان يكون لنا اصدقاء في بلد معاد، كان ذلك ترتيباً مناسباً وهذا ما اعطى بيغن تأييداً شعبياً، والعملية بكاملها اصبحت علنية لا سرية.

ان سياسة اسرائيل مع مسيحيي الشمال ظهرت وكأنه كان المقصود بها ابقاء فريق محتفظاً برأسه فقط فوق الماء، وعلى سبيل المثال فقد اوضح لي داني شمعون أنه اثناء الحصار المسيحي للفلسطينيين في مخيم اللاجئين في تل الزعتر، الذي استمر اثنين وخمسين يوما، في صيف سنة ١٩٧٦، كان الاسرائيليون ينقطوننا بالذخيرة بالقطارة، فقد كانوا يريدون ان يستمر هذا الصراع اطول مدة ممكنة، وزاد بأن أضاف ما قاله احد مساعدي والده في ذلك الوقت « لم يكن لاسرائيل رغبة في أن ننتصر هناك، انهم لم يعطوا ولا رصاصة واحدة اكثر مما كنا بحاجة اليه للدفاع عن انفسنا». بعد اسابيع من اللقاء بين اسرائيل وشمعون بالقرب من جونيه، ارسلت الدفعة الاولى، من اكثر من الف عنصر من المليشيات المسيحية عبر قبرص الى اسرائيل بقصد تدريبهم، وقد ظهر بين ليلة وضحاها أثر اللمسات العسكرية الاسرائيلية في صفوف المليشيات اللبنانية بدءاً من الحذاء العسكري الى السلاح الى اللباس والى الطريقة التي يستعملون بها سلاح الهجوم (تعليق البندقية برباط حول الرقبة بدلاً من حملها باليد) وفي لبنان الجنوبي كانت تظهر عناصر المليشيات القادمة من جونية عند وصولها إلى القرى المسيحية المعزولة عبر ميناء حيفا لتنضم الى صفوف

المسيحيين، والمقربون من بريز من الاسرائيلين قدروا ان خمسماية أو ما يقارب هذا العدد من الجيش المسيحي النظامي او المتقاعدين والف وخمسماية شيعي من المليشيات المسلمة كانوا يقدرون بلوائين من القوات الاسرائيلية المسلحة بالمعنى العسكري.

....

ومن جهة، فقد كان الخاسر الظاهر هو السفير الامريكاني في بيروت باركر انه في صيف سنة ١٩٧٨ اصبح كبش المحرقة او الفداء، لدى الحكومة اللبنانية لقد وقع باركر في الفخ عندما قدمت اسرائيل في اللحظة الأخيرة خطة تدعمها امريكا لنقل جيوش لبنانية الى الجنوب. والاسرائيليون لوحوا بحصول مثل هذا التغيير في نواياهم عندما اطلقوا نار سلاح امريكي وجرحوا عدداً من الجنود اللبنانيين الذين سلحتهم امريكا مما اثار الحكومة اللبنانية فطلبت من باركر بقسوة ان يغادر لبنان، وقد فعل، وهذه الحادثة كانت تفسيراً لنهج اسرائيل العنيد الرافض نحو كل القادمين مما دعا احد صانعي السياسة الامريكية ليصرح «انهم يستطيعون ان يخرجونا من كل تدبير ويحلوا محلنا.

فإذا كانت السياسة الاسرائيلية احياناً تعود بالفشل على اصحابها فإنها مع ذلك تنال اعجاب الكثيرين من الدبلوماسيين الامريكيين بأن لها ميزة الاستمرار أو البقاء على الأقل، وعلى الغالب فالسياسة الامريكية الوحيدة الظاهرة تبدو وكأنها شيء مقدس، فيما تسميه الهيئة الدبلوماسية «الحرب ما بين السفارتين» التي تضع الامريكان في بعثة بيروت ضد زملائهم في تل ابيب (في الواقع ان السفارة في تل ابيب انقسمت على نفسها بأن كان السفير صموئيل لويس مجبراً على الغالب ان يقف ضد بعض اعضاء ادارته الذين عارضوا بعنف سياسته المؤيدة لاسرائيل بقوة) فالامريكان في بيروت كانوا يريدون اغلاق الجدار الطيب محافظة على تصريحات واشنطن المتكررة ابدا، باحترام السيادة اللبنانية والاستقلال وسلامة الأرض. ان لويس ومن كان يعاضده في سفارة اسرائيل كانوا الصدى للمخطط الاسرائيلي. أنه بعد جيل من الجهد لايجاد علاقات متبادلة بين العرب واسرائيل، فكيف يمكن لواشنطن الآن أن تعارض تدبيراً انسانياً اكيداً مثل الجدار الطيب، لقد كان لبنان

سلة فارغة كما قالوا، غير جدير بالوقت الذي تستغرقه مشاكله، اذ كان من الاجدى استعماله في الامور التي تبدو أكثر أهمية بشأن العلاقات الامريكية الاسرائيلية، وبرأي احد الامريكان المتصلبين لم يكن لبنان إلا وضعا غير قابل للحل في الاوقات الراهنة، اذ ليس هنالك اساس لدبلوماسية يمكن العمل بها. انا ننظر إلى لبنان، خصوصاً إلى جنوب لبنان، كمسألة اخلاقية، ولكنها مسألة لا يمكن حلها إلا بعد تأمين الشرعية، واسرائيل تنظر الى لبنان وكأنه حقيقة استراتيجية لها.

ومع شعور الدبلوماسيين الامريكان في بيروت باليأس من هكذا انهزامية، فقد لجأوا الى الحكمة الاسرائيلية القائلة «ان اسرائيل لا تهتم بأمر التورط بالأضطرابات الطويلة المدى، فجنوب لبنان بنظرهم هو فرصة لتكوين حزام سلام رخيص الثمن، وجعل الآخرين يقومون بالتقاتل فيما بينهم» وقد عقب على هذا دبلوماسي امريكي كبير بقوله «اذا استطاعوا بالنتيجة اخضاع الجنوب فإن ذلك يكون كسباً غير مشروع»، ان سياسة اسرائيل تصنعها قيادة جيش الشمال، وهم يعارضون بصورة منتظمة وزارة الدفاع، لقد واضب الاسرائيليون على القول للحكومة الامريكية «يمكننا العيش مع جنوب لبنان، ولا يعنينا اذا كانوا يقتلون بعضهم بعضاً»، ويضيف هذا الدبلوماسي، هنا تشعر ان الاسرائيليين قصيرو النظر «على اسرائيل ان تستفيد من وجود لبنان مستقر، وافضل طريقة هي ان نسمح للسوريين بالمساعدة على ايجاد شرعية شاملة، ان زملاءنا في تل ابيب يجاهرون بأن الجنوب هو واجهة اسرائيل الجانبية، بينما نحن نرى الجنوب حيويا لاستقرار لبنان، هذا ما كان سابقاً. والسفارة في بيروت لم تقدر أن تبين وجهة نظرها، عندما بدا ان سياستها متورطة، فسياسوها مثلاً برهنوا ان جهودهم ذهبت سدى في اغلاق محطة اذاعة صوت الامل، التي اسستها مؤسسة انجيلية في كاليفورنيا بتشجيع من اسرائيل في القطاع الذي يتبع الرائد حداد في ايلول سنة ١٩٧٩ وقد اطلق عليها النقاد اسم صوت الموت لأن حداد كان يستعملها ليدافع عن رغبته في قصف اهداف مدنية، وهي في الاساس، مخصصة لأهداف تبشيرية وقراءات من التوراة القديمة، كما يذيع منها حداد نشرات الاخبار، وأكثرها مما تزوده به الاذاعة الاسرائيلية، ومن جهة ثانية فإن حكومة الولايات المتحدة كانت منزعجة جداً من علاقة المحطة باسرائيل، ومخالفتها لقانون الاعلام اللبناني، ومما يقال همسا هو ان معاضدة رسمية امريكية تساندها مما يسبب

للمبشرين مشاكل، اضطرت المسؤول عن الاذاعة «بولاك» لينفي ان مصدرها الامريكي الرسمي، يقدم تأييداً أو دعماً لحداد أو اسرائيل، ومن قوله (ان هذه التعقيدات السياسية التي تقوم خطأ أو صواباً هي مغايرة لما يريدنا الله ان نقوم به، ان بولاك الذي يعيش في اسرائيل مع ستة من الامريكان الآخرين كانوا مزودين بجوازات مرور حدوديه من حداد، والمشكلة ان الاسرائيليين لم يكونوا ليتسامحوا بتبشير مسيحي في بلادهم، لو لم تكن لهم فيه منفعة. وقد ازدهرت هذه المحطة بعد مجيء ريغن الى الحكم في سنة ١٩٨٠، اذ اصبح صوت الامل يذاع على موجة قصيرة بلغت تكاليف انشائها مليوني دولار واصبحت معداتها تقدر اليوم من قبل مالكيها بأربع ملايين ونصف من الدولارات.

لم يكن هنالك ما عكس انتصار سفارة تل ابيب على زملائهم في بيروت سنة ١٩٧٠، أفضل من ذلك التساهل في واشنطن بالسماح لاسرائيل بأستعمال السلاح المزود لها من الولايات المتحدة الامريكية. بكميات اكبر واكبر في لبنان، وبعد ذلك كانت الاسلحة الامريكية تستعمل كجزء من السياسة الاسرائيلية في الدفاع عن ما تعتبره من حقها في اتخاذ التدابير الوقائية، وقد تعرضتُ الى ان يُهزأ بي، باعتباري ذلك السطحي الذي لا يفهم دقائق الامور عندما وصلت الى القدس حاملاً معي عشرات الوثائق التي (مع الاسف اثبتها التحقيق)، سجلت بعناية، عن خرق القوانين الامريكية التي اتاحت للولايات المتحدة تزويد اسرائيل بالسلاح بسخاء، فقانون الدفاع المشترك المؤرخ سنة ١٩٥٢ يحدد استعمال السلاح الامريكي المعطى لاسرائيل، غير ان اسرائيل كانت تختار عبر السنين من بين البنود المعقدة، بنداً واحداً، وهو الذي يستثني حالة استعمال السلاح دفاعاً عن النفس. وهكذا فمن وجهة نظر اسرائيل لم يكن هنالك انتهاكات، أياً كانت الغايات والاغراض التي من اجلها استعمل السلاح.

وفي حادثة واحدة على الاقل، قام موظف امريكي من موظفي الامم المتحدة العسكريين، لمراقبة لبنان الجنوبي، بعرض صور كان قد اخذها لأصابات ناتجة عن قصف اسرائيلي، من سلاح امريكي المصدر ممنوع استعماله، عرض ذلك على مسؤول اسرائيلي كبير، مهدداً بنشر هذه الرسوم، اذا لم يتوقف القصف الصادر من موقعه، مع ما يمكن ان ينتج عن ذلك في دوائر الامم المتحدة من جراء هذا الاجراء. وهنا اظهر الاسرائيليون الليونة، وقد اخذ السفير الامريكي في بيروت، جون كانتر دين بتدابير مشابهة ان لم

تكن اكثر شدة بصدد انتهاكات اسرائيل، فخلال اسبوع من شهر آب سنة ١٩٨٠، وجه على مرتين اتهاما لاذعا للهجوم الاسرائيلي المدمر على جنوبي لبنان. والذي، كالعادة، تسبب في قتل المدنيين اكثر مما تسبب في قتل الفدائيين الفلسطينيين، كما يرد في الاذاعات ووسائل الاعلام، ومع ان اللهجة والعبارات التي استعملها كانت متوافقة مع تلك التي استعملتها الادارة الامريكية نفسها، فإن المتكلم بأسم الادارة في واشنطن تنصل مما قاله السفير. ومما استخلصه بعض العقلاء اثناء قيام كارتر بحملة انتخابية، هو ان الرئيس الذي كان يرشح نفسه للانتخابات مرة ثانية، قد تحاشى ازعاج اسرائيل واصدقائها ذوي التأثير في الولايات المتحدة، بينما في مناسبة مماثلة قام (سايروس فانز) الذي كان وزيراً للخارجية بدعم موقف السفير دين في اجراء مماثل، فأوقف الغارات عن المنطقة الحرة لمدة تسعة اشهر.

وبعد اسبوع من تنصل الادارة مما قاله دين، قام مسلحون كانوا في سيارة مرسيدس برش سيارة السفير المصفحة، برشقات من الرصاص، ورموا قنبلة بين سيارته وسيارات الامن المرافقة. انه كان قادماً من مكان بالقرب من مسكنه فوق بيروت في اليرزة، (من التسعة كيلومترات المربعة الباقية من لبنان في نطاق الحكومة المركزية) وقد قام المرافقون المسلحون تسليحاً كاملاً بالرد باطلاق النار، فاجبروا سيارة المرسيدس على التوقف، والقي القبض بسهولة على ركابها الثلاثة الذين اخليّ سبيلهم على الفور، وقد كانت الشائعات التي سرت في بيروت تشير إلى ان هذا العمل قد قامت به القوات اللبنانية، وفي المنطق البيروتي، أو بالأحرى في التفسير البيروتي، كان المسلحون المهاجون لا يريدون اكثر من اخافة السفير، لأنهم اكتفوا بقنبلة واحدة. فيما بعد وفي اليوم نفسه انطلق دين من المرتفع الى بيروت لحضور مأدبة عشاء في جامعة بيروت الامريكية، وبعد فوز ريغن في الانتخابات في نوفمبر، تشرين الثاني، طلب الاسرائيليون نقل دين من بيروت، وفي يونيو حزيران غادرها، ليس بسبب خطأ وقع فيه أو لعجزه عن منع استعمال السلاح الامريكي في لبنان؛ «الا يكفي انه بقي على الحياة»!

قال لي واحد من الدبلوماسيين الامريكان في تل ابيب «انك تتعرض إلى امور كثيرة مما يجري في الشرق الاوسط» وفي احدى المرات في ربيع سنة ١٩٨٠ كان موظف آخر من الامريكيين العاملين في بيروت يقدر متذمراً، أن اربعين بالماية من وقت السفارة كان

مخصصا لجنوب لبنان، وفي لهجته كان ما يُظهر أن ذلك كان كله جهداً ضائعا. وكأن الولايات المتحدة لا تزال تعيش في سنة ١٩٦٠، وقبل ان تلقى الاضواء، في الرأي العام الامريكي، على ما كان من تصرفات في الهند الصينية، ومما سببه القصف الكثيف على الجماعات، (انه من المؤكد ان الامريكان لم يهتموا بأستعمال اسرائيل للسلاح الامريكي بما لا يتوافق مع قانون سنة ١٩٥٢، إلا بعد ايام حرب فيتنام وفي حرب ٦٩ ـ ١٩٧٠ حرب الاستنزاف بين مصر واسرائيل، فقد كانت هذه تستعمل على المكشوف طائرات سكاي هوك والفانتوم الامريكيتين ولم يعترض عليها احد، باستثناء مصر والدول العربية الاخرى).

ومما قاله موظف امريكي متورط جداً بشؤون الشرق الاوسط في سنة ١٩٨٠، «أن الولايات المتحدة المركزة على استعمال السلاح في جنوب لبنان، تفعل ذلك، لأن واشنطن البيروقراطية، ليست على استعداد لأن تحارب وتموت، انهم يعتقدون ان لديهم الكثير من الشؤون الأخرى لتدبرّها بالاشتراك مع اسرائيل» ولكن ماذا عن شهادات حدود الاستعمال وشروطه، وهذه التعهدات الخاصة من قبل الذين يستعملون السلاح الامريكي، والتي كانت نظريا تمنع سوء استعماله او اعادة تصديره إلا بموافقة سابقة من واشنطن؟ وعلى هذا السؤال اجاب موظف في داخل مكاتب السياسة الخارجية بهز رأسه، ثم اردف، قائلاً: «ليس هنالك من له الشجاعة على الجهر به، فالادارة الامريكية قد تتبع الاتجاه المعاكس فتتجاهل القانون والمخالفات. ليس هنالك من يجاهر بمثل هذا في الادارة أو في بيت الرئاسة ثم نظر الي باحثاً عن وسيلة يستطيع بها ان يفهمني كم هو من السهل على اسرائيل دفن الامريكان. «تحت شريط احمر» ثم ختم قوله «ان حجم المكالمات البرقية بين واشنطن واسرائيل يأتي في الدرجة الثانية بين حجمه فيما تتبادله من برقيات مع الاتحاد السوفياتي».

ومن وقت الى آخر، كان العنف يبلغ اكثر من المستوى المسموح به سابقاً، وكانت واشنطن توجه الاضواء على لبنان، ففي آذار، مارس سنة ١٩٧٨ قام كومندو فلسطيني بحري، قادما من الشاطيء اللبناني بغزو اسرائيل متخفياً بالطقس السيء ونزل على البر على الشواطيء الاسرائيلية، وتمكن من قتل اثنين وثلاثين اسرائيليا، كان هذا رقماً قياسياً في الارهاب الفلسطيني، بالنسبة لما كان يجري في اسرائيل، والانتقام لم يكن موضوع

تساؤل بل كان الموضوع هو متى وفي أي حجم، وكالعادة فقد أخذ رأي الولايات المتحدة فلم تكن لها اعتراضات مبدئية، وعندما تحسن الطقس بعد ثلاثة ايام قام الاسرائيليون بضربتهم الانتقامية، فكان غزوهم لجنوب لبنان بثلاثين الفاً من الرجال، مدعمين بسلاح حديث الصنع، من مدافع ذاتية الانطلاق، وقوة جوية هائلة، اعطيت هذه الغزوة اسم لوح الحكمة، وهي خطة مقررة منذ زمن طويل، تتألف من أكبر حشد عسكري لأسرائيل في زمن السلم. وقد كانت في الوقت نفسه مثيرة للدهشة حتى في الولايات المتحدة الامريكية.

كان التدمير في مستوى لم يعرف تماما في فيتنام، كان الاسرائيليون يقلدونهم فيه ويمارسون استعمال السلاح بسخاء تماما كما فعل الامريكيون في الهند الصينية، فالاسرائيليون كانوا يريدون ان تكون خسائرهم قليلة، وقد نجحوا ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على الكومندوس الفلسطيني، اذ كان لدى هؤلاء الوقت الكافي لينسحبوا الى المكان الامين شمال نهر الليطاني، ثم ان اكثر من مئتي الف لبناني، حملوا ملابسهم وأشياءهم وعائلاتهم في سيارات صغيرة وسيارات شحن كبيرة موسوقة وسقا، وهربوا الى الشمال، خوفاً من الاذى، لقد اصبحوا مبعدين في بلادهم، وكانوا يحتلون الشقق الخالية جماعات جماعات، مشكلين بذلك تأزماً أكثر في بيروت. ان الاسرائيليين نجحوا بالقتل الجماعي، ولكن الضحايا كانوا على الغالب من المدنيين اللبنانيين، وبناء على تقديرات هيئة الصليب الأحمر العالمية فقد كانوا ما يقارب الالف ضحية. (كان عدد البيوت التي تدمرت كليا أو تضررت ضرراً بالغاً، اكثر من ستة آلاف وست من القرى تدمرت كليا، بنتيجة موجة عنف مجنون قامت بها الجيوش الاسرائيلية بفظاعة.

لقد بدا ان التدمير كان لغير اهداف معينة، كما يحصل عادة في الحروب، كنت في احد المستشفيات في صور في اليوم الاول من بدء الهجوم، فرأيت وانا اراقب، الطائرات الاسرائيلية، على ارتفاع منخفض تشق الاجواء وهي في طريقها لقصف ميناء صور، أنهم اخطاؤا السفن، ولكنهم هدموا المباني، ومن ضمنها بيت لصديق لي، قريب من المرفاء مبني في العهد العثماني، ولما عدت الى الجنوب بعد بضعة ايام، درجت الى حيث كان اسرائيلي يعزف قطعة لموزار، على آلة وترية في مكان للمسلحين، ترفيها عن الجنود، وقد بدا هذا وكأنه احتفال اسرائيلي، يشبه الاحتفالات التي كانت تقيمها الجيوش الامريكية

في فيتنام، في المناسبات المبهجة، بيد ان الجيوش الاسرائيلية كانت تبدو حزينة أو على الغالب خجولة، مما سببته من دمار. ومما يزيد الامور سوءاً ان عملية لوحة الحكمة، كانت عملاً حربيا من الضخامة بحيث ان الحكومة الاسرائيلية، وجدت نفسها مضطرة لتعيين هيئة رسمية للتحقيق فيما اعطته من نتائج. فالمهاجمون اضاعوا فرصة عنصر المباغتة، لقد عجزوا عن تدمير جسور الليطاني، او ان ينزلوا في شمالي النهر قوة مجوقلة ليتمكنوا من محاصرة الفدائيين الفلسطينيين الهاربين. وعمليا تمكن الغزاة من التوقف على مدى ستة اميال داخل الحدود اللبنانية، ثم في اليوم التالي انطلقوا الى شمالي الليطاني، في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة قد بدأت تقيم بالاشتراك مع قوات الامم المتحدة في لبنان، قوة لحفظ الامن في الجنوب، فإن كارتر كان غاضباً ومصمماً على انهاء عملية الغزو التي امتدت الى أبعد مما هو من ضمن المسموح به في عمليات الانتقام، وكذلك اعتقد الاسرائيليون خطأ بأن المبادرة الامريكية في شأن البوليس الدولي سيعترض عليها الروس في مجلس الامن ويكون ذلك لصالح الفلسطينيين، غير ان الاسرائيليون، خوفاً من حصول خسائر كبيرة في صفوفهم، لم يعملوا على اخلاء الفلسطينيين من مركز تجمعهم الكثيف حول صور، والوحيدون الذين اقتنعوا بأن اسرائيل كانت على الخط الصحيح، هم المسيحيون في شمال لبنان، أو على الاقل بعضهم، وقد وضعوا الخطط لارسال جيوش الى حيفا لتشترك بهذه الحركة الكماشة التي كانوا متأكدين أن اسرائيل ستقذف بها وراء الحدود، اذا هم تحركوا جنوباً من معاقلهم في جنوب لبنان، هذه كانت قناعاتهم الذاتية، غير ان الواقع كان أن اسرائيل، كانت مجبرة تحت الضغط الامريكي القوي، للتوقف قبل ان تتمكن من تسليم كامل المنطقة الى مليشيات الرائد حداد. وعلى الاقل، هذا ما كان يعتقده الامريكان، وفي النهاية اضطر الاسرائيليون الى سحب جيوشهم من لبنان، ولكن ليس قبل ان ارسل الرئيس كارتر كتاب تهديد الى بيغن، جاء فيه، انه اذا لم يبدأ بسحب جيوشه خلال اربعة وعشرين ساعة، فسيقوم بقطع ارسال السلاح والمساعدات إليه، ويطلب من الامم المتحدة أدانة اسرائيل في احتلالها، وقد انصاع بيغن. ومع هذا فقد كانت الكلمة الأخيرة لاسرائيل. ففي الثاني عشر من حزيران (يونيو) وهو اليوم الأخير من الاشهر الثلاثة لأحتلالهم، وقبل يوم من موعد جلاء جيوشهم من اخر شبر في الارض اللبنانية، اعلنوا انه قد تخلوا عنها الى الرائد سعد حداد، وهكذا يكونون قد تحدوا

قرارات الامم المتحدة، بأن تقوم قواتها المؤلفة من ستة الاف رجل بالتحرك الى الحدود اللبنانية، لتضمن سيادة لبنان على كل شبر من الارض التي كانت قد احتلت، فالاسرائيليون في الوقت نفسه تدبروا عملية انسحابهم بشكل يُبقي منفذا من ستة كيلومترات، في خطوط هذه الجيوش، ليبقى معبراً للاسرائيليين تمر به القوات الغازية، وفي سنة ١٩٨٢ كان هذا واحداً من الممرات، عندما قامت بأكبر عملية حربية على الأرض، اذ لم يتناسوا ابداً كل هذه السنوات مسيحيي شمالي لبنان. لقد بذلت ادارة كارتر جهداً كبيراً لأخراج الاسرائيليين من لبنان ولكن لم يحدث اعتراض شديد عندما قام الاسرائيليون بحيلتهم المكشوفة بوجود سعد حداد، وقد ذكر سياسي في سفارة امريكا بتل ابيب، « ان الامم المتحدة اقامت علينا الدنيا واقعدتها، ونحن فعلنا الشيء نفسه مع اسرائيل، ولكنا لن نستمر بذلك »، ان حدادا كان يعتبر في ذلك الوقت، عنصراً هاماً، كان مسلحا، يقبض، ويتلقى المساعدة من اسرائيل، كما كان يشكل غطاء لمحاولة اسرائيل الربط بين ثلاثة مواقع للمسيحيين معزول بعضها عن البعض الآخر، والآن وللمرة الاولى تمكنت اسرائيل من الحصول على شريط امان فاعل تحت مراقبة منتدبة، بوجود قوات الامم المتحدة هناك فالمنطقة كانت تشكل منطقة حيادية ثانية على طول القسم الاكبر من الضفتين الغربية والشرقية لنهر الليطاني.

وكانت الانتهاكات الاسرائيلية حقيقة راهنة مما حدا بالولايات المتحدة للاعتراض، على الاقل في بعض الحالات على تزايد ممارستهم لتقديم السلاح الامريكي الى منطقة حداد، ولم تعد الانتهاكات محصورة بشدة القتال، فقد حدث اثناء ذلك الهجوم أن استعملت اسرائيل القنابل العنقودية، وهي سلاح يستعمل بصورة خاصة لأبادة الافراد، استعملته امريكا في الهند الصينية، وهذه المتفجرات كانت لا تزال تفتك باللبنانيين والفلسطينيين المدنيين حتى في سنة ١٩٨٢، اذ كانت تستعمل على قياس اكبر، بل ان اسرائيل لم تتمكن حتى في سنة ١٩٧٨ من نفي هذه الاتهامات، فاستعمالهم للقنابل العنقودية طرح على بساط البحث في الكونغرس وتعهدت الادارة بالتحقيق، مما اغضب بيغن كثيراً (ولكن هذه التحقيقات لم توصل الى شيء) وفي سنة ١٩٨٢ رد الاسرائيليون غاضبين عندما دعا مجلس الشيوخ الى التحقيق، واستمروا باستعمال تلك القنابل حتى بعد أن امرت امريكا بالتوقف عن الامداد، وهكذا تملصت البيروقراطية من مسؤوليتها وسلم

خط الانابيب من التفجير، وبعد ذلك ذكر احد صانعي السياسة في واشنطن، « ان موشي دايان، الذي كان اذ ذاك وزيراً للخارجية دُعي للمشاركة في نقاش قام به محاورون امريكيون، كان ذاك عندما كان يقوم بأحدى زياراته المؤقتة لامريكا، وكانت حاملات الجنود الامريكية المصفحة تنتشر في جنوب لبنان، خلافاً لتعليمات الولايات المتحدة، وما قاله دايان ان هذا التقرير كان غير صحيح، في الوقت نفسه كان، على طاولة الرئيس كارتر، صورة فوتوغرافية التقطها القمر الاصطناعي قبل ساعة واحدة وفيها اشارة الى وجود العربات المسلحة في بعض القرى، وقد ثارت لهذه المكابرة من دايان ثائرة كارتر فصاح قائلاً انه لا يريد ان يُكذب عليه، وأنه سيكون هذا مخالفاً لسياسة وقوانين الولايات المتحدة، وانه سيكون مضطراً لأبلاغ الكونغرس وانهاء كل المساعدات الحربية مستقبلاً، اذا لم يتم اخراج القنابل العنقودية خلال الاربع وعشرين ساعة، وقد تم اخلاؤها ولكنها تركت تفسخا في العلاقات الثنائية بين اسرائيل وامريكا. ولكن جيمي كارتر توقف عن لعب دور الرئيس الحازم، حتى ولو انه في ذلك الوقت لم تكن العلاقات مع لبنان في مكان الاولوية، في الدرجة الثالثة أو الرابعة » (الكلام لا يزال للدبلوماسي الكبير الذي اضاف) « انا كنا نلاحق بيغن في سنتي ٧٨ - ١٩٧٩ ملاحقة تظهر قمة اهتمامنا، اذ كانت تبلغ في اليوم الواحد اتصالاتنا ثلاث رسائل من الادارة، أو رسالة من فانس أو الرئيس، ثم انتهى هذا الحماس وظهر الاهمال ولم يبق في واشنطن احد ممن يرغب في ان يرش لبنان بنقطة ماء ».

وحتى لو ان لبنان استطاع أن يجد مؤيدين اكثر قوة في الادارة لما كان ذلك يعني تذمراسرائيل. ن مسؤولاً اسرائيليا عندما كان يتسلى بالتحدث عن المشاكل في تعاطيه مع وزير خارجيته، اتى على ذكر أنه قرأ نسخة من محادثات كمب ديفيد، ومما قاله كان فيها « أن كارتر قال مرة لبيغن « من المفروض أن اصرّ على امر ما »، وأجابه بيغن بنزق « لا عليك ان تصرّ على أي شيء ».

كان للولايات المتحدة بالتأكيد مسائل اخرى مع الحكومة الاسرائيلية، فلقد كانت في هذا الوقت مصممة على استخدام المسيحيين في شمالي لبنان ضد سوريا بفعالية، ان زيارة السادات للقدس في تشرين الثاني سنة ١٩٧٧ كانت ثورة على التفكير القومي العربي المتحجر، ولكن كالعادة فقد كان لبنان هو الذي امتص تموجات هذه الهزة قبل سواه

فحالما اعلن السادات عن رغبة بتحقيق سلام منفرد مع اسرائيل، وجدت سوريا والفدائيين الفلسطينيين نفسيهما مضطرتين لتلاحم الصفوف. وكان عليهما، شاءا أم أبيا، ان يضعا ما كان بينهما من خلافات جانباً، مما سببته المصادفات الحربية بينهما في السنة السابقة، عندما قام الكومندوس الفلسطيني بقتال السوريين الذين كانوا يهاجمون لبنان، اذ لم يكن لهم خيار آخر امام آلة الحرب الاسرائيلية التي لم تعد تولي اهتماماً للجيش المصري، اعظم جيوش العالم العربي.

....

انفجرت معارك حادة بين السوريين وبين المسيحيين اللبنانيين، وذلك في تموز سنة ١٩٧٨ وقد كان قادتهم يواجهون اسواء الحالات، فبيروت الشرقية اخلاها سكانها بنسبة كبيرة، وهي المرة الاولى منذ بدء القتال سنة ١٩٧٥ التي يرفض فيها المقيمون من المسيحيين، الصمود، في وقتها ارسل الاسرائيليون نفاثتين من طائرات كفير النفاثة، فاخترقتا جدار الصوت فوق بيروت، وهو ما يجري دائماً كل ما اشتدت الازمة، فتوقف السوريون عن القصف، وبرغم هذا التراجع فإن الولايات المتحدة ما كانت تعير، مخططات اسرائيل لمعاداة سوريا واثارة البلبلة فيها اهتماما.

....

طيلة شهر آب، اغسطس، حاولت فرنسا والولايات المتحدة ان تحول دون وقوع المسيحيين اللبنانيين في احضان اسرائيل، ومما ذكره كميل شمعون في مذكراته « ان سفير فرنسا هوبرت ارغو كان ينذرنا ان اسرائيل ليست على استعداد ان تحارب عن المسيحيين، وأضاف ان الروح الانهزامية التي عرفوها سنة ١٨٤٠ لا تزال موضوع نقاش في اوساط الدبلوماسية الفرنسية »، والسفير باركر انذر شمعون بأن يتجنت محاولة الخيار بين اسرائيل والولايات المتحدة، فواشنطن كانت اكثر جدارة بالثقة لكون اسرائيل لن تكون قادرة على تحقيق كل وعودها، وهذا على الاقل ما كان النهج السياسي اللبناني يجري عليه، بينما كانت الادارة الاسرائيلية من جهتها، تثير العداء للسوريين والتأييد للمسيحيين، « أن بيغن نفسه كان يحذر من خطر الابادة، ورئيس الاركان ايتان كان يعلن ان جيشه كان على استعداد لمجابهة أية احداث في لبنان، وغدد من اعضاء الكنيست

كانوا يشبهون المسيحيين اللبنانيين باليهود الذين كانوا في غيتو وارسو في بولونيا سنة ١٩٤١ وكميل شمعون رافضاً الضغوط الامريكية التي تمنع اسرائيل من مساعدة المسيحيين، ركب البحر الى اسرائيل في ١٩٧٨/٨/٢٣ حيث استقبل في بيت بيغن، بحضور ايتان ووزير الخارجية دايان، ووزير الدفاع عازر وايزمن، وهناك، غير أبهين بانذارات امريكا وتهديداتها، قرر بيغن واصدقاؤه مساعدة المسيحيين دون تحفظات، الى اقصى حدود امكاناتهم، ودون شروط مسبقة، وكتب شمعون أيضاً في مذكراته « مع ان المسيحيين والاسرائيليين التزموا بخطهم من ان اسرائيل لم تعطِ وعوداً بالمساعدة فقد كان شمعون في مجالسه يقول لأخصامه « ان الاسرائيليين في الحقيقة لم يكونوا ليفعلوا إلا ذلك، لو ان السوريين قاموا بالتدخل مرة ثانية » ان واحدا من اصدقائي اللبنانيين الذين انذروا شمعون من السير وراء الوعود الاسرائيلية قيل له جوابا على انذاره « انه يفهم بالسياسة بقدر ما يفهم شمعون اللغة الصينية ».

اما بعض الاسرائيليين فقد كانوا مقتنعين بأن بيغن كان متمسكا بقوله، واعطى شمعون الانطباع ان اسرائيل في هذه المرة ستساعد المسيحيين اللبنانيين على التخلص من السوريين، والى درجة محدودة، فإن مثل هذا المنطق يلعب دوره في السياسة الشرق اوسطية، بينما الحقيقة هي عكس هذا المفهوم، ان محادثات كمب ديفيد، بدأت في السادس من ايلول وانتهت في الثامن عشر منه، وحتى اولئك الاسرائيليين المتزنين قالوا ان بيغن دفع إلى توقيع هذا الاتفاق دفعاً بينما هو غير مقتنع به، وفي كل اجتماع لم يكن له الخيار إلا أن يضحي باصدقائه المسيحيين بلبنان، على مذبح مصالحه العليا للاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الولايات المتحدة.

وبعد بضعة ايام من اتفاقية كمب ديفيد، بدأت المعارك بين المسيحيين والسوريين في بيروت، وفي تصريحات متشابهة منفصلة، فإن نائب الرئيس ولتر مندال ووزير خارجية فرنسا لويس دي غرنغو وقعا اللوم على المسيحيين لاستعدائهم السوريين.

واتفاق كمب ديفيد، الذي دعا اسرائيل ومصر إلى تحقيق سلام منفرد دعا الى تعميق الشعور باليأس في لبنان، فاللبنانيون كانوا مقتنعين منذ وقت طويل أنه ازاء مثل هذه التغيرات فسيكون في بلادهم اضطرابات مقابلة من العنف، وكان بين القادة المسيحيين اللبنانيين من اصر على ان اتفاقات كمب ديفيد، اعطت السوريين الفرصة القوية للهجوم

« اذ ان اسرائيل اصبحت مكبلة اليدين ، وفي اية حال فكل لوردات الحرب من المسيحيين ، كانوا مستائين لأن اسرائيل فقدت الاهتمام بهم ، هذا اذا لم نذكر المساعدة العسكرية ، وان واحداً من الحسني الاطلاع في المراتب العليا من اللبنانيين ، بقي واثقاً من قناعته في ان اسرائيل تخلت عنه اثناء القصف في شهري ايلول (سبتمبر) وتشرين (اكتوبر) ، لقد تعددت الليالي عندما كان يذهب الشباب الى الشاطيء مزودين بالساعات الكرونومتر ينتظرون نزول الاسرائيليين الى البر ، ولكنهم لم يأتوا ابداً ، وفي يوم من الايام السيئة دعا شمعون مساعديه العسكريين الى اجتماع ، املا ان يجد وسيلة لتدمير مدافع المورتر من عيار ٢٤٠ م.م. المركزة على التلال المشرفة على بيروت كانت هذه المدافع تسبب ضرراً خطيراً ، اذ كانت قذائفها تخترق الاسمنت المسلح تسليحا قويا ، وتهدم بنايات بكاملها ، وقيل لشمعون بأن الاقتحام للمشاة ، غير ممكن ، والرد على النار بالمدافع صعب نسبة لموقع الأرض ، فأخذ ورقة نزعها من دفتر مذكرات صغير وكتب عليها بعض العبارات ثم دعا امينة سره وسلمها اياها ، وبعد اربع ساعات عادت ومعها الجواب ، حدق شمعون في الجواب المطبوع على الآلة الكاتبة من وراء زجاج نظارته السمك ، ثم تفوه بصوت عال بكلمات بذيئة (نمتنع عن كتابتها) رامياً الرسالة الى الارض ، وعلى غفلة منه التقط احدهم الرسالة المدعوكة ، وقد كان فيها « يؤسفنا ان لا نكون قادرين على حمل السلاح معكم » لم يكن هناك امضاء ولم يكن شمعون بحاجة لمعرفة المرسل.

وعندما توقف اطلاق النار التي لم يكن تفاديها ممكنا في شهر تشرين الاول (اكتوبر) كان القادة المسيحيون لا يزالون على عنادهم ، وكان بعض القادة الاسرائيليين ، ان لم نقل كلهم متعجبين كم هم مصممون على جعل الذنب يتقدم الكلب ، ومن الملجأ الواقع في اسفل المنزل حيث بقي بشجاعة طوال مدة القصف السوري للاماكن المجاورة ، تحدى كميل شمعون اسرائيل باصرار ، لتحقق ما زعم انه كان موضوع مساومة ، وعندما سئل اذا كان يعتقد ان وقوف النار سيستمر اشار الى ما نشرته جريدة جاروزاليم بوست العبرية في ٩ تشرين اول ، جوابه القائل « بصراحة ان ذلك يتوقف على جدية اسرائيل فيما اعلنته عن مساعدة مضمونة ، فاذا كانت اسرائيل ستفي بوعودها فإن المليشيات اذ ذاك تفتح نارها لتضرب السوريين ، ان قادتنا يعتمدون على اسرائيل لخلق دولة مسيحية ، على أرض لبنان ، مساحتها عشرة الاف كلم مربع » وهذا يساوي كامل مساحة الجمهورية اللبنانية ،

كان شمعون يتمسك بالايجابيات وليس بالسلبيات، لما يكفل المساعدة على تحقيق سلطة مسيحية على كامل لبنان.

....

بعد شهر وفي مستودعات الفكر الماروني في الكسليك، دخلتُ على راهب كنت قد عرفته منذ وقت وسألته عن حقيقة ما ترمي اليه هذه اللعبة فاجاب: «كنا نعتقد انا، نستطيع ان نلعب كما الاسرائيليين، وانت تعلم كيف يلعب الاسرائيليون بكم انتم الامريكان».

- وما كانت النتيجة»؟

- فأجابني: «لم يحصل أي شيء كنا نلعب مثل اللاعب المبتديء بلعبة كرة القدم، معتقدين انفسنا قادرين على صنع العجائب».

اجبته أنه تصرف مضمون حتى بالنسبة لمقاييسكم اليس كذلك»؟

اجل انا نفسي لم يكن لي ايمان كبير بذلك، ولكني مثل مارتوما، كنت اريد ان المس الحقيقة لو كانت هنالك حقيقة، ولكن لم تكن هنالك حقيقة. والاسرائيليون لم يتحركوا».

كان ذلك درسا، لا الاسرائيليون الصقور تعلموه، ولا لوردات الحرب المسيحيون. لقد كانوا متوافقين بميولهم بتقوية الدفع نحو غير المعقول، غير ناظرين الى ما يمكن ان ينتج بعد ذلك من مخاطر على مصالحهم الاساسية، وكل مخاطرة ظهرت في اول امرها

بوضوح انها تهور لا سوى، بله ما كان يبدو في الاساس نجاحا غير مضمون، فقد كانوا يجدون انفسهم في وسط دوامة غير منظورة، من العنف والقسوة والشراسة.

اثناء غزوة شهر شباط سنة ١٩٧٨، ارتكب الاسرائيليون انفسهم فظائع وشاهدوا حلفاءهم اللبنانيين يرتكبون مثلها، ولكنهم لم يتدخلوا لايقافها، لقد جرت محاكمة عسكرية لضابط اسرائيلي اسمه دانيال فنتو، كان قائداً لفرقة مشاة، لكونه عذب وقتل خنقا اربعة فلاحين لبنانيين، عُثر على جثثهم وقد ربطت منها الايدي بالاقدام مقذوفة الى بئر، وقد حكم على فنتو بالسجن اثنتي عشرة سنة، غير ان الجنرال ايتان رمى من وراء ذلك الى طمس هذه القضية بوضع الرقابة على الاخبار العسكرية غير ان جريدة لوس انجلوس تيمز، نشرت الحقائق وايتان ايضا تدخل ليبريء ضابطاً آخر كان حكم عليه بخمس سنوات سجن لقتله مدنيا لبنانيا، فانزل الى نصف المدة ثم ايقاف التنفيذ ومما يذكره الاسرائيليون المتقدمون بالسن، ان مثل هذه التبرئات استمرت منذ سنة ١٩٤٨ اذ وضعت المسؤولية على مناحيم بيغن، عندما قامت منظمة ارغون بمذابح اجمالية للقرويين الفلسطينيين في دير ياسين، واستطرادا من سنة ١٩٥٠ استمرت اعمال القتل المتلاحقة، التي شملت اريال شارون، ووحدة الكومندو رقم ١٠١ الخاصة به، وفي سنة ١٩٧٦ انكرت الحكومة في باديء الامر، ثم اثبتت التقارير في ان دورية اسرائيلية بحرية سلمت يدا بيد الى الزوارق الكتائبية فلسطينيين عثر عليهم في باخرة بالقرب من صيدا «كان الاسرائيليون يقومون بدورية عادية في المياه اللبنانية انذاك، ومثل هذا الاجراء كان بحكم القانون يقضي ان يسلم الفلسطينيون الى المحققين في حيفا لأن تسليمهم للكتائبيين كان يعني الامر بقتلهم.

في جنوب لبنان كان الاسرائيليون قد ربطوا انفسهم للمرة الاولى، برجال متدربين على العنف كانوا رجال سعد حداد، وفي ثلاث مدن اجتاحتها اسرائيل اثناء غزوها لليطاني، قاموا بذبح اكثر من مائة من الشيعة المسلمين بينهم الرجال والنساء والاولاد وكان التفاقم والهياج على اسوأ ما يكون في بلدة الخيام بالقرب من حدود اسرائيل التي كانت في وقت ما اكثر بلدان جنوب لبنان ازدهارا وسكانا، دفع الرجال من الشيعة جماعات الى جامع، وقتلوا هناك ومما قاله في وصف ذلك جندي اسرائيلي، والخجل ظاهر عليه «لقد نزلنا إلى مستوى رجال سعد حداد، اني راقبت رجاله وهم يطلقون النار على

سبعين شخصاً بمنتهى برودة الدم في الخيام ».

كانت المرة الأولى التي سمعتُ فيها عن مذابح الخيام عندما كنت اجري مقابلة مع لاجئين لبنانيين في جنوب لبنان، وهم يندفعون الى الشمال هرباً من الموت وطلباً للسلام. كنت على بعد اميال قليلة من الخيام، ولكن الاسرائيليين رفضوا السماح للمراسلين في ذلك القطاع من تخطي خطوطهم. فعدت إلى بيروت وبمساعدة من الوشنطن بوست، استقليت الطائرة الى اثينا، ومنها الى تل ابيب. انها كانت الوسيلة الوحيدة لنصل الى اسرائيل في يوم واحد، هذه هي الوسائل في الشرق الاوسط، ما دام انه حتى في الاوقات العادية تبقى الحدود الاسرائيلية اللبنانية مغلقة في وجه الغرباء، ولما كنت مصمماً على الوصول الى الخيام لأرى بعيني، فقد صرفت العيد الكبير بالقرب من مرجعيون، اناقش مع ضباط اسرائيليين فطين، كانوا قد اقاموا معسكراً لهم في تلك القرية المسيحية، وبالرغم من الوعود من مكتب العلاقات في تل ابيب فالقادة المحليون اصروا على الرفض بالسماح لي بالذهاب الى الخيام التي كانت تظهر لنا بوضوح من مرجعيون، قائمة على رأس هضبة قريبة. قالوا لي انها مخاطرة كبرى، ولكني اطلعتهم على ان الجيش الاسرائيلي جعلني اوقع على استمارة مطبوعة، بأنهم لن يكونوا مسؤولين عما قد يقع لي، لقد تشاوروا ثم قالوا « سيكون في الامر خطر على الضابط المرافق » هذا المراقب الاسرائيلي الالزامي، المعد لمرافقة كل المراسلين كثمن للسماح لهم بدخول الأرض الواقعة تحت السلطة اللبنانية، انتظرت ست ساعات ولم يتجاوبوا إلا بعد أن هددتهم بفضح عدم تعاونهم معي ورفع تقرير بأنهم منعوني عن الكشف الفوري على تفاصيل المذابح، وحتى مع هذا فالجيش الاسرائيلي في البلدة المهدمة والخالية من السكان منعوني من زيارة الجامع حيث جرت المجازر، حفظاً لمصلحتهم، كما وان الصحف الاسرائيلية عرضت المذابح تحت سؤال بالحرف العريض « ما نوع هؤلاء الحلفاء الذين تعتمدهم اسرائيل »؟!

وبالرغم من الانتقاد الاسرائيلي لعملية الليطاني، وتصرفات حداد، فإن الشعور الرسمي بالتورط اخذ يتنامى طوال السنين، في الوقت الذي اصبح العالم فيه ينظر بعدم ارتياح في باديء الامر، ثم قبلها بغير تحفظ، كعملية احتلال بالنيابة، أما لبنان فقد رفع شكوى الى مجلس الأمن، بان المدافع الاسرائيلية قذفت قنابلها الفوسفورية على الحقول لأتلاف المحصولات، وهذا انتهاك لمعاهدة جنيف، ومراقبو الامم المتحدة ذكروا في

تقاريرهم الرسمية مثل هذه الاعمال ومنها وضع الالغام والشريط الشائك في أرض ملاصقة للحدود، وكذلك بناء المزيد من الطرقات في منطقة حداد، وكذلك ذُكرت الخيام فيما خص الانتهاكات لمعاهدة جنيف، لكون الجيش الاسرائيلي كان يجري تدريبات لجيوشه بالسلاح وبالذخيرة الحية داخل الشوارع فيها وما يخالف للقوانين العالمية وللسيادة اللبنانية، كون الاسرائيليين كانوا يختطفون بصورة دائمة من بيوتهم، اولئك اللبنانيين الذين يتهمونهم بالتعاطف مع الكومندس الفلسطيني، ويأخذونهم الى اسرائيل للتحقيق معهم ومحاكمتهم، وحتى سجنهم بموجب احكام المجلس العسكري، ان هذه الحوادث كانت تظهر بصورة دائمة بالصحف اللبنانية، ونتائجها المتراكمة على مسلكية الجيش الاسرائيلي والمجتمع بصورة عامة، كانت امراً سيئاً لأكثر الاسرائيليين الذين كانوا يتساءلون عن مرامي سياسة الحكومة، غير ان الوقائع نفسها لم تكن تناقش إلا نادراً كما أنها كانت تظهر بصورة منتظمة ولكن بلغة ملطفة في تقارير جنود الامم المتحدة في جنوب لبنان التي تقدم تقريرها كل عام مرتين.

كان اكثر الاسرائيليين معارضة لعملية الليطاني، وللسياسة المكشوفة في لبنان الشخصيات الاسرائيلية المعروفة، وزير الخارجية في ذاك الوقت، موشي دايان، وبالرغم من مخططاته الخاصة في سنة ١٩٥٠ المحرضة على احتلال الجنوب اللبناني، فهو اليوم يخشى ان يُستدرج للفخ، بنفس الطريقة التي كان قد عرفها عن استدراج الولايات المتحدة اثناء زيارته فيتنام في اواسط سنة ١٩٦٠، ومن الذين كانوا يقاسمونه سكوته، الجنرال شلوموغازيت رئيس الاستخبارات العسكرية سابقاً، والحاكم على الضفة الغربية واراضي غزة المحتلة سنة ١٩٨٣ وعملا بسلطته الخاصة أصدر وزير الدفاع ايزر وايزمن اوامره بوضع التدخلات الاسرائيلية العسكرية في لبنان تحت مراقبة دقيقة، وكان دائماً يطلب ما يثبت الحاجة لها، ولكن بالرغم من التزامات وايزمن العسكرية فالدبلوماسيون الامريكيون وضباط الامم المتحدة الذين كانت لهم علاقة به وصلوا الى القناعة ان اوامره كانت غالبا، او دائماً، تهمل من قبل ايتان، وصقور القيادة الشمالية في اسرائيل، التي لها معسكراتها في الناصرة، وكذلك فإن وايزمن لم يكن فيما يتعلق بلبنان من الحمائم ففي يناير سنة ١٩٧٩ اعلن رسمياً تغييراً خطيراً في سياسة اسرائيل فمذ ذلك الحين استطاعت القوات الاسرائيلية ان تضرب ليس للانتقام من هجمات الفدائيين الفلسطينيين على اسرائيل،

ولكن في أي مكان، وفي أي وقت تريد، وهكذا ولدت سياسة الجدل بالحرب الوقائية التي حولت الكثير من جنوب لبنان وما وراءه الى منطقة مباحة للرماية الحرة

بعد شهرين، ترك وايزمن الحكومة، واصبحت الضربات الاسرائيلية ضد لبنان اكثر تعقيداً وتطوراً عملا بمبدأ (الفن من اجل الفن) كما وصف ذلك احد مراقبي الامم المتحدة العسكريين من أن عدد الجيوش التي استخدمت ضد المواقع الفلسطينية التي كانت محصورة في تجمعات تتألف الواحدة منها من إثني عشر فدائياً، بلغ الف ومئتي عنصرا، واهداف الفلسطينيين لم تكن واضحة منها ما كان تعقب معقل اسرائيلي، مثل تلك المعاقل التي شغلت الجيش الامريكي في فيتنام لعشر سنوات، قال لي مرة قائد للقوات الشمالية مدعياً ومبالغاً «يمكننا التخلص من المخربين في بضع ساعات، لدينا السلاح الكافي والادوات اللازمة، ونحن نعرف بالضبط أين موقعهم، والفضل في ذلك لمخابراتنا الحسنة، لا يؤخرنا سوى الاعتبارات السياسية، ورغبتنا في منع وقوع إصابات بين صفوف عناصر الامم المتحدة، الذين يقفون في الطريق مانعين اسرائيل من سحق الفدائيين ولكن الاسرائيليين لم يكونوا يقاسمونه الاعتقاد بأن القضاء على العدو سينهي الحرب التي تشبه ما واجهته امريكا في فيتنام، أو ما لمسته فرنسا سنة ١٩٥٦، عندما احتلت قناة السويس، معتقدة ان باسقاط ناصر من الحكم سيكون بامكانها القضاء على الثورة في الجزائر.

كان جنوب لبنان بالنسبة لاسرائيل الصنبور «الحنفية» التي تحركها لرفع او لخفض الضغط في المنطقة، ومن اجل تشغيل هذا الصنبور في لبنان يجب ابقاء الفلسطينيين، في لبنان، كعدو ظاهر، ان حكومة بيغن كانت تجد فيهم سببا للدعاية في أوقات الانتخابات أو أن اسرائيل استطاعت وتورطت في استعمال القوات المسلحة لارهاب العرب، ان هذا الاسلوب التفجيري كان افضل كسب للاصوات بين الاكثرية الاسرائيلية التي هي من اصل شرقي، ولبنان كان يقدم افضل حقل، بتعبير جندي اسرائيلي، للمناورة الحية على اهداف بشرية، في البلد المجاور الوحيد حيث لم تكن الجيوش الاسرائيلية قد قامت بمعارك على قياس كبير، والجيش الاسرائيلي كان يبتهج في مثل هذه العمليات التي يستعمل فيها الدروع والمدافع والطائرات والمشاة، والجنود في لواء الجولان، بمشاركتهم في العمليات ضد الفلسطينيين المتمركزين بين الليطاني والزهراني، كسبوا شهرة وتقديراً، منطلقين من مرجعيون عاصمة حداد غير الرسمية يتسربون وسط الفجوة عبر خطوط

الامم المتحدة، اما على الاقدام، أو بواسطة الحوامات وطائرات سكاي هوك والفانتوم، التي كانت احسن سلاح لقصف المجمعات واحيانا باستعمال « ف ١٥ » باجهزتها المتطورة والبالون الحراري لتمشيط أرض المعركة من صواريخ العدو، أرض جو.

أي أجراء عادي لحكومة اسرائيل، كان يلزمه، قبل اية عملية عسكرية ضد لبنان أو أي بلد كان يلزمه موافقة الوزارة المدنية ولكن بعد تخلي وايزمن، اخذ بيغن مسؤوليات وزارة الدفاع على عاتقه، وكان يصرف يوما واحدا في الاسبوع في وزارة الدفاع، الوزارة الوحيدة القائمة في تل ابيب على شاطيء المتوسط، وفيما بقي من الاسبوع فالقرار كان في ايدي القوات المسلحة، وحتى عند قدوم بيغن من القدس، للقيام بزيارته الاسبوعية، لم يكن ليتدخل الا نادراً، الى هذا المدى يصل تقديسه وتقديره للعسكريين. ومما قاله احد المساعدين السابقين « كل ما كان على بيغن ان يعمله هو مقابلة الجنرال، وتبرد همته » ومع وجود ايتان ومساعده في القوات الشمالية افيدور بنغال، بالمسؤولية نيابة عنه، كانت القيادة لا تفتقر الى من يرأسها أما التطورات المستجدة فكانت تدخُّل السفير دين، اذ اجبرت واشنطن، اسرائيل، على التوقف عن الضرب بحجة الوقاية ابتداء من آب سنة ١٩٧٩ حتى نيسان (ابريل)، سنة ١٩٨٠ولكن بعد ان هاجم كومندو فلسطيني حدود « سكاف عام » حيث قتل اسرائيليان استأنف الاسرائيليون انتقامهم بحجة الوقاية ثم قبل عيد الميلاد سنة ١٩٨٠ تماماً، قدم وكيل وزارة الدفاع الاسرائيلي اعتذارا علنيا لسوريا، لقد كانت الاعتذارات الاسرائيلية، من أي نوع، نادرة، وان تكون مقدمة الى سورية، فهي مما لم يسمع به. كان الداعي لهذا الاعتذار مقتل اربعة من العسكريين السوريين، قتلوا دون قصد خلال القيام بغارة في العمق ضد ما اشتبه به كقاعدة فلسطينية في لبنان، وما ذكر في التقرير بعد هذه المعركة، أن الاسرائيليين الكومندو قتلوا الرجال الاربعة في سيارة جيب لم يعرفوها لأنها تشبه سيارات الفدائيين الفلسطينيين، غير أنه كان على الاسرائيليين ان يعرفوا ان الجيوش السورية كانت موجودة في المكان المستهدف، باعتبار أن المخيم الفلسطيني كان يقع شمالي الخط الاحمر، وبكلمات اخرى على ارض كان السوريون قد جعلوها مكانا لتجمع جنودهم. ولو ان المحارب الاسرائيلي اصغى الى الموظفين المدنيين، لكان من المحتمل الغاء الغارة، لكن زيغوري وكيل وزارة الدفاع، اخفى مخاوف اسرائيل بتعليله ان الحادث يحتمل ان يقنع سوريا بسحب فرقتين من الحدود

السورية الاردنية، الى القرب من مرتفعات الجولان نقطة المواجهة الدائمة الرئيسة مع الجيش الاسرائيلي، (اذ ان سورية كانت قد نقلت الجيوش من منطقة الجولان في الشهر السابق عندما كانت تهدد بمواجهة مع الاردن) وفي الوقت الراهن كانت الجيوش باقية وسورية كانت مقتنعة بأنها ثارت لكونها اطلقت ثلاثماية طلقة من مدفعيتها على ما سمته مجمعات آلية اسرائيلية، اما في الواقع فكل الطلقات سقطت في منطقة الرائد حداد، وهذا ما يبرهن الفائدة من هذا الشريط الواقي للفرقاء الرئيسيين ان لم نقل للسكان المقيمين وبعد شهر أو اقل، كنت في اسرائيل اجري محادثات مع سياسين وعسكريين في صدد مجموعة من المقالات عن جنوب لبنان، وكما في زيارات عديدة سابقة، كنت قد اسأت ادراك حقيقة الشعور السائد اذ لم تكن هنالك اعلام خافقة، تنذر بالخطر، ولم يكن هنالك شعور بالندم او التوبيخ الذاتي يلوح بالافق، كنت قادماً على الفور من عمل في صياغة التقارير دام شهراً، وكانت هذه مهمة من اصعب المهات التي صادفتها في عملي الصحافي، ويوما بعد آخر، من تخطي العقبات انطلقت بسيارتي من الاقامة المريحة في بيروت، إلى عالم ملغّم بالسلاح النووي، حيث لا تلفونات ولاطرقات معبدة ولا كهرباء، عالم يثير الشكوك، كان الشخص الذي لا بد لي من مقابلته اما قد غادر قبل لحظات، أو رفض مقابلتي، أو لم تكن عنده معلومات ذات فائدة أما بسبب جهله أو بسبب خوفه، وكنت قد بدأت اشعر بأني مغلوب على امري، كاولئك الناس الذين كنت احاول ان اصف بؤسهم وشقاءهم، والناشر الذي كنت قد وُعدته بارسال مقالاتي اليه من واشنطن خلال ثلاثة اسابيع بدأ يفقد صبره.

وفي مقابلاتي في اسرائيل التي قمت بها مع زميل لي كان مراسلا مقيما في القدس، القيت بعض الاسئلة لأخي زميلي هذا، الذي كانت تقاريره الشاملة عن السياسة الاسرائيلية في الضفة الغربية المحتلة وقطاع غزة، قد اغضبت المسؤولين الاسرائيليين فلم يأتوا على مسألة الحرب الوقائية ولا بكلمة واحدة، وهذا بالنسبة الي بدا وكأنه قصر نظر، وفيما بعد، كفشل ذاتي، مثل ذلك الفشل في العمليات التي كانت تقوم بها القوات الامريكية في فيتنام وهي الكشف عن مدافع الخصم التي تم تدميرها.

في معسكرات القيادة الشمالية قال لي جنرال مغرور مدّع «يمكن لهذه السياسة ان تستمر الى الابد فمن جهة ليس وراءنا خط احمر ليشدنا الى الخلف، ولا يؤلمنا إلا شيء

واحد ». سألته عفوياً « هل انتم آسفون »؟ فأجاب، « نعم » ولعشر من الثانية كنت اتوهم قابليته في ان يسكب على الاقل، دمعة واحدة، من دموع التماسيح، على حالة البؤس التي شاركت اسرائيل في خلقها في لبنان، وعندما استطرد قوله « خطأنا اننا لا نقوم بما هو كاف » هنا رجعت بذاكرتي الى فيتنام، إلى ما قبل اثنتي عشرة سنة والى حديث مشابه مع قادة امريكيين مغرورين بانتصاراتهم، وبغير حذر سألت عن تصرفات الرائد حداد واذا كان لها تأثيرها السيء على سمعة اسرائيل في الخارج. ولكن الجنرال اكد لي أن حداداً يعمل ما هو حسن، غمزت بطرف عيني هنا مذكرا اياه برغبة حداد بقصف المدنيين في صيدا، وفي حاصبيا، وفي مدن وقرى اخرى في لبنان، ومسؤوليته في عجزه عن منع القتل بدم بارد لجنود ارلنديين تابعين للامم المتحدة، وحمقه واعماله القبيحة وجلده لمراقبي الامم المتحدة واطلاقه النار مرتين على معسكر الامم المتحدة في الناقورة بحجة اصلاح مولد للطاقة وضع خارج الخدمة من جراء قصف مدفعيته الخاصة.

استطاع الجنرال ان يتلمس تشكيكنا اذ اني لما عدت الى الكلام عن مسؤولية اسرائيل عن الرائد حداد، كان حاضرا، للجواب؛ فاستطرد قائلاً والسرور ظاهر على قسمات وجهه، « اننا نحكم حداداً بنفس النسبة التي تحكمنا بها الولايات المتحدة ».

هذا التلخيص الفلسفي لتورط امريكا لم يُكذّب عندما قابلت بعد يومين المدير العام لوزارة الخارجية دايفيد كمحي، لقد طلبت مقابلته لأنه كان واحدا من الموساد الرئيسيين المكلفين بالمسيحيين اللبنانيين، وهو يعمل مباشرة مع رئيس الوكالة المعروف في لبنان باسم ماندي. كانت دهشتي عظيمة، عندما جرى تقديمي الى الوزارة ورؤيتي الوزير لأنه اثبت لي اننا عرفنا بعضنا منذ عشرين سنة تقريبا في غرب افريقيا، وهو الرجل الذي عرفته عند ذاك باسم دايفيد شارون الذي كان مصدراً معتمداً للتطورات الافريقية، وكان الصديق الذي كنت استعين به في المواقع الصعبة. وفي احد الايام اختفى نهائيا، وعندما عدت بأفكاري الى الماضي تذكرت انه في ذلك الوقت، كانت السفارة الاسرائيلية في شاطيء العاج، متهمة بعملية احتيال (هي اليوم منسية) وفي زياراتي القليلة لاسرائيل كنت اسأل عن شارون وكانوا يقولون لي انه ترك الخدمة في الحكومة، ولم يبد أن احدا كان يعرف مكان وجوده؛ بثقة عظيمة في النفس، كان يدافع عن سياسة الحرب الوقائية، مصرحاً أن أية حكومة كانت ستعتمدها (ملمحا الى أنه لا يأبه للانتخابات التي كانت

مقررة في حزيران) لأن ليس من احد يستطيع ان يفعل غير ذلك، ولو ان اسرائيل تتوقف عن مساعدة الرائد حداد في لبنان لحدثت مجازر، ولكانت قوات الامم المتحدة عاجزة عن منعها، مستبعدا ان ادارة ريغن الجديدة يحتمل ان تضغط على اسرائيل، فقد قابل فريق ريغن الانتقالي، بعد الانتخابات في تشرين الثاني وكان مقتنعا ان الادارة الجديدة ستتفهم اكثر من السابق الحاجة لضرب اسباب الرعب لذلك قال، فنحن نعتقد انه سيمكننا التفاهم اكثر».

هذا بالتأكيد كان الانطباع العام لوزير خارجيه امريكا الجديد الكسندر هايغ، كما عرف في اسرائيل خلال زيارته العادية الى الشرق الاوسط في نهاية اذار واوائل نيسان سنة ١٩٨١، لقد كان هيغ قد اظهر نفسه كواضع لخطة استراتيجية تجمع مصر واسرائيل والسعودية في اتفاقية معادية للسـوفيـات وان مسـاعـديـه سيعملـون ليلا نهاراً لاصلاح الانطباع عن الجهل والعناد.

وفي الوقت الذي وصل فيه الى تل ابيب كانت المعارك في ذروتها، بين السوريين وميليشيات بشير الجميل، في زحلة، تلك المدينة المسيحية التي يبلغ عدد سكانها مئة وخمسين الف نسمة، وتقع على الجانب الشرقي من سلسلة جبال لبنان، وتشرف على سهل البقاع الخصيب، يسكنها منذ القدم الكاثوليك، وليس الموارنة، ولم يسبق ان كان للكتائب التابعين لآل الجميل وجود قوي فيها، ومع ذلك ففي تموز (يوليو) من سنة سابقة عندما سُحقت مليشيات كميل شمعون النمور في مـارونسـتن، بدا لآل جميّل انه سيكون من المنطق الاستيلاء على أية منطقة مسيحية متى تسنى لهم ذلك، ان الانتصار في زحلة سينمي صفوف بشير بمعدل الربع، ويدعم طلبه السيطرة على المسيحين، وليس فقط على الموارنة، كان قد سبق حصول معركة صغيرة قبل عيد الميلاد، بين رجاله والسوريين. كانت المعركة دامية في زحلة، ولكنها سرعان ما توقفت، وبعد عدة شهور، نقلا عن مخابرات غربية، ارسل الاسرائيليون حواماتهم لنقل رجال بشير والمعدات اللازمة الى الجبال الملاصقة للمدينة، وقد عرف السوريون، ولو متأخرين نوعا، أن زحلة تهدد الطريق الاستراتيجية بين بيروت ودمشق، كما انها تشكل تهديداً دائماً، فيا لو أنَّ الاسرائيليين اندفعوا عبر خطوط الأمم المتحدة وتقدموا من جنوب البقاع للتلاقي مع قوات بشير، ان اكتشاف السوريين العمل في بناء طريق تربط بين مارونستان وزحلة عبر

الجبال، اثبت شكوك السوريين السيئة، وهكذا ففي الاول من نيسان تحرك السوريون بالقسوة التي عرفت عنهم، في تعاملهم مع المسيحيين اللبنانيين، في اليوم الاول ابتهج المسيحيون المقيمون في زحلة عندما حاولوا احتلال المرتفعات التي تحيط بالمدينة، اذ خسر السوريون ثلاث عربات مصفحة، واكثر من عشرين جنديا، وفي اليوم التالي انتقم السوريون بقصف شديد بالمدفعية، على شرقي بيروت مما اثار دهشة السكان هناك، وسبب خسائر كبيرة وافرغ الجهة الشرقية من العاصمة من سكانها.

طوال الشهور الستة التالية كانت زحلة تتعرض للحصار الذي لم يرفع عنها حتى الثلاثين من حزيران، وهو اليوم الذي جرت فيه الانتخابات في اسرائيل، اذ كان محسوبا، ان اسرائيل كانت منشغلة عن تعطيل عمليات فك الارتباط بهدوء، وقبل ان يتم اخراج مليشيات الجميّل من زحلة واستقبالهم من قبل بشير، في شرقي بيروت، بمظاهر احتفالية بالغة الابهة، كانت الولايات المتحدة مرتبكة باحتمال حصول ازمة عالمية كبرى، فبقاؤها دون نفوذ في دمشق بسبب حمقها جعل ادارة ريغن تلجأ الى حلفائها السعوديين لاسترضاء المحاربين.

....

أما وزير الخارجية هايغ فلم تكن له مصلحة بارزة في تأزيم زحلة (مع انه قصد اغاظة السوريين بتحييد دمشق من برنامج زيارته للشرق الاوسط، معمقا بذلك شكوك سوريا بادارة ريغن) وحتى منظمة التحرير الفلسطينية تغاضت، لتبقى بعيدة عن مشكلة زحلة رغم استمرار اسرائيل بمهاجمة مراكزهم، فالفلسطينيون كانوا يعرفون دائماً اين يخبئون رؤوسهم اثناء الحملات الانتخابية في اسرائيل، ان هايغ اثناء توقفه في اسرائيل اعطى، بتشاؤم، وصفاً دقيقاً غنياً عن قسوة جيش الاحتلال السوري في لبنان، هذا الوصف كان مُستندا في يد هؤلاء الذين كانوا يريدون الاستفادة من الازمة، فالصقور في اسرائيل لا يكرهون تحريك القلاقل في الخارج، خصوصا اثناء الحملة السياسية التي كان بيغن يأمل ان يخبىء وراءها الاخطار الناجمة عن سوء ادارته المالية، والمسيحيون اللبنانيون كانوا يأملون ضمان تأييد اسرائيلي، وتحريك ازمة عالمية تجبر السوريين على الخروج؛ وفي النتيجة كان الطرفان السورى والاسرائيلى غير راضين وكان الرابح الوحيد بصورة اكيدة

هي سورية.

عند بدء الازمة، كانت تطلق التصريحات المعروفة سابقاً، لأن التكتيك كان قبل ان يبدأ القتال بصورة فعلية، ان تتغنى المخابرات الاسرائيلية بمدائح بشير الجميل معلنة للصحافة الاجنبية، انه يمكن تنظيم مقابلات مع القائد المسيحي الشاب المرموق، والراغبون يبلّغون، أنه يمكنهم النزول مباشرة في ارض مسيحية دون ان يعرضوا حياتهم للخطر باجتياز المنطقة التي يحتلها الفلسطينيون في بيروت، ولا بد من الانتباه الى ما كان يقوله الاسرائيليون، من ان ممثلي الصحافة يخافون قول الحقيقة ولكن كل الجهود التي بذلت لم تكن ضرورية ففي الايام الاولى من القتال، قام اعلاميو مليشيات الكتائب بالتوسل للعالم، كما فعلوا في سنة ١٩٧٨، لأنقاذ المسيحيين المهددين بالابادة، ولدهشتهم فإن محاولتهم اعطت نتائج، كما ان الصحافة ساعدت ببلاهة، باظهار تقارير المليشيات عن الحوادث الدموية الرهيبة، مع أنه لم يسمح للمراسلين بالاطلاع الفوري على المواقع واحدى الوكالات الامريكية استمرت بالاثارة غير متوخية الدقة، الى ان سكان زحلة هم روم ارثوذكس لا روم كاثوليك، وهو خطأ اثار دهشة واهتماماً عاماً في امريكا، وقليل من المراسلين الاجانب في بيروت من سبق له ان كان في مثل هذه العاصفة الاعلامية قبلا، هكذا كان الاخراج ما بينهم، ومع الوقت الذي وصل فيه الدور الى ايدي المختصين كان المسيحيون قد سبقوا ووزعوا اخبارهم المنسقة المنمقة، لقد كان اخراجا احسن من اخراج سنة ١٩٧٨ (اذ حتى في ذلك الوقت تعاون الاسرائيليون واللبنانيون المسيحيون بالاعلام المثير غير الصحيح وحاييم هرتزوك الذي كان سفير اسرائيل في الامم المتحدة اخبرني بخبث كيف كان يربك ممثلين العرب بتلويحه بوجوههم ببرقيات صادرة عن امريكيين لبناني الاصل يمتدحون فيها اسرائيل لانقاذ اهلهم من اذى منظمة التحرير، والكنائس المسيحية اقامت الصلوات من اجل السفير الاسرائيلي، واسرائيل والمسيحيين، ومما قاله لي هارتزوك «ان اللبنانيين في امريكا كان من الصعب جداً تنظيمهم ولكننا علمناهم اسرار المهنة».

اما وقد بقي لموعد الانتخابات الاسرائيلية ما لا يزيد على ثلاثة شهور فقد اندفع صقور اسرائيل للدفاع عن حلفائهم المسيحيين اللبنانيين آملين مساندة بيغن الذي لم يكن نجاحه متوقعا بصورة اكيدة، وكان بيغن نفسه يردد مؤكداً ان الولايات المتحدة متغيرة، وهي الآن توافق معنا.

....

وقد قال موشي ارنز الذي كان في ذلك الوقت رئيساً للجنتَي الخارجية والدفاع في الكنيست انه منذ الحرب العالمية الثانية لم تتعرض مدينة للعقاب كما تعرضت زحلة، وضرب وزير الزراعة اريل شارون على وتر المغالاة في الوطنية، التي كانت طابعه المميز منذ عشرات السنين مستنكرا هذا السكوت المخيف المميت في العالم على ما يجري من مذابح في لبنان، ورفع تقريره البعيد عن الحقيقة، في ان قتلى المسيحيين كانوا اكثر من قتل في الحرب، مبالغاً بأن عددهم وصل الى مائة وعشرين الفاً.

والقائد المتقاعد حاييم بارليف رئيس حزب العمل المعارض والوزير الظلّ في وزارة الدفاع، وجد نفسه مضطراً ليقوم بحفظ السلام، وقال ان المساعدة للمسيحيين قد تقود الى تدخل مباشر، حتى في الشمال. وللمرة الاولى منذ العلاقات المسيحية اللبنانية مع اسرائيل، كان الحزبان السياسيان في اسرائيل يتكلمان علنا بالوصول الى المسيحيين في الشمال من اسرائيل لمساعدتهم باكثر مما عودوهم، بالسلاح والذخيرة.

غير أنه لم يكن هناك سوى القائد بنغال، قائد القطاع الشمالي الذي كان الاقرب لفهم نفسية المليشيات المسيحية ومما صرح به ان مصلحة المسيحيين متوافقة معهم بالرغبة لاجبار سورية على الخروج من لبنان، وقد برر مبادرة المسيحيين باثبات وجودهم في زحلة، على الاقل لغاية اثارة نفسية داخلية، ولفت نظر العالم الخارجي سياسياً واعلامياً واضاف إذ لو استمر الهدوء ثلاث سنوات فإن الوجود المسيحي سينتهي، وبكلمات اخرى، ان زحلة هي المفروض ان تكون موضع العمل لتنفيذ ذلك، وان لم تكن كذلك اليوم فلن تكون ابداً، كان الجنرال يدافع عن قضيته كقائد في الجبهة الاسرائيلية الوحيدة المتحركة العاملة. ولو ان هذه الجبهة بقيت هادئة لأمكن ان تتفتح امكانيات سياسية محتملة مع سوريا والفلسطينيين منفردين او مجتمعين، كان بنغال يرى في اصدقائه المسيحيين قوة ضعيفة

امام الجيش السوري المنظم، ومما اشار به لهم قوله « انتم من جهة ما معرضون لأنفجار قد يسبب لكم انهياراً ساحقا ».

ان خطـر مثل هذا الانفجار، أو ما يدعو اليه، كان مدعاة لنقاش بين الصقور والحمائم في النخبة الاسرائيلية، والاطلاع الدقيق على ما ذكرته الصحف يكشف الاعماق التي بلغها التساؤل والبحث عما اثارته ازمة زحلة، ان اسرائيل كانت على مفترق طرق وقراراتها لن تكون لها تأثير فقط على المسيحيين اللبنانيين، او حتى على السوريين، بل ستكون مثيرة للذهول والدهشة في العلاقات على مستوى الكرة الارضية، وبصورة خاصة في واشنطن. كان بيغن وقادته يدرسون خطة العمل التي كانت تهدد مكانة اسرائيل في بلد هو اكثر بلدان الشرق الاوسط تعقيداً وخطراً، بلد لا يعرفون عنه إلا القليل. فلبنان لن يكون مثل صحراء سيناء الخالية من السكان، باستثناء تجمعات بدوية متفرقة، وانه ليس أيضاً مثل الضفة الغربية أو قطاع غزة، أن لبنان، هو اكثر الدول الشرق اوسطية كثافة سكان، واهله مجموعة من الاقليات المجنونة، بعد مجازر صبرا وشاتيلا بمدة طويلة، سأل شيمون بيريز زعيم حزب العمل المعارض « ما الذي يفعله الجنود الاسرائيليون في غربي بيروت، المدينة المشحونة بالحقد، الغائصة في بحر من الامتعاض، والمثقلة باسرار وخفايا لا يمكننا اختراقها ».

ولكن بعد ثمانية عشر شهراً، بدأ الاسرائيليون يتلمسون المخاطر التي اكتنفتها عملية زحلة:

قال الصقور، « ان واجبنا الاخلاقي يدعونا الى انقاذ المسيحيين ».

وقال الحمائم متسائلين، « من الذي يصدقنا »؟

وقال الصقور، « الآن هو الوقت الملائم للضرب لأن سوريا معزولة عن العالم العربي، ومنقطعة عن مصر، ومتخاصمة مع العراق ومصر، ومستبعدة من قبل العربية السعودية ».

وقال الحمائم، « هذا صحيح، ولكن تورطنا بمساعدة المسيحيين في الشمال هو ايسر الطرق لأنهاء عزلة سوريا، وامكانية اعطاء العراق سببا كافيا لايقاف حربه المدمرة مع ايران ».

ومع هذا صرح الصقور، « إن حربا مع سوريا تمكننا من اختبار توجهات مصر فلو ان مصر ساعدت سوريا لكان امام اسرائيل العذر الكافي للامتناع عن اعادة القسم الباقي

من صحراء سيناء، وهو ما يفترض اعادته في نيسان سنة ١٩٨٢، واذا مصر لم تفعل فإن الهوة بينها وبين الدول العربية الأخرى ستتسع ».

والحمائم ردوا، « ان مثل هذه المحاولات قد لا تربح لنا اصدقاء في القاهرة أو واشنطن، ومثل هؤلاء الاصدقاء هم ما نحتاج اليهم في السباق الطويل ».

غير ان الصقور اصروا، « ان سحق الجيش السوري الذي هو القوة العربية الكبرى الوحيدة، يؤمن لنا العيش بسلام لمدة عشر سنوات ». بعد ان تمكنا من تحييد مصر.

ورد الحمائم، « ان الروس يستطيعون اعادة بناء الجيش السوري وربما باسرع مما فعلوا بعد سنة ١٩٦٧ - ١٩٧٣ اذ ان موسكو ودمشق قد وقعتا معاهدة صداقة وتعاون ».

ورد الصقور، بأنهم مقتنعون ان الوقت الحاضر هو الملائم لسحق الميليشيات الفلسطينية في بيروت وفي أي مكان آخر وتدمير معاقلهم من الاساس.

وقال الحمائم متشائمين وهم يوجهون السؤال: « ولكن كم من مرة قال الناس بأن الجيش قد قضى نهائياً على هؤلاء الفدائيين؟؟ ».

ومع هذا فالصقور اصروا على، أن مساعدة المسيحيين اللبنانيين مهما كانت الاسباب، سيجعلهم يشعرون بالحاجة الى مساعدة، وهذا سيعطي اسرائيل حليفا متمما لحليفنا مصر ».

وقال الحمائم، « قد يكون ذلك ممكنا، ولكن هنالك دائماً خطر انتشار قوات الامم المتحدة على لبنان كله، بدلا من الجنوب فحسب، حيث كان الجيش الاسرائيلي دائماً يشتكي من التضييق على مناوراته ».

ورد الصقور، « ان ادارة ريغن ليست ضد اخلاء لبنان من السوريين والكومندو الفلسطيني ».

وعلى ذلك اجاب الحمائم، « ان الروس قد يجدون انفسهم مضطرين للتدخل بموجب ما تقتضيه شروط معاهدتهم مع سوريا ».

وعلى هذا غمغم الصقور قائلين، « ان حربا صغيرة مع سوريا قد تساعد على تقوية فرص ريغن الانتخابية، وتحويل الاهتمام عن التضخم الذي وصل الى الدرجة الثالثة وعن الازمة الاقتصادية العامة ».

والحمائم تجاوبوا مع هذا الاعتقاد، ولكنهم قالوا: « ليس من شيء غير موافق عليه مثل

الخسائر البشرية في بلد كأسرائيل التي لا تزال تنوح على خسائرها في حرب سنة ١٩٧٣ ».

كـان الحمائـم هـم الرابحون في هـذه الدورة، كما صرح بـه الجنرال يشـوع رئيس الاستخبارات الحربية واحد المعارضين لتحالف الموساد مع القوات اللبنانية من البداية، وفي مؤتمر صحفي لم يكن مقرراً ومعروفا وقد اصر على ان تبقى هويته غير معروفة، قال: « ان العبارة التي يستعملها المسيحيون « الابادة » هي مجرد دعاية، فإن خسائر المسيحيين قدرت بمئة وخمسين فقط (وفي الواقع فقد بلغ عدد المسيحيين الذين ماتوا اثناء الحصار، مئة لا اكثر، وكما هي العادة فكثرتهم من المدنيين) وفي اواسط نيسان (ابريل) كانت الصحافة الاسرائيلية تأخذ من ذلك كبيان معلن، ان اغلبية الدولة لمست ان قيادة المليشيات كانت مسؤولة عن تأزيم القتال، أو على الاقلّ عن المغامرة فيه على امل جر اسرائيل الى حرب مع سوريا، لم تكن الحكومتان تراها ضرورية وايغال يدين، وكيل وزارة الخارجية المعتدل، أدان بصورة عامة اولئك الاسرائيليين الذين يحاولون زج البلاد بنزاع اوسع في الشمال، كما سأل الحكومة ان تضبط الرائد حداد في تصرفاته، فهو يطلق النار على السكان المدنيين في صور، وفي صيدا، بقنابل من صنع اسرائيل، ثلاثة من الصحف الاسرائيلية رددت صدى مثل هذه المخاوف.

وبعد ثلاثة ايام غادر هايغ القدس، قبل ان يتضح انتصار الحمائم، وفي الثامن من نيسان أُرسل دايفيد كمحي الى بشير الجميل حاملاً معه الأخبار السيئة، في هذا الوقت كانت الكلفة بين الرجلين قد زالت، واصبحا يخاطبان بعضهما بعضاً بالاسماء الاولى، غير ان اجتماعهما الذي دام ساعتين كان عاصفا. اثناءه قرأ كمحي بصورة رسمية، بيانا من الحكومة الاسرائيلية دون ان يسلمه لمخاطبه، والبيان مؤرخ في ٢٨ آب ١٩٧٨. وهو عبارة عن تعهد بأن تُدرس امكانية استعمال القوة الجوية الاسرائيلية اذا قامت الطائرات السورية بهجوم على القوات اللبنانية. هذا كان اقصى ما كان يأمل المسيحيون الحصول عليه (ومن المحتمل ان يكون الجنرال ايتان قد غيّر الافكار في اسرائيل عندما قام بزيارة في نهاية شهر ايار الى مارونستان وطلب من المسيحيين المضيفين، زيارة خطوط الكتائب الهادئة في الشمال بدلا من قطاع زحلة المتأزم)، كان هذا مثار دهشتهم، فبعض المسيحيين ظهروا بعد ذلك وكأنهم كانوا مقتنعين بأن اسرائيل كانت دائماً مترددة ولذلك ناشدوا امريكا ان تعلن عن معارضتها « الفيتو » عندمايكون ذلك لا غنى عنه.

امام الرأي العام، بدا بشير انه قد تحمَّل ذلك بصبر، ولكن خلال اسابيع كان يعلنها للملأ «بأن الاسرائيليين اليوم يختلفون عنهم في سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ انهم متراخون لا يملكون الثقة بالنفس. ولكننا نحن اليوم مثلهم يوم كانوا كما عرفناهم من قبـل»

قد يكون ذلك صحيحا ولكن الاوضاع على الأرض لم تكن تبرر مثل هذا الكلام القاسي، فمن الوجهة العسكرية كان موقع مليشياته داخل زحلة غير منيع لكون الطريق كانت غير منجزة، أو لعدم وجودها، فـانها كـانـت تبنـى عبر الجبـال، وفي الواقـع فـإن وضع الارض يجعل من المستحيل الدفاع عن زحلة من قلب المنطقة المسيحية، وليلقنوا بشيراً درسا قام حلفاؤه السوريون لفترة ما بحركة للاستيلاء على الخط الجبلي في سلسلة جبال صنين، كانت العملية في الاساس سيكولوجية، فالسوريون كانوا قد احتلوا ١٦ كيلومترا من هذه المرتفعات التي كانت بكاملها معرّضه لبرد الشتاء ومن المؤكد ان احسن الجيوش اعدادا يمكن ابقاؤها فيها بصورة محتملة بين شهري ايار واواخر آب، ورجال بشير والسوريون المدعمون بالقوات اليسارية اللبنانية، كانوا قد قاموا في الربيع بمحاولة سباق شديد وغير عادي للوصول الى القمة، كانت هنالك احاديث كثيرة لوجود رادار في المكان المسمى الغرفة الفرنسية على القمة، ولكن هذا كان مجرد كلام وفي الواقع ان مجرد مجيء السوريين او وجودهم كان ما يحسب له اهل مارونستان حساباً، اذ ان مخابرات القوات اللبنانية أو بالاحرى الجيش اللبناني كانت تقول ان السوريين كانوا يخططون للتقدم حتى الشاطيء، وهذا لا يعني أنه (بناء على تجارب سابقة) بالشيء المعقول. فالمدفعية السورية في بيروت وفي الاماكن الاخرى في الجبال كانت تغطي جميع المراكز المارونية الرئيسية المأهولة بما فيه جونية، ولكن السوريين في ٢٥ نيسان، وكان يوم احد، استعملوا الحوامات لينزلوا قوات مجوقلة على هذه المرتفعات بعد أن كانوا بقذائفهم قد جسدوا مخاوف المليشيات، لقد كان المسيحيون يفتقرون الى السلاح التقني المعد للتوجيه الحراري لاتقاء مهاجمة الحوامات. وقبل مرور اربع وعشرين ساعة استنكرت الوزارة الخارجية الامريكية ما سمته «تغيير رئيسي في الوضع الراهن، وهكذا فإن السفير دين الذكي وجد نفسه امام فاتورة حساب كبيرة.

ووزارة الخارجية كانت تنكر ولو بأسف ان هذه العبارة كان المقصود بها اعطاء الضوء الاخضر لتدخل اسرائيلي، ولكنها كانت على الاقل، ردا على اللهجة المعادية التي استعملها

هايغ عندما كان في اسرائيل ضد سوريا، فالسفراء الامريكيون في لبنان وسوريا هرولوا للقاء هايغ الذي كان في هذا الوقت في الاردن ليشرحوا له الشكوك والمفارقات في الموقف السوري، وفي رسالة الى الرئيس الاسد اكد ريغن ان سوريا تستطيع ان تلعب دوراً رئيسياً في ايجاد السلام العادل في الشرق الاوسط. على كل حال ففي ٢٨ نيسان وكان يوم ثلاثاء قامت قوات الجو الاسرائيلية طائرات ف ١٥ وف ١٦ باسقاط حوامتين للجيش السوري فوق وادي البقاع الى الشمال من طريق بيروت دمشق، كان الناطق الاسرائيلي يؤكد باستمرار ان الحوامتين كانتا مسلحتين بالرغم مما كان قد تكرر على لسان السوريين انهما كانتا تنقلان تموينا للوحدات، وانهما طائرتا شحن والسوريون كانوا صادقين. حصلت هذه الحادثة في الوقت الذي كان فيه وزير خارجية سوريا عبد الحليم خدام ينطلق من الحدود السورية اللبنانية عبر المصنع الى القصر الجمهوري في بعبدا. ليعرض سلاما سوريا على القادة المتمردين في المليشيات المسيحية، الذين كانوا في المركز الحرج الذي تركتهم فيه اسرائيل، ولغالبية اللبنانين، مرة ثانية كما كان في كل مرة في الماضي، بدا ان اسرائيل كانت تتدخل لتمنع كل تحرك لايجاد الحل السياسي داخل لبنان، لأنها تعتقد انه يتعارض مع مصالحها، ان اقل ما كانت تحصل عليه هو انها هي التي تقرر متى تطلق النار واين وإلى أي مدى، والشيء الذي لم يكن واضحاً، بعد خلط الاوراق، كان هل ان اتفاقية الخط الأحمر بين دمشق والقدس تشمل استعمال السوريين للحومات أو فقط صواريخ أرض جو، فسفير اسرائيل في واشنطن، عند مفاوضات سنة ١٩٧٦ بخصوص الخط الاحمر، يصرح انه لم يرد ذكر للحوامات. وحافظ الاسد من سوريا تحرك الان بسرعة وحزم، اذ مع انبثاق اليوم التالي بتاريخ ٢٩ نيسان انطلق السوريون عبر خط الحدود المجاور بقافلة من الناقلات مغطاة بالمشمعات، وركز ثلاث بطاريات من صواريخ ارض جو روسية الصنع، كل بطارية كانت تتألف من سيارة تحمل رادارا، وثلاث سيارات اخرى، تحمل ثلاث قواعد للصواريخ، وضعت كلها في مكان ظاهر بحيث كانت اشعة شمس الربيع تنعكس منها في بريق يراه، اولئك الذين يمرون على طريق بيروت دمشق او بالقرب منها، كانت هذه الصواريخ التي تبدو وكأنها مهملة،هي الصواريخ التي اثبتت قدرتها على اسقاط عدد كبير من طائرات الاسرائيليين سنة ١٩٧٣، وفي اليوم التالي عندما كنت مع ثلاثة من رفاقي في الطريق الى القاعدة الجوية في رياق بحثا

عن بطاريات اخرى، اذ كان الرادار امامنا يتحرك بسرعة مما يؤكد ان هذه الصواريخ كانت جاهزة تماما للعمل، بيد ان النساء اللواتي كن يلبسن الملابس الزاهية الالوان، ويعملن في الحقول المفلوحة حديثاً، لم يعرن هذه الصواريخ اي اهتمام، انها كانت جزءاً من الموقع، غير اني اتذكر كم كان شعوري بالخوف رغم ان الطريق كانت مزدحمة الى درجة ان سيارتنا كانت تشق طريقها بصعوبة، ولكننا اصبحنا في عداد الاموات، لو ان الطيران الاسرائيلي قام بضربها، لكم تعرضت الى القصف الاسرائيلي، واصبحت اعرف مدى مهارتهم في التسديد، وقدرتهم على الظهور المفاجيء من أي مكان، واسقاط قنابلهم او صواريخهم، ثم العودة من حيث اتوا.

كان يوما باردا وعاصفا في البقاع، حيث درجة الحرارة اقل مما هي عليه في بيروت بخمس عشرة درجة، وكنت الوم نفسي لكوني جئت بلا رداء دافيء يحميني البرد القارس، اذكر أني شربت من خمرة الكسارة اكثر مما تعودت عندما كنت في اوتيل بالميرا في بعلبك، وهي المكان المشهور بأنها مقصد تجار الحشيشة، هذا الوقت الذي توقف فيه قدوم السياح الى لبنان، كان علي أن اواجه مصاعب طريق العودة بما فيها من اخطار، وبعد وقت غير قليل عذرني رئيس الوزراء بيغن لما ابديته من مخاوف، أنه كان يواجه النقاد في البرلمان، هؤلاء الذين كانوا يطلبـون معـرفـة السبـب الذي حـال دون ارسـال الطيران الاسرائيلي للعمل في ذلك اليوم الذي وصفته بشدة برده وعواصفه، فأجابهم ان الذي منع من تنفيذ اوامره هو رداءة الطقس، وهي اوامر كررها للمرة الثانية لتدمير الصواريخ، كان بيغن قد انذر السوريين بازالتها دون ابطاء، والا تقوم القاذفات الاسرائيلية بالمهمة نيابة عنهم.

كان المسيحيون في حالة ابتهاج ليس فقط لأن الارشادات الاسرائيلية طمأنتهم فحسب بل لأن لبنان اصبح في هذا الوقت في قلب الازمة العالمية، وبلغ ابتهاجهم الذروة عندما قامت ادارة ريغن الحائرة المذهولة بصورة مفاجئة، باستدعاء فيليب حبيب المتقاعد، وامين السر المساعد في الـدولة، وهـو لبناني الاصل، وارساله الى الشرق الاوسط « كحلاّل للمشاكل »، وحسب العادة كان المسيحيون اللبنانيون يذكرون ازمة سنة ١٩٥٨، وانه ارسل اليهم مبعوثا محترما وهو روبرت مورفي، وحبيب هذا البالغ الواحدة والستين من العمر، النشيط المؤمن بعمله، المندفع، مع كل ما يتحلى به من مزايا الدبلوماسيين اللولبية،

المتحلي بالكتمان والدقة مع الموهبة الشرقية، التي تمكنه من وضع العرب والاسرائيليين في وضع هادىء، كانت له هذه الصفات الشخصية هو قصير القامة، خفيف الشعر، عانى صحيا من عمل امتد عشرات السنين، هذا المجاهد دعي مرة ثانية ليواجه ازمة اخرى على مسرح الحياة، انها كانت عملية مواجة من ادارة قليلة الاختبار، تحاول ان تقطع الطرقات على السوفيات في الشرق الاوسط، ان مهمة حبيب الاولى، كانت اعادة النفوذ الامريكي الى سوريا، ذلك النفوذ الذي كان قد تدنى الى درجة الصفر، نتيجة لعدد من الاخطاء الصادرة عن واشنطن، بما فيها تلك، التي قاسى منها السفير تالكود سيلي، اذ كانت برقياته المرسلة من دمشق الى الوزارة الخارجية تبقى بلا جواب لعدة شهور، قبل ان يتقاعد من العمل في شهر ايلول من تلك السنة، ان محاولات حبيب الخيالية غير المرضية، كانت صرخة في واد باساليب غير بارعة، في نظر العرف العام في الشرق الاوسط، مشفوعة بسياسة عامة معادية للسوفيات، اثارها احد صانعي السياسة الخارجية، الذي اشار على الولايات المتحدة الامريكية، بأن تقوم هي نفسها بتدمير الصواريخ قبل ان يقوم الاسرائيليون بتدميرها، ولا عجب اذا بدا وزراء الخارجية العرب بالكشف عن هوية هؤلاء الموظفين الجدد الذين عينوا في ادارة ريغن في مراكز فاعلة بصنع السياسة الامريكية ووصفوهم بأنهم نفر من المغول أو الغجر.

تناولت سورية تهديدات ريغن، وصرح اسد بأن الجيوش السورية موجودة في لبنان بمباركة الجامعة العربية، ودون الرجوع الى تفاصيل عن اتفاقيات الخط الاحمر، فقد بدا وكأنه يبرر وجود الصواريخ لكون اسرائيل خرقت الشروط المفروضة عليها باسقاط الحوامتين، والدول العربية الواحدة بعد الاخرى، كانت تبدو مدفوعة الى التدخل، وهكذا جاء الدعم المادي متزامنا مع الدعم الاقتصادي، ....

.... وهنا ظهر الرئيس الاسد بأنه لم يكن منعزلا ومعزولا، بل رابحا منتصرا، ان حربا محدودة حتى ولو ربحتها اسرائيل كانت احسن من التخاذل وفقدان ماء الوجه، ثم دفع الثمن المحتمل لدحض المعارضة الداخلية وقد كانت لهجة الاسد، بالمعايير العربية اكثر اتزانا واعتدالا من تصريحات بيغن الحادة ابدا ودائما.

كان ذوو الاختصاص في القوات الاسرائيلية يلومون بيغن لوقوعه في فخ معقد، اذ لم يكن على رئيس الوزراء ان يأمر باسقاط الحوامتين، ويعطي للسوريين الحق الذي طالما

ارادوا الحصول عليه، بتجاوز الخط الاحمر في مقابل التخلي عن نصب صواريخ أرض جو، داخل الاراضي اللبنانية، ان صواريخ سام هذه، شمالاً من طريق بيروت دمشق، لا تعرض سلامة اسرائيل للخطر، ولكن لمجرد وجودها في لبنان، فما الذي سيمنع سوريا بعدئذ من نقلها جنوبا، والتساؤلات التي ارتفعت كانت تقول ان بيغن قد اخطأ في رؤية الضوء الاخضر الامريكي، خصوصا في ادارة حديثة العهد، لا خبرة لها بمشاكل الشرق الاوسط. ان مستشاري بيغن نفسه كما قيل، انذروه انه من المحتمل ان يأتي السوريون بالصواريخ، اذا اقدمت اسرائيل على اسقاط الحوامتين، ما دام ان قوة السوريين الجوية كانت لا تعادل الاسرائيلية، ولذلك لم يكن لديهم بديل لمواجهة القوة الجوية الاسرائيلية.

ولكن الضغط في داخل اسرائيل كان يتفاقم، وبتفاعله المعقول باتجاه الحليف الوحيد، لم يكن ليضمن اعادة انتخاب بيغن مرة ثانية، وهكذا فبعد منعه من ضرب سوريا توجه الى الفلسطينيين، وبينا كان حبيب يمكوك في الشرق الاوسط، على الاكثر ليمنع بوجوده بالذات، بيغن من تدمير الصواريخ السورية، توقفت اسرائيل مؤقتا عن مهاجمة الفلسطينيين ولكن بعد اقل من اربع وعشرين ساعة من مغادرته لاسرائيل متوجها الى واشنطن في اواخر ايار ليقدم تقريرا عن المرحلة الاولى من مهمته وعدم رضاه، امر بيغن، كأشارة لعدم رضاه، باستئناف الغارات على اهداف يعتبرها مشبوهة للفدائيين في لبنان، في مكان يبعد عن بيروت جنوبا ثمانية عشر كيلومترا، ولا غرابة فقد كان حبيب غير موثوق به، حتى من العرب المعتدلين، وكانوا يصفونه بالرجل المحب للحرب الذي يندفع لاشعال النار بواسطة عملاء اسرائيليين لامريكا.

لم يكن في كل هذا ما يسر المسيحيين اللبنانيين الذين بدأوا يمغمغون غير مكترثين بتغيير المراهنات، ما دام الروس يقفون، على الاقل، الى جانب اصدقائهم،هذه الاحاديث كانت تظهر فشلهم لحسبانهم ان كل الناس، الأهم انفسهم قد افادوا من الازمة فالسوريون مرة ثانية باتوا يعرفون اللاعب الرئيسي في الشرق الاوسط، وبيغن قفزت شعبيته الى اعلى في عملية اختبار الاراء، اذ كان ٣٠ حزيران، موعد الانتخاب، يقترب، وما كان يبدو مؤلماً عند القادة المسيحيين بصورة خاصة، كان اشهار علاقاتهم المتتالية مع الحكومات الاسرائيلية (وفي البرلمان الاسرائيلي نفسه، فوق كل الاماكن، كان من الاخطاء ان لوبردات الحرب المسيحيين حاولوا دائماً تخطي الاتهام بالتواطؤ مع اسرائيل،

ولكن شيمون بيريز ومناحيم بيغن، كانا يتنافسان في الكنيست للكشف عن تفاصيل التسويات الواحدة بعد الاخرى، هذه كانت الاساليب الانتخابية لدى الشعبية الاسرائيلية، والزعيان المرشحان لم يكونا ليحفلا بما ينتج عن ذلك من ازعاج يمكن ان تسببه مثل هذه الفضائح لحلفائهم المسيحيين اللبنانيين) اما بيغن فلم يعترف ابدا انه كان مخدوعا من قبل المسيحيين، أو أنه تخلى عنهم ومما قاله في مقابلة تلفزيونية امريكية في اوائل حزيران عنهم ما يلي: « اني اعتقد اننا في تعاملنا معهم قد انقذناهم، ونحن فخورون ان يتمكن الشعب اليهودي في زماننا هذا، بعد كارثة الابادة التي مر بها، من انقاذ شعب آخر، أما بيريز وهو مهندس الاتفاق مع المسيحيين اللبنانيين فكان يبدو عليه أنه يفتكر أن المسيحيين اصبحوا اكبر حجما من ملابسهم، ولكونه كان لسنوات عدة اليد اليمنى لموشي دايان، ووزير دفاع سابق، فقد تكلم بسلطة رجل كان قد هيأ لأكثر من حرب واحدة.

ان هذا المظهر من نجاحات بشيرالجميل هو ما اعتنقته الولايات المتحدة رسمياً وليس من شك بأن ادارة ريغن كانت تهتم فكريا اكثر من سابقاتها بالمسيحيين الذين كان كلامهم عن الحرب الباردة والعالم الحر هو الكلام المسموع لدى المتطرفين، والتأييد حصل في اجتماع في شهر ايار عقده حبيب مع بشير وحده كمسؤول اوحد بدلاً من أن يعقده معه كعضو ممثل للمسيحيين، كان قرارا صعبا ولكنه مقبولا، ففي ظاهر الامر كانت الولايات المتحدة وكأنها تكافيء شابا عنيدا عمل كل ما يستطيع لافشال السياسة الاميركية، وتعقيد البنية اللبنانية، وبشير عارض التخطيط الامريكي في تقوية سلطة الحكومة اللبنانية، وبصورة خاصة عندما قاوم محاولاتها لبناء الجيش اللبناني، كما كان من المعتقد انه مع شركائه يتحملون مسؤولية التعدي على حياة السفير دين رغم الانكار الرسمي، غير ان حبيب كان يريد ان يكون واقعياً في اتصالاته واحب أم كره فإن بشير الجميل كان الآن اقوى سلطة فردية في لبنان، والسوريون أيضاً كانوا بلا شك يسألون عما اذا كان بشير قد أُخذ برايه، مع العلم ان المسلمين واليسار، كانوا يعلنون ان الولايات المتحدة كانت تعمل على توزيع عواطفها، فهي كانت توافق على التوحيد بين صديقها القديم اسرائيل، واصدقائها الجدد المسيحيين، وحبيب كان متأكداً أن ادارة ريغن كانت تحت ضغط قوى من الاغلبية الكاثوليكية والبروتستنتية وليس فقط تحت الضغط اللوبي

الصهيوني وحلفائهم من ضمن حلقة قارئي التوراة، ولكن كان الجدل محصورا حول ان بشيراً كان يطلب ثمنا لشيء لم يقدمه. انه بعد لقائه مع حبيب مباشرة، ومع عدم وجود أي شيء يمكن عرضه، فقد كان يجاهر مبالغاً بالفهم الامريكي لقضيته المشروعة، ومما قاله «أنه اكبر انتصار لنا، بعد نضال ست سنوات»، وكان يعترف انه خلال سنة ١٩٧٥ عبر الشهور كانت الولايات المتحدة والفاتيكان واوربا العربية اخصاما. وهذا الاعتراف الضمني باخطاء سابقة في الحكم على الامور، كان شيئاً جديداً عند قائد مسيحي يدّعي معرفة كل شيء، وعلى كل حال فإن حصول بشير على هذا التعويم الامريكي له، جعله يذعن بطريقة رسمية، لمطالب السوريين، بأنه على القيادة المسيحية اللبنانية، والمقصود هنا بشير نفسه، ان توافق خطياً على قطع كل العلاقات مع اسرائيل، والذي استفاد منه بشير ان دفع الولايات المتحدة، مكنه من التحرك باتجاه الرئيس سركيس سياسيا، وهذا تقدير امريكي ثابت ومكافئة لاعطاء الضوء الاخضر من قبل سركيس الى حبيب ليعتمد قائد المليشيات، حتى بعد رجوعه من زيارة الولايات المتحدة في شهر آب، حيث استقبل وكيل وزارة الخارجية وليم كلارك وموظفون أخر، فإن بشيراً اعلن انه لم يحصل على شيء ملموس من الامريكان يستحق ان يعلنه، غير ان زيارته الى امريكا، مع العلم انه كان قد هُيء لها من قبل كتائبيين مخلصين في الجمعية الامريكية اللبنانية مما ساعده على تخطي عقبة كأداء وليست هي المرة الاولى، ولكنها الاولى بمثل هذا الالحاح، واجهت التساؤلات في مارونستان «ان السفرة الى امريكا كانت من عند الله لأنها اقنعت العدو والصديق ان بشيراً وشركاؤه كانت لهم مثل القطط، اكثر من روح واحدة كانت لهم سبع ارواح».

على الجبهة الاسرائيلية كان بيغن قد قبل ما فرضته امريكا من تجميد للعمليات في لبنان ووجه في هذا الوقت انتباهه وانتباه ناخبية، الى الغارة الاسرائيلية التي دمرت المفاعل النووي في العراق خارج بغداد، وذلك في السابع من شهر حزيران، كانت عملية الضربة الواحدة من التقاليد الاسرائيلية الكبيرة، لم يشترك فيها الموارنة المزعجون وقد ادهشت واثارت اعجاب الامريكيين وحازت على تقديرهم لما برهنت من جرأة.

أما وقد اطمأن بيغن الى نجاحه بالانتخابات فقد كان من المفروض ان يسترخي، غير انه قبل ان يبدأ بتكوين حكومته الائتلافية في ١٠ تموز (يوليو) امر قواته الجوية بضرب مواقع الفدائيين الفلسطينيين في لبنان كالعادة، ولكي يبرر تعدياته الجوية عرض ما يقوم

به الفلسطينيون من بناء تجمعات لسلاحهم، ولكن ذلك لم يكن ما اعلن كنتيجة لتزايد شراسة سياسة الحرب الوقائية، فبالاضافة الى الاهداف المعروفة مثل مخيم اللاجئين، او مجمع طرق، أو ميناء، فقد اضيفت مصفاة الزهراني، واحد الجسور التسعة على نهري الليطاني، والزهراني في لبنان، كان القادة الاسرائيليون يصرحون أن هذا الاجراء سيخلق اضرارا في مواصلات لبنان المدنية، ويثير نقمة اللبنانيين على الفلسطينيين وان تهديم الجسور كان اجراءا ضروريا في الاعداد لعمليات كبيرة على الارض ضد الفلسطينيين ما بين الليطاني والزهراني، وهذا مما يضع اسرائيل وراء الـ ٢٥ كيلومتراً التي هي مدى ما يمكن ان تصل اليه القذائف السوفياتية من قياس ١٣٠ مليمتر التي تقذفها المدفعية وصورايخ الكاتيوشا (في سنة ١٩٧٨ انتقاد للقوات الاسرائيلية لأنها لم تقم بهدم الجسور في ذلك الوقت) وكما كان متوقعا، فإن اللبنانيين هم الذين كانوا الاكثر معاناة، واللبنانيون الذين قتلوا كانوا اكثر بكثير من الفلسطينيين، والفدائيون كانوا منذ وقت طويل قد بنوا مستودعات لسلاحهم، وللذخيرة، والمواد البترولية، واللوازم الاخرى التي يمكن ان يُحتاج اليها في حالة هجوم اسرائيل. امتنع الفلسطينيون ثلاثة ايام عن اطلاق النار، ثم بعد ذلك بدأوا بالقصف بالمدافع والصواريخ على شمال اسرائيل بدقة اذهلت اسرائيل، ولم يأت انتقام بيغن السريع إلا في السابع عشر من تموز، عندما قامت تسع قاذفات اسرائيلية اميركية الصنع، بمهاجمة منطقة الفاكهاني المزدحمة بالطبقة العاملة من السكان، والواقعة في منطقة بيروت الغربية، حيث توجد بيوت تستعملها منظمة التحرير كمكاتب لها. كان الفلسطينيون احتياطا قد وزعوا منذ زمن، رجالهم الرئيسيين ومكاتبهم الى اماكن اخرى. بلغ عدد القتلى اكثر من مئة وعشرين لبنانيا وفلسطينيا، اكثرهم من المدنيين كنيجة لتلك الغارة واصابت القذائف عشر بنايات، ثمان منها ليست لها علاقة مع المنظمة، هذا بالرغم من ادعاءات الطيران الاسرائيلي، بأنه يحكم اصابة الاهداف، وفي بيروت كان ينظر الى هذا الهجوم بأنه تصعيد للحرب ضد الفلسطينيين، (كونه مخيف هذا صحيح ولكنه ليس اكثر من اعمال العنف التي اصابت لبنان منذ ان اطلقت اسرائيل لنفسها العنان في غارات انتقامية سنة ١٩٦٠) ولبنان الذي اعتاد على تحمل المكاره راقب الغارة من بعيد، من شرفات المنازل وكان الاندهاش كبيراً عندما كانت ردة الفعل العالمية تدين بيغن بقصفه بيروت، والعالم الخارجي، كان قد تناسى باسرع ما ينتظر، الاعمال العدائية الاخرى التي

قامت بها اسرائيل العام الماضي، ولماذا يثير التلفزيون، العالم الغربي الى عملية الفاكهاني، وعلى الاخص الامريكان، اذ ما الذي يغضبهم الان؟ اين كانوا عندما كانت عشرات الغارات الاسرائيلية تجري دون ان تثير الغضب أو الانتباه في العالم الغربي، والمتطرفون في مارونستان الذين يكرهون الفلسطينيين لم يبالوا بالغارة لأنهم كانوا يقدرون ان اسرائيل لن تكون لها الرغبة بالقيام بحرب على قياس واسع، وهذا في نظرهم المبرر الوحيد لهذه الغارة.

ان هذه الحادثة لم تكن بالشيء الجديد، وليست هي المرة الاولى التي يرى فيها اللبنانيون الضحايا من المدنيين الذين مزقتهم القنابل الاسرائيلية، على الطرقات المجاورة للشاطيء أو الذي كانت تلتصق بقاياهم الممزقة على السيارات، حيث ماتوا دون أن يؤبه لهم، فبعد ست سنوات اصبح مثل ذلك عادياً، اكان هدم الشقق أو تحطيم دراجة لولد صغير، أو لبقايا هيكل سرير معدني، وما يمكن ان تراه من بقايا متدلية من النوافذ التي اصبحت بلا زجاج، أو ما تراه العين من شرفات مهدمة، أو ما تصادفه من شباب مراهقين في الطريق، يطلقون الرصاص في الهواء ليزيلوا مخاوفهم؛ لتتمكن من العيش في بيروت، معناه ان تتعلم كيف تموت دون تفكير.

ليس من احد يستطيع ان يجد تفسيرا للتعديات الاسرائيلية، ان بعض اللبنانيين كان يعتقد ان بيغن يريد ان يعارض الجهود الرامية الى حصول اي تقارب مسيحي سوري، وهو ما عبر عنه كتابة بشير الجميل عن قطعه العلاقات مع اسرائيل، آخرون اصروا ان بيغن كان يعمل لتفكيك العلاقات الامريكية السعودية، وادارة ريغن بغباوتها اعتقدت ان رقابتها الاقليمية قد نجحت عندما وضع حبيب في جولته الربيعية سوريا بعيداً عن متناول اسرائيل، ولكنه اخفق بالتقدير في ان الاسرائيليين كانوا على قناعة ان البيت الابيض قد اعطاهم بطاقة بيضاء ليضربوا القواعد اللبنانية للفلسطينيين، فعلى ما يظهر انه لم يخطر في بال ريغن ان السعوديين ودول الخليج الاخرى كانوا يمولون ويقدمون المعونات لمنظمة التحرير على ان يأخذوا في المقابل من الفلسطينيين وعدا بعدم التدخل بشأن نظامهم السياسي الاقطاعي، وضرب المنظمة، عندما يصبح سياسة معمول بها علنا في اسرائيل، كان في مضمونه اشد خطرا على المصالح الامريكية، وهذا ما لم تستطع واشنطن تقديره، والاسرائيليون كما تقول النظرية اوجدوا الطريقة الهوجاء لازعاج واشنطن، بينما هم

يقومون بتنفيذ رغبتها في معاقبة المخربين، وفي اسرائيل كان الفلسطينيون يلقنون اسرائيل الدرس الذي تتقنه هي نفسها، فعوضا عن هرب اللبنانيين، كان الان عشرات الآلاف من الاسرائيليين المتعبين والموظفين المدنيين والمسؤولين في الجيش يغادرون الشمال مثل كـريـات شمـونـه في الشرق، ومـوتلى على الحدود، ونهاريـا على المتـوسـط، ولم يكـن الفلسطينيون وحدهم الذين راقبوا هذه الظاهرة عندما كانت مدافعهم تنصب على ثمانية وعشرين قرية اسرائيلية ومدينة، وتتلف المزروعات والبساتين، هنا وعلى مرأى من العالم المراقب وبالرغم من المراقبة العسكرية والجهود كانت تظهر سلبية الحرب الاسرائيلية الوقائية.

كيف لا ننتقم عندما نراهم في الشمال يسربون الانباء خلال خمس او ستة ايام الى حيفا والى تل ابيب، والقدس (انباء النزوح)، واليهود القادمون من شمال افريقيا وهم بدائيون ضعفاء التفكير، ويقيمون في الشمال، هؤلاء سوف يهربون وينشرون الرعب أينما ذهبوا «هذا ما اخبرني اياه مؤرخ اسرائيلي قبل سنة».

والآن صحت النبؤة فإن السلاح الاسرائيلي كان ضررا على اسرائيل نفسها ولم يبق امام بيغن الا ان يعمل على التقليل من خسائره. وفيليب حبيب الذي كان قد عاد الى الشرق الاوسط، كان لديه مسألة اساسية، هي ايجاد وسيلة تحفظ ماء وجه بيغن الذي كان قد اقسم على عدم التعامل مع المنظمة، وفي الرابع والعشرين من تموز، كانت المرة الاولى في ثلاثة وثلاثين سنة من عمر اسرائيل ان وافقت حكومة اسرائيلية على ان لا تقوم بعمليات عسكرية ضد الفلسطينيين في أي مكان ولو بصورة مؤقتة، ان عدم وضوح هذه الترتيبات لوقف النار ساعدت اسرائيل على انكار أي تعاطي مباشر أو غير مباشر مع المنظمة، وساعدت الفلسطينيين على انكار أي اعتراف بشرعية وجود اسرائيل. ولكن رئيس المعارضة بيريز لم يتركها لبيغن بهذه السهولة فقال: «ان وقف اطلاق النار كان مفاوضة مع المنظمة، وليس من موجب لأخفاء الحقيقة التي يجب ان تقال حتى ولو كنت انا في الحكم» فقضية بيغن لم تتحصن بتأكيده الواهي إنه لم يكن يجري مفاوضات مع المنظمة، بل مع الحكومة اللبنانية عن طريق الولايات المتحدة والامم المتحدة، ومع كل ذلك فإن اسرائيل بمساعدة المليشيـات المسيحيـة، قامت بكل جهد لأفشال الجهود الرامية الى اعادة وجود حكومة لبنانية مركزية ذات سلطة.

وان الجنرال ياكوف ايغاند ، الناطق باسم الجيش الاسرائيلي قال مبالغا في شهر نيسان نحن في الجهة المعادية نحن المعتدون الذين يخترقون ما يُسمى، بالجمهورية اللبنانية، وسنذهب وراءهم (أي الفلسطينيين) الى أي مكان يختبئون فيه، وهذه النظرة الى السيادة اللبنانية لم تكن في وقت ما من الامور الاستثنائية، وفي الولايات المتحدة فإن صديقا لاسرائيل راسخ الايمان بها، مثل هنري جاكسون عضو مجلس الشيوخ، صرح ان بيغن يواجه مسألة شخصية، ولدى توارد الانتقاد عندما اصبحت الانتقامات الاسرائيلية سريعة غير مقبولة لافتقارها الى المرمى الصحيح، مثلا عندما جاء في ملخص احصاء الوفيات خلال اسبوعين (خمس من اسرائيل بالمقابل مع خمسماية في لبنان) اشار رابين ان الامريكان كانوا متأثرين، فردة الفعل التي قاموا بها كانت لأنهم لا يزالون يذكرون حرب فيتنام، وبيغن كان يحسب ان الناس هناك كانوا يشمئزون من ضرب المدنيين دونما سبب «ورابين الصقر سابقا، كان يتكلم مثل شاريت، اكثر الحمائم هدوءاً ففي مذكراته سنة ١٩٦١ كرر الكلام عن المذبحة الاسرائيلية في سنة ١٩٥٥ للعرب في القرى العربية، والحقيقة الراهنة في ان المنظمة السياسية الحربية بررت المسؤولين عنها، واشارت بأسف لأن الرأي العام والجيش والشرطة يجبرون بأن يكون الدم العربي مهدورا، ان كل ذلك سيؤدي الى انقلاب في نظر العدالة والشرق، لدى الرأي العام وسيجعل الدولة تظهر امام العالم بأنها دولة متوحشة لا تفهم مبادىء العدالة كما هي مقررة ومقبولة من المجتمع ككل».

كانت الولايات المتحدة مبتهجة بأن ما هو اسواء استطاعت ان تحول دون حصوله مرة ثانية. فقد عبر الناطق بأسم وزراة الخارجية دين ڤيشر عن رأيه بسذاجة فيما يتعلق بوقف اطلاق النار بكونه في السياق الطويل سيؤدي الى حل مشكلة المنطقة، وتمكين الحكومة اللبنانية من السيطرة على كافة اجزاء البلاد، التي هي في حالة اضطراب، أو حيث ينتشر العنف، ولو أخذ ذلك موضوعيا فانه سينسف العشرة كيلومترات التي كان يقيم عليها الرئيس سركيس حكمه المترنح. هناك كانت اسرائيل ماضية في تحركاتها الرسمية، التي ترمي من ورائها متهالكة لتضع يدها على حكومة عاجزة عن تأمين وحفظ انظمة السير.

ان مدة الشهور الاربعة من العنف هزت المرتكزات التي بنت اسرائيل عليها توقعاتها جغرافيا وعسكريا وبدلا من وجود دولة اسرائيلية قادرة وقوية وحكيمة، كما كان يريدها المسيحيون من اللبنانيين ان تكون، فقد برهنت انها مرتبكة، متناقضة، وغير

فاعلة كأي من فرقاء الشرق الاوسط، وهو الدرس الذي تعلمه العالم العربي الآخر من حرب سنة ١٩٧٣، عبرة وصلت اخيرا الى اكثر الموارنة غباءاً، والآن قد برهن الفلسطينيون مرة ثانية وبصورة قاطعة، بأن قواعد صواريخهم المتحركة ومدفعيتهم البعيدة المدى تستطيع اصابة المستوطنات الاسرائيلية في أي وقت، وحتى الرائد حداد وحزام الامان المبالغ في اهميته لم يبق ذا قيمة لاسرائيل، فهي في الماضي كانت تستنكر مسؤوليتها عن أخذ حداد كوسيلة لاستعمال المنطقة التي هو فيها مع مليشياته ولمحاربة اللبنانيين والفلسطينيين منها، وهي تؤكد الآن ان جمهورية لبنان الحر يجب ان يشملها قرار وقف اطلاق النار، انها المرة الاولى التي تأخذ فيها اسرائيل موقف الدفاع فالقوة الجوية ليست قادرة على ضرب السلاح الفلسطيني وعلى الاخص الكاتيوشا وراجمات الصواريخ، وان اشاعة القيام بعملية على الأرض رغم الكلام عنها منذ زمن، لم تكن بالامر المؤكد وفي داخل اسرائيل فالمسؤولون كانوا يجتهدون لتلافي الامور، وفيما قاله احد المراقبين العارفين من ذوي المكانة الرفيعة «ان الاسرائيليين قبل ان يعرفوا عن العملية كانوا يحرقون الوقت الطويل في درس خرائط لم يطلعوا عليها من قبل» واساتذة المخابرات الحاذقون وجدوا أنه من الاسهل معرفة في أي مرآب يحتفظ الفلسطينيون بدبابة مموهة، اكثر مما كان يمكنهم ان يعرفوا ما يجري في رأس قائد ماروني، ان بشير الجميل ظهر انه قام بعملية زحلة مرتكزاً على توقيته الخاص، وهنا فالاسرائيليون كانت لديهم افكار واهتمامات ثانية. حتى ولو انهم صدقوا المسيحيين عندما صرحوا ان وجودهم في زحلة لم يكن المقصود منه اخذها كموقع للقفز الى توسع ابعد، الى المنطقة المحررة، كان الاسرائيليون في الوقت الراهن قد بدأوا يعتقدون ان السوريين كان لديهم الحق في ان تكون عندهم شكوك، وبسرعة ادرك الاسرائيليون انهم تورطوا في لبنان الى ابعد من مصالحهم الخاصة.

ومع ان وكيل وزارة الدفاع مورد خاي زيبوري كان من الصقور المعتدلين سياسيا، فقد تساءل عن علاقة اسرائيل مع بشير الجميل تلك التي كان من الممكن ان تخلق مواقف قد لا تكون في ايديهم، واستطرد منذرا، ان التورط في الاضطرابات الداخلية في لبنان، تضع امامنا منزلقاً خطراً كبيراً، ثم قدم بعض الحقائق التي كانت الوكالة الاسرائيلية قد توصلت اليها (ان المسيحيين لم يعودوا يشكلون الاكثرية بين السكان اللبنانيين، فضلاً عن

ان هذه الاقلية مفسخة الى فئات، وجماعات، تعادي احيانا بعضها بعضا، قالها وكأنه كان يذيع سراً دفينا فأضاف «زيادة عما ذكرت ان جهة واحدة من السكان المسيحيين ترغب في قبول المساعدة التي نعرضها وهذه الفئة تشكل ٣٥٪ من المسيحيين وليست لها الفرصة لتضع يدها على لبنان» وسرعان ما ابلغ المجتمع الاسرائيلي ان حكومته كانت وراء هدف بعيد، وهو الامل القديم في خلق مجموعة من الولايات الفسيفسائية التي لا قاعدة لها، ومثل هذا الحديث كان نوعا من السياسة العرجاء التي لا يحتمل ان تكون مشجعا للمسيحيين الواهمين بأنه سيكون بأمكانهم فرض سلطتهم على لبنان كله. ولا عجب اذا كان السوريون قد خاطروا في ابعاد اتهامات الابادة عنهم، واخيراً ظهرت حقيقة اولوية لاسرائيل، في ان تخرج من اللعبة الخطيرة، ومما سأله احد المسؤولين في اسرائيل، الا ترى ما الذي نفعله نحن هنالك في الشمال، ان اولادنا يجب ان يتعرضوا لأخطار لا لزوم لها من اجل هؤلاء المسيحيين المجانين» وهذا ايضاً ما قاله الآخرون، وفجأة بدأت تظهر العلاقات العدائية مع مسيحيي لبنان في الشمال (مع انه كان بينهم في وقت ما عشرات من المستشارين الاسرائيليين) هذا العداء كان ظاهرا وكان قد بدأ يصبح غير منضبط. والاسرائيليون الذين في القمة كانوا يناقشون امر استخدامهم لقواتهم المسلحة، ومما قاله دبلوماسي عالي المستوى «كنت اتحدث مع شباب من ذوي الشعر المشعث عما يجري في بيروت كنهج سياسي وسرعان ما اصبح الحديث جزءاً رئيسياً من السياسة الاسرائيلية، وعندها تنفس الاسرائيليون الصعداء وتراجعوا خطوة الى الوراء. ان العنف الذي حصل في شهر تموز خفض من حرارة الاسرائيليين، لتورط في لبنان، فالسلاح الفلسطيني الجديد لم يصل فقط الى كريات شمونة، بل الى نهاريا، حيث تمكنت القاذفات الروسية الـ ١٣٠ م.م. وهي قاذفات موجهة لاصابة الاهداف بدقة للمرة الاولى» ان الاسرائيليين، اما كانوا قد نسوا أو لم يفهموا تصاعد العنف وعجزهم عن ايقافه فكان مفاجأة لهم «قال دبلوماسي ان بيغن الذي كان وعد في حملته الانتخابية على وضع حد لضرب الصواريخ على المستوطنات الشمالية، زار نهاريا، وموتلي، وكريات شمونة، وصرح هناك انه لم يقل ذلك ابداً»، ومما قاله «كل واحد يعرف الصدق يعرف ماذا قلت» «اصبروا فاليوم آت عندما لا يبقى هنالك كاتيوشا على كريات شمونة، وانا اعيد عليكم ما قلته حين ذاك» «الصبر يا اصدقائي».

للكثيرين من الاسرائيليين بدا هذا وكأنه تغطية شفافة، ومما ابداه احد مستشاري بيغن القدماء غير المتأثرين بهذا التبرير، وهو ذو نظرة ابعد واكثر دقة عندما ذم المسيحيين اللبنانيين امامي بقوله: «أنهم متذبـذبـون غير مـوثـوق بهم وخطـرون. انهم سوف يتخلون عنا في اول مناسبة، يجب، آن نتخلص منهم على الاخص من مسيحيي الشمال، ان حداد، لا يزال اليافطة، دع الفرقاء في لبنان يأكلون بعضهم بعضا» ثم تمتم قائلاً: «ان حبيب انقذنا من انفسنا ونحن سعداء لأننا عدنا الى مكاننا، ثم تطرق الى ما يجب ان تفعله اسرائيل الآن، مع ما لدى الفلسطينيين من سلاح طويل المدى، بمضمون الاصابة، شمال الليطاني» ثم تمتم ثانية «لن يكون بالامكان تدمير كل سيارة شحن على بعد خمسة عشر ميلا شمال الحدود، لن يكون عندنا العمق الاستراتيجي الذي نحن بحاجة اليه لمواجهة السلاح الحديث، وليس هناك من وضع حد لامكانيات نقل المتفجرات من نقطة على سطح الأرض الى الاخرى. كما انه لا شيء يعادل دخول الدوريات الى البيوت ثم نسفها وخطف الناس بحجة التحقيق معهم.

الفصل السابع

كل شيء سقط

بانتهاء بيغن من تشكيل حكومته في اواخر شهر آب من سنة ١٩٨١ وضعت المفارقات والتعقيدات السياسية الاسرائيلية في لبنان جانبا، دون ان تلاقي حلا، وتمّ الكلام الكثير على العناد، والتوجه الحربي، كان المخطط الرئيسي لهذه السياسة الجديدة وزير الدفاع اريل شارون انه أعطي هذه الحقيبة الجليلة الشأن بعد ممارسة طويلة من الاندفاع في العنف، والتهالك في طلب السلطة، واختلاق التعقيدات، والطيش، ففي سنة ١٩٥٦ اثناء عملية ترعة السويس، إذ عصى شارون الاوامر، ودفع بقواته المجوقلة لمجابهة القوات المصرية في ممر ميتلا في صحراء سيناء، وخسر ثمانية وثلاثين قتيلا، وهو عدد كبير في نظر الجيش الاسرائيلي، الذي يتحاشى مثل هذه الخسائر البشرية، ساءت سمعته، بسبب ذلك، اكثر منها، من الغارات المتعاقبة على الحدود في سنة ١٩٥٠، اذ ان الوحدة رقم ١٠١ انذاك تسببت في انزال خسائر كبيرة بالمدنيين العرب، وهي أعمال نعتها الناقدون بأعمال طيش، فاستقال على اثرها من الجندية، وقيل انه في حرب يوم الغفران سنة ١٩٧٣ مع مصر وسوريا، اذ كان رئيسا للاركان، تبدّل حظه، فاصبح البطل الاسرائيلي الوحيد في تلك الحرب، يوم غير اتجاه الوضع الخطير، بعملية جريئة وسريعة عندما اجتاز قناة السويس، وحاصر الجيش المصري الثالث في سيناء، وبعد الحرب، استفاد من هذه الخطوة الجريئة ووضع نفسه، سياسيا في جناح اليمين، وشارون هذا عبارة عن رجل ضخم، يتخلل رأسه الشعر الابيض، بارز البطن، يتميز بأنه مرح، لبق، حسن الشكل، مندفع، ليكوّن من نفسه بطلا للشرق الاوسط، رائد غير مقلد.

وبعد شهور من تسلمه وزارة الدفاع، كان يؤكد لنا ان مدى النفوذ العسكري الاسرائيلي في سنة ١٩٨٠، توسع الى ما وراء العالم العربي ليشمل تركيا، وايران وباكستان وحتى شمالي إفريقيا ووسطها، ان اسرائيل اصبحت القوة الرابعة عالمياً في قدرتها

العسكرية، هذا ما كان يدعيه مبالغا، وكغيره ممن تقدموه، فقد كان شارون يؤيد سياسة الهجوم، مفضلا ان تُجري اسرائيل حروبها على ارض غير ارضها، ان اهدافه في ايجاد دولة اسرائيلية تحكم الشرق الاوسط كانت واضحة، وكان يرمي الى سحق منظمة التحرير كقوة عسكرية وسياسية في لبنان، وبضم الضفة الغربية المحتلة، وقطاع غزة، وتقويض عرش الملك حسين، واعطاء الاردن الى الفلسطينيين الذين كانوا يؤلفون في الواقع ثلثي السكان، اما سوريا والعراق فكان يريد زعزعة الاوضاع فيها، ودول النفط المؤيدة لامريكا، كان يعمل على اسكاتها باقناعه انه عمل لانقاذها من خداع منظمة التحرير، وحمايتها من انقضاض الثورة الايرانية عليها.

(السلام لاسرائيل) هو الحلم القديم الذي لا يتم إلا بسحق السيادة الاسلامية السنية في الشرق الاوسط، واذا لم يكن من امل في تحقيق ذلك فبخلق صداقات خارجية مع دول غير مستقلة تحكمها اقليات دينية على الاقل، بتشجيع تحقيق اماني ومطامح هذه الاقليات، ولماذا لا يكون ذلك؟ الم يعمل الفرنسيون والانكليز نفس الشيء عندما كانوا منتدبين من قبل جامعة الامم في تلك المنطقة، وعلى هذا الاساس يجب مساعدة المسيحيين في لبنان، وكذلك الدروز والشيعة المسلمين لنفس الغاية، كونهم مجاورين للحدود الاسرائيلية.

ان التدخل في شؤون الدول المجاورة، يصب في خانة الدول المستعمرة، وهذا لا وجود له نظريا في القاموس الاسرائيلي، ويحتاج الى قاعدة اقتصادية سليمة، بينما اسرائيل مدينة بخمسة وعشرين بليون دولار، وتعتمد اعتمادا كليا على الولايات المتحدة عسكريا، واقتصاديا وسياسيا، ومع قرن من التورط الامريكي، في السياسات الاسرائيلية العنيدة، ومع ما هنالك من تضخم منذ سنة ١٩٧٥ في المال والسلاح لتأمين موافقة اسرائيل على اتفاقية اخلاء سيناء ونهج كمب دايفيد، للوصول الى سلام، هذه الوقائع في النتيجة شجعت العسكريين في اسرائيل على التمادي في احلامهم.

ومنذ اكثر من عشر سنوات، كان موشي دايان يسره ان يقول لزواره «الامريكان «كانوا يعطوننا المال، ويعطوننا السلاح، ويعطوننا النصائح، وكنا نأخذ المال ونأخذ السلاح، ولكننا لا نأخذ بالنصائح» والاسرائيليون في أية حال، كانوا دائماً متقدمين خطوة على الامريكان، هذا ما قاله دبلوماسي امريكي على خبرة طويلة بشؤون الشرق الاوسط. والان إزاء الانتقادات العالمية لأساليب اسرائيل الملتوية، فالحكومة الاميركية لا تعطي

سوى النصح، ومع ذلك هيأ بيغن حكومته للقيام بحرب عربية خامسة، وهي حرب في نظر اسرائيل لم تكن هذه المرة بسبب كون الوجود الاسرائيلي مهدداً. اما الذي لم يستطع بيغن وشارون تقديره رغم التنبهات المتكررة من الاسرائيليين العرب، وقبل وبعد الاجتياح، هو ان الحرب ستضع اسرائيل بين اكثر المجتمعات وحشية وتوحشا في الشرق الاوسط وعاملاً على اذكاء النزعة الوحشية.

كانت اسرائيل في اعلامها برقيا عن اجتياحها للبنان تفعل كما يفعل رابحو الجوائز بالاعلام عن انفسهم. ان ياسر عرفات كان متأكداً من ان الاجتياح آت، وعندما كان يجتمع بزائريه سنة ١٩٨٢، كان يقدم لهم مسودات خرائط يظهر فيها كيف سينفذ الاسرائيليون اجتياحهم، انزال هنا، وهجوم هناك وعبور في خطوط الامم المتحدة في اماكن مختلفة، إلى اخره، وكان بشير الجميل يسرُّ الى محرري الصحف اللبنانية في شهر اذار بقوله: «من يدري، فقد تطلون في يوم من الايام برؤسكم من النوافذ وتباغتون برؤية الدبابات الاسرائيلية تجوب الشوارع»، واخوه امين، لدى زيارته لواشنطن في فصل الخريف السابق، سأله صديق من الامريكيين العرب، متى سيتم الاجتياح، وليس عما اذا كان هناك اجتياح أم لا، والزعيم الدرزي وليد جنبلاط اعطي إنذاراً بقرب الهجوم المؤكد، عندما استُقبل اثناء فصل الشتاء السابق في وزارة الخارجية الامريكية.

والاسرائيليون، وهم اسياد من يخلق شعورا عند الناس بحصول ما لا بد من حصوله، كانوا بالواقع منذ اللحظة التي وافقوا فيها على وقف النار في تموز سنة ١٩٨١، قد بدأوا باظهار الغزو للبنان كقضية، مدعين بصوت عال ان الفلسطينيين كانوا يخرقون بنود اتفاقية وقف النار، والامم المتحدة لم يستطع مراقبوها في جنوب لبنان، القيام بتسجيل دقيق لهذه الاجراءات، والعالم كان قد اصبح معتادا على عمليات اسرائيل الحربية في لبنان، مما جعل حتى الولايات المتحدة، والحكومات الاخرى المعنية تنظر الى تلك الامور كشيء مفروغ منه، وكان يهمها ما هنالك من اهداف اخرى لاسرائيل، قائمة بصورة دائمة، والامريكيون وقعوا مع اسرائيل معاهدة امنية لم يقصد بها الا حماية اسرائيل، او الحصول على قواعد وتسهيلات لجيوش الولايات المتحدة، غير ان تنفيذ هذه الاتفاقية بصورة نهائية عُلّق عندما قامت حكومة بيغن بضم مرتفعات الجولان التي كانت بيدها منذ سنة ١٩٧٨، وفي الشهور الاولى سنة ١٩٨٢ كانت اسرائيل تضع العالم في قلق قبل تنفيذ

معاهدة السلام مع مصر، وتفريغ مستعمرة ياميت، آخر مستعمرة لها في سيناء، وقبل اسبوعين على التقريب من نيسان سنة ١٩٨٢، الموعد الاخير المعطى لاسرائيل لانهاء عملية التفريغ، استطاع القمر الصناعي الامريكي ان يلتقط صورا لحشود اسرائيلية كبيرة من الجيوش والمعدات بالقرب من الحدود اللبنانية، وهذه المراقبة الدقيقة كان القصد منها الحؤول دون الاجتياح الذي بدا الان مؤكدا، والحشد عمل عسكري لاجتذاب اهتمام الرأي العام الاسرائيلي الذي كان مقسوما على نفسه بخصوص الانسحاب من سيناء.

لجأت اسرائيل بعد ذلك مرة ثانية لتبرر اجتياحها، فزعمت انه كان ردا على خرق وقف اطلاق النار، الذي كان يقوم به الفلسطينيون، والسفارة الاسرائيلية في واشنطن قدمت قائمة باثنين وثلاثين حادثة خرق رئيسية مختلفة، ولدى التدقيق تبين ان هذه القائمة تدل على اماكن ضمن قطاع حداد، الذي كان معروفاً بلبنان الحر، وأول خرق اسرائيلي لاطلاق النار في ٢١ نيسان، كان قيام الطيران الاسرئيلي بغارة قتل فيها عشرون، وجرح اكثر من ستين، انتقاما لمقتل ضابط اسرائيلي ارتطمت سيارته الجيب بلغم خارج خطوط حداد، وفي منطقة تحت مراقبة الامم المتحدة، ونظريا، اقل ما يمكن ان يقال، انه لم يكن على الاسرائيليين ان يتواجدوا في أي من هذه الاماكن، والمنظمة لم ترد، وفي التاسع من ايار اطلقت المنظمة وحلفاؤها اليساريون اللبنانيون ثلاثين طلقة من احدى الجيوب في صور باتجاه اسرائيل، ولكن هذا جرى بعد ان كان الطيران الاسرائيلي قد قام، بعد ظهر ذلك اليوم، بقصف الدامور والزهراني، قصفا شديدا دونما سبب ظاهر، والادعاءات الاسرائيلية المبالغ بها، كانت مفهومة تماما في واشنطن، اذ كانت تشير الى ان سفارة الولايات المتحدة في بيروت، لم تكن قد اعلمت ولو بلباقة من قبل اسرائيل، أن برقياتها التي تبين اصرارها على تأكيد الوقائع يجب أن لا تتكرر.

والحكومة الامريكية ابدت الامتعاض من تضليل اسرائيل لها وخداعها، وبعد كل هذا فالهجمات الفلسطينية توقفت، بفضل منطقة الامم المتحدة الفاصلة وقطاع حداد، والمراقبة الالكترونية على الشريط المكهرب المزدوج عند الحدود، وقد كان اطلاق المدافع باتجاه اسرائيل، دونما استثناء، انتقاما من اعتداءات اسرائيلية، ففي السنوات الاخيرة، كان الفدائيون الفلسطينيون قد قلصوا عملياتهم، ليبرهنوا عن خططهم البطولية الاسطورية بتسريب الرجال عبر الحدود الاسرائيلية رغم ما هنالك من تدابير احترازية،

ولكن اسرائيل، متفردة برأيها، استمرت بالعمل على تحقيق اهدافها. وفي كانون الثاني، يناير. صرف شارون ليلة ويومين، في بيروت الشرقية مع المليشيات المسيحية. يخطط للغزو. وفي اواسط شباط كانت العملية كلها امرا مفضوحا في بيروت، وكان الاسرائيليون. قد بدأوا بارسال السلاح والذخيرة الى المسيحيين، كانت نقطة التسليح عبارة عن فرضة في طبرجا، يطلق عليها اسم السفارة الاسرائيلية، لأنها كانت مقر العمليات المتعددة في الساعات المتأخرة من النهار، والاخصائيون والاجانب تكلموا بصورة رسمية عن وصول بارجة امريكية الصنع، لنقل الدبابات، والجرافات، والمدافع الثقيلة. هذه التقارير صحيحة كانت ام لا، لاقت عند المسيحيين ابتهاجا ظهر على وجوههم، فقد كانوا قد يئسوا وبحاجة الى ما يثبت -أن الولايات المتحدة تساعدهم، وهذه كانت ايضاً ردة الفعل عندما قامت المخابرات الامريكية بتنظيم اتصالات مع القوات اللبنانية. هذا القرار صدر بصورة رسمية رئيسية بناء على رغبة اميركية لاعطاء بشير الجميّل فرصة لتجديد العلاقة بين اسرائيل، والقوات اللبنانية، مما يؤمن الحصول على استخبارات عن منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا، تدابير لم يسبق ان تمتع بها أي سياسي لبناني آخر مع المخابرات الامريكية التي كانت تستبعد أي عمل تعاوني مع الآخرين. (لكم تغيرت الايام، فقد كان الامريكان يعتبرون بشيراً مسؤولاً عن محاولة قتل السفير دين)، وبوجود شارون في مركز القيادة فإن حكومة بيغن قد وضعت نفسها في مركز حساس الى درجة أن أي خطأ مهما كان نوعه سيسبب صرف النظر عن المخطط المعد منذ زمن طويل لهذه العملية.

وفي ٢٠ ايار طار شارون الى واشنطن حيث اجتمع بوزير الخارجية هايغ على انفراد، ومن اجل ابقاء هذا سرا لم يوضع هنالك تسجيل لما دار بينهما من احاديث، وهايغ ما كان ليخفي تأييده للميول الاسرائيلية، وقد انكر بجزم انه شجع وبارك مخططات شارون للاجتياح، قبلوا ام رفضوا، وأنه ليس على واشنطن، ان تفاجأ، اذ اعترف بأن ذلك ما حدث، عندما حققت الغارة على المفاعل الذري في العراق، اما في لبنان فالوضع هو اننا لا نستطيع ان نبقى مترددين اكثر من ذلك»، هذا ما صرح بأنه قاله لهايغ، والرئيس السابق كارتر صرح فيما بعد (وهذا انكره هايغ بقوة) ان وزير الخارجية اعطى اسرائيل الضوء الاخضر للقيام بعملية الاجتياح، وعلى كل حال فهذا ما كان مقبولا بصورة عامة

بالشرق الاوسط وعلى الاخص في الدول العربية المتمسكة بسياستها الحيادية، كان وضع اللوم على الولايات المتحدة وسيلة لتغطية تقاعسها، وستنقضي سنوات عدة، قبل ان تصل هذه الوثائق الى الرأي العام (هذا اذا كانت هنالك وثائق مكتوبة، اذ كثيرا ما تبقى مثل هذه الوثائق شفوية خوفا من تصويرها، وقد يكون من المستحيل ان نعرف الحقيقة، غير انه بطبيعة اعتماد اسرائيل على الولايات المتحدة فمن الجائز القول، ليس سوى واشنطن من كان قادرا على ايقاف بيغن وشارون بعد ان تم التهيوء للاجتياح، وان خبرتنا السابقة تثبت ان تكرار المواقف السلبية السياسية لا تأثير لها على بيغن، والمطلوب هو التدخل الفعال والقوي، اذا كانت ادارة ريغن تريد أن تمنع الحرب اللبنانية، وليس من الغريب ان يكون بشير الجميّل قد اصغى بأدب عندما قال له الدبلوماسيون الامريكان ان واشنطن تعارض اي اجتياح، ولكنه قال ان اسرائيل ستهاجم على كل حال. البراهين المتوفرة تشير الى ان ادارة ريغن لم تعمل شيئاً لايقاف الاجتياح في مراحله الاولى، بعكس ما قام به كارتر من اجراءات قوية عندما قامت اسرائيل بغزو لبنان سنة ١٩٧٨، مرة ثانية رفضت الولايات المتحدة الموافقة مع مجلس الامن على الاقتراحات التي كانت تطلب جلاء اسرائيل الفوري عن لبنان، وبالتأكيد فإن التأييد الامريكي كان واضحا، في بيانها عند التصويت، من ان المراقبين في الشرق الاوسط كانوا مقتنعين بأن هايغ كان يعمل بتعاون وثيق مع اسرائيل.

توفر التبرير الرسمي الاسرائيلي لاجتياح لبنان في حزيران، عندما اطلقت النار على السفير الاسرائيلي شلومو ارغو، في لندن، وجرح جرحا بليغا، وعملا بمبدأ الحرب الوقائية فإن اسرائيل ألقت المسؤولية كعادتها على منظمة التحرير، ولبنان، فأي عنف يحصل، اكان في اسرائيل أم في أي مكان آخر، وخلال خمسة ايام عُرف مغتالوا السفير؛ اكتشفهم البوليس الانكليزي وهم اعضاء في الجماعة التابعة لأبي نضال الفلسطيني. ....
.... وابو نضال كان على علاقة سيئة مع منظمة التحرير، وكان عرفات قد وضع ثمنا لرأسه منذ سنوات سابقة، ولكن عرفات وابو نضال فلسطينيان والاسرائيليون يركزون على ان العالم الخارجي ليس لديه الوقت لدراسة السياسة الفلسطينية، كما أنه لم يكن للامريكان وقت ايام الحرب الباردة للتمييز بين شيوعيي يوغسلافيا وشيوعيي موسكو.

وبعد غارات عنيفة على جنوبي لبنان في ٤ حزيران و٥ منه قام الاسرائيليون بالهجوم في اليوم التالي عند الساعة ١١,٠٠ ق. ظ. وبعد ساعات قليلة اعلنوا ان حرب سلامة الجليل كانت اهدافها الوصول الى بعد خمسة وعشرين ميلا (٣٨ كلم) شمالي الحدود الاسرائيلية، وتكوين منطقة خالية من السلاح وهي مساحة تساوي تقريبا ثلث مساحة لبنان، والغاية من ذلك، حماية الحدود الاسرائيلية من نيران مدافع وقذائف منظمة التحرير. وفي اليوم التالي استولى الاسرائيليون على قلعة الشقيف التي تشرف على الجليل، وعلى الجيب العسكري في صور، الذي لم يتجرأوا على اخذه في سنة ١٩٧٨، وعلى مواقع المنظمة ما بين الليطاني والزهراني ـ وبذلك يكون بيغن قد وفى بوعوده الانتخابية لشعب اسرائيل في الجليل.

ولكن شارون كانت له آراء اخرى، ان المقاومة الفلسطينية التي كانت احيانا مزاجية، كانت غير قادرة على تأخير زحف القوات الاسرائيلية. انهم كانوا ينقلون الرجال والدبابات ويوزعونها حول مواقع الفلسطينيين بالحوامات، وينزلون جيوشهم الى البر من البحر وينقلونهم جوا بينما تقوم الطائرات بتأمين الغطاء الجوي.

وخلال يومين كانت جيوش شارون المسلحة تتقدم بسرعة نحو الشمال على قطاع ضيق الى مشارف بيروت والضاحية الجنوبية، بينما وحدات مسلحة اخرى كانت تتسرب عبر منطقة الشوف التي لم تكن محمية حماية كافية، حيث كانت هنالك جيوش قليلة للفلسطينيين والسوريين على غير رغبة من الدروز المسلمين، الذين هم اصحاب الارض، والقوات الاسرائيلية والطائرات دفعت بالقوات السورية الى الوراء

ان ....

الطائرات الاسرائيلية، وهي امريكية الصنع ومزودة باحدث الاجهزة استطاعت ان تدمر صواريخ ارض جو كانت روسيا قد زودت بها السوريين لحماية طريق بيروت ـ دمشق في وادي البقاع الضيق شرقي بيروت، وتمكنت في الوقت نفسه من اسقاط ثمانين طائرة سورية أو اكثر، وهي تمثل ربع القوة السورية الجوية، قد كان السلاح الجوي الاسرائيلي مزودا بأحدث الاجهزة الالكترونية وكان قادراً على مراقبة كل تحركات الطيران السوري بسهولة، اما وقد دُحرت سوريا، الدولة الوحيدة التي كانت تحارب، فقد وافقت على وقف اطلاق النار في ١١ حزيران (يونيو) وفي ١٣ منه زحف شارون بدباباته الى بعبدا،

مقر الحكومة اللبنانية المركزية، التي تمتد سلطتها مسافة اربعة اميال مربعة (١٠,٦٠٠ كلم[٢]) كان شارون في ظاهر الامر يرغب في الاتصال مع حلفائه المسيحيين. ولكن عمله هذا المدروس ظهر وكأنه اشارة الى بشير الجميّل الى طرد الياس سركيس من قصر الرئاسة. وربما كانت هذه هي النتيجة المفاجئة لهذه الحملة التي لا معارض لها. وفي ليل حزيران ١٣ (يونيو) كانت منظمة التحرير ونصف مليون مدني بين مسلم وفلسطيني قد طُوقوا في غربي بيروت، وبعد ايام بدأ الاسرائيليون رغم تعهدهم بعدم الدخول الى غربي بيروت الحصار على بيروت الغربية التي لم يدخلوها بسبب الضغط الامريكي الذي اشرنا اليه، وهو حصار دام سبعين يوما. وكما اعتاد شارون ان يفعل في مناسبات اخرى، فقد استطاع ان يتسلط على زملائه في الوزارة. اما بيغن فقد قال معقبا على ذلك (انه كان يعرف دائما ما يفعله شارون، اكان قبل التنفيذ أو بعده) وفي المقابل، فقد كان يكفي ان نرى ماذا كان يحرك شارون.

كان المعلقون والنقاد يبحثون. ان مجرد دخول المنطقة الواقعة بين النهرين الليطاني والزهراني يعني الاحتلال الدائم لها. اذ لو كان الجيش الاسرائيلي سينسحب فمنظمة التحرير ستعود ثانية بمدافعها وصواريخها الى الجليل. إن كل هدف ومركز فلسطيني في الشمال له امتداد الى مركز آخر ولذلك فقد كان الحل منذ البداية، هو ان تُدمَّر المعاقل الفلسطينية ومؤسساتهم في بيروت، وفي نظر اسرائيل فإن طرد المنظمة من بيروت يضعف ياسر عرفات سياسياً ودبلوماسياً. وقد كان عرفات يدرك انه لا يملك القوة للمواجهة الفعالة. انه قبل الاجتياح كان يعتمد على تأكيدات الولايات المتحدة الامريكية لكي تمنعه. واذا طردت الان المنظمة من لبنان، او على الاقل جرى تقليصها وجعلها خائفة فإن ذلك سيقضي على نفوذها دبلوماسيا وسياسيا، وشرعيا، وهذا يعطي اسرائيل فرصة افضل، لاحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة الموالي لعرفات رغم اخطائه.

وقد استغلت اسرائيل اخطاءها بحذاقة، لتبرر اهدافها الحربية، فاكدت واصرت انها قبل كل شيء تريد ان تحفظ سلامة السكان في شمالي اسرائيل، ولكن عندما دفع شارون بجيوشه الى ابعد شمالا، باتجاه بيروت تغيرت الاقاويل. اذ اصرت اسرائيل على ان قواتها المسلحة تؤدي خدمة الى العالم المتمدن، بانقاذه من بؤرة الهلع العالمي، التي تقع في غربي بيروت. ففي عشرات من السنين كان الرعب الفلسطيني في ذروته بعد ان تمكن الفدائيون

من خطف الطائرات والقيام باعمال التخريب التي برزت واضحة بخطوط عريضة. الى مثل هذه الاعمال اشارت اسرائيل، مبررة توسعها الحربي، وزيادة فإن اسرائيل قالت انها لا تهاجم لبنان بل تنقذه من الفلسطينيين والسوريين، بعمل كريم، لا غاية لها من ورائه؛ ألم تستقبلهم البنات المسيحيات الحسناوات كجيش محرر، فرشقتهم بالارز وفرشن طريقهم بالزهور!!

لم يعرف الابتهاج الاسرائيلي الذاتي في باديء الامر حدا، ان اسرائيل في اعلامها قالت انها لم تقم باجتياح لبنان بل بتحريره، وما على الولايات المتحدة إلا ان تعتبر نفسها رابحة كما هي اسرائيل، دون ان تخسر رجلا واحدا. والسوريون اعيدوا الى اماكنهم، كما دمر السلاح الروسي. وهذا مما يضع سوريا في فلك امريكا مقتنعة ولو بعد زمن ان المغدور انور السادات عدوها، كان على صواب عندما كان يصرح بأن الورقة الاميركية هي الرابحة. كما يجب ان يحسب حساب خسارة النفوذ السوري مع ملوك وامراء النفط المتغطرسين على الخليج، مع ما هم عليه من قلق امام التهديد الايراني، مع العلم ان الاتحاد السوري الايراني لم يعد الآن بشيء يذكر، وفي اية حال، لم يكن سوى الفلسطينيين من يذكر استخدام النفط كسلاح يجبر الغرب على الركوع. وكل الاعضاء الآخرين من جبهة الصمود والتصدي التي عارضت صلح السادات المنفرد مع اسرائيل، ليبيا، والجزائر، واليمن الجنوبي. كانوا في حالة صمت وبلا اية فعالية، ان معاهدة الصلح مع مصر كانت تُعمَّد بالنار، والمسألة ليست حربا قصيرة الامد على خطوط الشرق الاوسط الكلاسيكية، بل حربا مستمرة دائمة. لقد قامت مظاهرات متزايدة في اسرائيل ضد الحرب وفي المناطق المحتلة، باكثر مما جرى في العالم العربي. ولكن هل لما يسمى بالعالم العربي، ذلك الذي يمتد من المحيط الى الخليج، من وجود؟ ان تلك الحركة العربية الوطنية، التي ظهرت يوما لتبين مدى الامتداد السني الاسلامي قد فقدت صوتها وحتى قوتها. وكان مما قاله لي مسؤول سوري «لقد تاخرنا ثلاثين سنة، ان الروس يعطوننا سلاحا عمره عشر سنوات، والامريكان يعطون اسرائيل سلاحا متقدما عشر سنوات، وهذه تجمع عشرين سنة، ومع كل ما فعلناه من الاهتمام برفع المستوى التعليمي النظري والتقني عندنا فاسرائيل لا زالت تسبقنا بعشر سنوات. وهذا هو الفرق، ثلاثون سنة».

ثم. في ٢٥ حزيران (يونيو) عندما قامت قوات شارون لليوم التالي بقصف شديد من

مدفعيتها وسلاحها البحري، وبالرجم الجوي لغربي بيروت، قدم هايغ استقالته، لقد فعل ذلك بضغط، ليس من لبنان فقط، الذي كان يشكل جزءاً صغيرا من السبب، ولكن لامور تتعلق باتفاقه مع شارون، في واشنطن، كما اوجز الديبلوماسيون الامريكان، « كان ما اوصله الى هذه النهاية ».

وخليفته جورج شولتز، لم يتول اعماله إلا بعد اسبوعين او اقل قليلا، فهناك على التلال في اليرزة، المطلة على بيروت، حيث يقيم السفير الامريكاني، روبرت ديلون، كان فيليب حبيب مبتهجاً بمجيء شولتز، كان يرقص فرحا، لو انه وجد زجاجة شمبانية لكان شربها ابتهاجا (فبيت السفير كان قد تحول الى مركز للسفارة بعد تدمير مركز السفارة في المدينة) فحبيب منذ عودته الى الشرق الاوسط في ٧ حزيران (يونيو) كان امام مهمة لا يحسد عليها. لقد كانت يده مشلولة بسبب تصرفات هايغ المنحطة، كان عليه ان يفاوض على عدة جبهات ـ واذا كانت سورية قد قبلت وقف اطلاق النار في ١١ حزيران فإن ذلك يعود لقوة اسرائيل، غير ان اسرائيل استمرت بخرقها، طبقا لمزاجها، وحبيب تولاه اليأس من مقدرته على التحكم بالاحداث.

ولكنه في الوقت هذا، كان قد اقنع اسرائيل لتوقف اطلاق النار اتفاق له مغزاه وهو الاول، مع الفلسطينيين، وحبيب، بعد أن أُزيل هايغ من الطريق، بات قادراً على الانصراف الى العمل مع السفارة الامريكية التي لم تكن لتقل عنه ابتهاجا، لانقاذ ما يعتبره حيويا لحفظ مصالح الولايات المتحدة الامريكية القومية، هذه المصالح كانت معقدة وقابلة للسقوط اكثر مما كان يعتقد شارون وهايغ، هذان العسكريان الطموحان اللذان اعطيا حقيبة وزارية.

اذ لو ان الولايات المتحدة كانت تقاسم اسرائيل المصلحة في اخراج السوريين، وطرد الفلسطينيين من بيروت، فإن أية مصالح مشتركة بينهما قد انتهت. ان تقليص حجم المنظمة بنظر ريغن كان كافيا، لأنه كان ينظر الى كل فلسطيني نظرته الى مخرب. تماما كما كان يسره كسر شوكة السوريين وحُماتهم الروس على الاخص، كما كان بين المحافظين في البيت الابيض، من يقاسمه هذا الرأي غير ان الولايات المتحدة لم تكن لها سياسة خاصة بالشرق الاوسط، او بكلمة اخرى كان لها سياسة مستحيلة من الوجهة النظرية، في ان تجعل من الدول العربية المعتدلة واسرائيل حلفاء. اذ ان هذه السياسة، في

احسن الحالات تعتمد على روح التسامح التي تعترف بوجود متبادل للطرفين الرئيسيين برعاية امريكية. ومثل هذه الاحتمالات سقطت عندما قامت اسرائيل بما قامت به من كسر شوكة، وارباك، مما جعل الدول العربية المحافظة مجبرة على رفض ما يحتمل ان يكون حماية امريكية. ومهما كان من تسامح السعودية أو الكويت، والمشيخات النفطية الاخرى، فهناك شعور صادر من الاعماق بخصوص مستقبل ووجود دولة فلسطينية، مما يجعلهم غير قادرين على الوقوف جانبا فيما يرون امريكا تنزل عند رأي اسرائيل في تدمير صارخ لعاصمة عربية؛ لقد اصبحت سمعة امريكا والرهان عليها في مركز حرج. اذ لم يسبق ان تمادت اسرائيل الى هذا الحد. بل لم يحدث ان كانت امريكا والدول العربية تحت رحمة اسرائيل كما هم في الوقت الراهن.

كل يوم يمر، كان شارون والجنرالات الذين معه، يثبتون قدرتهم ورغبتهم في افتعال المحن باستعمالهم السلاح الامريكي، بالقتل والتدمير ضد اعدائهم، غير ملتفتين الى ما يوقعونه في صفوف المدنيين من قتل، وفي املاكهم من دمار. ولأول مرة في سلسلة حروبهم ضد العرب كانوا يستعملون قواتهم الجوية التي لا مقاومة ضدها، لرجم عاصمة. ان هنالك ما هو خطأ. ان حرب شارون الصاعقة تحولت الى حرب حصار، وهو ما لا يتوافق مع سياسة اسرائيل الحربية الكلاسيكية، وهي التي تفضل الحرب السريعة القليلة الكلفة. والآن فهي مثل الفرقاء اللبنانيين منذ سنة ١٩٧٥ في حروبهم العنيفة. الاسرائيليون الآن يلجأون الى المدافع الثقيلة. وهي علامة واضحة انهم كانوا يتحاشون الوقوع في خسائر بشرية كبيرة (اذ كانت قد بلغت حوالي ستماية قتيل) في تعرضهم لبيروت الغربية، كانوا ايضاً يريدون القاء الرعب في صفوف عدوهم لحمله على الاستسلام، ولكن ماذا اذا كان عدوهم حسن التموين والسلاح، ولا خيار له الا القتال ويرفض الخضوع. اين هي جيوش اسرائيل تلك التي تغنت بالظفر، وربحت انتصارات باهرة ضد الجيوش العربية النظامية في سيناء الصحراء الرملية الخالية من السكان، أو الجولان المأهولة بعدد قليل، انه من الواضح ان اسرائيل اصبحت جزءاً من الشرق الاوسط الغليظ القلب. لقد قُضي على اسطورتين في هذه الحرب، الاسطورة الاولى: حب اللبنانيين المسلمين للفلسطينيين. والاسطورة الثانية: ان اليهود الذين عاشوا مع العرب قبلا قد اصبحوا اكثر شراسة من يهود اوروبا. » ولكن ما الذي يزعج العالم الخارجي من جراء

هذه الغزوة، في لبنان؟» تساءل الاسرائيليون. ....

....

إن المفهوم بأن اسرائيل اصبحت دولة مغرّبة، ان لم نقل غربية قد سقط، وسقط معه ادعاء اسرائيل بتبوئها المكانة المميزة من المستوى الاخلاقي، فالان وامام انظار العالم يعرض التلفزيون الملون، في كل انحاء المعمورة كيف تتصرف احدى الدول الشرق اوسطية مع غيرها للحفاظ على المستوى المقبول. فاستعمال مخابراتها لتوقيف واعتقال الآلاف من الفلسطينيين واللبنانيين تحت اشعة الشمس المحرقة، والاحاديث عما يجري من اساليب التعذيب والقهر، وكل ذلك لضرب العرب ضربة ساحقة، قرينة ضدها، ولذا فإن ردة فعل الحكومة الاسرائيلية كان امرا متوقعا، اذ ان ردة الفعل السلبية ستكون من عمل اعداء اسرائيل في ان الشعور القائل باختراح مقولة معاداة السامية كان تجنياً، والتحريف الجبان لجهاز الصحافة الغربية في بيروت كان المظهر الواضح لخضوع مطلق لمنظمة التحرير، خوفا على الحياة وترابطها الجماعي. ان حكومة اسرائيل طالها دخان ما احدثه التلفزيون في سنة ١٩٧٨، اثناء غزوها لجنوب لبنان. فإن موشي دايان الوزير السابق كان انذر التلفزيون الذي يقوم بتلك العملية التي تعرض صورا لصفوف طويلة من عائلات فيها الكبار والصغار يغادرون بيوتهم مهرولين لايجاد مكان يلجأون اليه، مما يسيء لسمعة اسرائيل. والان يوما بعد يوم، كان التلفزيون يرسل بواسطة الاقمار الاصطناعية، وينشر افلاما واشرطة تعرض عمل القوات المسلحة؛ المراقبة فقط هي التي سببت بعض العراقيل، لاننا هنا بصدد بلد يعلن عن نفسه، بأنه البلد الديمقراطي الوحيد في المنطقة. وهو معرض الان لينعت بالديكتاتورية. وفي اية حال فالاسرائيليون لم يكن بامكانهم منع الفيلم والاشرطة، أو حتى الصور الفوتوغرافية والرسائل، من الوصول الى الخارج.

كان للتلفزة الضرر الاكبر وكان هنالك ما هو جميل (مع استهجانه)، عن تلك التفجيرات ذات الالوان الحمراء البرتقالية، ودويّها الذي يتبع الصورة الملونة، ثم تصاعد سحب الدخان المتراكمة المتدافعة والغبار الكثيف المتسبب عن القصف المدفعي والصاروخي، خصوصا اذا حصل العرض في وقت متأخر من النهار عندما يبدأ النور المتألق في صيف المشرق يهرب امام الغسق، كان التأثير يبدو مرعبا عندما تختتم هذه المظاهر بعرض لرجال، ونساء، واولاد، فلسطينيين أو لبنانيين، جرحتهم القنابل العنقودية

والمتفجرات الانشطارية، والفسفورية الحرارية. مع صور لما يبذل من جهود للنبش عن الناجين الاحياء تحت انقاض الابنية السكنية المهدمة. ان الفرق البعيد نوعاً وكماً بين السلاح الاسرائيلي والسلاح المستعمل ضدهم خصوصا في بيروت كان يُعيد الى الخيال الصورة المتوارثة لداوود عندما كان يواجه جوليت العربي.

ولم يكن هنالك ما هو اكثر تأثيراً على النفس من رؤية جناح معالجة الحروق في أي مستشفى، بعد قصف اسرائيلي يُعرف عنه أنه لا يخطيء الهدف، خصوصا عندما يوجه على مؤسسات بيروتية تحمل اعلاما كبيرة عليها اشارة الصليب الاحمر العالمية.

والمستوصفات النقالة المركزة في الطوابق السفلى في بيروت والكاراجات، كان منظرها مرعبا فالجراحون كانوا يظهرون وهم يحذرون، لقطع الاطراف التي مزقتها القنابل العنقودية، والمتفجرات الحديثة الى تستعملها اسرائيل وفي مناسبات ثلاث في آب ١، ٤، ١٢، قام رجال شارون بانزال العقوبة على غربي بيروت بقسوة وهمجية، مما اثار الرعب كنتيجة لما كان يريده الاسرائيليون لم تبق النار مركزة على مكان واحد كما في بدء الحصار، كانت ضواحي بيروت الجنوبية ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين الى جنوب كورنيش المزرعة، هي ما اعتبرته اسرائيل حدودا للمدينة، لقد كانوا وعدوا اكثر من مرة ان لا يدخلوا الى غربي بيروت. اما السبب الذي دعا شارون لاطلاق هذه الهجمات المدمرة في شهر آب فبقي غير معروف، ان لم يكن المقصود منه مجرد الانتقام، وكان التفسير الوحيد الواقعي انه كان يرمي بذلك الى تفريغ بيروت الغربية من سكانها اللبنانيين.

كانت الولايات المتحدة مستاءة ورغم ادعاءات شارون بأن العقوبة هذه، كان المقصود منها اجبار المنظمة الفلسطينية على مغادرة بيروت، فكل من الولايات المتحدة والمحاربين الفلسطينيين، كما وسطائهم اللبنانيين، كانوا متفقين في اواخر شهر تموز، ان عرفات كان يريد المغادرة وباسرع ما يكون، بعد مدة من الصمود والتصريح بأن غربي بيروت ستكون ستالينغراد اخرى، أو هانوي جديدة والناطقون اوضحوا انه لا فائدة ترجى من اطالة امد عقوبة العاصمة، وقد اكدوا انهم سيتحملون اسوأ ما عند اسرائيل. لقد قاسوا ما يكفي لانقاذ سمعتهم وحفظ ماء الوجه من انكسار عسكري وانهيار، لقد كانوا يأملون دائما ان منظمة جامعة الدول العربية في بعثتها الى واشنطن، يمكنها ان تؤمن

لهم اعترافا بهم، أو على الاقل قبولا للتحادث معهم وجها الى وجه، هذا ما كانوا يأملون من ادارة ريغن، ولكن المهمة خابت والمحاولات فشلت. ففي تموز كان الاسرائيليون قد شددوا الحصار، اذ ان المياه والكهرباء قطعت تماما، وكذلك اصبح الخبز نادر الوجود، مع ان اللبنانيين الواسعي الحيلة جعلوا همهم، ليقللوا من اهمية الحصار، استعانتهم بمداخل ومخارج المنطقة، والرشاوي، وابناء بيروت الغربية حشروا انفسهم في الطوابق السفلى، وهي عبارة عن سجون منارة بالشموع ضعيفة التهوئة، وقد انقطع اتصالهم بكل ما يجري في الخارج ومثل كل اسرى الحرب كانوا يتلقون الانباء بواسطة الترانزستور ومن محطات مختلفة - اذاعةٍ رسمية، واذاعتين غير رسميتين تابعتين للمليشيات المسيحية واذاعتين تابعتين لليساريين بالأضافة الى ما تذيعه اسرئيل، وفرنسا، وبريطانيا، وصوت امريكا. واثناء هدوء القصف، كان الاولاد الصغار مزودين باواني بلاستيك فارغة يحومون حول ابار ارتوازية ينتظرون ادوارهم للحصول على الماء من ابار كانت مهملة قبل الحصار، لست صيفيات سابقة عندما قام السوريون بالتضييق على بيروت. ومما قاله محمد كسراوي سائق ومدير مكتب مراسلي النيويورك تايمز، «لأكثر من قرن من الزمن « كانت بيروت هي ماية بالماية خطرة» وهذا لا يقبل الجدل: لقد فقد زوجته وبيته عندما فجرت الشقة التي كانت مكتبا للتايمز اثناء بقائهم فيها، لمنع اغتصابها من قبل المهجرين، وبقي امر هذا التفجير خفيا (تلك الشقة كانت الثالثة من شقق عشت فيها).

في الاميال الاربعة (عشرة كلم² ونصف) لم يكن شيء إلا قد تجاوز الحدود، فهنالك السيارات المفجرة باجهزة اتصال بعيد، والتي مزقتها القنابل من البحر أو البر أو الجو، أو الاهمال الطويل وعدم الاستعمال، ولأول مرة منذ ان تعرضت بيروت للهجوم في سنة ١٩٧٥ كان القصف يأتي من جميع الاتجاهات، والمهجرون الذين هربوا من مخيمات اللاجئين، أو الذين اقيمت لهم مخيمات في الضواحي منذ شهور كانوا أيضاً يبحثون عن مساكن خالية في كل مكان، حتى في افخم المباني التي كانت لابناء الطبقات العليا حيث كانوا يتوقعون العيش بأمان، والفقراء المساكين لزموا اماكنهم لأنهم لا يعرفون الى اين يذهبون، وابناء الطبقة الوسطى والاغنياء لازموا بيوتهم خوفاً من ان يحتلها المهجرون (هؤلاء هم الذين كان الاسرائيليون يريدونهم أن يغادروا ويخسروا اخر ما بقي لهم من ممتلكات بعد سبع سنوات من الحرب).

فقط الاغنياء الكبار كانوا قادرين على ايجاد المال اللازم لتأمين حاجياتهم والتمكن من مغادرة لبنان الى مكان آخر، الاردن أو اوروبا، ان مدخرات الطبقة الوسطى كانت قد استهلكت كلها منذ سنوات اذ كان هنالك عدة ازمات عبر السنين من جراء ذلك النوع من الرفاهية واطلاق العنان للملذات. ان اسرائيل قالت لأبناء بيروت الغربية احيانا بالمناشير ثم بالقنابل ان يتركوا بيروت، ولكن على الاقل، نصف سكان بيروت الغربية بقوا في اماكنهم، حتى بدأت موجة العنف الاسرائيلية الاخيرة في شهر آب، ومع كل وقف اطلق نار أو على الاقل اذا استمر وقف اطلاق النار يوما واحدا فعشرات الآلاف من النازحين كانوا يمكثون في سياراتهم في حر الصيف المحرق على المتوسط، اثناء عودتهم الى بيوتهم، ولا عجب اذا استمر الاسرائيليون في رفع حدة القهر لسكان بيروت آملين باخلائها من اهلها وتركها مفتوحة لموجة من التهديم العنيف.

ان طلب الامن كان غاية ما يشغل الناس، اذكر اني كنت ارى عائلات بكاملها تندفع الى الطبقة السفلى من بناية حديثة مقابلة للفندق الذي كنت فيه، كان ذلك عند الساعة الرابعة من قبل الظهر، من يوم احد، في الاول من شهر آب، اذ ظهرت احدى القاذفات الاسرائيلية هادرة فوق الرؤوس لتقوم لمدة اربعة عشر ساعة بقصف متواصل، كان الوقت ساعة انبثاق الفجر، وكان ضوء النهار ضعيفا، عندما دخلوا الى المبنى حيث اختبأوا ولم يخرجوا إلا عند الغسق، شعورا منهم بأن وقف اطلاق النار المعلن سيستمر. وحتى فندق كومودور المركز الرئيسي للصحافة الاجنبية الذي لم يتعرض في الاحداث السابقة للقذائف قصف في الرابع من آب.

كنت نائما في الطابق السادس (بعد ان صرفت الليل لاشتغل على رسالتي عن القصف الاسرائيلي الذي لم ينجح على غربي بيروت) عندما وردتني مخابرة تليفونية من زميل لي يقترح علي باسلوب مُلحّ ومقنع، أن التحق بالصحفيين الاخر في الملجأ. فحملت آلتي الكاتبة وجواز سفري ودفتر العناوين وهرولت هابطا السلم وانا نصف نائم، مع ان القنابل كانت تتساقط حولنا في الجوار، وكانت سحب الغبار تحكي الحكاية. وبأقل من ربع ساعة سقطت قنبلة اسرائيلية على بعد بابين من غرفتي، ولحسن الحظ كانت تلك الغرفة خالية، وبعد يومين كنت بالقرب من البنك المركزي عندما هدرت طائرتين اسرائيليتان على بعد منخفض مناورة لمدة ربع ساعة، ثم على بعد مئة متر سقطت قنبلة على بناية، من سبع

طبقات، كان عرفات قد غادرها منذ دقائق (وبناء على ما قالته مصادر مخابرات غربية فإن عميلا اسرائيليا كان قد تتبع خطوات عرفات الى المبنى وارسل اشارة الكترونية لتعيين الموقع الذي يجب قصفه) قتل اكثر من مئتي لاجيء فلسطيني غالبيتهم من لمسيحيين، اكثرهم كانوا مختبئين في الطابق الاسفل الذي كان يستعمل كواحد من بيوت المنظمة الآمنة، ولعدم وجود رافعات أو معدات حديثة، استمر عمل الانقاذ اسبوعين قبل ان كان ممكنا اخراج الجثث من تحت الانقاض لبناء انهار على نفسه فشكّل كومة من الانقاض ارتفاعها اكثر من متر ونصف، تاركا المباني المحيطة به سليمة تماما، ان عدد المباني في غربي بيروت التي هدمت بمثل هذه القذائف بلغ اربعين بناية.

والاسرائيليون اقتربوا من النجاح في قتل عرفات، في عدد من المحاولات، وهي مما يعتبر اول محاولة لقتل رجل بواسطة الجو، وبالنظر لمخابرات كانوا يتلقونها من جواسيسهم أو من مخبرين محليين، فالاسرائيليون في اربعة مناسبات مختلفة قصفوا بالقنابل أو بالصواريخ اهدافا كان قد تركها عرفات قبل اقل من ساعة، وبأربع حالات كان قائد المنظمة عرضة لقصف المواقع التي دخلها خلال الاربع والعشرين ساعة، وفي بعض الاحيان في شهر آب، كان عرفات يقوم بعمله في سيارة تنتقل به في شوارع بيروت الخالية من السكان وبرفقته مستشاروه الى أي مدى وبأية سرعة تمكن الاسرائيليون من الخروج من تفكيرهم الساذج عن هذا البلد المعقد، وكم كان سخيفا التخطيط الاسرائيلي لحصار بيروت، ثم الاعتقاد بأن اللبنانيين سيكون بامكانهم اخلاء غربي بيروت الذي كان محاصرا وهدفا للقصف، وترك الفلسطينيين وحدهم هدفا وحيداً فالامر المزعج كان، ان العدد الكبير من ابناء بيروت الغربية رفضوا الخروج، والذين خرجوا اصروا على الرجوع عند أول اشارة بعودة الامور الى طبيعتها، غير انه في باديء الامر لم يكن من فائدة للكلام مع المنتصرين، بينما اللبنانيون الذين كانوا اكثر اطلاعا لم يكن لهم ميل للمحادثات، والمسلمون اما انهم فرحوا بأن الاسرائيليين قد قطعوا تلك العقدة التي كانت غير قابلة للحل في لبنان وسببت كل هذه التعقيدات المزعجة، أو انهم كانوا منهمكين بما سببه الاسرائيليون من قتل وتدمير في اكثر من نصف لبنان، وعلى كل حال فإن المسلمين كانوا قد اصبحوا واقعيين، فكل ما كان في لبنان كان يجب أن يكون كذلك، وقد عرفوا أنهم خسروا الحرب (ليس فقط هذه الحرب بل ايضا حرب سنة ١٩٧٥ - ١٩٧٦) لكنهم

كانوا على عناد كاف بحيث لم يعترفوا بذلك وربما بدا لهم أنه من الجائز ان يعيشوا مع المسيحيين الذين ربحوا ليس بقوتهم بل بفضل اسرائيل.

في شهر حزيران اعلنت اسرائيل بصراحة انها في الطريق الى بيروت، ولن تقف في منتصفها. وهذا جعل المسيحيين في مارونستان يبتهجون، والامر بدا سهلا إلا لذوي الاطلاع المحنكين الذين اعتادوا على رؤية العسكر يأتون ويذهبون كما وأنهم يتذكرون ان المسيحيين كانوا قد توسلوا للسوريين ليأتوا في سنة ١٩٧٦ وقد ندموا ولا يزالون.

بينما كانت ربات البيوت من بنات الطبقة المتوسطة بين المسيحيين تتنافس الواحدة مع الاخرى في استضافة الضباط الاسرائيليين من مختلف الرتب على حفلات عشاء، وكان راكبو الدراجات من المسيحيين يحيون الاسرائيليين على الحواجز بكلمة «شالوم» ولكنهم كانوا كثيرا ما يسمعون ردودا خشنة من الجنود الاسرائيليين الذين يتكلمون العربية. مما جعل المسيحيين يعلقون على ذلك بقولهم كم هم اذكياء هؤلاء الاسرائيليون ليستطيعوا التكلم بالعربية. ولكنهم سرعان ما تأكدوا ان هؤلاء الجنود الاسرائيليين لم يكونوا من اصحاب العيون الزرق المثاليين، من انكليز أو فرنسيين، الرواد سكان الكابوتس، بل كانوا على الغالب من ذوي الشعر المجعد والبشرة السمراء الذين يشبهون العرب لسبب جوهري هو كون ابائهم أو كونهم هم قد جاءوا من بلدان عربية، وكان سبق ان قامت القوات اللبنانية، من منع البنات المسيحيات من مغازلة هؤلاء الغزاة وكثيرون من المسيحيين بدأوا يشعرون ان الغزاة كانوا ينظرون اليهم كنوع آخر من العرب، هذا كان امر مؤلم للمسيحيين في مارونستان خصوصا للقوات اللبنانية. وبالمقابل بدأوا يسمون حلفاءهم يهودا بدلا من اسرائيليين (بعكس الفلسطينيين الذين كانوا يتحاشون التحدث بعبارات ترمز الى تحقير السامية) والمسيحيون أيضاً كانوا يستخفون بالجنود الاسرائيليين كجنود، لأنهم كانوا في مظهرهم قذرين بالمقابلة مع افراد المليشيات الانيقين الحليقين، ويعتبرونهم جبناء لا يتحملون المخاطرة، بعكس اللبنانيين والفلسطينيين الذين كانت عندهم النزعة الطبيعية لمواجهة اخطار حرب الشوارع، وكأنهم يتحلون بجراءة ولباقة مصارعي الثيران في التعاطي مع العنف، والاسرائيليون لم تكن لهم هذه المميزات لأنهم كانوا يفضلون التكنولوجيا الحديثة، والسلاح الحديث المكفول، مثل طائرات ف ـ ١٦ أو قنابل الفوسفور أو الدبابات أو القنابل الانشطارية أو العنقودية التي يفضلونها على ما يستعمله

اللبنانيون من سلاح تجاوزه الوقت، ومن جهة اخرى فأن الغزاة الاسرائيليين ادهشهم الثراء اللبناني والغني. فشعار اسبارطة الجديدة الذي كان يتبجح به شارون واصفاً جنوده بأنهم اقوى جيش في العالم، هذا الشعار كان رهنا على البذخ العسكري بالتجهيز مقابل الحرمان على الصعيد الاستهلاكي وكانت اسعار العملة المتدنية مثار هزء اذ بدت اصغر قرية لبنانية تحتوي على مخازن مملوءة بالويسكي، والاطعمة المستوردة، وباجهزة التلفزيون الملون وماكينات الفيديو، فعدد كبير من اللبنانيين اجبروا على البحث عن عمل في الخارج تاركين عيالهم في البيوت مما جعل الليرة اللبنانية عجيبة في العالم الحديث بفضل التحاويل المالية التي ترد من الخارج شهريا وتقدر بمئة وخمسين مليون دولار.

واللبنانيون الذين كان اقتصادهم قد انهار بعد سنين من القتال هاجروا الى الخارج بأعداد متزايدة، ان احصاءات الامم المتحدة دلت ان معدل الهجرة السنوية قبل الحرب كان عشرة آلاف ولكنه بعد سنة ١٩٧٥ اصبح خمسة اضعاف وبنوك لبنان كانت عالمية، وتجارته قد توسعت الى دول الخليج،واوروبا، واللبنانيون كانوا يساهمون في احواض بناء السفن الفرنسية، ومعامل النحاس الامريكية، أو الفنادق الاسبانية، وشركات التأمين، وشركات الاعلان، وجماعات المقاولين العالميين، فلبنان كان يقدم اليد الماهرة والخبرة في كل مكان. اذ كان الرجال يهربون من بلد شهد منذ ١٩٧٦ الدمار والتخريب لأكثر من ستين الف وحدة سكنية، القسم الاكبر منها هدم خلال سنة ١٩٨٢. والليرة اللبنانية بدأت تتدنى منذ آب ١٩٨٢ اذ اصبح سعر الدولار ٥,٣٥ ل.ل ولكنها في الخريف تحسنت فاصبح الدولار يساوي ٣,٨٠ الفضل في ذلك للتغطية الذهبية، والتحويل من الخارج والمساعدات العربية ما يقدمه الصندوق العربي كمساعدات حرب الى المليشيات اليسارية والمنظمة الفلسطينية، اما الان فمع الاجتياح الاسرائيلي كان للبنانيين نكته تعود قصتها الى حرب فيتنام السابقة «علينا اذ اردنا انقاذ قرية ان ندمرها» وبعد اسابيع من الاجتياح بدا الاسرائيليون يتلبنون، فعدد من الجنود الاسرائيليون اوقفوا عند الجمارك الاسرائيلية، من قبل موظفي الجمرك، بينما كانوا يحاولون تهريب بضائع لبنانية مثل الحشيشة والسجائر الامريكية، ليأخذوها عبر الحدود الى بيوتهم. والمسيحيون اللبنانيون تكونت عندهم افكار ثانية على الطبيعة عما هو جار. فالحرب تحولت الى الاضرار بالتجارة، والاسرائيليون اغرقوا لبنان «بالشاكل» القليل القيمة،

والمنتوجات الرخيصة مثل بضائع مصنوعة في اسرائيل، وثمار وخضر كانت تباع باسعار رخيصة، نبذها اللبنانيون باعتبارها بضاعة كاسدة، وفي شهري تموز وآب بلغ ما قامت به اسرائيل بالمتاجرة مع لبنان، اكثر مما استطاعت ان تعمله في مدة سنة مع مصر، رغم معاهدة السلام (في شهر كانون الاول كانت البضاعة تأتي الى لبنان من اسرائيل بالاتجاه الواحد فبلغت قيمة المعاملات عشرين مليون دولار)، ومما اغضب اصدقاء اسرائيل في القوات اللبنانية انها جعلت من ميناء حيفا ميناء حرا ينافس الموانيء الخاصة للمليشيات، وبذلك يضعف دخلهم، وتساهلوا ايضاً بشأن الموانيء الحرة في الجنوب، وذلك ليساعدوا في تخفيض الكلفة المعيشية للمليشيات الصغيرة التي كانوا قد سلحوها ووجهوها كوسيلة من وسائلهم «فرق تسد» ومما قاله تاجر لبناني «الاسرائيليون اذكى منا بمئة مرة، انهم جعلوا النخبة فينا تظهر وكأنها جماعات سخيفة ومدعية وهم أي الاسرائيليون ينجزون اعمالهم عوضا عن الكلام من وراء قبعاتهم» والواقع ان هذه الفئة ذات النهج الذاتي، التي لا ترى إلا نفسها، والمدعية انها تعود بأصلها الى الفينيقين اكبر تجار للتحف، كان يمكنها أن تأخذ اكثر مما ساومت عليه، كما ظهرت بوضوح مناشير اسقطتها الطائرات الاسرائيلية فوق المناطق المسيحية في لبنان في اول ايام الغزو، يقول بعد التحيات المعتادة باللغتين العبرية والعربية في العبارة الختامية، «عيد ميلاد سعيد، وبالعبرية».

بينما كان المسيحيون قد اعتقدوا ان الاسرائيليين سينسحبون قبل ان يأتي عيد الميلاد بوقت طويل، فاعتقادهم في الاساس كان ان الاسرائيلين سينطلقون بسرعة لتدمير منظمة التحرير قبل ان تتوقف الحرب بتدخل قوات خارجية، ان التوقف في نصف الطريق كان من عادة اسرائيل، اما الان وقد دخلوا الى لبنان فلماذا لا يستمرون الى ان ينتهوا من المهمة. ومما سأله ظابط بالقوات اللبنانية متثائبا، في الاسبوع الثاني من الحرب، وبعد ان كان يبدو ان الاسرائيليين قد تلاشوا: «انكون قادمين على تدميراخر» ان الاقتصاص من بيروت الغربية أو بالاحرى تدميرها كان يُعتبر مجديا، لو ان القوات اللبنانية تستطيع ان تعلن بلوغ مناها، وتحقق رؤياها لمستقبل لبنان، ان الخطوة الاولى كانت القضاء على المنظمة الفلسطينية، وهنالك في دهاليز المجلس الحربي للقوات اللبنانية خريطة للجيش اللبناني عن لبنان، مسمرة على الحائط وعليها كلمة فلسطين بالحبر الاسود النافر، مشت

الايام فاصبحت اسابيع وبدأ المسيحيون يقلقون، فليس هنالك من امور تجرى، وبكلمة اخرى ان الاسرائيلين لم ينتهوا بعد من بيروت الغربية، مع انهم لم يتفادوا القصف والتفجير في شهر حزيران. قبل سقوط هابغ، اعلنت الاذاعة المسيحية غير الرسمية التي كانت الصدى للدعاية الاسرائيلية ان الحرب من اجل بيروت قد بدأت، وهي كانت كذلك، ومع هذا فلم يحصل شيء على الارض. كانت مغادرة هابغ المفاجئة في ٢٥ حزيران ضربة قوية على المسيحيين، لتخوفهم ان الاسرائيليين بعد هايغ سيجبرون على التوقف. ولكن الاسرائيليين لم يكن لديهم خطة طويلة الامد، أو برنامج مفصل للاستيلاء على بيروت الغربية، ولبعض الاعتبارات فإن شارون لم يجسر على اعطاء الاوامر لمثل هذه الخطة، خوفا من ان تتعرض للنقض، وليس لادعائه بأن الاقتحام كان منطقيا بذاته، اد استطاع ان ينجز عملية الحصار بغض النظر عما يمكن ان يكون قد قاله للمسيحيين أو للغرباء الاخر، والضباط الاسرائيليون الذين رسموا الخطط لغزو بيروت الغربية قالوا انه كان عليهم انهاء الحرب في الاسبوع الثالث. ولكن اما تغافلا او مداورة فالاسرائيليون اما انهم لم يعرفوا، أو لم يبالوا، فقد حوروا في تركيبة لبنان الاجتماعية (فحتى تشرين الثاني ١٩٨٢ لم يكن وزير الحربية والخارجية قد شكلا لجنة مشتركة من الاختصاصين لاظهار الفروقات العرقية) عدد كبير من اللبنانيين بدا مرتبكا بأن تكون اسرائيل غير مهتمة بوضع رجلٍ من الموالين لها في قصر الرئاسة أو تكون مكتفية باقتطاف جزء من لبنان لها، وآخر لسوريا ما دام ان المنظمة الفلسطينية قد اقتُلعت، كان الاسرائيليون في مستوى من القوة يمكنهم من ارتكاب الاخطاء ومن التراجع عنها او تصحيحها قبل ان يستغلها اخصامهم أو حلفاؤهم، لقد كان لهم عدد من الاصدقاء في لبنان والاسرائيليون من بيغن الى من هم دونه، كانوا يدعون ولو بصورة خفية بأن لهم كثيرا من الايجابيات، وليس فقط الموساد، ومع هذا فقد كان لكل من الموساد ذوي الاختصاص، مئات من الجنود الاسرائيلين الذين لا يستطيعون التمييز بين الشيعي، والسني، أو الارمني، والمواطن الاصيل. ..

ومع ذلك فالاسرائيليون في اجهزة الدعاية عندهم ظهر انهم كانوا يكتبون تقارير تفيد ان القوات اللبنانية ساعدت الغزاة باحتلال المركز الرئيسي في مرفأ، مدينة صيدا، وقد عملوا الكثير متعاونين، قبل ان اصبحت هذه الحكاية محتملة التصديق (فقبل

شهر من الاجتياح كان المسيحيون قد قاموا بالتحقيق مع طيار سوري سقطت طائرته فوق مارونستان بعد معركة جوية مع اسرائيل وعملا بالتعاون مع اسرائيل تابعوا التحقيق التفصيلي معه لتعبئة استمارة من الاسئلة المقدمة لهم من قبل الاسرائيلين، وعليه قامت الحوامات الاسرائيليه بعدها بتجميع القطع المتناثرة من طائرة الميغ ٢٣ المحطمة). كان المسيحيون عند خوفهم فالامريكان بدأوا في شهر تموز يكبحون جماح الاسرائيليين.
وكانت قد بدأت ادارة ريغن، حتى قبل استقالة هايغ بشد الزمام، ولو ان ذلك كان المقصود به فقط انقاذ سمعتها لدى الدول العربية المحافظة وبذلك تحول الحرب لمصلحتها، والولايات المتحدة في باديء الامر شاركت بالحرب سياسيا، ولكنها الان اصبحت تعارض توسيع الصدام ليشمل بقية لبنان، ان لم يكن سوريا، كان هذا للوردات الحرب المسيحيين ولاصدقائهم ما معناه، ان المهمة انجز نصفها فقط. وكانت واشنطن تقول انه ليس على اسرائيل ان تهدد الحكم في داخل سوريا نفسها، بعد ان حطمت بشكل واضح الدفاع السوري في لبنان، وهكذا فالجيش الاسرائيلي توقف في وادي البقاع على بعد بضعة اميال الى الجنوب من طريق بيروت دمشق، وعلى امتداد خمسة عشرة ميلا في الجبال شرقي بيروت. ان آمال المسيحيين كانت توهمهم ان الاسرائيلين سيُخرجون السوريين من كل البقاع، ويحققون فعلا المراحل الاخيرة لما وَعَد به بشير الجميّل جماعته منذ امد طويل من تحرير ١٠٤٥٢ كلم٢، أي كامل التراب اللبناني، والفعاليات المسيحية توسلت وتوسلت تكرارا أو بعبارة الاكليروس المناصر كانت تصلي وتصلي من اجل ذلك. ولكن اسرائيل رفضت ما اعتبره هؤلاء المسيحيون وعودا سابقة مؤكدة المساعدة باخراج السوريين من وادي المتن الواقع شرقي بيروت الذي يقطنه مسيحيون ودروز مناصفة، واذا لم يتم الزحف الاسرائيلي الموازي في البقاع فإن احلام المسيحين بالانتصار على الشمال المسيحي .... تتلاشى وتتحطم.

اما الاسرائيليون انفسهم فكانوا غاضبين على القوات اللبنانية لأنهم لم يشتركوا معهم اشتراكا عمليا في الحرب خصوصا في الوقت الذي حوصر فيه الفدائيون الفلسطينيون في بيروت الغربية والقوات اللبنانية كانت تصر على الانكار بأنها اعطت وعودا، أو كانت تنوي ان تفعل شيئاً من ذلك، وفي ١٥ حزيران كانت الوزارة الاسرائيلية قد قررت ان تتولى القوات اللبنانية أو المليشيات المسيحية امر الفلسطينيين على الارض في بيروت الغربية

الى هذا الحد كان السلطان الاسرائيلي على المليشيات، وعليه ففي اليوم التالي قام منهم كومندوس مدرب تدريبا خاصا فانتزع من الفلسطينيين بناية جامعة العلوم اللبنانية المؤلفة من ست طبقات، وتشرف على المطار، وقسماً كبيراً من الضاحية الى الجنوب منها، كان ناطق بلسان الجيش الاسرائيلي يقوم بالمراقبة اثناء العملية على بيروت الغربية وقد اصدرت القوات اللبنانية بيانا توضح فيه ان العملية كانت انتقام لتعديات فلسطينية، وانها على كل حال عملية تظهر ان المليشيات كانوا يشاركون في الحرب بصورة عامة (وفي الواقع هذا العمل، هو العمل الرئيسي الوحيد للمليشيات في المقاطعة المجاورة لبيروت في حياة بشير الجميّل) كانت مهمة القوات اللبنانية ان تقدم للاسرائيليين المعلومات بكافة انواعها (ارقام تلفونات، خريطة بالمجارير، مفاتيح التجهيزات، المعسكرات). ومن المؤكد ان الاسرائيليين تصرفوا بمارونستان وكأنها ملك لهم، كانوا يأتون بالمعدات والتجهيزات بطريق جونية، ويركزون الدبابات والمدافع في بيروت الشرقية والتلال الكثيفة السكان التي تشرف على بيروت) وبهذا كانوا يقلدون الفلسطينيين الذين كانت الدعاية الاسرائيلية تشير الى انهم ينشرون الرعب بوضعهم اسلحتهم الثقيلة بين مباني المدنيين، وقد صب شارون جام غضبه على حلفائه عندما كان يتناول غداءه في فندق الكسندر في بيروت الشرقية في شهر تموز، مقرعا بازدراء اولئك الذين كانوا غير راغبين في الدفاع عن «حريتهم»، وفي الواقع فأن الاسرائيليين كانوا يريدون ان يحارب المسيحيون في غرب بيروت عنهم فبذلك لا يتعرضون للموت.

غير ان بشير الجميّل لم يكن ميالا للمساومة على مستقبله الانتخابي الذي اصبح قويا بنتيجة الاجتياح الاسرائيلي، وفَقدْ السوريين لنفوذهم. ومما قاله ضابط عالي الرتبة في القوات اللبنانية، «في كل مرحلة كان الاسرائيليون يأملون ان نتدخل، ولكن كنا نريد ان ينجح بشير في الانتخابات، لقد كان بامكاننا ان نقوم بانقلاب دون وجود شارون وظهوره المسرحي في بعبدا»، وفي نهاية حزيران، كان بشير في مجالسه الخاصة يوجه السباب لاسرائيل لمحاولتها جره الى الحرب وايقاعه بشرك سياستها الشديدة اللهجة الموجهة للرأي العام، فأن استمراره بقصف بيروت الغربية عرض للشبهة هيئة الانقاذ الوطني التي كان يأمل بشير أن تتحول الى حكومة وحدة وطنية في ظل حكمه، وفي ما بعد في تأمين مطامحه الرئاسية، وبدءاً برئيس الوزراء شفيق الوزان، نزولا الى من دونه

رفض المسلمون حضور اجتماعات هذه الهيئة في القصر الرئاسي، منذ ان بدأت المدفعية الاسرائيلية القصف على بعد امتار فقط، ومن جهة اخرى فأن الزعيم الدرزي اليساري وليد جنبلاط اقترح منتقدا ان هذه الهيئة يمكنها اختصار مهمتها، بدعوة شارون.

كان يقول ذلك وبطاريات المدافع تقصف قذائفها من مكان قريب، وقد ابتسم سركيس لدى سماعه ذلك ابتسامة صفراء، وما دام ان اسرائيل كانت مصممة على تحقيق ما ترتأيه بطريقتها فالقوات اللبنانية لم يروا ان هنالك حاجة لأنزال خسائر في غربي بيروت.

ولو أنا ربطنا هذه الامور بعضها ببعض، لتبين لنا ان هذا هو واقع الحال.

فالجميّل وشارون كلاهما كانا ينتظران ان يحل التعب بالفلسطينيين ويهربون بمجرد ان تقترب القوة المدمرة من بيروت، ولكن عوضا عن ذلك فإن الفلسطينيين صمدوا وحاربوا، وهذا ما كان يتوقعه كل من عرفوا المنظمة وعرفات. ان الاسرائيليين والمسيحيين كانوا بكل تأكيد يريدون الدخول الى بيروت لو حصل ذلك؛ بيد ان كلا منهم كان يأمل ان يدفع الآخر الثمن. والقوات اللبنانية كانوا يعتقدون ان الاسرائيليين منوط بهم القيام بالعمليات التي يريدها المسيحيون. والاسرائيليون اعتقدوا ان بشيرا كان يريد ان يحارب وان يقبل معاهدة سلام رسمية معهم عندما تنتهي الحرب، لكن الضباط المسيحيين كانوا متيقنين انه عندما يبدأ الزحف لا يبقى مجال للحوار السياسي، وهكذا انتهى شارون للاكتفاء بحصار غربي بيروت باربعماية دبابة واكثر من مئة مدفع ثقيل مع سلاح البحر والطيران الاسرائيلي الذي لا يلاقي مقاومة، ومع هذا بقيت هنالك تساؤلات؟ لو كان شارون حقيقة يريد هروب عرفات ورجاله، وهذا يؤدي الى انتصار اسرائيل، فلماذا يحاصر الفلسطينيين في بيروت دون ان يترك لهم مخرجا يهربون منه. ان شارون اجبر بذلك عرفات على الصمود، فلماذا اختار شارون قيادة دباباته بعملية مشتركة مع حلفائه المسيحيين الى بعبدا (ان لم نقل الى كل الاماكن) المقر الوحيد لما بقي من السيادة اللبنانية الضئيلة، لقد كان من الصعب على المسيحيين والمسلمين ان يتمكنوا من النفاذ من النهاية التي كان شارون يهيء بها بشيرا ليقوم بانقلاب تصحيحي يجعل منه منقذا في نظر المسيحيين والمسلمين العرب.

ان المعاناة البطيئة بغربي بيروت كانت تساعد على تحسين فرص نجاح رئاسة بشير، ان

المسلمين اللبنانيين كانوا قد ابتعدوا عن الفلسطينيين بسبب غلاظة الفدائيين، وعدم احترامهم لهم، وما سببوه بسوء تصرفاتهم، وقد كان الفلسطينيون يقولون « البلاد ليست لنا وليس علينا ان ندفع فواتير الكهرباء والماء والتلفون »، وكل ما كان يعرضه بشير على المسلمين كان مبنيا في الاساس على اخطاء الفلسطينيين والسوريين، غير انّ تصاعد القصف والتدمير الاسرائيلي وتصميمها على الاستمرار في ذلك كان قد محا هذه الخلافات حلال محاصرة بيروت، وبشير لم يجرؤ على المجاهرة بسوء تصرفات اسرائيل، وهذا التلكوء ظهر اثناء حصار المدينة الجزئي، ومساعدوه ايضاً كانوا يجاهرون بلا مبالاة ان الاسرائيليين عقدّوا وأربكوا مخططاته الرئاسية، بعدم دخولهم الى غربي بيروت في اواسط حزيران وانهائهم المهمة بسرعة ودون مشقة، وفي نهاية حزيران كان عرفات يدّعي انه بالفين قاعدة صواريخ كان يأمل ان يدمر مئتي دبابة اسرائيلية، مع اطقمتها، والفدائيــون الفلسطينيــون وحلفاؤهم اللبنانيون هالهم أنهم قد بدأوا بوضع الالغام في الاماكن القريبة، وغلق الطرقات بسواتر ترابية، ومع انجاز المهمة في بعض احياء بيروت، اخذ بشير قراره الحاسم بأرسال مليشياته الى المناطق اللبنانية التي كانوا قد طردوا منها خلال الحرب الاهلية. أو في بعض الحالات الى اماكن لم يسبق ان كان لحزب الكتائب فيها مكاتب. والقوات اللبنانية تبعوا خطوات الجيش الاسرائيلي خطوة خطوة الى اماكن احتلالهم، وفتحوا بهذا الاستغنام الجروح القديمة، وتسببوا كما كان متوقعا في حصول تصفيات دموية اينما ذهبوا، ففي الدامور، وفي صيدا، هاجموا، وفي بعض الاحيان قتلوا، المدنيين الفلسطينيين، على امل ان يجبروهم على مغادرة البلاد، وفي المناطق الاخرى تصادموا مع مليشيات الرائد حداد المنافسة، التي كان الاسرائيليون قد سلموها منطقة كبيرة في جنوب لبنان تصل شمالا الى الغرب من صيدا على نهر الاولي، وفي المناطق الاخرى مثل المتن وعاليه أو الشوف، اشتبكوا مع الدروز المسلمين الذين بفضل الحماية السورية كانت لهم السلطـة الفعـالـة في هـذه المنـاطـق المختلطـة مـن مسيحيين ودروز منـد ١٩٧٦؛ والاسرائيليون شجعوا حداداً في بعض المناطق وشجعوا رجال بشير في المناطق الاخرى، واعطوا السلاح الى اعدائهم من اليسار المتطرف في بعض المناسبات، وبتصميم منهم او تجاهلا، كانوا يقلبون التوازن المتأرجح بين الاقليات مشعلين نار الحقد، والرغبة في الانتقام، وهكذا بقصـد أو بغير قصـد، كـانـوا ينغمسـون في الاسلـوب الاستعماري

الكلاسيكي « فرق تسد » المعروف لدى اللبنانين، اما بتحريك الاضطرابات أو بالتسامح بحصولها، ان القوات الخارجية تستطيع ان تُشغل مؤيديها بارسال الجيوش لتفرقة المتحاربين، ففي تشرين ١٩٨٢ كانت تتصل بالمخاتير في الشوف ورؤساء البلديات في القرى المارونية والدرزية وهؤلاء كانوا يستجيبون لسياستها التقسيمية عندما يمنحهم الضباط الاسرائيليون السلاح، وينذرون كل فريق بالخطر ليأخذ الحذر من سوء نوايا الفريق الآخر، ومجرد مكالمة تلفونية كانت تنفذ الى الاعماق في تحقيق الخداع، وان لم تكن كافية فهنالك قائمة بالحوادث والخسائر متى عُرضت عليهم تكفي للاثارة. وفي سنة ١٩٨٢ كان قد سقط المئات من الدروز والمسيحيين اللبنانين قتلى واعترفت القوات اللبنانية باخطائها في القدوم الى تلك المناطق، ولكنها لم تعمل سوى القليل لاصلاح هذه الاساليب، ان عرض العضلات فشل، فقد قتل من الميليشيات بضع مئات وهي اكبر خسائر منوا بها في سنوات. وبدلا من ان يكونوا درعا واقيا للمسيحيين المهجرين واعادتهم إلى بيوتهم السابقة، فإنهم بوجودهم في هذه المناطق، تسببوا باثارة الكثير من العنف، مما حدا بالمسيحيين الذين كانوا لم يغادروا بيوتهم منذ سنة ١٩٧٥، إلى مغادرة الشوف.

والحقيقة المرة هي ان بشيراً لم تكن له السلطة الكافية على مليشياته، وبالاخص اولئك الذين كانوا في مناطق بعيدة عن معسكراته في شرقي بيروت، هؤلاء كانوا من الذين كانت عائلاتهم قد أُجبرت على الهرب من بيوتهم خلال الحرب الاهلية والالتجاء الى ملاجيء في مارونستان قلب المنطقة المارونية، وهؤلاء هم الذين ارسلوا الآن جنوبا الى حيث بيوتهم، وهي مناطق كان يحتلها الاسرائيليون، عادوا يحملون التعطش للانتقام من البداية. وكان الاسرائيليون في هذا الوقت يعملون على طرد الجنود الدروز من معسكرات الجيش اللبناني في الشوف، وتسليم الثكنات الى القوات اللبنانية. ان هذه الاجراءات كانت بالنسبة للاسرائيليين « لعب اولاد » فالمعروف ان المليشيات الدرزية كانت اكثر انضباطا ومطاوعة لقياداتهم مما كان عليه المسيحيون لبشير، ومما قاله واحد من ضباط المليشيات في حزيران « اذا نحن ارسلنا رجالنا اتهمونا اننا نسبب الاضطرابات واذا لم نرسلهم فإن المسيحيين في الجنوب الذين اجبروا على ترك بيوتهم في ١٩٧٥ - ١٩٧٦ يشتكون بأننا لا نعمل على حفظ حقوقهم باعادتهم الى بيوتهم »، ومنذ ان بدأ

القتال في سنة ١٩٧٥ فأن الشباب الذين يتقلدون السلاح كانوا يقاومون سلطة كبارهم، وبشير كان يعرف ذلك تماما لأن وصوله الى السلطة انما تم بهذا الاسلوب. كان كل هذا الامر عودا محزنا ليس فقط لاحداث سنة ٧٥ ـ ١٩٧٦ بل إلى ذكرى الحوادث بين الدروز والموارنة ما بين سنة ١٨٤٠ ـ وسنة ١٨٦٠ التي تعود في اسبابها الى تدخل القوات الغربية.

وتظاهرا بمساعدة الميليشيات المسيحية ضد الدروز المسلمين في الشوف، فأن الحكومة الاسرائيلية خلقت لنفسها صعوبات مع الاقلية الدرزية الاسرائيلية العاملة معها. ان الخمسين الف درزي في اسرائيل كانوا قد انتخبوا عضوا لهم في الكنيست، وثلاثة عشر الفا زيادة منهم يقطنون الجولان التي كانت قد ضمتها اسرائيل في سنة سابقة، وكان الدروز الاسرائيليون يخدمون في الجيش وعلى الاخص في قوات الحدود، وقد ساعدوا اسرائيل في الاحتفاظ بالضفة الغربية، وقطاع غزة، كانت الحكومة الاسرائيلية قبل القيام بالاجتياح لوّحت، بامكانية ايجاد منطقة درزية ذات حكم ذاتي، وذلك مع قادة الدروز، على ان تكون مؤلفة من ثلاثة الاف رجل، تزودهم اسرائيل بالسلاح، مشيرة الى ان يكون المقر بجوار حاصبيا، حيث كان قد عيّن ضابط درزي كحاكم عسكري، واوعز لأبناء القرى بتشكيل وحدات للدفاع عن النفس، تزودها اسرائيل بالسلاح، ومع ذلك لم يكن هنالك من يقبل بانشاء دويلة درزية، ومن المزعجات لاسرائيل ان الجنود الدروز الاسرائيلين، كانوا من وقت الى آخر، يقفون الى جانب ابناء دينهم رغم القوانين التي تمنع مثل هذه المساندات.

وبالاختصار فأن الاحتكاك بين مليشيات الدروز، والقوات اللبنانية، اضعفت من سلطة الحكومة الاسرائيلية في لبنان، مع انها كانت القوة الوحيدة المنظمة الجديرة بحفظ القانون والنظام، ولكن الاضطرابات في الشوف دلت على وجود مشاكل ابعد مدى، وبخلاف ما جرى للسوريين الذين لم يقاسوا من فقد الالوف من جنودهم في لبنان عبر السنين، فالاسرائيليون تبين لهم ان احتلال لبنان سبب لهم خسائر، وهذا عند الاسرائيليين كان مما لا يقبله الرأي العام؛ وحتى ولو لم يتورط الاسرائيليون في حوادث الشوف، فقد كان يسر اللبنانيين، من كل الاتجاهات ان يلقوا عليهم اللوم.

....

وقد ظهرت براعة إسرائيل في سرقة البيوت، ان لم يكن قد تجاوزوا ذلك، اذ فضلا عن خمسماية وعشرين طن من السلاح والمعدات التي نقلوها من غربي بيروت، فجنودهم سرقوا سيارات خصوصية، وتلفونات، واجهزة تلكس، وفيديو، وحتى المقاعد الخشبية من المدارس، وفي كل لبنان تركوا ما كان يذكر الناس بهم، اقذارهم في الجوارير، وعلى الاسرة، وفي دواليب الملابس، وفي الكنائس، والجوامع، وعلى البلاط اللامع في المستشفيات، كان العرب من الاسرائيليين، قد انذروا الحكومة من اخطار التركيبة الاجتماعية الهشة في لبنان، والنزعة لسفك الدماء، وارتكاب الاخطاء، ولكن شارون لم يعر ذلك اهتماما كافيا، كالحال مع الحكومة الامريكية فيما كان قد نبّه اليه الاختصاصيون منهم بالشؤون الايرانية، اثناء الثورة أو بعدها.

وتراكمت مع الوقت لدى المجتمع اللبناني اخطاءهم حتى ان المسيحيين، والكثيرين من المسلمين لم يسكبوا الدموع اسفا على بلوغهم هذا المصير، فالمسيحيون كانوا يتألمون لان اسرائيل خرّبت الكثير من جنوب لبنان، وقامت بدور سياسي مبهم فيه، ولكنهم كانوا يعتقدون ان ذلك كان ثمنا قليلا، بل كانوا يأملون ان يكون مفروضا عليهم ان يدفعوه بدلا لهذا الاجتياح، لقد كانوا أي المسيحيين دونما استثناء غير آبهين لحصار بيروت، فالبنات المسيحيات بثيات البحر (البيكيني) كن يتزحلقن على المياه في خليج جونيه الذي كان يبعد اقل من اثني عشر ميلا شمال العاصمة المحاصرة المدمرة، وكانت الاذاعة اللبنانية، تبث على الموجة الطويلة تنبيهات عن خطر ازدحام السير، لأولئك المتوجهين الى شاطىء البحر للنزهة فكثيرون من ابناء بيروت الشرقية كانوا يفعلون ذلك، ليس لأنهم لا يشعرون بالخطر، ولكن لأنهم كانوا يرتعبون من سماع انفجارات القنابل الاسرائيلية التي كانت مسموعة في مناطقهم اكثر مما هي في العديد من اقسام بيروت الغربية، (اليوم دورك وغداً دوري، هو مقطع من اغنية فرنسية قديمه والمقطع هو الرسالة التي توحي بما قد يأتي به الغد من سوء طالع، وهذا ما كان قد اصبح شعوراً لبنانيا صرفا. كان المسيحيون يقولون أن بيروت الغربية كانت تنصرف الى شؤونها غير آبهة

بالمنطقة المسيحية عندما كانت هذه تتعرض لقصف السوريين في سنتي ١٩٧٨ - ١٩٨١، وفي المقابل فلا شيء يدعو المسيحيين للاهتمام بغربي بيروت، والوحيدة كانت جويس الجميّل، زوجة امين الجميّل بين النخبة المسيحية السياسية التي جاهرت بالقول، شاجبة التدمير الاسرائيلي، بينما قام زوجها (رغم انتقادات اوساط الكتائب والقوات اللبنانية) بزيارة الغربية بقصد مقابلة قادة منظمة التحرير، وللكثرة من ابناء بيروت الغربية، كان من اصعب ما يمكن تحمله، الشعور ان اصدقاءهم في الشطر الآخر من المدينة توقفوا عن الاتصال التلفوني بهم، ان هذا كان يشعرهم وكأنهم قد حُذفوا من خريطة العالم، لقد قمت باكثر من ست مناسبات في أواخر تموز واوائل آب بالذهاب الى نقطة العبور عند المتحف، المعبر الوحيد بين شطري المدينة لاسداد خدمة لاصدقائي من اللبنانيين، بينما عدد كبير من المسيحيين في الشطر الشرقي كانوا يرفضون القدوم الى غربي بيروت، اما لأنهم كانوا يرون انه من المنطق عدم تعريض انفسهم الى الخطر أو لانهم كانوا يخشون التعرض للاهانة عند الحواجز. (الاسرائيليون والقوات اللبنانية على الشطر الشرقي ومليشيات اليسار على الشطر الغربي) كان الاجانب وعلى الاخص الصحافيون عناصر مفيدة (فكلا الجهتين كانتا تسهلان تنقلاتهم شرط ان لا يحملوا معهم طعاما) مع العلم ان كل شيء كان يمكن المجيء به الى بيروت الغربية، اذ كان يمكن نقله على الاكتاف وعبر الزواريب مسافة نصف كيلومتر من معبر بين الشطرين لا يحرسه أحد، وفي كل مرة كنت اذهب الى المعبر، كان صديقي وهو من بيروت الشرقية، قد اعتاد ان يلاقيني الى النقطة المعينة، ويلقي في مسامعي الحديث القصير وهو «يبدو ان عرفات وجماعته لن يغادروا، اليس كذلك؟ ان الاسرائيليين سيضطرون الى قذفهم خارجا، ولكن ماذا ينتظرون حتى الان؟ ولم استطع ان اتصور الى من كان يشير، ألى الفلسطينيين الذين كان عليهم ان يغادروا أم الى الاسرائيليين الذين كان عليهم أن يهاجموا، في هذه اللقاءات العابرة مع صديقي لم يكن احد يحب الوقوف في الشمس المحرقة، وفي مكان يعرضنا الى تلقي رصاصة قناص، وقد حاولت دائما ان اخبر صديقي ان المنظمة كانت تتوق الى المفاوضة بشأن الخروج، ملخصا بل موضحا بالتفصيل ما اقوله كلما ظهر ميل المنظمة للمغادرة اكثر وضوحا، وفي محادثات مع الضباط الفلسطينيين عرفت انهم كانوا يتنازلون عن الشروط الواحد تلو الآخر، ليحققوا الوفاق بسرعة، ويقرروا الخروج تلافيا للمزيد من الخراب (وفي وقت

متأخر اخبرني دبلوماسيون امريكان انه لو ان عرفات صمد اكثر قليلا، بعد ان كان الفدائيون قد وقفوا غير متزحزحين، واوقعوا بالاسرائيليين تسع عشرة اصابات في ٤ تموز، لكان استطاع ان يأخذ ضمانات اكثر لحماية المدنيين الفلسطينين الباقين في بيروت) ولكن صديقي لم يصدق قولي، بل كان يعمل تلك الاشارة الشرقية البالغة الوضوح بعدم التصديق (بقلقلة لسانه، والقاء رأسه الى الوراء)، فقد كان يخبرني ذلك طوال السنين التي عشت فيها في لبنان، ولكني لم افهم ولا مرة شيئاً ولن استطيع ان افهم.

في الحادي عشر من شهر آب وفي اسواء ايام من القصف، عبرت من غربي بيروت، قادما من فندق كومودور، بسيارة تكسي كانت تقوم يوميا بعد الظهر بالانطلاق الى دمشق، حاملا اشرطة الفيديو للتلفزة الغربية، كان الانطلاق في موعد متأخر اكثر من سابقه، وكنا نسير ببطء إما لتراكم النفايات، او تلافيا للحفائر التي سببتها القذائف، ونلف عبر الشوارع المتعرجة، على الاكثر لاننا كنا في خوف، في العشرين دقيقة الاولى لم نبصر انسانا ما، حتى خرجنا من بين المباني المهدمة، وغابة الصنوبر المحترقة، وطريق القطار الخالية، واصبحنا خارج بيروت على مقربة من حاجز للقوات اللبنانية عند غاليري سمعان، مع حلول الليل كنت في حديقة تخص اصدقاء لي من شرقي بيروت، كنت جالسا اصغي الى دردشتهم مسترخيا بعد حمام فاتر، هو الاول منذ اسابيع، ومستعيدا في ذاكرتي، ذكريات سنة سابقة كنت يومها قد جلست في نفس الحديقة التي تشرف على المدينة، حيث كنت اشعر بالخوف اكثر من اليوم، من قنابل مدفعية السوريين، التي كسرت الاشجار الوارفة التي كانت يومها تغطي السماء. كان خوفي انذاك اكثر من خوفي واضطرابي اليوم من رؤية المعدل اليومي من الجثث في كل مكان من المدينة، والدبابات الاسرائيلية الواقفة على بعد اقل من نصف كيلومتر من الميناء تقذف غربي بيروت، اذ في السنة السابقة، وفي الحديقة نفسها كانت القذائف تنطلق منها واليها، القذائف السورية والقذائف المسيحية، ومن مواقع اقرب. وقد تذكرت فجأة شيئاً من احاديث صاحبة المكان في ذلك الوقت، اذ قالت ما اجمل الاماكن المجاورة الان، لقد ذهب الجميع، كل الموارنة، ولم يبق الا بعض العائلات الارثوذكسية، هذا هو بالتمام ما اذكره، يوم كنت طفلة، لم يكن في المكان موارنة، هنا تدخل زوجها فقال: «انا كرهت السوريين لانهم قصفوا شطرنا في المدينة، ولكني اليوم اكره الاسرائيليين اكثر. ضاعف حجم هذا

التقديـر مئتي مـرة، عنصر الوقـت بـالعـدد ٣٦ تصـل الى مـا فعلـه الاسرائيليـون الله يعرف اننا نحن المسيحيين خططنا وكنا نحلم بأن نجعل الاسرائيليين يتدخلون، ولكن لم يكن فينا من كان يعتقد ان غزوهم هذا سيكون ما رأينا، كان الرجل يمثل في قوله الحد الادنى من النظرة العامة، ولكنه كان معروفا بصدق احساسه.

انطلقنا الى الجبل لتناول العشاء في مطعم بالهواء الطلق، وفي طريقنا صعودا، كان من السهل رؤية بيروت الغربية بجلاء، لقد كان افقها عبارة عن خط اسود مشرب بحمرة، كان الحصار الاسرائيلي ما يزال قائما، وكانت اضواؤها هي المشاعل الاسرائيلية ولهب القذائف من المدفعية التي كانت تنفجر بيرانها البرتقالية اللون، القوية الاشعاع كما كانت عشرات من السيارات تقف الى جانب الطريق في نقاط مشرفة على بيروت الغربية لتراقب الكارثة من بعيد، واصدقائي قالوا ان المتفرجين لاسابيع كانوا يخرجون للمشاهدة في كل مساء، وفي المطعم كانت الطاولة التي بالقرب منا مزدحمة بافراد من القوات اللبنانية والضباط الاسرائيليين يتحادثون بحرارة، وكنت انا منهمكا بالاكل، فللمرة الاولى منذ اسابيع، حصلت على الخس والبندورة والفواكهة وكلها طازجة، وهذا ما كان غير موجود في بيروت الغربية انذاك، كان صديقي ينظر الي بدهشة وانا التهم طعامي، ومما قـالـه صـاحـب المطعـم «ان هـذه الحرب اضرت بتجـارتـه، فمتى يـا تـرى يخرج الفلسطينيون»؟.

لعدة سنوات، كان الناس في شرقي وفي غربي بيروت يقدمون اجوبة مختلفة على هذه التساؤلات، والان كانت الاسئلة مختلفة، فما كان على السنة الناس في غربي بيروت لم يكن إلا «متى تستيقظ الولايات المتحدة وتوقف الكارثة» وهذا كان سؤال بحثته مع زميلين، واحد فرنسي، والآخر لبناني، عندما كنا نتناول غداءنا في شرقي بيروت، في اليوم التالي، فمنذ الفجر والطائرات الاسرائيلية تقصف دون توقف، مركزة على ما ظهر، على ميدان السباق ومنطقة المتحف، على بعد اقل من كيلومتر واحد، كان الصوت شديد الدوي، وكان الغبار يدخل من النوافذ التي تركت مفتوحة لكي لا تتعرض لضرر الاهتزاز ففي بيروت لم يفكر الناس بتصليب النوافذ باشرطة لاصقة، اذ لم يكن في نهج البيروتيين توقع السوء، لقد كنت شديد الاستياء من الاسرائيليين واكثر استياء من حكومة الولايات المتحدة التي سمحت لعملائها الاسرائيلين بتنفيذ القتل على نطاق واسع

وبدون شعور انساني، اذ انه كان من المعروف ان منظمة التحرير كانت تريد الخروج (مع انه في مناسبة سابقة من التدمير الجماعي الاسرائيلي كان الاهتزاز مع كل جولة من القذائف، يصل لمقر السفارة وهو ما كانت تقوم به الدبابات المزودة بمدافع من عيار ١٥٥ م م.) في هذا الوقت اتصل فيليب حبيب تلفونيا بوزارة الخارجية محتجا، وواشنطن اجابت انها كانت قد اتصلت بسفارتها في تل ابيب كالعادة، لأنها لم تكن تريد ان تصدق الجهة الاسرائيلية دون الرجوع الى السفارة، ولكن كان يقال لها، من السفارة، ان المصادر الاسرئيلية تؤكد لها «انه ليس هنالك اي شيء» وهنا رمى حبيب التلفون من النافذة، عندما تعالى صوت المتفجرات، وعقب على ذلك بعبارات بذئية، وقد احتج شارون مؤخرا بغضب، وان يكن غير مباشرة، بأن السفير ديلون كان مخطئاً، لأنه لم يرفع التقارير اللازمة، وهذا ما كان جار، لقد كنت مستاء الى اعماق نفسي، وكنت اشعر بالخجل لكوني امريكي، وهذا ما لم اشعر به يوما طيلة عملي كمراسل لمدة ربع قرن. وبعد ليلة من الارهاق والسهر غفوت قليلا بعد الغداء، وعندما صحوت فتحت الراديو بصورة عفوية لاستمع الى اخبار تقول للمرة الاولى، ان الرئيس ريغن نفسه، اعلن عن استيائه وغضبه لما كان يفعله الاسرائيليون، وبعدها توقف اطلاق النار.

ومع كل ذلك فقد احتاج حبيب الى اسبوع اخر لوضع التفاصيل النهائية لانسحاب الفلسطينيين بسبب التعنت الاسرائيلي، بوضع شروط جديدة في كل مرة، بعد ذلك توصل فجأة إلى انهاء المهمة أو الصفقة، ففي ٢١ آب مع الفجر، وصلت القوات الفرنسية الى المينا. وفي عصر ذلك اليوم غادرت المجموعة الاولى من الفدائيين الفلسطينيين، انها الهجرة الرابعة لهم في ٣٤ سنة، ولدى مغادرتهم كانوا يطلقون النار من اسلحتهم من كل العيارات بمظاهرات غريبة تخلط بين حقيقة انكسارهم وخروجهم من الحصار بنجاح، وعلى طريقهم للجلاء اطلقت القذائف والعيارات النارية، بينما كان الرجال يرشّونهم بالارز، والنساء يبكين ويولولن، سيارات الشحن التابعة للجيش اللبناني كانت تحملهم عبر فندق الهوليداي إن وبرج المر، وبناية ستاركو، وفندق الهولدن، والنورماندي (هذه المؤسسات المحروقة التي كانت في وقت ما مصدر عنفوان بيروت، وحيث الرفاق قتلوا بالمئات في سنة ١٩٧٥ ـ ٧٦). كان جنود منظمة التحرير الفلسطينية بملابسهم الجديدة يحملون صور عرفات الملونة، ويلوحون بعلامة النصر، وكان حلفاؤهم من مليشيات

اليسار اللبناني يتجاوبون معهم باطلاق النار، هكذا شقوا طريقهم عبر البوابات الحديدية في المرفأ حيث وقف اولا الفرنسيون، ومن ثم المارينز الامريكان، بانتظارهم ليرافقوهم الى البواخر، وهكذا على ظهر البواخر أو عبر الطرقات كان اكثر من ثمانية الاف فدائي، وثلاثة الاف وخمسماية عضو من جيش التحرير الفلسطيني النظامي، والفان وسبعماية سوري من الفرقة ٨٥ يغادرون بيروت ذلك النهار، دون حادث يذكر، اما عرفات نفسه فقد غادر في الثلاثين من آب يشيعه رئيس الوزراء شفيق الوزان، ورئيس وزراء سابق هو صائب سلام، وآخرون من قادة بيروت الغربية، وكان مذيع يوجه بمكبر الصوت رسالة من على ظهر سيارة شحن قائلاً: «أخبروا العرب عن مقاومتكم الشجاعة في بيروت، واسألوهم اين طائرات الميج والميراج، اسألوهم لماذا اهملونا وتخلوا عنا، قولوا لهم انكم حاربتم الجيش الاسرائيلي ببنادق كلاشنكوف وار. ب. جي.، واصابع الديناميت» وفي الوقت نفسه سمعت امرأة من المسيحيين تراقب الجلاء من وراء مظلتها وهي واقفة على سطح يشرف على الميناء، تقول: «الان استطيع ان اموت قريرة العين» فقد كانت تعتبر ان الفدائيين كانوا سبب كل ما حصل في لبنان.

وفي اليوم الثالث والعشرين من آب بعد يومين من اول جلاء، في واحد من هذه الافرازات التي تميزت بها حرب ١٩٨٢، تم انتخاب بشير الجميّل رئيسا للبنان؛ وجلاء الفلسطينيين الذي كان يتم يوميا بصورة منتظمة مصحوبا باطلاق نار غريب انتهى في اليوم الاول من ايلول، قبل موعده بيومين. واقترح السياسيون اللبنانيون تسمية حبيب مرشحا لجائزة نوبل للسلام، وحتى رئيس الوزراء الوزان، ووليد جنبلاط ولبنانيون آخر كانوا قد نُبهوا سابقا ان كل هذا الترتيب لم يرتكز على اكثر من أن حبيب في وعوده المثيرة انما كان يمثل شرف الولايات المتحدة الامريكية، فقد اصبحوا الان، اكثر تفاؤلا فالفرقة الفرنسية بدأت في رفع الالغام بين الطرقات، ورفيق الحريري السني المسلم من صيدا، البالغ من العمر ثمانية وثلاثين سنة، والذي كان قد حصل على ثروة من اعمال مقاولات البناء في السعودية قدم سبعة ملايين ونصف دولارا لتأمين اليد العاملة وسيارات الشحن والجرافات لرفع الانقاض والسواتر الرملية ونقلها بعيدا، ورئيس الوزراء فتح معبر السوديكو الذي بقي مغلقا سنتين، وكان بذلك يرمز الى وحدة العاصمة التي كانت لمدة طويلة منقسمة، والمتفائلون تنبأوا بأن مطار بيروت الذي كان مغلقا منذ السابع من

حزيران، سيفتح قريبا، ولاول مرة منذ ١٩٧٥ انتشر الجيش اللبناني في غربي بيروت، وفتحت المطاعم والمتاجر وبدأ الموظفون يعودون الى عملهم، واستؤنفت خدمات التلفون والكهرباء، وعادت الحياة الى ما كانت عليه قبل الاجتياح، والرئيس المنتخب كان في احسن حالاته اذ بدا تدريجيا يكسب تأييد السنيين المسلمين الذين قاطعوا انتخابه، وجاهروا بشكوكهم بصحة ما كان يخططه من اجل لبنان، وبشير الجميّل، بتشجيع من الولايات المتحدة الامريكية، كان يدعو للمصالحة البناءة ولدولة لبنانية قوية، وهي الاشياء التي كان يتمناها الجميع طوال سنوات الاضطراب، من الوجهة الوطنية، هذا الهدف كان يتوافق مع السياسة الاسرائيلية أو على الاقل ما كان يُعبّر عنها للرأي العام.

غير انه كان لدى اللبنانيين والذين يعرفون لبنان شعور بوجود علامات الخطر اذ بعد ساعات من مغادرة الفدائيين الفلسطينيين في الاول من ايلول كشف الرئيس ريغن عن مخطط لتسوية القضية الفلسطينية، لم يتضمن اقتراحه شيئا جديدا، ولكن كونه صادراً عن الرئيس بذاته، فقد كان في مضمونه موجها ليظهر للعالم العربي المتشكك، بان اسرائيل ليست ذات تأثير على الولايات المتحدة، لتقودها من انفها الى حيث تشاء، ومما اقترحه ريغن ان الفلسطينيين يجب ان لا يفكروا بنصيب لهم، ولو كان ذلك، دولة شبه مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة، وبدلا من ذلك يجب ان يعملوا اذا ارادوا سلامتهم، مع الملك حسين ملك الاردن، وعلى اسرائيل ان تتوقف عن بناء المستوطنات الجديدة أو زيادة سكان المستوطنات الموجودة في المناطق المحتلة كوسيلة للتوسع بضم الارض (وما هذا بحد ذاته إلا السياسة الرسمية للولايات المتحدة الامريكية منذ وقت طويل، التي لم تتوقف إلا عندما قام ريغن بحملته الانتخابية فاضطر للسكوت وليقدم تساهلا بشأن بناء المستوطنات وبكسب تأييد اليهود في الانتخابات. وبيغن بدا غاضبا وكان يعارض الخطة لا لانه كان يريد ان يتوج نصره في الحرب اللبنانية بضم الضفة الغربية وقطاع غزة، وقبل انقضاء يومين ظهرت واضحة علامات استيائه في لبنان، بخرق صريح لاتفاقه مع حبيب، فأن الجيوش الاسرائيلية تقدمت ستماية مترا شمالا، بحجة انهم كانوا يزيلون الالغام من الطرقات، هذا التقدم اوصلهم للمرة الاولى للاشراف على مخيم اللاجئين الفلسطينيين في شاتيلا، وعلى الضاحية التي يسكنها الفقراء اللبنانيون، بجوار بئر حسن جنوبي الطريق الرئيسية التي تمتد من البحر الى الطريق المتفرع الذي يؤدي الى مطار بيروت الدولي، هناك

كان سيقف الاسرائيليون ولم يكن يقنعهم أي مقدار من التدخل الامريكي بالرحيل، ثم سرعان ما تنازلت الولايات المتحدة عن طلبها منهم بالرجوع الى مراكز تواجدهم، متمسكين بحجة ملفقة وحكاية مموهة، هي ان الجيش اللبناني كان قد وافق على تكليف الجيش الاسرائيلي نزع الالغام من ذلك القسم الحساس من الطرق ونزع الغامهم سياسياً واستراتيجيا.

وفي الواقع فالاسرائيليين كانوا مستائين، يفسرون ما شاهدوه من سياسة امريكية متطورة، بأنه عمل يهدف الى تشجيع بشير الجميّل على رفض مطالب اسرائيل بتوقيع صلح منفرد معها. والصحافة الاسرائيلية خلال الاسبوعين الاولين من شهر ايلول، اوضحت ذلك بمنتهى الصراحة، ولكل من اعتاد على تفسير الروايات الاسرائيلية الرسمية في الصحف، وفي الحقيقة فأن الامريكان شعروا بأن الاسرائيليين كانوا يدفعون الرئيس اللبناني بقسوة الى قبول رغباتهم، بينما هم يعتقدون انه عليه ان يركز على مصالحة وطنية اولا، ففي اية حال سيكون بشير مضطرا للاعتماد على المساعدة العربية لاصلاح ما خربته الحرب من خلال سبع سنوات، ولو ان بيغن تمكن من عقد معاهدة سلام، فأن العالم العربي سيقاطع لبنان المعرّض للزوال كما قاطع مصر، والولايات المتحدة التي تحمل اعباء التزامين كبيرين من المساعدة اتجاه مصر واتجاه اسرائيل ليست في حالة تمكنها من حمل عبء ثالث. ولكن بيغن كان يصمم بقوة على الحصول على مثل هذه المعاهدة في لبنان، وكل الذين بحثوا معه خلال الصيف اكدوا ان المعاهدة كانت بكل جزء فيها بنفس الدرجة من الاهتمام مثل تحطيم منظمة التحرير، فقد كان هناك الحلم بتوسيع نفوذ اسرائيل، وكان يتكلم باعتزاز عن أن اسرائيل تلاقي ترحيباً بها من القاهرة الى بيروت.

في هذا الوقت اصر الامريكيون على التدخل بجدية في لبنان بعد سنوات من عدم الاهتمام، وسرعان ما تعلموا انهما الاثنين يستطيعان لعبة الارجوحة، على الاخص في لبنان، فاسرائيل كان يمكنها ان تخلق مشاكل لبشير، وللامريكيين، بكل سهولة، اذا اجلت انسحاب الجيوش من لبنان، وكذلك لتجميد خطة ريغن بخصوص الضفة الغربية، وموظفوا وزراة الخارجية سارعوا الى الاعتراف بهذا، لأنه لم يكن هنالك من شيء جديد في الخطة لعدة سنوات، وسيبقى من السهل على اسرائيل ان تخلق المشاكل في لبنان، وماذا لو لم يوافق الامريكان على ما كانت تنويه؟ وماذا يستطيعون ان يفعلوا اذا لم يكن لهم ما

يملكونه على الارض؟ واذا اعتبرنا ان التجارب الماضية كانت مقياسا، فقد كانوا يفتقرون الى القوة الصامدة التي تجبر اسرائيل على اطاعتهم؛ كانت تلك المرة الاخيرة لامريكا، عندما قررت قرارا هاما لا يحوز على رضى اسرائيل ونفذته وذلك سنة ١٩٥٧، في عهد الرئيس ايزنهاور الذي اجبر الجيش الاسرائيلي على الجلاء، عن صحراء سيناء التي كانت قد احتلتها بالتواطؤ مع فرنسا وبريطانيا اثناء الحملة على السويس، وذلك في خريف تلك السنة، ان الادارات المتعاقبة في الولايات المتحدة الامريكية زودت اسرائيل بالسلاح الى حد كبير، لاعتقادها الغريب انه عندما تصبح قواتها المسلحة اقوى من قوات الدول العربية المعادية مجتمعة فأن اسرائيل، وقد امنت نفسها، ستكون عندها الرغبة لتسعى بايجاد علاقات طيبة مع جيرانها، ومهما كان القصد فقد برزت نتيجة هامة واحدة على الاقل لهذه السياسة، وهي ان تسلط امريكا على تصرفات اسرائيل العسكرية، بات محدوداً، بل كما كان متوقعاً، أصبحت تعدياتها على جيرانها نتيجة لذلك أكثر فأكثر.

وفي اية حال فقياسا على الماضي، لم يكن الرئيس ريغن مضطرا للمواجهة مع اسرائيل، مهما كانت انتقاداته الاخيرة على الاجتياح الاسرائيلي، وادارة ريغن كانت تميل الى تلافي أي عمل عسكري في لبنان، وهذا مما جعل الف ومايتي جندي من المارينز يلازمون المرفأ، خوفا من ان يتعرضوا لخسائر بشرية، وفي ٩ ايلول غادروا. لقد كانوا آخر من جاء، وأول من ذهب، وفي صورة اخذت لواحد منهم ظهر وهو يحمل يافطة امام المصورين كتب عليها «مهمتنا انتهت» ولكنهم فيما بينهم كانوا يبررون مغادرتهم بالقول ان بشيرا نفسه كان يريد رحيل الفرنسيين والطليان رفاقهم في القوات المتعددة الجنسيات، كذلك كان يشعر ان الجيش اللبناني غير المنضبط، وغير المسلح تسليحا كافيا، والمؤلف من ثلاثة وعشرين الف رجل، مهمتهم الوحيدة قبض الراتب اخر كل شهر، هذا الجيش يجب ان يكون قادرا على تحمل المسؤولية ولو على حساب الفشل المنظور كان بشير يخطط لمضاعفة حجم الجيش وفي الوقت نفسه، ليكوّن حرساً خاصاً شبيها بالحرس الامبرطوري، منه ومن القوات اللبنانية التي يمكن ان تقوي معنويات الجيش ايضا عند الحاجه، ويعتقد ان سركيس كان قد اضعف سلطاته التي استمرت ٦ سنوات، منذ البداية، كما قال بشير وانه أي سركيس كان يرفض ان يهتم بالجيش قبل ان يتخلص من انقساماته في الحرب الاهلية، وبالتأكيد فأن الجيش اللبناني كان في مثل هذه الحالة التي

تستحق الشفقة، وقد كان ذلك بفضل مشاغبات، واحتيال، ومعارضة، بشير نفسه، والولايات المتحدة كانت تعرفه تماما لأنها كانت تعرضت لمعارضته عندما حاولت هي ان تعيد الجيش اللبناني الى وحدته بعد سنة ١٩٧٦، بيد ان الامريكان الآن يقولون انه مع وجود زعيم قوي مثل بشير فأن لبنان يجب أن يُعطى المساعدات ليتمكن من حل مشاكله.

وبشير الجميّل قتل في ١٤ ايلول، وبعد يومين كان رجاله يذبحون المدنيين لفلسطينيين في مخيمي صبرا وشاتيلا، وآمال الامريكان في الخروج دون ضجة من لبنان تحطمت، فبالتأكيد كان ذلك بسبب موت بشير، وقرار شارون بمهاجمة غربي بيروت في فجر اليوم التالي، ومذابح الفلسطينيين بالاضافة فرضت درجة اكبر من التورط الامريكي في الشؤون اللبنانية، لم تعرف قبل سنة ١٩٥٠، والرسميون الامريكيون من الرئيس نزولا كانوا منزعجين ومستائين من سوء تقرير الاسرائيليين لغزو بيروت الغربية، مع ان بعض اللبنانين من ذوي التشكيك اشاروا بأن نزع سلاح المليشيات اليسارية من قبل الجيش اللبناني والجيش الاسرائيلي، قد يلقى ترحيبا من واشنطن، وريغن ضمنا حاول تبرير ما قامت به اسرائيل من خرق للاتفاقية، بقوله (لقد كنت متأكدا ان الداعي لتحركهم في الزحف كان هجوم قامت به المليشيات اليسارية) غير ان هذا لم يكن كافيا لتبريرهم، فريغن نفسه تبين له الان خطر الاساءة للسمعة الامريكية بالتورط مع صقور اسرائيل ويصعب القول، بأي ثمن باهظ تلطخ شرف امريكا) وهذا المزيج من التحقير الامريكي والضعف اللبناني الذي ظهر جليا اجبر ريغن ليقوم بالدور الرئيسي الذي كان قد رُفض من قبل حكومات امريكية سابقة، وفي النهاية كان على امريكا ان تعمل بنشاط في سياسة هي محركتها بعد سنة ١٩٧٤، والتي مهما كانت ميولها، قد زعزعت اكثر بلدان الشرق الاوسط، وساعدت على تدمير لبنان، وساهمت بقتل انور السادات، وفي مثل هذا السياق فأن العلاقات الامريكية الاسرائيلية، التي كانت في طبيعتها دائما تنطوي على العنف انفجرت اخيرا بشكل واضح مرة اخرى. وهكذا عاد المارينز مرة ثانية وكذلك الفرنسيون والطليان، وبرجوعهم ظهر تغير ضئيل في العلاقات السابقة بين اسرائيل والولايات المتحدة من جهة السلطة، ومما اشار اليه احد الدبلوماسيين الامريكان في مطلع الصيف قوله: «ان الاسرائيليين لا يعرفون ماذا هم فاعلون في لبنان، وهم يعتمدون على ادارة ربما كانت تعرف اقل منهم، فاجتياح بيروت الغربية والمذابح انهت

بكل تأكيـد ، اسطـورة بطـولات منظمـة التحـريـر ، لان الاسرائيليين استطـاعـوا ان سجنوهم، ويفتشوهم ويسرقوهم دون حذر ، وقد نجحت هذه المذابح في زرع المخاوف في عقول الفلسطينيين الباقين، حتى ان الكثيرين منهم كانوا سيرحبون بالخروج، اذا وجد ما يمكن ان ينقلهم، ولكن هذه النتائج الايجابية كان لها ما يقابلها من مخاوف عالمية، لما سببته المذابح من استياء عام، وشارون مثلُه مثل بيغن، فكلاهما وجدا نفسيهما للمرة الاولى في موقف دفاع فالعصيان في صفوف الجيش، وغضب الرأي العام الاسرائيلي أعطيا صورة غير واضحة بل سوداء، وهذا اعطى قوة لحزب العمل المعارض المشلول، الذى كان منذ بداية الحرب ينذر بعدم جواز دخول الجيش الى بيروت.

وباوضح ما يكون من المظاهر فأن الولايات المتحدة برهنت على عدم قدرتها على الوفاء بتعهدها المكتوب لحماية الفلسطينيين من الاسرائيليين والميليشيات المسيحية، فها ان الاسرائيليين وحلفاءهم قد نكلوا بالاتفاقية بشكل مخز وقاتل، والولايات المتحدة لم تعمل الا القليل لتحسين سمعتها او لتفرض سلطة اخلاقية واضحة، ومما قاله احد الاساتذة الفلسطينيين في جامعة بيروت الاميركية، موجها الي كلامه قال «عندما سمعت الى اي حد بلغت المذابح، قلت ليس الا مجنوناً من يثق بالولايات المتحدة في الشرق الاوسط».
مثل هذا التفكير اثار الاستياء عند موريس دريبر، الذي كان مسؤولاً لدى وزارة الخارجية في الشرق الاوسط فهو حبيب رقم ٢ واعلى ديبلوماسي امريكي في بيروت في هذا الوقت، اذ انه عندما سمع وصفاً تفصيلياً من احد الصحافيين لما جرى في شاتيلا كان شديد الغضب، فهذا السياسي المحترف والذاكرة الجامعة للوزارة الخارجية للشرق الاوسط، قال «كل ما استطيع قوله هو اني اشعر كمحترف سياسي بالمسؤولة» (وفي يوم سابق كان قد قال للاسرائيليين تلفونياً، مع ان قوله هذا لم يذكر في التحقيقات التي اجرتها لجنة كاهان، يجب ان تكونوا مخجولين من انفسكم فجنودكم هم اصحاب السلطة، وعلى هـذا فـأنتم مسـؤولـون يجب ايقـاف المذابـح انهم، أي الجنـود الاسرائيليــون، متخلفون، أني ارسلت موظفاً الى المخيم لاحصاء جثث القتلى وتبين ان جنودكم يقتلون الاولاد) ثم قال للصحافيين ان الاسرائيليين يصعب التعامل معهم وقد كانوا كذلك دائماً منذ البداية، يوم كونت دولتهم سنة ١٩٤٨ غير انهم كانوا اذا وعدوا وقالوا تقيدوا بوعدهم وبما يقولون » هذا كان السبب الذي جعل الولايات المتحدة لا تطلب منهم تعهداً

خطياً، بعدم الدخول إلى غربي بيروت بالقوة، وبعدم انزال الضرر بالمدنيين الفلسطينيين (ولكن بالقاء نظرة ناقمة على التقرير يسقط كلام دريبر الذي يبرر به نفسه، فالحكومة الاسرائيلية كانت المجرمة في كل انواع التحقير التي سببته للولايات المتحدة، هذا باستثناء ما سببته لجيرانها العرب، اذ كان يبدو دائماً أنه هنالك ما كان يدعو الى طلب تعهدات خطية من اسرائيل في الامور الصغيرة والكبيرة فحيث كان يظهر ان لاسرائيل مصلحة كانت الحكومات المتعاقبة لاتبالي بنقضها للتعهدات الا في النادر، ففي حرب سنة ١٩٦٧ بين العرب واسرائيل، قتلت طائراتهم اربعة وثلاثين، وجرحت مئة واربعة وستين من البحارة الامريكان الذين كانوا على ظهر الباخرة ليبرتي «باخرة التنصت» بدلا من ان تغض النظر عن وجودها في شرق المتوسط، لتقوم بمهمة التقاط المكالمات الحربية الاسرائيلية، وفي حرب سنة ١٩٧٣ نقض الاسرائيليون ترتيبات وقف اطلاق النار بغاية تضييق الحلقة على الجيش المصري الثالث الذي كان محاصراً، وفي سنة ١٩٧٨ غادر بيغن قمة كامب ديفيد متهرباً من تسليم الرئيس كارتر كتاباً يتعهد فيه بتجميد انشاء المستوطنات الى ما بعد التوصل الى اتفاق حول مستقبل الضفة الغربية وغزة).

خلال الصيف كله لم يكن هنالك ما هو اكثر وضوحاً من التهديد الدائم للمدنيين الفلسطينيين في غربي بيروت بل كان هنالك بالتأكيد سبب رئيسي وراء تردد منظمة التحرير بترك بيروت وذلك هو خوفها على السلامة الجسدية للفلسطينيين الذين سيتركونهم وراءهم بالرغم من ان عرفات كان قد اقسم ان الكفالة الامريكية التي اتفق عليها في شهر آب مع حبيب شملت فقط الفلسطينيين اداخل المخيمات وبصورة ادق اولئك الذين في بيروت، ان جريدة الوشنطن بوست نشرت في ٧ تموز رسالتي على صفحتها الاولى وكنت قد اوضحت فيها بالتفصيل عن طبيعة واسباب حيرة المدنيين، وانا لا اشير الى هذه الرساله ممتدحاً نفسي، ولكن لاوضح ان جريدة امريكية رئيسة كانت راغبة في ان تزج بانفها وتخصص مكاناً رئيساً على صفحاتها لما كان الاسرائيليون في ذلك الوقت يقدمونه كتحليل متوقع، مع ان رسالتي اوضحت نظرة الدبلوماسيين الآسفين والموظفين العالميين والمحللين اللبنانيين، وما هو اكثر اهمية ان حبيب كان قد انذر المرة تلو المرة ان وعود الاسرائيليين الشفهية خصوصاً الصادرة عن بيغن وشارون لا يمكن التقيد بها، ومما قاله الرئيس الوزان بعد المذبحة «لقد كنت قد قلت لحبيب ان قيمة هذا التعهد من الناحية

العملية لا يمكن التأكد منها ولكنه، اي حبيب، وضع يده على قلبه واقسم انه هو شخصياً يضمن تعهدات اسرائيل «وللمشككين الاخرين في الوعود الاسرائيلية، كان حبيب يجيب غاضباً «اليست كلمة واحدة من الولايات المتحدة تعهداً كافياً»، ولكن لا يجب أن ننسى ان الدول الكبرى لديها اساليبها في العمل على تناسي التعهدات والتغاضي عن الاخطاء، خصوصاً تلك التي تختص بذبح الابرياء، ان مثل هذا التورط لا يمكن ان يمتد ليشمل الفئات القليلة في هذا العالم، هذا في ظاهر الامر، ما جعل حبيباً يبرىء نفسه من اية مسؤولية لما قد حدث، وهكذا مع سياسته الفاشلة وحكومته التي ساءت سمعتها، فأن مقدرته كساحر ديبلوماسي ظهرت وكأنها شعوذة جوفاء، وحبيب لم يستقل، ولم يعلن اسفه، كما كان منتظراً، ولا شعر حتى بحاجة للتنازل عن شموخه لأنه استمر يمارس دوراً رئيسياً كدبلوماسي امريكي رفيع المستوى في الشرق الاوسط.

وحتى قبل ان ترسل الولايات المتحدة وفرنسا وايطاليا «على مضض» جيوشها مرة ثانية الى لبنان لمساعدة الحكومة، كان حبيب في طريقه الى بيروت، قادماً بالطائرة لحضور تنصيب امين الجميل رئيساً، ومما قاله لرفيق له، «من المحتمل ان يقوم الوزان بصفعي» هذا المبعوث الخاص الذي جعل السرية والصمت علامة مميزة في دبلوماسيته كان يتبادل في حفلة التنصيب الدردشات والربت على الكتف مع اعضاء البرلمان اللبناني كلهم، باستثناء رئيس الوزراء الوزان الذي حين مر بقربه تجاوزه دون ان يبالي به.

كان حبيب على طريقته الخاصة، مثل المسيحيين في مارونستان، لقد جرحه موت بشير، وهذا ما جعله والمسيحيين لا يهتمون اصلا بالمذابح التي اقترفها رجالهم، وقد اسرَّ لي ضابط في القوات اللبنانية همسا في ١٩ ايلول، وكان يوم احد، وهو مخبر عسكري، وبعد يوم واحد من اكتشاف المذابح بقوله «انها حُوّلت للحفظ ولن تذكر بعد اليوم» كنت لتوي قادما من بيروت الغربية حيث، الجثث المنتفخة، والمهشمة، فحاولت ان اجعله يشعر، ان هذه ليست ككل المذابح الاخرى، اكان من حيث حجمها، أو من حيث تورط اسرائيل فيها، أو من حيث المكانة الامريكية عالميا، فشاتيلا تختلف، وقد اصغى بلطف كافٍ الي، ولكنه غيّر الموضوع ليس فقط لأنه كان مخجولا أو راغبا في عدم الخوض بالكلام عن المذابح، مع العلم انه كان لهذه دخل في ذلك، اذ من جهة اخرى، فهو وغيره من المسيحيين كانوا رازحين باحزانهم، فالذي كان ذا اهمية عندهم

هو موت بشير، وضمان تحقيق انتخاب امين، ان زائرا من مسيحيي بيروت، عندما زار اميناً في قريته بكفيا، في ذلك اليوم بالذات، اوضح له بصبر، كم هو مهم انكار مسؤوليتهم عن المذبحة، وقد نجح بالنتيجة في اقناع امين باصدار بيان تكون الفاظه منتقاة بدقة، يحاول فيه تبرير القيادة العليا للقوات اللبنانية، وهكذا فالموارنة كانوا يتحولون بصورة مطردة عن اسرائيل، ومما قالته جويس زوجة امين «الم يكفهم بشير ان هؤلاء الاسرائيليين، يحاولون ان يلصقوا بنا عملا قبيحا». وأحد الضباط الكبار في القوات اللبنانية اشار الى كاهن ماروني معروف بتأييده لاراء الاسرائيليين، بالصمت،.قائلاً له: «انت واصدقاؤك من دفعنا الى هذا التحالف السيء مع اسرائيل»، ووراء هذه المرارة الظاهرة في مثل هذه الاشارة تكمن حقيقة ان اسرائيل على الاقل قد ضللتهم. ان احد اللبنانيين المؤرخين يخشى ان يدفع المسيحيون، إن آجلا أو عاجلا، ثمن المذبحة، وان يدفعوا ثمن كل العنف الذي حصل في لبنان منذ سنة ١٩٧٥، ولو ان ما جرى اذا تطلعنا الى الامس البعيد، لم يكن كله من صنعهم، وقد كانوا يقولون مدافعين، إن الاقليات يهددون المسلمين السنيين بقدر ما يشكلون خطراً عليهم، ان لم يكن لذبحهم، ومهما يكن من محاولات تهرب فالذين ذبحوا من الفلسطينيين كانوا من السنيين، وهذا القول كان يتوافق مع النظرة الفلسطينية الثابتة، من ان اسرائيل ستنتهي كما الصليبيين بعد قرن من التسلط على اورشليم، وسيعود مرة ثانية السنّة إلى استلام الزمام، غير ان المسيحيين كانوا يهدفون الى استخلاص نتائج تختلف كثيرا. فالقوات اللبنانية بعد ان حرمت من زعامة بشير الجميّل، كانت تعلن في سنة ١٩٨٢، انه سيكون مطلوباً منها اكثر من كل وقت حماية المسيحيين المهددين، اذ ان بشيراً لم يعد موجوداً ليضع اسسا للتسلط المسيحي على الدولة، ومما قاله ضابط في القوات اللبنانية بعد مقتل بشير بمدة قليلة «ان المسيحيين في الشرق الاوسط لم يكونوا بمثل هذه القوة منذ سنة ١٩٥٨. اننا سنكون مجانين اذا تخلينا عن سلامنا» وبصورة رسمية فأن القوات اللبنانية اوضحت انها لن تكون لها رغبة في حل نفسها، قبل ان يخرج آخر فلسطيني مسلح، وسوري، واسرائيلي من الاراضي اللبنانية؛ فبخريف سنة ١٩٨٢ كان لدى القيادة الجديدة في القوات اللبنانية خمسة الاف مسلح يقبضون رواتبهم بصورة منتظمة، مما جعلهم يضاعفون الضرائب ليزيذوا دخل القوات اللبنانية من مئة مليون دولار الى مئتي مليون دولار في

السنة .

بينما عمليا كانت الولايات المتحدة تحاول تسريع الجلاء ، فالرئيس طلب من مجلس الامن القومي تقريرا يوميا عن رغبة اسرائيل في انهاء احتلالها في لبنان، والمسؤولون الامريكان كانوا يعتبرون انه من التحصيل الحاصل، خروج القوات السورية والقوات الفلسطينية عندما تخرج اسرائيل، ولكنهم لم يكونوا متأكدين بأنهم سيقبلون بالتخلي عن سلامهم كما فعل اليساريون والمليشيات المسلحة المسلمة على ايدي اسرائيل، والجيش اللبناني في غربي بيروت؛ غير ان الاسرائيليين كانوا يهيئون للاشتاء دون ان تظهر اية اشارة لتحركاتهم يُشتم منها الرغبة في المغادرة، وكانوا قبل ذلك قد ازالوا لوحات الاشارة المكتوبة باللغة العربية والمرقمة بالارقام الرومانية، ووضعوا مكانها اشارات بالعبرية ، كان يظهر وكأنهم باقون؛ والقوات اللبنانية كانوا يتحدثون فيما بينهم عن حق الاسرائيليين، في البقاء والسكنى اينما شاؤا في لبنان (هدف الاحاديث كان موضع تداول على الاخص بالنسبة الى تكثيف وجودهم في الشوف).

كل شيء كان من الممكن اشتشفافه، حَكَّ أي مسيحي من شرقي بيروت سنة ١٩٨٣ وستجده يقول؛ إن عدوه الحقيقي، هو الوجود الاسلامي الذي وضع الموارنة على حافة الهاوية منذ اجيال، ان المنظمة الفلسطينية قد ذهبت وتلاشى بذهابها التهديد للدولة التي يريدها الموارنة، ولكن المسلمين لا يزالون في لبنان غير ان عقلية الغيتو في مارونستان عند المدنيين، يمكن ان تتغير تدريجيا، والمسيحيون ايضا نالهم اكثر مما يستطيعون تحمله من العالم العربي، أكان من تعاطفه الفارغ مع لبنان أو من اعماله الاجرامية على التراب اللبناني، ودفع اللبنانيون المسلمون أيضاً، ثمنا غاليا للنزاعات العربية عبر السنين واكثر مما دفعه المسيحيون منذ نيسان سنة ١٩٧٥ . فالذين ماتوا في لبنان كان أكثرهم من المسلمين وسنة ١٩٨٢ لم يمت من المسيحيين إلا القليل اثناء الاجتياح الاسرائيلي وبالخطأ فقط، أما المسلمون فقد بلغ عدد قتلاهم تقريبا تسعة عشر الفاً، اكثرهم من المدنيين، وذلك بموجب الاحصاءات اللبنانية، كان الاسرائيليون يعرفون جيدا ان المسلمين اللبنانيين في غربي بيروت يتلقون اكثر ما يقع من دمار ولا لزوم للتأكيد في أن غربي بيروت وليس الشطر المسيحي، هو الذي عانى من الفوضى والقلاقل، والعنف اكثر من سواه، بيد ان حرية الرأي في بيروت الغربية والتطلع الى العالم كانا كل ما نعمت به.

اما المسيحيون فبقليل من بعد النظر، وقليل من الليونة، وبجرعة صغيرة من الانسانية، وبأشارة خفيفة تدل على قبولهم لجزء صغير من المسؤولية لما حدث يمكنهم ان يجتازوا المسافة الطويلة بأتجاه مصالحة وطنية، ويمكن ايضاً البحث انه سيكون من الافضل لمصالح المسيحيين ان يخرجوا من الغيتو، وينطلقوا للتعرف الى بقية البلد التي تغيرت كثيرا عما كانت عليه عندما اقاموا لأول مرة، حصنهم ورفعوا السلالم، وقطعوا الجسور، اذ سيكون بأمكانهم ان يكتشفوا انه لم تعد لهم ميزة احتكار القومية اللبنانية.

في شتاء سنة ١٩٨٢ - ٨٣. لم يُظهروا قبولا لذلك، ان صديقا لي، من اصحاب البنوك، ويعتبر من المتحررين في بيروت الشرقية، اسرّ لي ان كل ما يدعوه الى المجيء الى غربي بيروت هو رغبته في تناول طعامه في مطعم العجمي، احسن المطاعم في لبنان. وفي سنة سابقة نشرت جريدة « لو رفاي » التي تصدر في شرقي بيروت بالفرنسية، عددا من المقالات في الزاوية الخاصة بالاولاد، تصف فيها المناطق المجاورة خارج الغيتو تلك التي لم يسبق لابناء هذا الجيل من المسيحيين ان شاهدوها أو ان تعرفوا الى المسلمين فيها طيلة السنوات العشر، وكذلك هنالك مسلمون لم يتعرفوا الى المسيحيين طوال هذه الفترة بينما في ساحة الشهداء، التي كانت تعتبر قلب بيروت ترى بأن عائلات باكملها من شطري بيروت يلتقطون صورا لبعضهم بعضا، بينما الجنود الفرنسيون ينزعون الالغام من الشوارع الرئيسية، بعد ان قطعوا النباتات التي شكلت غابة فيها، اما الحدائق الخضراء التي كان يعتني بها المحاربون سابقا فقد اهملت في هذا الوقت، والنصب الضخم المُخرّق بالرصاص في وسط تلك الساحة كان يستعمل كخلفية لأخذ الصور والمباني المهدمة ذات الواجهات المخرقة بالرصاص كانت تطل على بعضها عبر المسافة الواسعة، وكأنها تحدق بمثيلاتها شوقا، وللجهة المؤدية إلى البحر كانت لا تزال على لوحة اعلانات لسينما ريفولي اعلان لأخر الافلام (المطلقة) وكأنه عنوان يعبر عن الواقع، كانت مراكز القوات اللبنانية في الجانب الشرقي من الساحة لا تزال باقية وفيها البراميل واكياس الرمل، والقطارات المقلوبة في مكانها، مظهرة العقلية المسيحية في الحصار، وقد قال صديقي صاحب البنك، مؤكدا ان بيروت ستتوحد فقط، عندما تصبح الساحة والشوارع المتفرعة عنها التي تشكل المنطقة التجارية، مزدحمة بالسكان مرة ثانية.

ولكن من المحتمل ان يكون الموازنة على حق من ناحية ان يعيشوا منعزلين

ومسلحين، لأن المسلمين في هذه السنوات السبع تزايد عددهم كثيرا، وزاد عنادهم وثقافتهم فوق ان الثروة في لبنان مسلمة، بناء على ما يقوله اصحاب البنوك الذين عندهم فروع في شطري بيروت، وعاجلا أم آجلا سيجري في لبنان احصاء، والاكثرية المسلمة، نظرا لسرعة التكاثر بين المسلمين الشيعة، ستؤخذ بعين الاعتبار، ان بشير الجميّل الذي كان يميل لاستعمال القوة لتوحيد البلاد تحت قيادة مارونية، كان معترفا بالنمو الديمغرافي او السكاني المتزايد للمسلمين، مما حدا به لتشجيع ستماية الف مسيحي يعيشون في الخارج للعودة الى بيوتهم، والمساعدة على حفظ التوازن. ولكن هل كان جادا؟ أم كان تخطيطه هذا من المشروعات المقصود بها ابعاد يوم السوء؟ وايا كان اتجاهه فأن فكرة اعادة المغتربين التي عُرضت ببلاغة كانت المسألة الرئيسية التي كان يواجهها المسيحيون، وخصوصا الموارنة، لأنها تطالب بقيادة سياسية عبر السنين القادمة فالمسلمون اللبنانيون اكثر عددا من المسيحيين، وسيكونون كذلك حتى ولو اخرج النصف مليون فلسطيني الباقون من لبنان (هؤلاء في نظر آل الجميّل منذ وقت طويل يجب توزيعهم على دول الجامعة العربية العشرين الى ان يتمكنوا من ايجاد دولة لهم أو مكان يحتويهم، ولم يكن قادة السنّة في لبنان يخالفونهم الرأي حتى ولو لم يعلنوا ذلك بوضوح، ورئيس الوزراء الوزان الذي وقف الى جانب منظمة التحرير والمدنيين من الفلسطينيين اثناء صيف سنة ١٩٨٢ نقل عنه في خريف تلك السنة ما نشرته الصحف عن وجهة نظره ورأيه بأنه ربما كان يكفي لبنان منهم خمسون الف فلسطينيا.

أما المذبحة في ذلك الوقت فقد كان لها هدف سياسي واضح، هو تفريغ لبنان من الفلسطينيين غير ان هذا الهدف كان بدافع عاطفي لا عملي، فالحقائق كانت ان الدول العربية الاخرى غير راغبة بأخذ الفلسطينيين الذين ارادوا، بمنتهى اليأس، مغادرة لبنان بعد المجازر، وقد واجه حبيب في الواقع صعوبات كبيرة بايجاد دول عربية ترغب بأخذهم إليها وفي هذا ما يوضح الموقف، اما الفلسطينيون فلم يكونوا بحاجة الى من ينقل لهم ما كان يقوله اعضاء القوات اللبنانية الذين نفذوا عملية شاتيلا خلال ذلك الوقت، فهؤلاء اغتنموا فرصة مغادرة الامريكان والفرنسيين والطليان كجيوش متعددة الجنسيات، ليقوموا بالمجازر المتعمدة. اذكر اني منذ سنوات سألت بشير الجميّل الى اين يمكن ان يذهب فلسطينيو لبنان فضرب على الطاولة كولد احمق وارعد قائلا: «ليست هذه

مهمتي، ليست مهمتي، ليست مهمتي» وليس هنالك من مبرر للتفكير بأن اتباعه في القوات اللبنانية كانوا في وضع من يمكنه الاصغاء لاحكام العقل، والمتطرفون منهم ركزوا اماهم على خطة شارون في انزال الملك حسين عن العرش وشحن الفلسطينيين اللبنانيين الى الاردن، هذا ما قاله لي اصدقائي الرهبان، ولم يكن عندي ما يبرر الشك في تصميمهم على التعاون مع اسرائيل لتحقيق هذا الحلم. ومهما كانت الشكوك لدي عن جديتهم، فشكوكي هذه تلاشت بعد المذبحة، عندما تذكرت محادثات قمت بها قبل ذلك باسابيع قليلة في مقر الرهبان الصيفي، اذ مما قاله طبيب أنيق المظهر في الجيش اللبناني، كان قد تطوع للدخول في عضوية حراس الارز: «بعد قليل لن يكون في لبنان من وجود حتى لفلسطيني واحد، انهم جراثيم يجب القضاء عليها» في وقتها نظرت الى هذه التصريحات وكأنها ترديد لاقوال قديمة كنت قد سمعتها منذ بدء الحرب الاهلية عندما كان حراس الارز يكتبون على الحيطان تصريحاتهم التي تقول: «على كل لبنان ان يقتل فلسطينيا».

ومع العهد الرئاسي الجديد عادت التصاميم المتعددة التي عمرها عشرات السنين بتطوير لبنان حضاريا وكشيء مقبول، فالوظيفة يجب ان ترتكز على المؤهل لا على الانتماء الطائفي، كما كان يقول بعضهم وفي المرة القادمة يجب انتخاب الرئيس بتصويت عام وليس بواسطة البرلمان، هذا ما قاله آخرون، ولبنان يجب ان يصبح دولة حديثة، حيث يَحلّ الجيش والمؤسسات التجارية والاحزاب السياسية، محل المجتمعات الدينية، وما تعود اليه من قبلية، هذا العامل الذي كان السبب الاساسي في تدمير لبنان القديم، ولكن هذه المسائل القديمة كانت لا تزال موجودة كان من المعقول ان لا يكون لبنان لا سابقا ولا لاحقا دولة، ان التعريف القديم، للبنان، هو «انه المكان حيث يمكنك ان تجد كل شيء، إلا الدولة»، وبهزء يائس كان يجاهر بعض اللبنانيين «لنعيد الاتراك، لأن العثمانيين كانوا يهتمون بحفظ النظام، والقانون، وجباية الضرائب، ولو انهم كانوا لا يهتمون إلا قليلا في المتفرعات التي تُبنى بها دولة حديثة، بيد ان هذا هو في الحقيقة ما يريده اللبنانيون، الذين فعلوا كل ما كان مسموحا به لتأمين العيش والعمل والازدهار دون ان يبالوا بأن يكون هنالك قوانين، مثل هذه الافكار تبدو سخيفة فقط لأولئك الذين لا يعرفون لبنان، للذين لا يعرفون ان مشاكل لبنان كلها، كانت المسلم مقابل المسيحي،

بكل شيء، وبين الجزء المسلم في البلد هناك الاكثرية الشيعية التي تطالب بالاعتراف باعدادها وقوتها، واحترامها، ولكن على حد قول احد الوزراء السابقين، ليس من رئيس وزراء سني يستطيع ان يقبل بالتعديلات التي لا ينفك السياسيون الشيعة عن المطالبة بها، وعلى ضوء هذه الاقوال كتهديد للمسيحيين، وانذار يدفعهم للتمسك بشرعية وجودهم. فأن دولتهم ضمن الدولة التي بناها بشير الجميّل وفقدت الان قيادته، قد أصبحت فيدرالية من مجموعة مقاطعات اقليمية ومطامع شخصية تمسك بعضها بالبعض الآخر، داعية لتعاون لاغنى عنه، ان لديهم اشياء لا ولن يتنحوا عنها اذا تمكنوا من الاتفاق معا. غير ان القوات اللبنانية لم يظهروا أي استعداد للتخلي عن جمع الضرائب من الموردين اللذين يكفلان لهما الدخل الذي عليه يتوقف دوام وجودهم، لقد كان من السهل التوقع ان الدولة، حتى تلك التي يريدها رئيس كتائبي، ستصطدم مع القوات اللبنانية عاجلا أم آجلا، ومرة ثانية يقدم لنا التاريخ مفتاحا للحل، اذ من اكثر من مئة سنة كانت المعارضة المركزية للسلطة في لبنان تأتي من الموارنة، وليس من حكومة اجنبية، غربية كانت أم عربية، ثم أي مهاجر ترى سيكون راغبا باغراق امواله في لبنان، بأعادة البناء، ما دامت القوات اللبنانية مستمرة في الاستيلاء على عائدات الدولة، ففي خريف سنة ١٩٨٢ قدّر خبراء الامم المتحدة ان لبنان قد تضرر بما قيمته من ١٢ - ١٥ بليون دولار منذ سنة ١٩٧٥، اذ ان خدمات الترانزيت التي كانت في وقت ما مزدهرة مع العالم العربي في الداخل، تعتبر الآن ميته، لم يقتلها الحرب وحده، بل أيضاً عدم الكفاءة المتناقضة في مرفأ بيروت، والمنافسة التي تحصل في موانيء جديدة مبنية من عشرات السنين، في سوريا، وتركيا، والعراق، والعربية السعودية، والخليج، كما تبدو اسرائيل مصممة على زيادة تسللها الاقتصادي إلى جارتها، وعدم رغبتها بغلق الحدود معها، أو وضع القيود الرسمية على الحدود. وفي السياق الطويل ليس من المؤكد ان القوات اللبنانية وحزب الكتائب سيكون بأمكانها وضع اليد كليا في القريب على المجموعات المسيحية، وحتى على الموارنة، واذا كان الماضي يعلمنا كل شيء فأي اتجاه للسلام، يمكن ان يشجع العديدين ان لم نقل العشرات من الاحزاب السياسية المارونية للظهور، ومما جاء في مقولة سياسية لبنانية «ليس كل اللبنانيين مسيحيين، وليس كل المسيحيين موارنة، وليس كل الموارنة كتائب» ان موسم الهذيان حول الاجتياح الاسرائيلي جعل بشيرا يستعيد بذاكرته ولو

باختصار، تلك المقولة، وبوقت قصير من النشاط، تمكن من ان يجعل الكثيرين من اللبنانيين، ان لم نقل كلهم، يعتقدون انهم ان لم يكونوا كلهم كتائب فهم على الاقل « بشيريون » هذه كانت مسطرة الاحلام لتلك الاسطورة التي تبلورت في نفوس القوات اللبنانية وتعمقت في دراسة شخصية بشير، هناك ايد صنعت صورا كبيرة لبشير، الرئيس الشهيد المقدس، في القطاع المسيحي، وفقرات من اقواله كانت تذاع بصوت عال في مناسبة عيد ميلاده الخامس والثلاثين؛ وفي اليوم الاربعين بعد موته، اقيمت مناسبات دينية من المسيحيين والمسلمين على السواء لصلاة عن نفسه، بينما اقامت القوات اللبنانية مهرجانا يمكن تشبيهه على حد قول الزوار الغرباء بالمهرجانات النازية التي وقع الشيخ بيار تحت تأثيرها، منذ ست واربعين سنة.

كل هذه الجهود للاحتفاظ بالقوة بما تبقى لبشير من ذكريات امجاد، اصبح امرا من الماضي مع العلم انه ليس في ماضي لبنان ما يشير الى انه كان بالامكان ان ينجح، ومهما كانت وعوده فأن بشيراً واتباعه عملوا كل ما كان عليهم (بينما يقول آخرون من المسيحيين القلائل مدعين بأنهم عملوا اكثر ما كان عليهم، في التسبب بسلوك اغرب الاساليب لانتحار لا مثيل له في التاريخ الحديث).

كل ما استطيع ان آمله بالنسبة لرغبة لبنان القوية للعودة الى امكانية الحصول على اموال هو هذه الكلمات اقدمها لهم هدية وهي « ان تستعيد البلاد على الاقل، اذا رأت مناسباً، واحدة من البواخر التي غرقت في المرفأ، أو ربما واجهة من تلك الواجهات التي كانت تظهر في شارعي فوش واللنبي في الوسط التجاري، أو ربما تلك الاعلانية المضاءة لاحدى شركات السياحة وهي اسطورية في صنعها وشكلها، اني لم اجسر ان افتح مكالمة هاتفية على الرقم المطبوع على حائط تلك الوكالة خوفا من ان يلقى في مسامعي ما لا احب معرفته، ان مواقع الخراب يجب ان لا تكشف خفاياها أو ان ينقب على اسرارها، ولكن اختيارا واحداً قد يكون ذكرى اكثر ملائمة لسنوات لبنان الزاهرة هو الاستعاضة عن تلك التماثيل البائسة في ساحة الشهداء التي اخشى ان يعود لبنان مرة ثالثة الى اقامتها بأقل ما يمكن من الذوق السليم، ولو كنت املك عصا سحرية لكنت اعيد السينمات الفخمة، والمطاعم، والمكاتب، والجوامع، والكنائس ودور الصحف، والكباريهات، ومخازن الادوات المنزلية، وبارات التسلية، وعلى الاخص الاسواق التجارية التي كانت

تشكل الفوضى المستحبة، في قلب بيروت التجاري، في ساحة الشهداء أو حولها، ولكنت املأها باولئك الناس اصحاب المخططات، والاحلام، والعاهرات المصريات، وكهنة الموارنة، واصحاب العربات من السنيين، والسياسيين البرلمانيين المتنافسين، واصحاب البنوك وعمال البناء السوريين، كل هذه المساطر من المجمّع الانساني، اذ ليس عندي ما هو احب من هذا الشرق القديم «الحي الشمالي في الاسكندرية» يجب ان يعود الى الحياة، حيث استطيع ان اصرف الوقت المطلوب للتلذذ بمرأى احدى عجائب الدنيا، ولو اني استطيع لكنت اعمل على اعادته الى الحياة لاعيد الى لبنان حياته، أين تلك الطرقات الملتوية واضواء النيون، والبسطات، ومجموعة عربات الاجرة التي تقف وراء ذلك، ان كل هذا يبدو تمنيات مذهلة، خصوصا عندما تكون صادرة عن غريب، ولكن هل من مكان سوى الوسط التجاري ما يمكن ان يلتقي فيه اللبنانيون مع الاجانب ويتحادثون، ويلعبون، ويمارسون الحب، ويتعلمون كيف يكون التعايش بين الناس؛ لُفَّ المنعطف، واقطع الشارع من جهة الى اخرى، وافتح بابا وتمشَّ في الاسواق مدة ساعة، ترَّ الدنيا المتغيرة، هذه كانت العوالم التي استغرق جمعها مع بعضها بعضا اجيال، وستكون المهمات اكثر صعوبة مما يستطيعه العمال في البناء، أو ما يمكن لبرلمان قديم ان يحققه، لأنه هناك وفي المنطقــة التجــاريــة تلاقت، العوالم اللبنانية، قبل ان يلجأ اللبنانيون الى الانكفاء في مجتمعاتهم وتعصبهم وحفيظتهم المميتة، هذا المزيج في اختلاط البعض مع البعض الآخر يجعل من بيروت اناء لاذابة الاشياء ومزجها لتعمل منها مدينة اكثر مدنية في المدن، تقيَّم تقييما عاليا لأدعائها المزيف بالتعددية الجنسية والتسامح والديمقراطية والحرية، وليسمح لي الشيخ بيار ان اقول اني افضل له ان يبقى الخواجا «كوندوم» في صيدليته في ساحة الشهداء بالقرب من اماكن اللهو بدلا من الاب المحزون المفجوع كما اصبح الآن.

في خريف سنة ١٩٨٢ قال الشيخ محمد مهدي شمس الدين نائب رئيس المجلس الشيعي الاعلى «كلنا مذنبون بطريقة أو اخرى، لأننا خلقنا جوا اوجد الازمة التي لم يهدئها الاجتياح الاسرائيلي»، انها المرة الاولى على الاقل، حسب معلوماتي التي يعترف فيها زعيم لبناني كبير، بمسؤولية جماعية لما حصل، كان لاعترافه هذا، اكثر من تأثير علي، من «الترجمة الجديدة» التي هي وسيلة يلجأ اليها اللبنانيون دائما لتهدئة نفوسهم، وهي عبارة «لا غالب ولا مغلوب» ولو اني سمعت ولو بصورة غير واضحة من مسيحي

لبنان من مثل من هم في مكانة الشيخ شمس الدين، لكنت اكثر تفاؤلا بمستقبل بلد احبه وأخاف عليه في وقت واحد، لست وحدي «توما المشك» لقد كان هذا يحصل في فترات متعاقبة منذ قرن ونصف، ومما قاله لي صديق مسيحي «ان ما يثير قلقي ان هذه التيارات العاصفة عمرها الآن فقط عشر سنوات، ولا ادري اذا كنت في الحقيقة راغبا في ان ابقى هنا الى ان تأتي الجولة القادمة من العنف». عند اللبنانيين اختيار واحد على الاقل فالبلاد قبل كل شيء بلادهم، ولكن بالنسبة للاسرائيليين .... وللامريكان، فكل شيء كان تخبيصا في الوحل دونما امل، رغم شهور طويلة من الانشغال المضني بسحب الجيوش، لقد احترقوا جميعهم، بطرق لم يتصورها احد منهم في الشهور القليلة السابقة. فالفلسطينيين تخلوا عن دولتهم ضمن الدولة، وخسروا المئات من الرجال، بينهم ضابطان كبيران في الحرب، والقوات الفلسطينية المحاربة توزعت في الزوايا الاربع من العالم العربي دون سلاح، وفي شبه اقامة جبرية تقريبا، وحكومة الولايات المتحدة لم تظهر رغبتها للتحدث مع عرفات، أو على الاقل للحوار معه، بأكثر مما كان في السابق، بغض النظر، عن عادة منظمة التحرير الفلسطينية العجيبة، بأعتبار كل فشل عسكري، نصراً سياسيا، وبعض المحللين، ومن المحتمل ان يكونوا تسرعوا، يعتقدون ان الاسرائيليين اسدوا الى عرفات خدمة، اذ حققوا له ما لم يكن قادرا على تحقيقه بنفسه، إبطال مبدأ الكفاح المسلح، الذي غطّس المنظمة الفلسطينية في المغطس الحار كل هذا الوقت، ان مبدأ الكفاح المسلح ضد اسرائيل، كان قد ساعد عرفات وشركاءه لأن يتولوا المنظمة بعد الانكسار العربي المذل في حرب الايام الستة، وقد قوّى مناعة الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين، غير ان الكفاح المسلح لم يهدد اسرائيل فعلا، بل على العكس، اعطى لاسرائيل الوسيلة لزعزعة لبنان، وبالنتيجة لتحطيم الجهاز العسكري الفلسطيني، وربما احدى المبررات التي لم تذكر وهي حماية المدنيين الفلسطينيين في المخيمات اللبنانية ضد النزعة الاجرامية عند المسيحيين المحليين، اذ مع اعداء مثل المسيحيين والاسرائيليين، وكلاهما يرغب في نقض تعهداته، فمذهب الكفاح المسلح كان المبرر الوحيد لمذبحة شاتيلا، إن شارون كان قدصمم على تدمير الالفي مخرب في مخيمات بيروت الغربية، (الذين تبين فيما بعد انه لم يكن لهم من وجود هناك بل كان مجرد خدعة اعلامية) ودفاع منظمة التحرير العنيد ثم استشهاد المذبوحين، ساعد كثيرا على نشر القضية الفلسطينية الى حد ابعد من

كل ما استطاعته الهجمات التي قامت بها ضد اسرائيل عبر السنين، حتى الشيخ غولد ووتر، وهو ليس من المعجبين بمنظمة التحرير قال: « ان تصرفات بيغن جعلت من عرفات انسانا يبدو وكأنه كشاف».

ان اصدقاء عرفات في الغرب كانوا يقولون له منذ سنوات ان يتخلى عن الكفاح المسلح، ويركز على الكفاح الديبلوماسي، اما الآن، بقيادته الملطخة بالأخطاء في منظمة التحرير الفلسطينية، فهو على مفترق طرق شديد الخطورة، انه لم يكن في تقدير الفلسطينيين قدرة على الحصول على دولة فلسطينية مستقلة، تحت الكفالة، في الضفة الغربية وغزة، وهذا ما اقره مخطط ريغن، ومن المعقول ان الامريكان، مع الوقت سيبدو انهم قاموا بخدمة غير مقصودة لمنظمة التحرير باجبارها على قبول الفكرة القائلة، بأنه يجب ان يكون لها نوع من العلاقة المستقبلية مع الاردن، وان الخطر بالتأكيد كان، إن عرفات والمعتدلين من رفاقه يحتمل عزلهم، ووضع قيادة منظمة التحرير في ايدي شباب اكثر تطرفا.

إن من الحكمة ايقاف اسرائيل عن تحصين ما بقي من الضفة الغربية، فهذا اكثر واقعية من التمسك بما هو مستحيل. ان شارون وبيغن كانا يقدران مثل هذه النتيجة بغزوهم لبنان، وهي ان تقع منظمة التحرير المغلوبة في مثل اغلاط سنتي سنة ١٩٦٠ - ١٩٧٠. وتزج بنفسها بعمليات من التخريب التي أساءت للقضية الفلسطينية، ولكن في المجلس الوطني الفلسطيني أو البرلمان غير الرسمي في المنفى الذي عقد في الجزائر في شهر شباط، رفض عرفات بأسم منظمة التحرير المقدسة ان يأخذ مثل هذا الاتجاه، وبدلا من ان يشق صفوفه، اذ امامه ان يتسعيد انفاسه بعد خسارة بيروت المعقل الحصين، سمح للمتطرفين ان يقولوا ما يشاؤون، وكل ما عمله انه كان يهيء لمناورات مستقبلية.

اما من وجهة نظر اسرائيل فقد كان من الممكن الحكم على هذه الحرب انها على الاقل،من الوجهة العسكرية، ناجحة لو ان طموحاتهم في لبنان لم تكن كبيرة الى هذا الحد، كان الاسرائيليون متأكدين من تحقيق تجريد خمسة وثلاثين كيلومتر تقريباً على طول حدودهم الشمالية،من كل انواع الاسلحة الثقيلة، وهو ما لم يكن مفترضاً قبل عملية

سلامة الجليل، ولكن في السياق الطويل لا بد من التساؤل « هل حققت اسرائيل اهدافها العسكرية؟ » ان امين الجميل الذي يلقى الدعم من الولايات المتحدة الاميركية، والذي لم يكن مديناً لاسرائيل بشيء، كما كان اخوه بشير، كان قد رفض عقد معاهدة سلام، ثم هل كانت عملية اسرائيل الحربية انتصاراً باهظ الثمن؟ الذي ظهر ان الولايات المتحدة وحدها قد استفادت من خروج الفلسطينيين من لبنان بيد ان الاميركان لم يكونوا يميلون الى قبول نظرة بيغن بخصوص مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة، ان شارون كان يدعي انه هو الذي مهد لجلاء الفدائيين منقذاً حياة مئات الفلسطينيين، ولكن لقاء ثمن باهظ وفضلاً عن ذلك لم يعد الفلسطينيون العنصر المشاغب في لبنان. ان منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت قد اصبحت على حذر متزايد لم تكن طرفاً باللعبة، واللعبة نفسها لم تعد قائمة، فلاي سبب اذا تريد اسرائيل خمسة وثلاثين كيلومتراً بالعمق مجردة من السلاح ما دام ان منظمة التحرير الفلسطينية قد خرجت؟ والاسرائيليون اثبتوا انهم استطاعوا ان يفككوا بل ان يفوقوا السوريين فيما ارتكبوه من اخطاء في لبنان، اخطاء في كل شيء من السرقة إلى محاولات سياسة « فرق تسد » ولكن مع كل يوم كان يمر، كان الرأي العام وكان التساؤل يتزايد بحرارة عما اذا كانت المخاطرة في لبنان، لم تكن قد دفعت بلادهم الى مستنقع، ان المسيحيين اللبنانيين،والشيعة المسلمين، الذين رشّوا بالارزّ وماء الورد الجيوش الغازية في حزيران، باتوا يقذفونهم بالشتائم وليس فقط من ورائهم، وفي تشرين الثاني سنة ١٩٨٢ فأن الجنرال ايتان، الذى كان في لبنان، اجمل القول في التلفزيون الاسرائيلي، « بأن الشعور اللبناني الدي كان حارا منذ شهور قليله، بدأ الآن يبرد بسرعة، ان وجودنا بات يشكّل عندهم احتلال غير مرغوب فيه » وكان من المعقول ان يضيف، انه كان ايضاً كبير الكلفة، فلم يمض يوم دون حصول خسائر اسرائيلية جديدة، ان دبلوماسياً امريكياً لا يزال يتذكر كارثة الهند الصينية، ذكرى قالها بمرارة واضحة وبأيجاز « يجب على الاسرائيليين ان يطلقوا على هذا المكان اسم لبنام بدلاً من لبنان» (على وزن فيتنام).

ان تقرير كاهان الذي صدر في مطلع شهر شباط سنة ١٩٨٣ وضع المسؤولية على اسرائيل، لما كان قد حدث في شاتيلا. والساخرون كانوا يؤكدون ان التقرير قصد به في الدرجة الاولى ايقاظ الضمير الاسرائيلي، انه يتعلق بالمذبحة وليس بنقض التزامات

الحكومة فيما تعهدت به الولايات المتحدة بأن لا تدخل الى بيروت الغربية؟ ان لم نقل شيئاً عن الاخلاقية التي رافقت هذه الحرب، والذين يساندون اسرائيل كانوا يرون فقط انه من النادر ان تجرؤ دولة اخرى على هذا التصرف خصوصا اذا كانت تعتمد على غيرها الى حد بعيد، ولا يخفى على احد ان ليس لبنان هو ما نعنيه، حيث أن التحقيقات لم تكن موجهة الى جهة ما، ولن تكون مثل هذه التغطية كافية، ان المجرم الرئيسي الذي هو اريل شارون استغرب روحية التقرير وما جاء فيه في صفحاته المئة وثمانية، ودفعه للاستقالة من منصبه كوزير دفاع، ليستمر بلا مبرر وزيرا بلا وزارة، ويلتحق بلجنتين برلمانيتين رئيسيتين مهمتها التعاطي بشؤون لبنان والدفاع عنه، وقد اوضح شارون ان هذا كان اسلوبه واسلوب بيغن في الاحتيال لينقض ما جاءت به هيئة كاهان كأثبات لمسؤولية اسرائيل غير المباشرة عن المذبحة، انه في الواقع لم يحصل سوى على علامة قايين، التي قيل انها ستلطخ سمعة اسرائيل لاجيال، وشارون المشاغب المستخف بالامور، والواثق من نفسه، تفادى آنيا الفشل السياسي، الذي كانت اسرائيل والدول الاجنبية وحكومة الولايات المتحدة الامريكية على الاخص، تأمل ان يكون نصيبه غير انه من المستغرب انه هو وبيغن تباهيا بكونهما، استطاعا استقطاب المجتمع الاسرائيلي كنتيجة للحرب اللبنانية، والمذابح؛ ولما كان له من ردود فعل على جنودها؛ فها ان حزب العمل المعارض لا يزال عاجزا عن ايجاد بديل لذلك القذر شيمون بيريز، وهذا بيغن يبدو متأكدا من ربح الانتخابات في السنة القادمة، عندما يصرح بأنه يفضل اجراء انتخابات في هذا الوقت بالذات، وليثبت عدم رغبته في التنازل، تولى هو وزارة الدفاع، مع موشي ارنز السفير في واشنطن الذي كان برغم، انه دبلوماسي، واحدا من الصقور في كثير مما قام به شارون.

ان بشير الجميّل لم يخش القول «بأن لبنان قد يكون من السهل ابتلاعه ولكن ليس من السهل تصريفه» ان الرأي العام الاسرائيلي بدا مستعدا ليكون في اكثريته راضياً عن شارون وبيغن لولا انه من جهة ثانية كان مستاء من الخسائر التي تقع بسبب الوجود العسكري في لبنان، قد يكون بسبب ذلك ان سلمت اسرائيل سعد حداد كل جنوب لبنان حتى مدينة صيدا في شباط الماضي انها واحدة من مداورات إسرائيل، سنة ١٩٧٨ بتركيز الضابط المخالف في جمهوريته المسماة «جمهورية سعد حداد» وهو عمل صفعت به

الولايات المتحده والامم المتحدة. لم تنقطع الولايات المتحدة عن ارسال حبيب الى الشرق الاوسط، بهدف ارغام بيغن على الموافقة على سحب جيوشه، ان سمعة الرئيس ريغن كانت متوقفة على هذا، والدبلوماسيون الاميركان كانوا يؤكدون جهارا انه لا يمكن عمل أي شيء في الضفة الغربية وقطاع غزة، ما لم تستعيد الولايات المتحدة الامريكية علاقاتها السياسية مع الدول العربية المعتدلة، اصدقائها، باجبار اسرائيل على الخروج من لبنان، ومن جهة ثانية فالحكومة الامريكية كادت تلطخ صورتها، مع الدول العربية المعتدلة، عندما اقر مجلس الشيوخ، اعطاء اسرائيل مساعدة بمبلغ ٢٢٥ مليون دولارا اكثر مما كان الرئيس قد طلب، ومجلس الشيوخ، وافق أيضاً على زيادة المساعدات العسكرية والاقتصادية لاسرائيل، معارضة لريغن، معتبرا ان سبعماية وخمس وثلاثين مليون منها هي عبارة عن منحة اقتصادية، ثم زادت قسط المنحة، التي هي بليون وسبعماية الف دولار بصورة مبيعات حربية، من خمسمئة الى سبعماية مليون، في شهر شباط الماضي ظهر في عملية اتخاذ الرأي ان الامريكان تجاوزوا استياءهم الذي ظهر في الصيف واسرائيل ستبقى في نفس المقام المعتبر الذي كان لها قبل ان يقوم شارون بغزو لبنان.

ولو ان شارون استمر بتقوية نفوذه، وبالنتيجة اقدمت اسرائيل على قضم جزء من لبنان، بيد ان عرفات كان نصف محق، ففي امر يومي الى جيوشه ومكاتب منظمة التحرير في شهر تموز نقل عن التوراة، العهد القديم، ما يلي ان العنف في لبنان سيرتد عليكم اقرأوا القول في سفر حيقوق ٢ : ١٧ إلى اخر الجملة.

الملحق ـ يكتبه المترجم ـ فندي الشمار

وبعد ان قرأتم ما جاء في كتاب جوناثان ـ س ـ راندال الذي يعود نشره الى ١٩٨٣/٣، فلا بد لي، وبعد انقضاء اكثر من سنة على تاريخ صدوره باللغة الانكليزية، في نيويورك، ان آتي، في آب ١٩٨٤ تاريخ صدوره مترجما باللغة العربية في بيروت، على ذكر ما حدث في لبنان خلال سبعة عشر شهرا، ولو بايجاز كلي، في المحاولة للاجابة على تساؤلات من هنا وهناك تتناول مصدرين:

الاول: توقعات راندال.

الثاني: توقعات لوردات الحرب في مارونستان واسرائيل وامريكا وذلك باستشفاف ما جرى على الارض خلال هذه المدة، من خلال ما نشر في الصحف أو في وسائل اعلام اخرى. فقد يساعد ذلك على الكشف عن تغييرات حصلت حتى تاريخ آب ١٩٧٤ وهو الوقت الذي بدأت تلوح فيه ومضات من الأمل في اعادة السلام الى ربوع لبنان، الوطن الذي اعلن راندال «ان كل شيء فيه قد سقط» كما هو عنوان الفصل السابع والاخير ـ لنبدأ بتوقعات راندال ـ المؤلف، الذي كان يفخر بأن ما تنبأ به في سنة ١٩٨٤ من احداث. تحقق في سنة ١٩٧٥، وانه يفاخر بأن لا يكون، كما نعته به اولئك اللبنانيون الذين ابعدوه عن لبنان ومنعوه من الدخول اليه، هذاراً بل صادق الرؤيا.

فما الذي يتوقعه راندال ـ

١ ـ انه من المستحيل ازالة الحقد من نفوس اللبنانيين.

٢ ـ ان المسيحيين كانوا دائماً عاجزين عن ادراك الحقائق.

٣ ـ ان الارضية لكل سياسة لبنانية هي الطائفية.

٤ ـ ان الاسرائيليين سيلاقون في لبنان ما لاقاه الامريكان في فيتنام ولذلك اقترح عليهم تسمية لبنان لبنام على الوزن والقافية.

٥ - ان اسرائيل كانت تتوقع ان يتخلى عنها المسيحيون، وان يغدروا بها، تماما كما فعلوا مع السوريين.

٦ - كان يعتقد ان اسرائيل كانت تخدع اميركا، ويردد ما سمعه مرة عن اسرائيلي « ان اميركا تعطينا المال، والسلاح، والنصائح، ونحن نأخذ المال والسلاح ولا نعمل بالنصائح ».

٧ - كان يتوقع ان لا يستمر بقاء المسيحية في الشرق الاوسط طويلا.

٨ - أن هذه التشكيلة الجغرافية والديموغرافية التي يتكون منها لبنان لا يمكن أن تقوم فيها دولة واحدة.

٩ - توقع ان يكون في لبنان عدد من الدويلات هي:

١ - مارونستان.

٢ - درزيستان.

٣ - شيعيستان.

٤ - سنيستان.

٥ - فلسطينيستان.

١٠ - يعتقد انه لو اظهر المسيحيون شيئاً ولو قليلاً من الليونة او تذوقوا جرعة صغيرة من الانسانية لكانوا يستطيعون استمالة المسلمين اليهم بسهولة.

١١ - تبين له ان المسيحيين لم يكونوا بعد تسع سنوات من الحرب اشد غيرة على لبنان من المسلمين.

١٢ - تبين له ان سني الحرب شكلت حاجزاً منيعاً بين شطري بيروت، أو بين المسيحيين والمسلمين، بحيث ان الاجيال الناشئة اصبحت تجهل بعضها، واصبح من هم في هذا الشطر من المدينة، يحقد على من هم في الشطر الآخر، فابن عشرين سنة فما دون في الشطر الواحد لا يعرف شيئاً عن نظيره في الشطر الآخر.

١٣ - يتوقع انه بمجرد ان تفتح الاسواق ابوابها ويعود النشاط الى ساحة الشهداء، فسيعود كل شيء الى ما كان عليه.

١٤ - ويتوقع ان يلغي اللبنانيون اسماء الشوارع القديمة اللمبي - غورو - كليمنصو -

فوش ويغان ـ لأن ذكراها لا تشرفهم.

١٥ ـ يتمنى ان تعود بيروت إلى ما كانت عليه قبل سنة ١٩٧٥، محطة رحال رجال الصحافة والسياسة والاستخبارات والمال الخ.

١٦ ـ كان يعجب كيف ان شارل مالك وهو الاستاذ الكبير الكاثوليكي كان اكثر مارونية من الموارنة، حتى استغل صداقاته الامريكية فجاء بالاسطول الاميركي الى الشواطيء اللبنانية مرتين ١٩٥٨ و ١٩٨٤.

١٧ ـ كان يعتقد ان لوردات الحرب في الغيتو المسيحي كانوا يترجمون ما يسمعونه من امريكا على هواهم فيضلون ويضللون جماعاتهم وربما عن قصد وسوء نيه.

١٨ ـ كان يعرف ان امين الجميل اقل تصلبا من بشير الجميّل والين عريكة. هذا كان بعضا مما توقعه مؤلف الكتاب فما الذي كان يتوقعه لوردات الحرب في الغيتو المسيحي.

١ ـ ان لبنان سيكون بكامله ١٠٤٥٢ كلم[٢] للمسيحيين وحدهم.

٢ ـ ان يقتسموا الغنائم مع اسرائيل.

٣ ـ ان اميركا والغرب المسيحي بالاضافة الى اسرائيل يقفون جميعهم وراء المسيحيين.

٤ ـ ان نظام الاقليات (النظام الملّي) سيمنح الموارنة سيطرة مطلقة على سبعة ملايين مسيحي في الشرق الاوسط.

٥ ـ كان بشير يتوقع ان تستمر القوات بعد موته في تحقيق الاهداف.

٧ ـ توقع لوردات الحرب ان لا يصمد الفلسطينيون امام الزحف الاسرائيلي في بيروت، وان يستسلموا دون مقاومة.

٨ ـ توقعوا ان لا تنشر الصحف العالمية اخبار ما ارتكبوا من فظائع وجرائم.

٩ ـ توقعوا ان يتخلص المسيحيون من عقدة الخوف التي لا تزال تلاحقهم من زمن الاتراك العثمانيين ويتمكنوا من التسلط والهيمنة على كل السلطات في لبنان، ويقطعوا كل علاقة لهم بسوريا والعالم العربي.

١٠ ـ كانوا يرمون الى ايجاد ارضية سليمة لخلق تاريخ يربطهم بالفينيقيين، ولم يكن غريبا ان نسمع ان احد ادبائهم يجاهر بأنه وان كان عربي اللسان، فهو غير عربي الاصل.

١١ ـ توقعوا ان لا يتخلوا عن سلاحهم إلاَّ بعد خروج كل سوري وفلسطيني واسرائيلي من الارض اللبنانية.

١٢ ـ لم يتوقعوا خروج اسرائيل من لبنان في وقت قصير ولذلك كانوا يصرحون بأن لأسرائيل الحق في اختيار أي مكان من لبنان للاقامة فيه.

١٣ ـ كانوا دائماً يهدفون الى توزيع الفلسطينيين المقيمين في بيروت على الاقطار العربية.

١٤ ـ كانوا يعتقدون ان امريكا واسرائيل ستحاربان عنهم ثم تتركانهم يتنعمون بالغنائم.

١٥ ـ كان بشير يتوقع ان يجعل زحلة خاضعة لنفوذه وبذلك تتم سيطرته على كل المسيحيين في لبنان ثم يتحقق حلمه، بنظام الاقليات.

١٦ ـ كانوا يعتقدون انهم بمجرد دخولهم الى الجبل بحراسة الدبابات الاسرائيلية سيتمكنون من تحقيق احلامهم بالهيمنة على ١٠٤٥٢ كلم٢ بعد اقامة ثكنات لهم في كل مكان من الجبل وقطع اتصال القرى الدرزية بعضها بالبعض الآخر.

أما توقعات اسرائيل قد كان منها ما يأتي:

١ ـ توقعت ان تنهي الوجود الفلسطيني في لبنان كعنصر يهدد مستوطناتها الشمالية في الجليل ولذا اطلقت على هذه الحرب اسم «حرب سلامة الجليل».

٢ ـ توقعت ان تستميل المسيحيين كلهم الى جانبها، وجعلهم يحاربون معها ومن اجل مطامعها ويعملون لصالحها في شتى الحقول.

٣ ـ كانت تأمل ان يتم لها تقسيم لبنان الى كانتونات طائفية. وبذلك تسقط فكرة التعايش المشترك بين الطوائف، داحضة بذلك مزاعم الذين كانوا ينادون بايجاد فلسطين علمانية تتعايش فيها العناصر المختلفة تحت علم واحد.

٤ ـ لما كانت اسرائيل تحلم بأن تصبح امبراطورية فقد كان يهمها ان تقيم علاقات لها مع لبنان كعلاقاتها مع مصر وما تأمل ان يتم مع الاردن.

٥ ـ توقعت ان تعقد معاهدة سلام مع لبنان بلا ابطاء.

٦ ـ وتوقعت ان تتمكن من الحد من الانتشار السوري في لبنان.

٧ ـ بذلت الكثير لاجتذاب سعد حداد اليها وحرصت على احياء علاقتها بواسطته مع

مسيحيي لبنان في الجنوب من لبنان وفي شماله.

٨ - حاولت ان تجعل الدروز يوافقون على انشاء الدولة الدرزية حاجزاً بينها وبين سوريا.

وكانت توقعات الولايات المتحدة الاميركية:

١ - ان يتم حلمها القديم الذي عرفناه سنة ١٩٥٨ باتخاذ قواعد لها في لبنان فارسلت اسطولها وجنودها المارينز الى الشواطيء اللبنانية في سنة ١٩٨٤ كما كانت قد فعلت في سنة ١٩٥٨ وكان شارل المالك هو العراب الاول.

٢ - توقعت انها باستمالة مسيحيي لبنان اليها كما تحافظ على مصالحها في لبنان وفي الشرق الاوسط كله.

٣ - وتوقعت ان لا ترتفع يد لمقاومتها وهي تملك السلاح والمال والرجال ونيوجرزي.

٤ - كانت تؤمل ان تؤمن مدخلا لها الى الشرق الاوسط حيث البترول ومصالحها الاخرى عبر لبنان لأن تأمين ذلك عبر اسرائيل امر شديد الحساسية.

★ ★ ★

هذه بعض التوقعات للاطراف المعادية للجبهة الوطنية في لبنان التي تؤمن بعـروبتهـا وبضرورة ابقاء لبنان خارج دائرة النفوذ الخارجي. فماذا كانت توقعات الجبهة الوطنية التي تؤمن بعروبتها.

١ - ان احلام لوردات مارونستان ستتبخر عاجلا ام اجلا ويدركون انهم على خطأ.

٢ - ان اسرائيل ستفشل باعتقادها ان المسيحيين سيكونون كلهم في ركابها ورهن اشارتها.

٣ - ان اميركا ستندم على زج نفسها في المستنقع اللبناني اذ ستعود بها الذكـريـات الى ما كان في فيتنام.

٤ - ان لبنان لا يمكن الا ان يكون عربيا في انتمائه، وصديقا لسوريا الشقيقة، التي لا يمكن ولا يجوز ان تكون علاقته معها عدائية او فاترة أو شبيهة بعلاقاته مع الدول الاجنبية الاخرى مثل اميركا واسرائيل.

٥ - ان لبنان في ١٨٦٠، واجه مثل هذا الاهتمام الاوروبي بشؤونه، وان الاوروبيين خرجوا منه بخفّي حنين.

٦ - ان اللبناني يعرف كيف يواجه مشاكله دون ان ييأس أو يمل، أو يخاف الموت والانهيار، وان اصحاب النزوات من ابنائه لا بد وان يعود اليهم صوابهم في النهاية فيأخذوا بالمبدأ القائل: «جارك القريب ولا اخوك البعيد».

هذه التوقعات لو امعنا النظر فيها واستعرضنا ما جاءت به الايام بعد ١٩٨٣ لبدا لنا الحاجز واضحا وظهرت نتائج الاضطرابات والتدمير والقتل والمذابح فتصفع اولئك الذين كانوا دائما يراهنون على الغريب لتحقيق احلامهم الوهمية واما لهم وامانيهم اللامعقولة اذ لكل ارض طبيعتها ولكل شعب طابعه المميز، ولبنان عبر العصور كان كما هو اليوم بفئاته وطوائفه وقد استطاع البقاء ولم تتعرض به فئة أو طائفة للإبادة مع علمنا، مما ورد في التاريخ، ان الاضطهاد ومحاولة الابادة لفئة أو فئات كان يتكرر عبر الدهور وبقسوة لا تقل عما عرفنا.

ألا ليت من يقرأ هذا الكتاب يقف عند ما كتبه المؤلف عن الزعماء اللبنانيين مبينا نقائصهم واخطاءهم فاذا كان واحدا منهم يرعوي عن غيه، واذا كان ليس منهم من يعتبر ويحذّر - لان توقعات الفرقاء لم تتحقق فالموارنة لم يتمكنوا رغم وجود اسرائيل الى جانبهم من الهيمنة على لبنان، ولا اسرائيل، استطاعت ان توقع معاهدة صلح معه ولا اميركا تمكنت من انشاء قواعد لها فيه وهكذا كان ما حصل من خراب ودمار وذبح هباء وذكريات مؤلمة.

فهرس

من هو المؤلف:

• إنه يدعى يوناثان ب. راندال من مواليد بفالو - نيويورك سنة ١٩٣٣، اختار الصحافة مهنة له بعد تخرجه من جامعة هارفرد وبعد خدمة محدودة في الجيش.

• بدأ عمله الصحفي مع «الصحافة المتحدة» في جريدة «نيويورك هاورلد تربيون» ثم في «تايم» ثم في «نيويورك تايمز» ومن ثم منذ ١٩٦٩ في «واشنطن بوسط» ككبير مراسلي الأخبار الخارجية.

• المستر راندال غطّى أخبار كل المناطق التي حدثت فيها اضطرابات في العالم: الكونغو، والجزائر، وفيتنام، وبولونيا، والحبشة، وطهران، والعديد غيرها. وقد غطّى أيضاً أخبار الشرق الأوسط لعشرات من السنين، وكان يغطّي، من بيروت بصورة دائمة أحداث الحرب الأهلية ١٩٧٥ - ١٩٧٦ وكذلك ١٩٧٧ - ١٩٨٢. كان في بيروت عند الاجتياح الاسرائيلي للبنان، وحصارها ودخولها، كما وأنه بقي فيها طيلة خريف وشتاء تلك السنة.

• المستر راندال عندما لا يكون في أحد مواقع الاضطرابات تجده في باريس.

